مطبوعات المجمع العلمي العراقي

تاريخ العرب

قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

الجزء الثامن

القسم الاجتماعي والثقافي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٧٨ - ١٩٥٩


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا الجزء هو الجزء الثامن من تأريخ العرب قبل الإسلام ، خصصته بالناحية الحضارية للجاهليين ، وأعني بها النواحي الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية وكل ما يدخل فى مصطلح الحضارة من معان فى نظر المؤرخين المحدثين .

ومواردي فى هذا الجزء ، هي مواردي المذكورة فى الأجزاء السابقة . وقد اعتمدت أكبر اعتماد على الكتابات الجاهلية منها ، فاستعنت بما ورد فيها من مصطلحات وألفاظ حضارية لتكوين رأي فى الحضارة عند الجاهليين . ولما كانت أكثر هذه الكتابات ، هي من كتابات أهل اليمن وحضرموت ، صار معظم بحثنا عن الحضارة هو فى البحث عن الحضارة فى هذه الأرضين . وقد أضفت الى الكتابات ما ورد فى كتب اليونان واللاطين والسريان عن العرب مما يدخل فى هذا الباب ، ثم ما ورد فى الموارد الأخرى المتقدمة الذكورة ، حتى تكونت منها هذه المادة المدونة فى هذا الجزء .

وقد أكثرت فى هذا الجزء من إيراد الألفاظ والمصطلحات الحضارية . فعلت ذلك لأنها المادة التى تكون رأي كل مؤرخ وباحث فى الحضارة عند العرب الجاهليين ، ولأنها أيضاً المادة التى جمعت منها هذا الجزء . وقد استخرجتها من الكتابات التى نشرت صورها

بـ « الفوتغراف » ، أو بـ « الحفر » أو بالطابع ، بالمسند أو بحروف عبرانية أو لاطينية أو بحروف عربية . وبعض هذه الكتابات مترجم باللغات الألمانية أو الانكليزية أو الفرنسية أو اللاطينية ، وبعضها منقول الى عربيتنا وهو قليل ، وبعضها غير مترجم ولا مصوغ بأسلوب عربيتنا . وقد كان كل اعتمادي على النصوص المدونة بالمسند ، إلا إذا تعذر الظفر به ، فكنت ألجأ مضطراً الى الكتابات المدونة بالأقلام الأخرى ، أقرؤها ثم أقابلها بترجماتها إن كانت مترجمة ، أو بما يقابلها فى عربيتنا ان كانت معرّبة ، لأثق بصحة الترجمة أو صحة النقل ، كي يكون العمل متقناً على نحو ما أحبّ .

وأنا أرجو أن تكون هذه الألفاظ الحضارية الواردة فى هذا الكتاب ، مادة صالحة مفيدة لاصحاب المعجمات ولمن يريد الوقوف على النواحي الحضارية للجاهليين أو الكتابة فيها .

وأريد بهذه المناسبة أن أكرر عن أسف طالما أعربت عنه في مواضع متعددة من الكتاب ، أسف سببه اعراض أكثر الكتابات الجاهلية عن الموضوعات الحضارية واقتصارها فى الغالب على تدوين الأمور الشخصية التي لا تفيدنا إلاّ قليلاً فى تكوين رأي فى الناحية الحضارية للعرب الجاهليين . وقد أدى هذا الإهمال لهذه الناحية المهمة إلى حدوث ضحالة فى علمنا بأحوال حضارة العرب وثقافتهم قبل الإسلام . وليس لنا الآن إلا الإنتظار ، فلعلّ الأيام توقظ الغُيُرَ من العرب الصادقين فى دفاعهم عن القومية العربية من هذا السبات العميق الذي يغطّون فيه ، فيشعرون أن عليهم واجباً قومياً تجاه تأريخهم الماضي القديم ، وأن عليهم على الأقل فعل ما فعله وما يفعله الغربيون من تقديم ما يلزم من مساعدات مادية الى علماء الآثار عندهم للذهاب إلى البلاد العربية والتنقيب عن آثارها والتأليف فيها . وفى العالم العربي اليوم نفر ، برّ بعضهم علماء الآثار الغربيين فى دراسة الكتابات الجاهلية وفى الاستنتاج منها . وقد وجهوا كل جهودهم وهمهم فى هذه الحياة الفانية الى الوقوف على تأريخ هذه الأمة فيما قبل الإسلام ، لنشره وبعثه . أفيجوز إذن إغفالهم وتركهم وحدهم بعيدين

عن مواطن الآثار وأماكنها ، وليس لهم حول ولا طول فى هذا النأى المكتوب والبعد المفروض عليهم ويا للأسف فرضاً .

لقد انتقدتُ مرّاتٍ بأني أكتب فى تأريخ العرب الجاهليين دون أن أكلف نفسي الذهاب الى مواطن الآثار ومواضعها كما يفعل الغربيون . وهو انتقاد حق وصحيح ، لو كان لي سبب ويد فى هذا الوضع . وأقول الآن وبهذه المناسبة ، وأنا مضطر إلى ذلك للدفاع عن موقفي : حاولت مراراً ومراراً فى السابق الاستئذان بزيارة مواطن الآثار في اليمن وفى المواضع الأخرى من شبه الجزيرة ، فلم أوفق . وكنت أقول دائماً للآثاريين الغربيين إنكم أسعد حظّاً مني ، إنكم تذهبون أحراراً حيث تريدون ، تزورون الآثار وتكتبون عنها ، أما أنا فمحروم من كل ذلك ، فهنيئاً لكم معاشر الغربيين .

بل أقول أكثر من ذلك ، ويا للأسف ، إني قد تعرضت منذ يوم صممت على نشر الجزء الأول من هذا الكتاب لمتاعب عديدة ، ولتثبيط في العزم ولحسد شديد . وكنت أجابه ، وهذا أشد ما كان يقع علي ويؤثر في نفسي ، بأقوال ، مثلِ : وما الذي ستكتبه فى تأريخ العرب قبل الإسلام ؟ وهل للعرب قبل الإسلام تأريخ ؟ . وكنت أتأثر من ذلك كثيراً ، لكنني كنت أفرح من أثره فى نفسي ، لأني كنت أزيد فى نشاطي ، وأزيد فى ساعات اشتغالي بهذا الموضوع ، وأنهك نفسي فى تتبع الصور التي تنشر للكتابات الجاهلية ، لأقرأها ، ولأفسرها ، ولأجد ما فيها من جديد يفيدني فى تدوين تأريخ الجاهليين .

لقد سألني سائل لئيم حسود حين شرعت في طبع هذا الجزء : كم سيكون عدد هذه الأجزاء؟ سأل ذلك في لؤم وحسد . ولأمثال هذا السائل أقول : لقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول وفي مقدمات الأجزاء التي تلته : إن الكتاب سيقع في أقسام ثلاثة . وأن كل قسم هو في أجزاء ، وإنه لذلك سيكون في أجزاء عديدة ، يتوقف عددها على سعة المواد التي ستتوفر

لدي وعلى البحوث التي سأتطرق إليها . وقدرت ذلك بنحو اثني عشر جزءاً ، يكون مجموعها أجمع كتاب ظهر في تأريخ العرب قبل الإسلام . وقد يزعج جوابي هذا السائل وأمثاله ، وأنا آسف إن وقع ذلك وحدث . ولو كان في مقدوري إزالة ما قد يزعج هذا وهؤلاء ، لفعلت كل ما أمكن فعله مسروراً فرحاً ، ولكني عاجز عن تغيير طباع الناس وتغيير ما بأنفسهم ، وليس لي إلا أن أرجو من الله شفاء هؤلاء مما ابتلوا به من داء اللؤم والحسد .

وأنا الآن نخور ونخور بانصرافي الى هذه الناحية من نواحي البحث ، وأحمد الله على اللحظة الأولى التي قررت أنا بنفسي يوم كنت طالباً بجامعة برلين الإنصراف الى دراسة اللهجات العربية قبل الإسلام ، ودراسة بعض اللهجات التي لها صلة بها مثل العبرانية ، لأكوّن منها المادة لكتابة تأريخ الجاهلية . وقد نجحت فى ذلك ، ومضيت قدماً في الدراسة فيما بعد فى جامعة « هامبرك » على يد الأستاذ المتخصص فى شؤون اليمن « شتروتمن » ، وعلى يد الأستاذ « ويندفور » في العبرانيات . ولولا وقوفي على تلك اللهجات ، لما أقدمت بالطبع على الكتابة فى هذا المهد الخطير من التأريخ .

ثم إني نخور ، باخواني وزملائي وأصدقائي الذين شجعوني ودفعوني وما زالوا على سنتهم هذه ، فى نشر بقية أجزاء الكتاب ، وما هذا الجزء فى الواقع والحق أقول إلا ثمرة عملهم وفضلهم ، أظهروهما لي تطوعاً وقربة الى الله والى العلم ، فلهم مني أجمل الشكر والثناء .

أما مادة الكتاب ، من معان وتعابير وأفكار ، فأنا المسؤول عنها وحدي ، وأنا المسؤول عن كل ما فيه من نقص ومآخذ ، ولا يلام على وجودها فى هذا الكتاب غيري .

هذا ، ولا بدّ لي فى هذا الجزء من إعادة شكر وتقدير سابقين أذعتهما فى الأجزاء المتقدمة ، وسأكررهما في كل جزء من أجزاء هذا الكتاب الباقية وفى كل مناسبة تسنح ، ألا وهما شكري وتقديري لأستاذي الأستاذ « محمد بهجة الأثري » ـ نائب رئيس المجمع العلمي العراقي الأول ، ومدير

الأوقاف العام ـ لمساعدته إيّاي فى قراءة مسوّدات هذه الأجزاء كافةً ، وإبدائه ملاحظات عليها ثمينة وآراء قيمة ، أفادتني كثيراً ، ونفعتني نفعاً كبيراً . وقد كان كما قلت من قبل صاحب الفضل الأول فى إخراج هذا الكتاب ، كما كان وما زال حريصاً على أن يصدر الكتاب فى أحسن حالة ممكنة شكلاً وموضوعاً ، وحريصاً أيضاً على متابعة طبع بقية الأجزاء ، وأنا أثبت هذا فى هذا الجزء أيضاً على سبيل الإيجاز ، تقريراً للحق ، واعترافاً بالفضل لأصحابه ، راجياً أن أكون موفقاً فى فهم المادة وفى عرضها للناس ، و « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكل امرىء ما نوى » .

جواد علي

الفصل الأول

المجتمع العربي الجاهلي

المجتمع العربي الجاهلي : بدو وحضر . أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى فى هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى .

وحياة الحضر على الأرض يزرعونها ويعيشون منها ، أو على التجارة أو على الحرف الأخرى كالحرف اليدوية ، ومن طبيعة هذه الحرف الاستقرار والاستيطان فى أرض تكون وطناً ثابتاً للانسان ، ومقاماً يقيم فيه المواطن فيقدسه ويموت فى سبيله . أما أهل الوبر ، فهم رُحَّلٌ ، يتنقلون طلباً للماء والكلأ والامتيار ، ولذلك فوطنهم متنقل قلق غير مستقر. الأرض كلها وطنهم ، الأرض التي يسكنون فيها ، فإذا ما ارتحلوا عنها ، صارت الأرض الجديدة وطناً جديداً . أما الأرض القديمة ، فتكون وطن من يحل فيها من طارئٍ جديد أو طارئٍ قديم .

ولما كانت طبيعة الجفاف هى الغالبة على جزيرة العرب ، كان لهذه الطبيعة أثرها فى حياة الناس. فغلبت البداوة على الاستقرار ، وأثرت فى النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الاخرى لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الأرض، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة فى هذه البلاد، وتكوين حكومات تقوم على احترام حقوق جميع أبناء الحكومة دون نظر الى البيوتات والعشائر

والقبائل والرئاسات .

وفي الأماكن التي توفرت فيها المياه ، المياه النابعة من الأرض أو الهاطلة من السماء ، نشأت مجتمعات مستقرة ،وظهرت حكومات وهيآت مدنية حاكمة منسقة لشؤون الواطنين، استعانت بالكتابة لضبط شؤونها وللتعبير عمّا يجول في خواطرها . بقي بعضها ، ومنها استخرجنا معارفنا بهم ، وتأريخنا لأولئك الماضين .

ومن هنا قامت الحكومات في العربية الجنوبية الغربية بوجه خاص : الحكومات التي تحدثت عنها في الأجزاء الثلاثة الأولى من هذا الكتاب ، وهي حكومات كبيرة إذا قيست الى الحكومات التي قامت في الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب وكان لها عمر طويل بالقياس الى أعمار الحكومات الأخرى ، التي لم تُعَمِّرْ طويلا ، بل كانت مثل رغاء الصابون : لايكاد ينتفخ فجأة حتى يزول .

ومعارفنا بحال هذه الممالك العربية الجنوبية حسنة بعض الحسن بالقياس الى معارفنا بالإمارات العربية التي تكونت في أماكن أخرى من جزيرة العرب ، وذلك بفضل الكتابات الجاهلية التي وصلت منها الينا ، على حين أن الإمارات والمشيخات التي تكونت في مواضع أخرى كانت شحيحة علينا غاية في الشح ، فلم تعطنا نصوصاً تمكننا الاستفادة منها في تكوين رأي واضح في تلك الإمارات والمشيخات . فأُقتصر حديثنا عنها على ما ورد في الأخبار والروايات ، وكلها بالنقل والرواية ، لا بالكتابة والوثائق المدونة المكتوبة بخطوط أبناء تلك الأجيال .

ولما كان مناخ العربية الجنوبية أكثر ملاءمة وصلاحاً للزراعة ، ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية فيها ، قامت على أساس الزراعة والتجارة . وآثار السدود التي استخدمها الإنسان قبل الميلاد وبعده الى أيام الإسلام ، والمدن المحصنة ، والمعابد المشيدة وآثار القنوات والمزارع القديمة : كل أولئك شاهد على وجود مجتمع متحضر ، نظم حياته

تنظيماً يلائم المحيط الذي عاش فيه . وقد أنشأ له حضارة زاهية في تلك الأرضين .

وترينا أقدم الكتابات العربية الجنوبية ، المجتمع العربي الجنوبي ، وفى مقدمته رجل دين يحكم الشعب حكماً مزدوجاً ، دينياً ودنيوياً . فهو كاهن يحكم الأرض باسم السماء ، وهو حاكم يحكم أتباعه حكم الحكام والساسة . هو رئيس روحاني يترأس « المعبد » ، ويقيم الاحتفالات الدينية ، ويقدس الآلهة ، ويقوم بتقديم القرابين والأضاحي لها . ثم يتكلم بأسمها وبإرادتها ، وهو رئيس يحكم بين الناس حكماً زمنياً ، يستند الى السلطة الدينية التي استمد منها سلطانه الدنيوي . وهو أشبه الحكام بحكام المدن القديمة فى العراق ، الحكام الكهان المسمون بـ « باتيسي » فى العراق .

ويعرف هذا الكاهن الملك بـ « مكرب » ، أي « مقرب » ، وذلك لتقريبه القرابين الى الآلهة ، وتقريب الناس من آلهتها ، وهو أقرب المخلوقات بالطبع الى الآلهة ، والوحيد الذي يمثل سلطتها وإرادتها على الأرض ويعرف أوامرها ونواهيها ، ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يعتقدون بالوحي الإلهي تلقيه الآلهة فى قلب الكاهن ، بواسطة أو بغير واسطة ، فيلقى ذلك الكاهن ما تلقاه ووعاه الى الناس أوامر وارادات إلهية لا يستطيع إنسان ردها أو الاعتراض عليها ، فالاعتراض عليها معناه الاعتراض على الآلهة . وهذا مما يسخطها ويزعجها ، ويجعل المعترض الجاحد عرضة للهلاك والدمار .

وللكهنة « المقربين » معابد انتشرت فى جميع الأماكن التي اعترفت بآلهتهم ، يديرون شؤونها ، ويشرفون عليها ، وينفقون على تعميرها واصلاحها من الأوقاف التي حبست عليها ، ومن النذور التي تقدم اليها ، ومن الضرائب الدينية التي أوجبت ديانتهم على المؤمنين دفعها الى المعابد ، تزكيةً لأموالهم ولأنفسهم ، وصدقة تنجيهم . ويعرف الهيكل ، أي موضع العبادة في العربية الجنوبية ، بـ « بت » « بيت[1] » . وتسبق هذه اللفظة اسم الإله

(١) راجع السطر ١٦ من النقش المرقم بـ ١٩ ، المنشور في الصفحة ٢٩ من كتاب : نقوش خربة معين .

الذي خصص المعبد به ، فيقال « بيت بمل أوم » مثلاً ، أي « معبد ربّ أوّام » و « بيت المقه » ، و « المقه » هو اسم إلـه « سبأ » الأكبر إلـه شعب سبأ الخاص .

ويعبر عن المعبد ، أو الهيكل ، بلفظة « محرمم » « محرم » أي « محرمٌ » كما في هذه الجملة : « محرمم نعمن[1] » . أي « محرم نعمان » و « محرمم عثتر » ، أي « محرم عثتر » . ولا تزال هذه اللفظة تطلق في اليمن على معبد « المقه » ، فيقول أهل اليمن لمعبد « المقه » إلـه سبأ الكبير « محرم بلقيس » . وهم لا يعلمون بالطبع عن معنى هذه الجملة شيئاً . لا يدرون أن لفظة محرم تعني المعبد أو الهيكل أو المسجد ، ولا يدرون أن « بلقيس » محرفة من « المقه » إلـه سبأ الكبير الخاص بهذا الشعب ، وأن الكتابات العربية الجنوبية لا تعرف لفظة بلقيس ، هذه اللفظة المحرفة عن اسم الإلـه ، وأن الأصل هو « محرمم المقه » أي « محرم المقه » ، وأن لفظة « محرمن » تعني « الحرم » أو « البيت الحرام » . وإننا نستطيع أن نعبر عن تلك الجملة بهذه العبارة : « بيت المقه الحرام »[2] في المعنى الذي نفهمه نحن من قولنا « بيت الله » ، أو « بيت ايل » في العبرانيـة ، بمعنى معبد ومسجد في المصطلح الاسلامي . ويلاحظ أن ورود لفظة : « بت » « بيت » في الكتابات العربية الجنوبية أكثر منه في غيرها ، مثل لفظة : « محرمم » فيها . وهي من الألفاظ السامية الأصل ، ولهذا جاءت في جميع لغات الساميين . وردت في معناها البدائي اللغوي في الأصل ، ثم اطلقت على بيوت الآلهة والأصنام ، وذلك لأن العقلية البدائية كانت تتصور أن للآلهـة بيوتاً تقيم فيها وتأوي اليها أحياناً ، كما يأوي اليهـا الإنسان ، فأطلقوا هذه اللفظة على محلات العبادة ، باعتبـار أنها المواضع التي تأوي اليها الآلهة موقتاً ، أو تقيم فيها ، ووضعوا فيها الأصنام والأوثان .

---

(١) Rep. Epi. Semi, VII, P. 159, Num. 4232. P. 197, Num. 4336.

(٢) Rep. Epi. Semi., VII, P. 223, Num. 4401.

(٣) « والبيت الحرام والمسـجد الحرام والبلد الحرام . وقوم حرم ومحرمون . والمحرم الداخل في الشهر الحرام » ، « وجمع المحرم : محارم ومحاريم ومحرمات » ، اللسان (١٥/١٠) .

وتؤدي لفظة « عر » معنى هيكل والمعابد التي يتكهن بها . تُسأل فيها الآلهة لتجيب عن تلك الأسئلة . وقد عبر عن توجيه الأسئلة الى الآلهة بلفظة : ب« مسال » « مسأل » أي « سؤال » ، كما في هذه الجملة : « بمسالم عر يفع »[٣] ، أي « بسؤال هيكل يفع » . وقد عرف هذا الهيكل بوجود الكهان فيه ، الذين يتنبؤون بالمغيبات ويتكهنون للناس . وكان معروفاً مقصوداً ، يقصد من مواضع بعيدة لسؤال الآلهة عن أمور مهمة ، يريد أصحابها الوقوف عليها ، والتعرف على ما قد يحدث لهم فى المستقبل من أمور .

ولم تحبس الأوقاف وتقدم الهدايا لمجرد شفاء الآلهة إنساناً من مرض خطير ، أو رحمة تنزل عليه ، أو بركة تحل به لتكون له ذرية ونسل ، بل تقدم فى المناسبات الخطيرة أيضاً المتعلقة بالأحوال الجوّية مثلاً ، كانحباس الأمطار ، والأمطار حياة الناس وعماد ثروتهم ، وكحماية الشعب ونصره فى حرب ضروس مع شعب آخر ، فيطلب الشعب من إلهه الخاص ومن الآلهة الأخرى حمايته ونصره ، وتوفيقه على عدّوه فى تلك الحرب . يطلب ذلك الملك وتطلبه رعيته . وعلى الشعب أن يقدم الى الآلهة جملاً فى مقابل النصر والمساعدة يتوقف على نوع المهمة التي طلب من الآلهة أداؤها وتقديمها لذلك الشعب .

ويحاول رجال الدين بالطبع إيجاد مختلف الأعذار للآلهة فى حالة اندحار المؤمنين بها الواثقين من نصرها بانتصار أعدائهم عليها ، خوفاً من انصراف الناس عنها واعراضهم عن عبادتها ، وهذا ما كان يحدث كثيراً عندالشعوب السامّية القديمة ، إذ طالما كانوا يتنصلون من آلهتهم ، ويتبرؤون منها ، ويغضبون عليها ، فيرمونها ، ويعبدون آلهة أخرى ، آلهة القبائل المنتصرة . وقد يكسرونها ويحطمونها ، غضباً عليها ، وامعاناً في احتقارها وازدرائها ، وذلك فى حالات الاندحار الشديدة المهلكة .

وأمتلكت المعابد أرضين واسعة شاسعة ، استغلتها باسم الآلهة ، ودرت عليها أرباحاً

Rep. Epi. Semi., VII, P. 193. Num. 4324. (١)

كثيرة . وقد كان للمعابد مخازن كبيرة ، خزنت فيها حاصلات تلك الأرضين ، وما أعطته من غلات ، وما يقدم الى المعابد من نذور وضرائب عينية . وتقوم ادارات المعابد بتصريف هذا الحاصل ، ببيعه وتوزيعه على الموظفين .

وقد أجرت المعابد الأرضين « الإلهية » للأسر الكبيرة سادة القبائل ، يستغلونها بموجب عقود اتفقوا عليها مع « المعبد » . ونعرف هذه الاتفاقات بـ « وتف » . وليست هذه الاتفاقات باتفاقات ثابتة معينة لجميع الأمكنة والأزمنة بالطبع ، بل هي اتفاقات مثل سائر الاتفاقات التجارية تتبدل وتتغير بحسب الأمكنة والأزمنة ونفوذ المتفقين . فقد يكون المستغلون أقوياء ذوي سلطان ، استولوا على الأرض منذ عهد طويل ، فليس لدى « المعبد » إلا الاتفاق بالشروط الممكنة مع المستغلين لتلك الأرض طوعاً أو كرهاً .

وقد وجدت فى بعض المناطق ، مثل أرض قبيلة « بكيل » ، أملاك واسعة حبست على « المقه » إلـه سبأ ، كانت تديرها وتتصرف بها عشيرة « مرثد » ، ووجدت أرضون واسعة فى مناطق أخرى ، جعلت المعبد من أكبر المساهمين فى الإقطاع ونظمه لذلك العهد . لقد كان المعبد فى الواقع مركزاً خطيراً من مراكز التجارة فى العربية الجنوبية ، وفى استطاعتنا أن نقول إنه كان شركة تجارية ذات امتيازات واسعة ونفوذ كبير ، تأخذ ولا تعطي الدولة شيئاً ، وذلك بحكم تمتعها بالامتيازات والحصانة الإلهية وتمثيلها الآلهة على وجه الأرض . أصحابها وحملة أسهمها رجال الدين ، ينفقون أرباحها وارداتها على أنفسهم وعلى ترميم المعابد وادامتها وعلى إقامه معابد جديدة .

ولم تضعف سلطة رجال الدين بعد زوال عهد المكربين وانتقال الحكم الى الملوك . لقد بقوا يتمتعون بنفوذ واسع وسلطان كبير على الشعب ، وبقيت أملاكهم يتصرفون بها ويديرونها باسم الآلهة .

بقي الكاهن على رأس المعبد يدير أملاكه ، وإن كان قد فقد الحكم الدنيوي . وقد

عرف بـ « رشو » عند القتبانيين ، ومعناه الـكاهن ، وقد ورد هـذا اللفظ بهذا المعنى فى النصوص العربية الثمودية . ولعله أخذ لقباً آخر بدلاً من « مكرب » فى سـبأ بعد انتقال الحـكم الى الملوك .

وعرف الـكاهن بـ « شوع » فى النصوص المينية . وقد جاءت هذه النصوص بأسماء عدد من هؤلاء الـكهنة ، قاموا بترميم الأبراج أو المعابد وتقديم النذور والقرابين الى آلهة معين [1] .

ولم نجد فى النصوص التي وصلت الينا ما ينم على حـــدوث خلاف بين رجال الدين والملوك فى هذا العهـــد ، بل وجدنا الملوك هم الذين يتقربون الى المعبد بالهدايا والنذور والقرابين ، ويقومون بترميمه وادامته من أموالهم الخاصة ، مما يؤكد وجود علاقات طيبة حسنة بين المعبد والحـكّام ، واتفاق تام بين السلطتين الدينية والدنيوية فى ذلك العهـد . والواقع أن مصالح الطرفين كانت واحدة متشابهة . وكلٌّ كانت به حاجة ماسة الى مساعدة الآخر ومعاونته ، فلم ينشأ ما يدعو الى حدوث خلاف بين الجانبين .

حتى فى أيام المـلكية نظر الشعب الى إلَـهه الخاص به نظرة الابن الى الأب . اعتبر أبناء القبيلة الواحدة أنفسهم أولاداً لإلَـه تلك القبيلة . اعتبروه أباً رحيماً قديراً شفيعاً . فسمى أبناء سـبأ أنفسهم فى الـكتابـات بـ « ولد المقه » ، أي « أولاد المقه » ، وسمى القتبانيون أنفسهم « ولد عم » ، أي « أولاد عم » ، و « عم » هو الإلَـه الـكبير عنـد قتبان ، وهو القمر . وقال المينيون عن « ودّ » إلَـهم الأكبر : « ودم ابم » أي « ودّ أبٌ » بمعنى : « ودّ الأب » .

ومما يُؤسِفُ أن الـكتابات العربية الجنوبية وكذلك سائر الـكتابات الجاهلية ، لم تشر

---

(١) خليـل يحيى نامي : نقوش خربة معين (ص ٣ ، النقش رقم ٤) والنقش ٥ وعدة نقوش أخرى .

الى منازل رجال الدين ودرجاتهم . وإذ كانت هنالك معابد ورجال دين ، فلا بد أن تكون هنالك منازل ودرجات ، ولا يعقل عدم وجود هذه المنازل والدرجات وتساوي الكاهن الأعظم بالخادم الذي يقوم بتنظيف المعبد وفتح أبوابه وإغلاقها مثلاً . ودرجات مثل هذه موجودة فى كل دين من الأديان التي سبقت الإسلام فى الظهور .

والنذور التى تقدم الى الآلهة عديدة مختلفة ، تتوقف بالطبع على رغبة الناذر وعلى سعة أمواله . ويقال للنذر فى المعينية : « ز ل ا » « زلا » . وقد وردت في عدد من الكتابات ، ووردت بعدها لفظة « سقني » بمعنى قدّم كما فى هذه الجملة : « .... اهل يدع زلا وسقنى عثتر » أي « ... آل يدع نذروا وقدموا لعثتر » (١) .

وقد تكون هذه النذور « طيباً » تطيب به المعابد . وقد كان القدماء يطيبون الأصنام وجدران المعابد ، لتفوح منها الروائح الطيبة التي تجلب اليها الناس . فهم يعتقدون ان الآلهة تسر بالطيب ، وتسر بكل شيء يسر منه الإنسان . وإذ كان الطيب من أنفس ما يتجمل به المرء فى حياته ، كانوا يقدمون منه الى آلهتهم ، وذلك بلطخ أصنامها وجدران معابدها بالطيب . ويقال للطيب فى اللهجات العربية الجنوبية : « طيب » (٢) .

وقد تكون هذه النذور ذبائح ، قد تكون ذبيحة واحدة أو أكثر . ويذكر عددها فى الغالب ، وقد يذكر نوعها ، والغالب في ذلك أن تكون الذبيحة ثوراً أو بقرة أو عجلاً ذكراً أو أنثى . ويقال للعجل الصغير الذي يرضع « سقى » « وسقى » ، أي أنه لا يزال يستقي بمعنى يشرب الحليب (٣) .

---

(١) الفقرة الأولى من النقش رقم ٥ المنشور في الصفحة الخامسة من كتاب نقوش خربة معين .

(٢) السطر ١٣ من النقش المرقم بـ ١٩ المنشور في الصفحة (٢٩) من كتاب : نقوش خربة معين .

(٣) الفقرة ٣ من النقش المرقم بـ ٥ المنشور في الصفحة (٥) من كتاب : نقوش خربة معين ، والصفحة ٧ .

ولم تكن الذبائح خاصة بالعرب الجنوبيين ، يتقدمون بها الى أوثانهم بل يستوي فى ذلك جميع العرب : أهل الحجاز ، وأهل سائر أنحاء جزيرة العرب. وقد كانوا يذبحون غنماً وماعزاً وعجولاً وبقراً ، وقد ورد فى حديث لعمر بن الخطاب أنه شاهد أحد العرب ، وكان قد ذبح عجلاً لوثن من أوثان الجاهلية ، وهو مع نفر من قريش ، وكانوا يقسمون الذبيحة على النـاس [1] .

وفى جملة النذور التي قدمت الى المعابد ، الأثمار ، ويقال لها فى العربيات الجنوبية « ثمرم » [2] ، و « القاطر » ، ومفردها « مقطرم » أي « مِقْطَر » ، و « المقطرة » ، ولا تزال « القاطر » مستعملة فى « التعازي » فى العراق ، حيث تقدم بعض الطيوب مثل « ماء الورد » فى آخر أيام « التعزية » الثلاثة دليلاً على انتهائها ، وقد ترجمها المستشرقون بـ « Altar » أي « مذبح » [3]، وهي ترجمة مغلوطة فى رأيي ؛ لأن اللفظة معروفة واضحة ، وهي مثل « مبخر » « المبخرة » ، أي الآلة التي يوضع فيها البخور ، لتبخر بهـا المعابد ، ولا تزال تستعمل فى المناسبات الدينية أيضاً ، ولتكريم الضيوف [4] .

هذا ولابد أن يكون للكهان مقام عند العرب الجنوبيين ، شأنهم فى سائر أنحاء الجزيرة ، وفى الأماكن الأخرى ، ولا سيما بعد الميلاد ، حيث صارت للكاهن مكانة عظيمة فى نفوس الناس ، تشبه

---

(١) الطبري (٢/٢٠٤) « ذكر اليوم الذي نيء فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . من الشهر الذي نيء فيه وما جاء في ذلك » .

(٢) Rep. Epi. Semi., VII, P. 155, Num. 4230. Mordtmann und Mittwoch, Bemerkungen zu altsüdarabischen Inschriften, in Orientalia, III, P. 59—60, III, Beesten, Sabaean Inscriptions (1937), P. 85. ff.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) « وقطارة الشيء ما قطر منه » ، و « المقطر والمقطرة المجمر » ، اللسان (٦/٤١٦ ، ٤١٩) ، « تبخر بالطيب ونحوه تدخن . والبخور بالفتح ما يتبخر به . ويقال بخر علينا من بخور العود . أي ذيب » ، اللسان (٦/١١١) .

مكانة الأسقف والراهب عند النصارى العرب قبيل الإسلام ، وربما تزيد على تلك المكانة .

ونحن نأسف على عدم ورود شيء عن الكهانة والكهان فى الكتابات العربية الجنوبية . ولا نستطيع بالطبع أن نقول : إن درجة شوع أو رشو أو مكرب ، كانت بالمعنى المفهوم من لفظة كاهن فى عربية القرآن الكريم ، وإن كنا نعتقد أنهم كانوا كهاناً بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة ، لأنهم كانوا ينطقون باسم الآلهة ، ويتكلمون عنها .

أما الكاهن عند العرب الشماليين ، فكان الناطق باسم الأصنام ، يسأله الناس ، فيجيب باسم من يسأل من الآلهة . وقد كان لهم نفوذ كبير على القبائل قبيل الإسلام ، فكان لكل قبيلة كاهن ، أو جملة كهان ، يستشيرونهم فى عظائم الأمور ، وكان لكلامهم هذا صوت مسموع ورأي مقبول ، الى أن جاء الاسلام ، فأبطل الكهانة ، وأعلن النكير عليها ، وجعلها من رجس الوثنية ومن عمل الشيطان (١) .

وكان لرجال الدين نفوذ واسع فى حكومة معين . وكانت هنالك ضرائب ، تؤخذ بدلاً عن أعمال السخرة ، فكانت العشائر والمدن تقدم الرجال للقيام بالأعمال العامة ، مثل الأبنية الحكومية والسدود وتعبيد الطرق وإقامة الحصون والمعابد وذلك على سبيل السخرة ، وتقدم هذه الأبنية نذراً باسم الآلهة فى كثير من الأحيان . وتقترن الوثائق والأوامر الصادرة بهذا الشأن بأسماء الآلهة فى الغالب . وذلك كله يشير الى أثر الدين فى الحكومة وفى الحياة العامة للدولة والشعب . وعندما تذكر أسماء الآلهة ، فيعني بذلك رجال الدين بالطبع الناطقين بأسماء تلك الآلهة (٢) .

ونجد مثل هذا النفوذ فى أماكن أخرى ، في مثل حكومة سبأ مثلاً ، ففي كثير من الكتابات التي تخص الحياة العامة نجد الإشادة بالآلهة وبتوجيه الأعمال إليها ، وتخصيصها

---

(١) الطبري (٢/٢٠٤) . « ذكر اليوم الذي نبيء فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) Handbuch, S. 134.

بأسمها . وقد استخدمت المعابد حصوناً للدفاع عن المدن بالاضافة الى استخدامها بيوتاً لعبادة الآلهة ، وعلى أبراجها مواقد النيران التي تقدم إليها القرابين (١) .

وفى « نجران » حيث كانت غالبيتها للنصرانية ، غلب التنظيم الديني عليها ، فكان يحكم الجماعة ، كما يقول الأخباريون ، العاقب والسيد والأسقف . وقد وردت الإشارة اليهم فى كتب السير والتواريخ . ويذكرون أن العاقب ، هو أميرهم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه . وكان اسمه في أيام الرسول « عبد المسيح » ، وقد قدم عبد المسيح هذا على الرسول على رأس وفد نجران ، وأما السيد ، فثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وكان اسمه الأيهم . وأما الأسقف ، فكان حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدراسهم ، وكان اسمه أبا حارثة بن علقمة . وقد كان السيد والأسقف فى جملة وفد نجران الذي وفد على الرسول (٢) .

وقد وردت لفظة « عقبم » أي « عقب » « عاقب » في بعض الكتابات العربية الجنوبية بمعنى « الناظر » و « المتولي » ، كما فى هذه الجملة : « يوم كون عقبم بيت بن ثرن » (٣) أي « يوم كان عاقب بيت ذي ثأران » . ويقصد بذلك أن الرجل المذكور فى النص كان متولياً على « بيت ذي ثاران » . و « البيت » هو المعبد . فيمكن وضع الجملة على هذا النحو : « يوم كان عاقباً على بيت « معبد » « ذي ثأران » .

وفى كتب اللغة « العاقب : السيد . وقيل الذي دون السيد ، وقيل الذي يخلف السيد بعده . وفى الحديث : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران : السيد والعاقب ... وقيل السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم » (٤) .

---

(١) Handbuch, S. 135, Studien, II, S. 20, 54, Kataba-Texte., 1, S. 23. ff.

(٢) سيرة بن هشام (٢/٢٢٢) .

(٣) Rep Epi. Semi, VII, P. 155., Num. 4230.

(٤) تاج العروس (١/٣٨٩) ، اللسان (٢/١٠٤) « عقب » .

وقد كان في نجران جماعة من الرهبان كذلك ، لهم منزلة ومكانة في نفوس القوم ، يحترمهم القوم ويستمعون اليهم . وقد وفد أحدهم على الرسول ، فتحدث معه ، وسأله عن بعض الأمور [1] .

وقد أوردت كتب السير أسئلة وأجوبة وجدلاً جادل به أساقفة نجران ورهبانها ونصارى اليمن الرسول في أمور الدين [2] . وأودّ أن ألفت نظر الباحثين الى أهمية هذا الجدل ، والى ضرورة دراسته ونقده نقداً علمياً ، لمعرفة قربه أو بعده من النصرانية ، ومقدار علم القوم بأمور دينهم ، ودرجة علمهم بكتب النصرانية وبالعهد القديم والأناجيل .

وتذكر كتب السير أن ملوك الروم ، كانوا يصلون الأسقف ، ويهبونه الأموال ، ويتراسلون معه . وقد « بنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات » [3] . وهو كلام نجد ما يؤيده في الروايات الأخرى الواردة في الأخبار النصرانية عن كيفية دخول النصرانية الى اليمن . والواقع ان الروم كانوا يفعلون ماتفعله الدول الكبرى في هذه الأيام ، من اتخاذ التبشير والثقافة وسيلة من وسائل التدخل في صميم الحياة للشعوب الصغيرة . وقد كان بناء الكنائس وارسال المبشرين ومدّ رؤساء الدين النصارى في جزيرة العرب بالمال وبالمساعدات الأخرى من أهم الوسائل التي تذرع بها البيزنطيون للتدخل في شؤون العرب ، وفي محاربة الفرس وسياستهم والأحزاب الموالية لهم في شبه الجزيرة وفي كل مكان آخر . وهذا مما حمل الفرس على تأييد مذاهب النصرانية المعارضة للروم ، ومدّها بكل المساعدات والمعونات ، مع أنهم كانوا مجوساً ، وغايتهم من ذلك بالطبع الاستفادة من هذه المذاهب في مقاومة الروم .

وتذكر تلك الكتب أن أسقف نجران في أيام الرسول ، وهو أبو حارثة بن علقمة أحد

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٥٠) .

(٢) الروض الأنف (٢/ ٤٥ وما بعدها) .

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٢) .

بني بكر بن وائل ، كان على صلة وثيقة بالروم ، وأنهم أكرموه ، وأعزّوه ، ووصلوه ، وبنوا له الكنائس (١) .

ويستفاد من كتب السير أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً ، وكانوا يتدارسون الكتب المقدسة ، ويعلمون الناس أحكام الدين . ويقرؤون العهدين : القديم والجديد (٢) . ولا بد أن تكون لهم مدارس ، يدرسون فيها ، كما كان شأن إخوانهم فى الدين فى الحيرة والأنبار . ولعلهم هم الذين أشاعوا الكتابة بالخط العربى الشمالي الوارد على جزيرة العرب من الشمال ، من العراق ، الخط الذي استعمل فى مكة وفي يثرب ، حتى غلب على المسند ، بسهولته ومرونته فى الكتابة ، ولشيوعه فى أماكن أخرى من الجزيرة حتى قضى على القلم العربي الجنوبي القديم .

وترد فى كتابات المسند مصطلحات دينية كثيرة ، تفيدنا في تكوين رأي فى الحالة الدينية عند العرب الجنوبيين وفى علاقتها بالحالة الاجتماعية وبالتنظيمات المتعلقة بها عند تلك الشعوب .

وقد سبق أن ذكرت فى مواضع متعددة من هذا الكتاب أن العرب الجنوبيين كانوا ينسبون مجتمعهم الى إلـه من الآلهة فى بعض الأحيان ، ويعبرون عن ذلك بألفاظ تشير إلى الأبوة والبنوة والتعلق بالإلـه ، كما فى أمثال هذه الجمل : « ولدعم » « اولد عم » ، أي ولد الإلـه عم ، وأولاد الإلـه عم ، فصار الإلـه « عم » بمثابة أب للقبيلة أو للجماعة صاحبة الكتابة .

والمجتمع العربي الجنوبي هو مجتمع ديني تطغى عليه الصبغة الدينية ، ولرجال الدين سلطان عليه ونفوذ ، وكما عدّ الإلـه أباً للقبيلة أو للمؤمنين به أو للتابعين له والخاضعين لمعبده ، كذلك عدّ حامياً لتلك الجماعة . ومدافعاً عنها . ويعبر عن ذلك بلفظة : « شيمم » ،

---

(١) ابن هشام (٢/٢٢٢) .
(٢) ابن هشام (٢/٢٢٢ وما بعدها) .

وتعني اللفظة معنى حام وحافظ ومدافع من الوجهة اللغوية والاصطلاحية .

وبمعنى الرابطة والجماعة والصلة التي تجمع بين الله وشعبه ، استعملت لفظة « حبلم » في بعض الكتابات [1] . وقد يكون استخدام هذا التعبير من أن الحبل يربط ويجمع ويجعل من الحطب المتفرق مثلاً كومة واحدة ورزمة يربط بينها ويجمع شتاتها ذلك الحبل .
ويذكرنا ذلك المصطلح بالآية الكريمة : « وأعتصموا بحبل الله » [2] والآية : « أين ما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس » [3] .

وترادف لفظة «جوم» « كوم» لفظة قوم في عربيتنا . وقد يكون القوم عدداً صغيراً وقد يكون كبيراً . وهي لا تؤدي معنى« الشعب » أي القبيلة في العربية الجنوبية ، لأنها لا تقوم على أساس النسب والدم ، وإنما تقوم على أساس الانتماء إلى جماعة وشعور بوجود رابطة .
وللفظة صلة بالرابطة الدينية كذلك ، فهي تشير الى رابطة دينية تربط بين أفراد الجماعة مثل رابطة الانتماء الى إلـه ، فيكون المرتبطون به قوماً « جوم » بالنسبة الى ذلك الإلـه . وهي لا تعني القومية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة في الزمن الحاضر . ولم تستعمل بالنسبة الى الملوك ، فلم يرد مثلاً « جوم الملك الفلاني » ، أي « قوم الملك الفلاني » .

وكما ينتسب الناس الى المدن ، فيقولون « أهل .. » ، ينتسبون أيضاً الى إلـه من الآلهة ، كما في هذه الجملة : « اهل عثتر » « أهل عثتر » [4] . ويقصد بذلك الجماعة المؤمنة بالإلـه عثتر . ونرى جماعات انتمت إلى آلهة أخرى . ويشبه هذا التعبير تعبير « أهل الله » في الإسلام ، أي المؤمنون بالله المنقطعون له وحده العابدون القانتون الزاهدون .

---

(١) Glaser 484, Skizze, I, 68.

(٢) آل عمران الآية ١٠٣ .

(٣) السورة نفسها الآية ١١٢ .

(٤) راجع النص الموسوم بـ Halevy 149

وترد لفظة « مهبع » بمعنى مذبح [١] . وقد وردت أسماء أنواع من المذابح المسماة « قيف » ، فمنها ما كان يستعمل لحرق البخور والطيب ، ومنها ما كان يستعمل لذبح القرابين وأمثال ذلك . وقد كان الناس يتقربون إلى آلهتهم بتقديم المذابح للمعابد ، وبتقديم النذور اليها.

ويقال للبخور « مثع » « مثعى » فى اللهجة المعينية ، وذلك كما ورد فى هذه الجملة :

« يوم عرب مثعى ودم » [٢] ، أى « يوم قدم بخوراً الى الإلـه ودّ » .

وقد كان المرّ فى جملة ما يتقدم به أهل العربية الجنوبيـة لحرقه فى معابدهم ، يضعونه فى محرقة خاصة تدعى « مصرب » . لحرقه بها ، ويعرف المرّ بـ « مرت » فى لهجة معين [٣] .

وعرفت المذابح التي تحرق عليها المحروقات باسم « مصرب » ، وذلك فى المعينية وفى السبئية القديمة [٤] . وتستعمل الـ « مصارب » لحرق نوعين من المحروقات: بخور أو أخشاب ، ويرجع أصل اللفظة الى « ص رب » « صرب » بمعنى « وقد » و « نور » فى اللهجات العربية الجنوبية ، أي « أوقد » و « أنار » . ومن « وقـد » وردت لفظة « مقد » « موقد » الموضع الذي توقد فيه النار . ومن « نور » وردت لفظـة « منورت » ، أي « منورة » ، ويراد بذلك ما ينير ويضيء . و « نار » [٥] ، وترد أحيانـاً لفظة « مقطر » فى معنى مذبح أيضاً ، أي أداة تستعمل فى المعابد وفى الاحتفالات التي لها صلة بالأمور الدينية . ويراد بها آلة يقطر منها الطيب ، وربما يقطر منها الزيت أيضاً ، وذلك لأمور دينية .

وترد لفظة « مرتن » بمعنى مذبح كذلك ، واستعملت لفظة « مســـلم » فى موضع

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 33.

(٢) راجع النص الموسوم بـ Glaser 1089, 1660, Halevy 208.

(٣) Glaser, 1144, Halevy 353.

(٤) Rhodokanakis, Stud, II, S. 39, CIH. 337, Glaser 290, Glaser 12o9.

(٥) Rhodokanakis, Stud., II, S. 39.

« مصرب » فى النص المعيني الذي عثر عليه فى الجيزة بمصر [1] .

وترد لفظة « حنف » فى النصوص العربية الجنوبية بمعنى « صبأ » ، أي مال وتأثر بشيء ما [2] . ومن هذا الأصل « حنيف » و « حنفاء » ، وهما من الألفاظ الواردة فى القرآن الكريم . أما « الأحناف » فهم جماعة سبق أن تحدثت عنهم فى أثناء كلامي على الحياة الدينية للجاهليين .

وما يتقرب به الإنسان إلى الإله ، يقال له « اكرب » فى السبئية ، من أصل « كرب » بمعنى « قرّب » ، ومن هذا الأصل لفظة « مكرب » التي تعني « مقرب » اللقب الذي أطلقه السبئيون على الكاهن الحاكم الجامع للسلطتين الدينية والزمنية فى شخصه . وتعني لفظة « كرب » التقرب من الآلهة كذلك . وأما « كترب » فتعني : « قربة » ، أي الشيء الذي قدم الى الإله ، و « عطية » تقدم الى إله أو معبد . ويقال لها « كبودت » كذلك [3] التي هي بمعنى النذور والقرابين والعطايا والهبات التي تقدم الى الآلهة .

وفى معنى « كرب » أي التقرب الى الآلهة بتقديم النذور والعطايا لها ترد لفظة « تطا » من أصل « وطا » [4] . التي تعني نذر وأهدى وتصدق .

وكما نجد جملة « بإذن الله » فى القرآن الكريم ، نجد جملة : « باذن سين » . و « سين » هو الإله القمر عند القتبانيين . وترد فى النصوص التي تدون عند تقديم قربى ونذور الى الآلهة . وترد لفظة « نفس » من بعدها فى بعض الأحيان [5] .

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 39.

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

(٣) Rhodokanakis, Stud., II, S. 40, Glaser 1150, 1302 Halevy 187.

(٤) Rhodokanakis, Stud., II, S. 40,

(٥) Osiander 29, Hartmann, Arab. Frage, 413, Rhodokanakis, Stud., II, S, 41.

وعبر عن الذهاب الى المعبد للتقرب الى الآلهة ، أي الحج اليها ، بلفظة « نساو »[1] ، أي « نسؤوا » . فالنسيئة في العربية الجنوبية هي الحج الى الآلهة والتقرب اليها . أما النسيء والنسيئة ، فلها معان أخرى عند أهل الحجاز قبل الإسلام .

وفى الأزمنة التي تمتعت العربية الجنوبية فيها باستقلالها ، حكمتها حكومات يرأسها حكام لقبوا أنفسهم بألقاب الملوك . وهذا لا يعني أن حكم « الملك » كان دائماً حكماً شاملاً واسعاً بالمعنى المفهوم من هذا اللقب ، فقد كان سلطان الملك فى بعض الأحيان لا يتجاوز سلطان « سيد » القبيلة ، اي « الشيخ » فى مصطلحنا اليوم ، وهو فى الواقع « سيد قبيلة » ليس غير . وعلى ذلك نجد في العربية الجنوبية وفى سائر أنحاء جزيرة العرب عشرات من أمثال هؤلاء يحكمون قبائلهم بهذه النعوت والصفات المغرية المحببة الى النفوس والقلوب .

و « الملك » هو الرئيس الأكبر والإنسان الأعلى فى مجتمعه . وقد ترك ملوك العربية الجنوبية الغربية عدداً كبيراً من الكتابات ، أفدنا منها فى معرفة أسمائهم وألقابهم ، ولكننا لم نفد منها فائدة كبيرة من ناحية علاقتها بالسياسة العامة وبالشعب وبالثقافة والعلوم ، وذلك لأنها شخصية فى الغالب ، تتعلق بشخص الملك ليس غير . وقد أرتنا بعض الكتابات أن العرب الجنوبيين ، لم يجدوا غضاضة فى تلقب أب وابنه أو أب وأبنائه أو أخ واخوته بلقب « ملك » فى وقت واحد . فقد انتهت الينا كتابات عديدة ، وفيها أب يحمل لقب ملك ومعه أبناؤه يحملون هذا اللقب كذلك ، كما انتهت الينا كتابات يحمل فيها أخ وإخوته لقب « ملك » . وقد يدل ذلك على اشتراك المذكورين فى تلك الكتابة بالحكم ، غير أن ذلك لا يعني الحتمية ، فقد يجوز أن يكون « الملك » مجرد لقب يمنح لذلك الشخص القريب جداً من الحاكم ليشير الى صلته به والى منزلته بين الناس .

---

(١) راجع النص الموسوم بـ : Halevy 149

والعادة في جميع جزيرة العرب أن الملكية والإمارة والمشيخة وراثية ، تنتقل من الآباء الى الأبناء ، ويتولاها الابن الأكبر في الغالب . فإذا حكم هذا وتوفي ، انتقلت الى ابنه الأكبر ، وهكذا . وبذلك يحرم إخوته الآخرون ، إلا إذا نص الأب الملك أو الأمير أو سيد القبيلة على خلاف ذلك ، كأن يذكر اسم الذي سيخلفه ، أو يعين جملة أبناء أو أشخاص يحكمون من بعده على التوالي ، فاذا توفي الابن الأكبر مثلاً ، انتقل الحكم الى أخيه الذي يليه ، وهكذا الى نهاية الوصية . وقد يوصي المتوفى لأخيه من بعده ، أو إخوته ، بدلاً من ابنه أو أولاده ، فنظام الحكم اذن نظام وراثي في العادة ، ينتقل طبيعة الى الابن الأكبر للحاكم المتوفى ، إلا إذا حدث خلاف ذلك ، لوصية يوصيها المتوفى ولرأي يراه ، أو لأحوال قاهرة كأن يكون الشخص المتوفى عقيماً لا عقب له ، ففي مثل هذه الحالة ينتقل الحكم الى أقرب الناس اليه ، بحسب وراثة الدم ، أو بحسب رأي الأسرة التي ينتمي اليها المتوفى . فيكون عندئذ لها وللمسنين الرأي والاختيار .

ولم يصل الينا نص ما من العربية الجنوبية يشير الى وجود اسم ملكة على عرش إحدى الحكومات التي تكونت هناك ، كما أننا لم نعثر على اسم امرأة تولت إمارة أو مشيخة فيها . لكن التوراة تشير الى ملكة على سبأ ، قال إنها ذهبت الى سليمان تلتمس منه الحكمة وقد حملت اليه هدايا كثيرة (١) . وقد ذهب بعض المستشرقين وبعض علماء التوراة الى أن المراد بها ملكة على إحدى المقاطعات التي استوطن فيها السبئيون في شمال الحجاز وفي المناطق الجنوبية من « المملكة الأردنية الهاشمية » لعهدنا هذا ، ولم تكن من ملكات العربية الجنوبية ، لأسباب اشاروا اليها في أثناء بحثهم في هذا الموضوع .

أما خارج العربية الجنوبية ، وخارج جزيرة العرب ، فقد وردت في الكتابات

---

(١) الملوك الأول : الاصحاح العاشر ، الآية ١ وما بعدها . وأخبار الأيام الثاني الاصحاح التاسع ، الآية ١ وما بعدها .

الآشـــورية أسماء ملـكات عربيات ، مثل : « شمسى » أي « شمس » و « زبيبي » أي « زبيبة » ، وقد تحدثت عنهن فيما سلف من كلامي على علاقات العرب بالآشوريين ، كما أشرت الى قصة « الزباء » ملـكة تدمر ، وكل ذلك دليل على أن العرب الشماليين لم يجدوا ما يمنعهم من تعيين ملـكات عليهم ، وأن ملـكات ولين حكومات .

وقد كان كل ذلك قبل الإسلام بزمن طويل . أما في الأيام القريبة من الإسلام ، فلم نعثر على اسم ملـكة أو أميرة أو رئيسة قبيلة حكمت فيها ، لا في الـكتابات ولا في القصص الذي يرويه الأخباريون عن تلك الأيام .

ولا نعرف في جزيرة العرب نظاماً انتخـــابياً عاماً ينتخب الشعب فيه حاكمه ورئيسه على النحو الذي نفهمـه في الزمن الحاضر ، انتخاباً لأمد محدود معين بسنين كما في النظم الجمهورية ، أو لأمد طويل يحدُّ بحياة الإنسان ، فلم يرد نص ما فيه شيء من ذلك ، ولم يرد في قصص الأخباريين ما يشير الى وجود مثل هذا الانتخاب .

ولـكننا نسمع من أفواه أهل الأخبار عن حكم في مكة يمـكن أن نسميه حكم مجلس مدينة أو حكم مجلس بلدية ، لا حاكم فيه ينفرد وحده في الحـكم ، وليس فيه تمثيل نيابي بالمعنى المفهوم من الانتخاب . وإنما كان شيئاً يقرب من نظام الحـكم في المدن اليونانية ، أو نظام الحـكم أيام الرسول ، حكم أودّ أن أسميه حكم « دار الندوة » ، أو حكم « ندوة قريش » ، يقوم على أساس الجاه والرشد ، ليس لأهل مكة دخل ولا رأي في اختيار رجاله وتعيينهم ، وليس لعضويته حدّ معين ، أعضاؤه رؤساء مكة وأصحاب المال والنفوذ فيها ؛ ومن نال الاحترام والتقدير من أهل تلك المدينة ، صار عضواً طبيعياً فيه . وهذه العضوية لا تعني أن العضو في دار الندوة ملزم بالحضور ، وأن عليه الاشتراك في جلسات تلك الدار في مواسم افتتاحها واشتغالها ، وأن دعوات توجه إلى الأعضاء ، تعين فيها مواد الجلسات والقضايا التي ستعرض لمعالجتها والبت فيها . فـكل ما نتحـدث عنه وغيره ، هو من مستحـدثات

هذه الأيام . وطبيعي ألا يكون فى مكة شيء من ذلك .

لم تكن هناك جلسات ، ولا دعوات ، ولا محاضر جلسات ، ولا نصاب للعدد الشرعي الذي يجب توفره عند الاجتماع ، لتكتسب القرارات الصفة القانونية . وليست لهذا المجلس قواعد فى طبيعة الأمور التي يحق له معالجتها ، وفى صفة الأمور التي لا تدخل في اختصاصه ، لذلك لا يجوز له التدخل فيها . إنه فى الواقع مجلس رؤساء وكبراء ، ومجتمع وجوه بلدة ، ومكان تمضية فراغ للزمرة الوجيهة من البلدة ، يتسامرون فيه ، ويتحدثون عن كل شيء ، عن الصحة والعافية وعن الأدب والحوادث الجارية وفض المشكلات التي تحدث بين الناس . بأن يلجأ المظلومون الى أحد الجالسين ، أو عدد منهم ، لأخذ ظلامته من الظالم ، وإنصافه ، فلا يكون أمام من استجير به إلا أن يسعى ما أمكنه السعي فى مساعدة من استجار به والدفاع عنه ، وإلا عرض نفسه للازدراء والذم . وهذه الندوة لا تشترط فيها مشاركة جميع أعضائها فى المناقشات وفى الحديث ، فقد يتحدث بعضهم في موضوع ، ويتحدث بعض آخر فى موضوع آخر ، وهكذا فهو نادٍ ليس غير ، حتى إن من الناس من أنكر وجود دار معينة تسمى « دار الندوة » ، وعدّ تلك الدار من مبتكرات الخيال ، ورأى أن اجتماع وجوه مكة ، إنما كان عرضاً ، وفى ركن من أركان الكعبة ، أو فى جملة أركان منها ، فقد يتكون اجتماع ، وقد تتكون جملة اجتماعات ، بحسب المصادفات ، كما كان يحدث فى الأيام القديمة فى الجوامع والمساجد بعد الصلاة ، أو فى بيوت الأشراف ، حيث لم تكن دور « سينما » ولا دور غناء أو تمثيل أو ملاه أو ما شابه ذلك ، وحيث يأنف الوجهاء من ارتياد أمثال هذه الأماكن ، فيلجؤون الى قضاء سهراتهم وأوقاتهم على النحو .

فرؤساء مكة إذن ، هم حكومتها وحكامها ، وليس هناك ملك أو حاكم انفرد بالحكم والسلطان. فالحكم فيها إذن ، حكم مدينة ، لا حكم ملك أو فرد ، حكم جماعة صغيرة ، لها من السلطان والنفوذ والاحترام ما يكفل لها تنفيذ القرارات والاحكام والمحافظة على الأمن العام . وقد كان نظام

الحكم فى الطائف وفى يثرب على مثل هذه الطريقة ، غير أن الأخباريين لم يتحدثوا عن مجلس يشبه دار الندوة فى تينك المدينتين .

وكان من عادة الملوك الإعلان عن تتويجهم للناس ، والاحتفال بيوم التتويج والإفصاح عنه ، وعندئذ يتقلب الملك بلقبه « هملقب » . وكان من عادة ملوك حضرموت مثلاً الاحتفال بحمل اللقب فى « محفد أنود » « محفد انودم » . وقد انتهت الينا جملة كتابات تشير الى هذا المحفد . وقد اختتمت بكلمة « هملقب » . أي « ليتلقب » ، واستخدمت فيها لفظة « متلل » ، ولفظة « علن » من بعدها فى بعض الأحيان [1] . ومعنى « متلل » بين وشهر . وأما « علن » ، فمعناها أعلن .

وقد يدعى الى هذه الاحتفالات رجال من حكومات أخرى ، لمشاركة الملك وحكومته فى الأفراح والمسرات ، فيأتي رجال من قتبان أو من حضرموت أو من حكومات أخرى الى سبأ مثلاً ، لتهنئة ملكها وحكومتها ، يحملون اليه الهدايا والألطاف التي تقدم فى أمثال هذه المناسبات . ولا يستبعد استدعاء مندوبين من خارج العربية الجنوبية لحضور هذه المناسبات ، غير أننا لم نظفر ويا للأسف ، بنص يفيد ورود رسل أجانب أو زيارات ملوك الى اليمن وبقية العربية الجنوبية لهذه المناسبات ، أو لمناسبات أخرى مثل الدعوة الى زيارة العربية الجنوبية ومشاهداتها فى الأعياد أو فى سائر الأيام ، إلا ما رأيناه في عهد « ابرهة » الحبشي كما ذكرت ذلك فى حينه .

ومن الألفاظ الاصطلاحية المستعملة فى الكتابات التى يراد بها الاعلان عن شيء ما ، ليكون ذلك مفهوماً عند الناس ، لفظة « تنخيت » [2] ، ومعناها « اعلان » وإيضاح . كما فى هذا النص : « تنخيت تنخيو » [3] ، أي « اعلان يعلن » .

---

(١) Rep. Epi. Semi, VII, P. 41S. ff., Num. 4914, Num., 4915, 4916.

(٢) راجع النص الموسوم بـ Halevy 147

(٣) السطر الأول من النص المذكور ، وكذلك :
Rhodokanakis, stud. zur Lexi. und Gramm., 1, S. 56.

وتتألف المملكة من سكان الأرضين المعترفة بخضوعها لحكم الملك الحاكم ، أي من المستقرين ومن القبائل شبه المستقرة أو الرحل التي تنتقل من مكان إلى مكان . ويقال للقبيلة « شعب » والجمع « اشعب » « أشعب » . وقد جاء في بعض الكتابات السبئية : « سبا واشعبهمو »[1] بمعنى : «سبأ وأشعبهم » أي السبئيون وقبائلهم ، ويعنى بقبائلهم القبائل الخاضعة لهم .

ويعبر عن مواطني مملكة ما بلفظة « خمس » ، ويجمع « اخمس » « أخمس » ، ويراد بـ « أخمس » جميع المواطنين التابعين للملك أو لإمارة ما ، فهي بمعنى المواطنة أو الرعايا في الإصطلاح الحديث . فكل من يعيش في مملكة ما من أي مكان كان ، من قرية أومدينة ،فهو مواطن ومن رعايا تلك المملكة . ويلاحظ ورود لفظة « اشعب » « أشعب » معها في بعض الأحيان ، كما في هذه الفقرة : « وكل الآلت معنم ويثل وكل الآلت ذ اخمسم واشعبم » ومعناها : « وكل آلهة معين ويثل ، وكل آلهة المواطنين والأشعب » ، ويراد بـ «اشعبم» هنا القبائل ، أي الأعراب سكنة البوادي ، وايراد هذه اللفظة في هذا الموضع بعد لفظة « اخمس » ، أي الرعايا ، يدل على أن المراد بـ « أخمسم » الرعايا الحضر المستقرين . أما « الأشعب » ، فهم أهل الوبر ، أي الأعراب الذين لا يسكنون المدن والقرى ولا يحترفون زراعة أو صناعة ، وإنما يعيشون عيشة ساذجة على إبلهم وعلى الرعي وعلى بساطة وشظف في الحياة .

وورد في أحد النصوص هذه الجملة : « خمسيهو سبا وحميرم » ، أي « مواطنو سبأ وحمير » .

---

(١) راجع السطر التاسع من النص المنشور في :
Rep. Epi. Sem. Tome V, 2726 Sab.

وترد لفظة « جوم » « كوم » في النصوص السبئية القديمة بوجه خاص ، مثل هذه الجملة : « هوصت كل جوم »[1] . و « هوصت » بمعنى « ملة » في الإسلام . ويراد بها نظام ديني واقتصادي واجتماعي ، ارتبط أفراده بمجتمع واحد ، برابط الأمور المذكورة[2] . فاللفظتين إذن : لفظة « هوصت » و « جوم » « كوم » ، معان دينية واجتماعية ، وهما تشيران الى مجتمع ديني دنيوي .

وقد كون أولئك الملوك ، كما أسلفنا ذلك مفصلاً ، حكومات سبق بعضها الميلاد بعدة قرون . وأنشؤوا حكومات لم تكتف برقعة اليمن وإنما تجاوزتها إلى مواضع أخرى من الجزيرة ، فبلغت أعالي الحجاز ، وتوغل بعضها في السواحل الإفريقية المقابلة لها ، حاملة اليها الدماء العربية الجنوبية التي امتزجت بالحبش ، ولا سيما في « اكسوم » ، ومن هذا الامتزاج في الدم تولدت نظرية الحبش في نسل ملوكهم من سليمان ومن زوجه ملكة سبأ .

ولم يكن الملوك في العربية الجنوبية ملوكاً مطلقين في إدارة أعمالهم بسبب نفوذ رجال الدين والاقطاعيين ، ففي « معين » مثلاً كان الملك يستشير كبار الموظفين في أمور اختصاصهم . وقد انتهت إلينا وثائق يظهر منها أنه كان في « معين » طبقتان من الموظفين يتولون الفصل في شؤون المياه وتوزيعها . وإذا علمنا ما للمياه من أهمية في تلك الأرضين ، عرفنا أهمية هذه الهيأة التي نيط بها هذا العمل[3] .

وقد كان الملوك يستشيرون في أمور الدولة كبار رجال الدين ورؤساء القبائل والموظفين ، يدعونهم لأخذ رأيهم في أمور السلم والحرب ، وفي النظر في المشكلات التي تتعرض لها

---

(١) Glaser 484.

(٢) Rhodokanakis, Stud.. II, S. 8, WZKM, 28, 110, note: 2.

(٣) Handbuch,, II, S. 87 f., 92,

الدولة ، يجمعونهم في مجلس يسمى « مزود [1] » ، ومتى قرر هـذا المجلس شيئاً عرض على المجالس القبيلية ومجالس المدن كذلك للنظر فيها ولبيان رأيها فيما اتخذته من قرارات ، ولا سيما في أمور الضرائب التي تهم الناس . فإذا أقرت المجالس تلك القرارات ، صار من واجب سيد القبيلة تنفيذها على أتباعه وتوزيع الضرائب عليهم ، وجمعها منهم ، لتقديمها إلى الحكومة بمقدار ما اتفق عليه .

وأمـا إذا عارضت المجالس القبيليـة أو مجالس المدن تلك القرارات ، فتعاد الى مجلس الشورى أي « المزود » للنظر فيها ولاتخاذ قرار في هذا الشأن .

ولا يعني وجود هذه المجالس في اليمن أن النظام هناك كان نظامـاً نيابيـاً يمثل الأمة تمثيلاً كاملاً على نحو ما نفهم من التمثيل في « المجالس » في الزمن الحاضر . فلم يكن أعضاء المجالس يمثلون أتباعهم تمثيلاً انتخابياً ، وإنما كانوا معينين تعييناً لا دخل للأفراد فيه ، ولا رأي للسواد من الناس في تمثيل العضو في المجالس . مثلوا لأنهم أشراف ، أو لأنهم أثرياء أو اقطاعيون أصحاب أرضين واسعة ، أو لأنهم رؤساء قبائل أو من كبار الموظفين ، فهم الصفوة والخيرة ، وعندهم العقل والرأي والسداد ، فمن حقهم وحدهم تمثيل قومهم وناسهم والتكلم باسمهم في تلك المجالس . وعلى هـذا النحو من التمثيل تكونت تلك المزاود التي تحكي « دار النـدوة » في قريش على ما يفهم من كتب الأخبار .

وفي قرارات الـ « مزود » ، أي دور الندوة عند العرب الجنوبيين والتي هي بمثابة مجالس نيابية عندهم ، توقع المحاضر في الغالب بلفظة « مثبت » من أصل « ثبت » ، وذلك دلالة على اتخاذ القرارات والموافقة عليها [2] .

(١) الحرف الثاني حرف لا وجود له في أبجديتنا ، وهو بين الزاي والسين . وقد عبرت عنه بحرف الزاي ، لأنه أقرب الحروف نطقاً اليه .

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 85.

ونجد هذه المجالس في معين وسبأ وأوسان وقتبان ، وفي قبيلة « سمعي » وهي من القبائل التي تمتعت باستقلال محلي [١] .

و « المزود » هو أيضاً مجلس كبار الإقطاعيين من الكبراء والأقيان والأقيال والأذواء وغيرهم من أصحاب الجاه والنفوذ ، يجتمعون لتقرير الموضوعات المهمة ، مثل الأمور الإقتصادية ، كفرض الضرائب واستثمار الأرض والعقار ، واعلان حرب ، أو عقد صلح ، وما شابه ذلك . فإذا أقرت الموضوعات وتوصل الحاضرون الى قرارات ، صدرت بها مراسيم تشريعية ملكية تعلن للناس وتبلغ للقبائل لإقرارها وتنفيذها ، وقد حفظت الكتابات جملة قرارات من هذا النوع [٢] .

ويشبه هذا المجلس المجالس العشائرية : المجالس التي تكون في داخل القبيلة الواحدة ، يؤلفها وجهاء القبيلة وذوو الوجاهة والسن فيها ، للبحث في شؤون القبيلة الداخلية ، وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى وبالدولة في موضوع الضرائب والقوانين التي يصدرها الـ « مزود » وأمور الأرض . فإذا وافقت عليها ، والغالب هو حدوث ذلك ، طبقت القرارات على أرض القبيلة ، فإذا لم توافق عليها أعيدت الى مجلس القبائل والدولة العام لإعادة النظر فيها ، وتعرف هذه المجالس بـ « ع هـ ر و » « عهرو » [٣] .

وكما تعلق الشعوب في الزمن الحاضر نعوت التفخيم والاحترام على مجالسهم التمثيلية ، كذلك أطلقت الشعوب الماضية مثل هذه النعوت على مجالسهم وحكامهم . فأطلق العرب الجنوبيون لفظة « منمن » مثلاً على المزود ، فورد : « مزود منمن » في بعض الكتابات [٤] ،

---

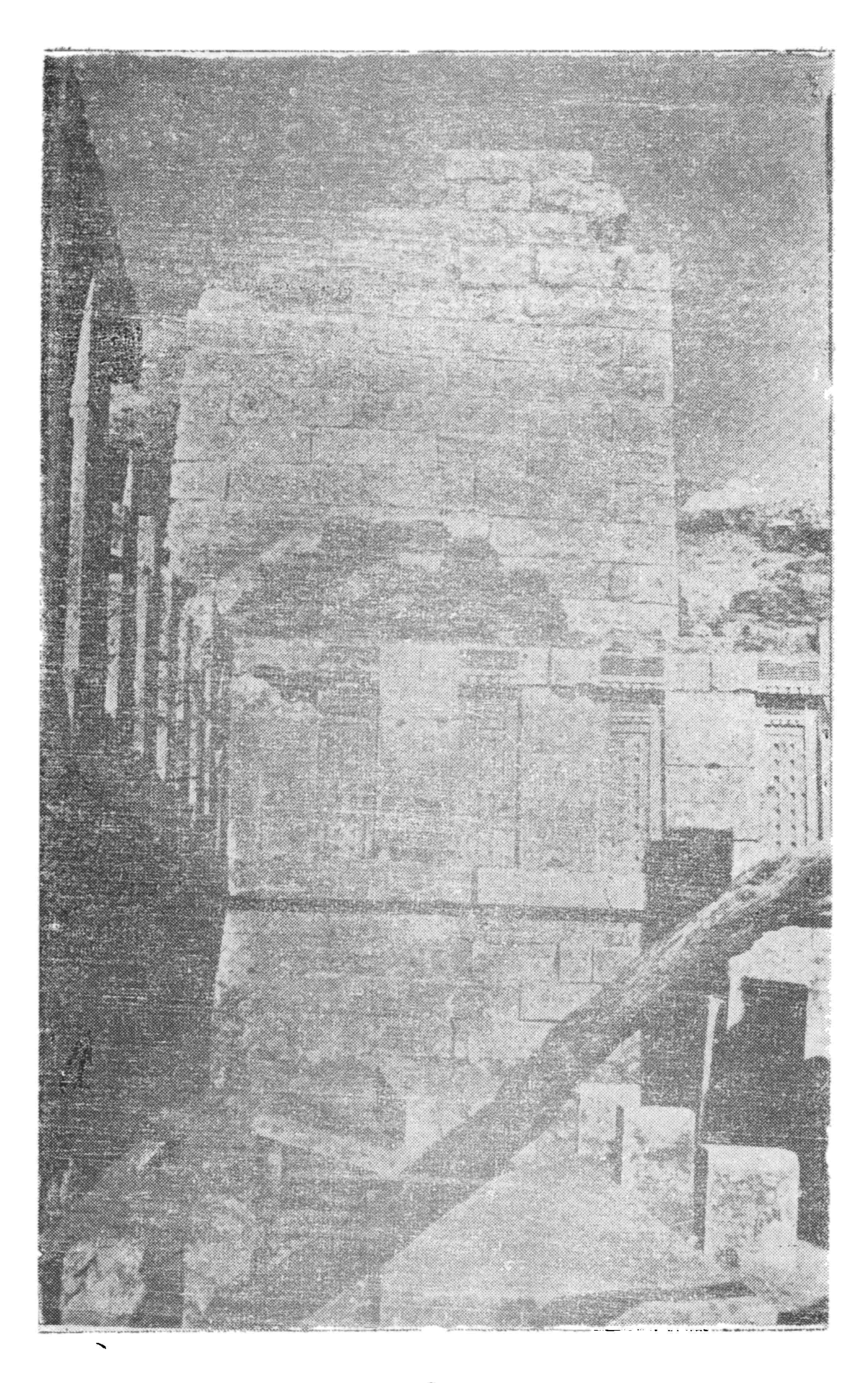
(١) Handb., S. 122, anm. 2, Glaser, 1000, 1210.

(٢) Handb, S. 122.

(٣) kataba. Texte., 1, S. 78, anm 3. f, S. 79, Handb. S.122.,anm. 2.

(٤) راجع الفقرة الثالثة من النص :

Glaser 1150, Halevy 192, 199.



معبد أوّام

من كتاب : Qataban and Sheba

(الصفحة ٢٧٢)

بمعنى « المزود المنبع » . وربما أطلقت اللفظة على العضو فى هذا المجلس كذلك [1]. ولكننا لا نعرف ذلك معرفة أكيدة ، وربما كانوا يطلقون نعوت تفخيم وتعظيم أخرى على أعضاء هذا المجلس . وقد رأينا أنهم كانوا يستعملون ألفاظ التعظيم والتقدير حين يذكرون المكربين والملوك والسادة والأمراء .

وإذا تحدثنا عن الملك ، فلا بد لنا من الإشارة إلى ذوي قرابتـــه ورحمه وهم بالطبع أشراف المملكة وأخيارها بنظر الحكومة ، ولهم امتيازات وصلاحيات وأملاك واسعة وخُدّام يقومون بخدمتهم فى قصورهم وأرضيهم ، ولهم تجارات تدرّ عليهم أرباحاً طائلة . وأموال هذه الأسرة ، وكذلك أموال الملك هي من الأرضين الممتازة الخاضعة لحكم التاج . تديرها الأسرة المالكة ، ولها امتيازات خاصة بالطبع . وقد يؤجرهـــا الملك للقبائل أو الكبار لادارتها بموجب اتفاقات خاصة تعقد وتسجل لأمد معين [2] .

وقد عرف أحباء الملك وأصفياؤه والمقربون والمتوددون اليه بـ « موددت [3] » . من أصل «ودد» ، والودّ المحبة . ولم يكن هؤلاء من صنف واحد ، وإنما كانوا أنماطاً وأخلاطاً وصنوفاً مختلفة متباينة ، ولكنها كلها كانت من الطبقة الوجيهة النبيلة التي تمثل « الارستقراطية » فى المملكة ، فيها الاقطاعيون أصحاب الأملاك ، وفيها كبار التجار أصحاب المال الكانزون للذهب والفضة والثراء ، وفيها كبار الموظفين ، اصطفاها الملك لسمره ومنادمته ، فصارت الصفوة المتوددة المقربة اليه .

وقد وردت لفظة « حذار » « حذأر » في بعض الكتابات المعينية بمعنى أحباء الملك

---

(۱) Rhodokanakis, Stud., II, S. 66. f.

(۲) Die Bodenwirtschaft, S. 8, f., 15. f.

(۳) راجع الفقرة الأولى من النص :

Glaser 1150, Halevy 192, 199, Rhodokanakis, Stud., II, S. 54.

وأصفيائه ، كما أطلقت على طبقة معينـة تحمل درجة عاليـة في الدولة ممن أنعم عليهم الملوك بالأوسمة وبألقاب الشرف [1] .

ويعبر عن وجيه القوم وذي المنزلة والمـكانة بلفظة « كهثم » . وأما الوضيع والخـامل والصغير فيعبر عنه بلفظة « قطنم » ، كما في هذه الجملة : « كل انسم كهثم وقطنم » [2] . ومعناها : « كل انسان : كبير وصغير » ، أو « كل انسان وجيه ووضيع » .

وكان رؤسـاء العشائر أصحاب الأملاك يتقلدون الوظائف العالية في حكومة معين ، وكانوا يتولون جمع ضرائب الدولة وإدارة الأقاليم ، أقرهم الملك على ذلك ، بعد موافقة مجلس الإقطاعيين ، أي « المزود » ، عليه [3] .

ولم تتحدث لنا الـكتابات عن الصلاحيات والأعمال التي كان يقوم بها الملوك ، ولـكننا نستطيع بالطبع أن نقول قولاً عاماً إن سلطات الملك كانت كسـلطات الملوك الآخرين في الأقطار الأخرى ، تتوقف على شخصية الملك ونفوذه وقدرته ، فهو ملك ذو سلطان واسع مطلق ، أوامره قوانين وإرادته مطاعـة ، يحدد سلطان المتنفذين ويخضعهم لحـكمه إن كان صاحب شخصية قويـة وعزم ، وهو مغلوب على أمره يحكم أسماً إن كان ضعيفاً خائر العزم ، وتحكم المملـكة العناصر القوية صاحبة النفوذ من أبناء الأسرة المالـكة أو من رؤساء القبائل أو رجال الدين ، فعلى هذه الأحوال إذن ، كانت تتوقف سلطات الملك وأعماله في المملـكة .

فهناك في الممالك العربية الجنوبية طبقات ، منها طبقة الـ « كبر » ، أي « الـكبير » .

---

(١) Rhodokanakis, stud., II, S. 60.

(٢) راجع النص Glaser 509 ، Rhodokanakis, stud., I, S. 68.
« والقطين : الخدم والأتباع والحشم ، وفي التهذيب : الحشم الأحرار والقطين المماليـك . والقطين : الإماء » ، اللسان (١٧/٢٢٢) .

(٣) Handbuch, S. 133, Rhodokanakis, Stud., II, S. 149, anm. 3, Katab. Texte, II, 521, anm. 31, S,, 67 anm. 2.

وتعني ممثل الملك على مقاطعة أو لدى قبيلة ، كما تعني رئيس القبيلة فى بعض الأحيان ، وذلك كما يفهم من معنى الكلمة الواضح الصريح . وقد كان لهؤلاء « الكبراء » منزلة كبيرة فى المجتمع تلي منزلة الملك فى الأهمية والدرجة . وقد حملت الكتابات أسماء طائفة منهم ، أرخ بهم بعضها ، وفى ذلك دلالة على أهميتهم بالطبع . ولا تعني هذه اللفظة فى الواقع وظيفة معينة خاصة ، أي درجة ثابتة ، بل هي رئاسة قد تكون على موظفين فى الحكومة ، وقد تكون على مقاطعة مثل « كبرددن » أي « كبير ديدان » ، المقاطعة العربية المعينية الشمالية فى أعالي الحجاز (١) . وقد تكون على قبيلة ، أي رجلاً عينه الملك رئيساً على القبيلة . إما عينه هو بالذات ، وإما اعترف به ، لتعيين القبيلة له رئيساً عليها ، بانتقال الرئاسة اليه بالإرث ، أو بالانتخاب .

فالكبراء إذن هم رمز رؤساء الأسر وحماتها ، وكبار حكام الدولة والموظفين ، وجماعة كبار الإقطاعيين . فهم كبار الأحرار فى الأرض من أصحاب الأملاك أو التجار أو كبار محترفي السياسة في البلاد (٢) . وقد كان لرجال الدين « كبراء » كذلك . فالكبير فى العربية الجنوبية إذن هم وجيه القوم ، والنخبة التي بيدها الحكم والوجاهة والنفوذ فى البلاد ، كما يفهم ذلك من المعنى الواضح للفظة « كبر » .

ومن أشهر الكبراء « كبر خلل » ، أي كبير خليل وخليل عشيرة قديمة . وقد ذكر كبيرها فى الكتابات السبئية القديمة ، كما ذكر فى الكتابات المتأخرة كذلك . وقد أرخ بهؤلاء الكبراء عدد من الكتابات السبئية . ويظهر أن « كبير خليل » كان كاهناً ، أي رجل دين فى الأصل ، يشرف على معبد « عثتر ذو ذبن » . ويقدم الذبائح الى هذا المعبد ،

---

(١) Rhodokanakis, Kat. Texte., Bd. I, S. 75.

(٢) Handbuch S. 130.

ويدعو الآلهة لإنزال المطر، [1] ودعوته آلهته لإنزال المطر، هو بمثابة صلاة الاستسقاء.

وقد كان يحكم حضرموت فى النصف الأول من القرن السادس للميلاد «كبير»، «كبر حضرموت»، وقد ذكر فى نص «أبرهة» فى جملة من وفد على أبرهة بعد إتمامه سدّ مأرب [2]. وقد ذكر هذا الكبير أيضاً في جملة الأقيال الذين كانوا فى طاعة أبرهة وخدمته، ولعله هو الذي كان عينه كبيراً على هذه المنطقة.

أما الأقيال الآخرون الذين ورد ذكرهم معه فى هذا النص، فهم: أقيال أكسوم، وذومعاهر ابن الملك، ومرجزف، وذو ذرنح، وعدل، وذوفيش «فائش»، وذوشولان، وذو شعبان، وذو رعين، وذو يزأن «ذو يزن»، وذو ذبيان، وذو فرنت [3].

وتتألف طبقة «الأقيان» من الأمراء ومن ممثلي الملك فى المدن، ومن الموظفين ومن رجال الدين [4]، ويقال للواحد منهم «قين». وقد ذكر الأقيان فى الكتابات القتبانية وفى الكتابات السبئية وفى الكتابات المعينية.

ويظهر من بعض الكتابات أن الأقيان كانوا يخضعون الى «كبير» [5] كما يتبين ذلك من كتابات «شبام اقيان» «شبم اقين» و «عمران» من مرثد من قبيلة «بكيل» [6].

---

(١) Handbuch, S. 130, Kataba. Texte, II, S. 53, 67 anm 2.

(٢) راجع السطرين ٨٦ و ٨٧ من نص أبرهة : Cis 241, Glaser 618. المنشور في الصفحة ١٨٦ وما بعدها من الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥٦ . و Glaser, Zwei inschriften über den dammbruch von marib, S. 68. ff, Cis., IV, II, III, P, 278.

(٣) من السطر ٨٦ الى السطر ٨٨ من النص المذكور.

(٤) Handbuch., S. 131, AI, 9.

(٥) Halevy 150, Handbuch., S. 131.

(٦) Handbuch., S. 132, M. Hartmann, Die arabische Frage, S. 231, Studien II. S 149 177, Halevy, 174, 621, Fr. Hommel, Grundris, 687.

وقد ذهب « ويبر Weber » الى أن الـ « قين » والـ « رشو » هما شيء واحد [1].

أما « هارتمن Hartmann » ، فيرى أن القين شيء والرشو شيء آخر ، وأن القين وظيفة دنيوية ومركزحكومي . أما الرشو فإنها منزلة دينية ، فهي « كاهن » إلـه ما ، وتمني رئاسة دينية . وقد تستخدم لفظة « قين » لأداء المعنيين . أما « رشو » فانها لا تستخدم إلا في الأمور الدينية وفي التعبير عن منزلة كهنوتية . وإذا أخذنا « قين » بهذا المعنى المزدوج ، فإنها ستكون إذن اصطلاحاً يشمل منزلة دينية واجتماعية في الوقت نفسه ، فتطلق على رجل الدين ، كما تطلق على الموظف الكبير . والأصح في رأي غالبية علماء الآثار العربية الجنوبية أنها وظيفة إدارية تشمل ادارة منطقة من المناطق ، يشرف القين عليها من الناحيـــة الاقتصادية والإدارية بتعيين من الملك [2].

وقد ورد في نص عثر عليـه في « حرم بلقيس » ورمز اليه بـ « Glaser 481 » اسـم كاهن ، أي رجل دين « رشو » عرف بـ « تبعكرب » ، كان « قينا » في الوقت نفسه على « سحر » . ويدل ذلك على أن رجل الدين هذا ، كان يجمع بين سلطتين : سلطة دينية هي درجة « رشو » ، أرفع درجة عند رجال الدين السبئيين ، ودرجة « قين » التي تعادل درجة الوالي أو الحاكم [3].

ويراد بلفظة « قولن » « قول » « قيل » [4] ، وجمعها « اقولن » « أقولن » « أقيال » كبار الإقطاعيين من أصحاب الأرضين الواسعة ، وتطلق على رؤساء القبائل كذلك . فهي من المصطلحات

---

(١) Weber, studien, III, s, 43

(٢) Weber, Studien, III, S, 43, Hartmann, Arab. Frage, 181, Rhodokanakis, Stud., II, S, 22. f.

(٣) راجع الفقرة الأولى من النص الموسوم بـ : Glaser 481
Rhodokanakis, Stud , II, 15.

(٤) راجع نص أبرهة المرقم بـ : Glaser 618. Cis 241

التي تعني الرئاسة والزعامة . ويقال لهم : « الأقيال » في عربية القرآن الكريم [١] .

وفي الكتابات التي تعود الى قبيلة « سمعي » ، نجد طائفة ذات أهمية ومنزلة في قومها تحمل لقب « قيل » . ونجد هذا اللقب في « بكيل » ، يحمله « آل مرثد » ، ونجده كذلك في « ردمان » و « خولان » والمناطق المصاقبة لها [٢] ومنزلة « القيل » ، هي فوق منزلة أعضاء الـ « مزود » وجماعة الـ « قصد » [٣] .

وقد كانت « سمعي » مشيخة من أقيال ، ثم تحولت الى مملكة صغيرة . وقد كان أقيالها أقيالاً على قبيلة « يهبب » « يهيبب » كذلك . وكان حكام سبأ القدماء ، قد أقطعوهم أرضين واسعة ، ثم منح حفدتهم ملوك سبأ المتأخرون دخلاً خاصاً [٤] .

ونجد « الاقيال » في أماكن أخرى أيضاً . وقد كان على مدينة « صرواح » حاكم درجته درجة قيل . وقد ورد ذكر « لأقيال حمير » في نص « حصن غراب » ، وورد معهم ذكر « كبور »[٥] . وذكر الأقيال في نص أبرهة ، فأشير فيه الى « أقيال سبأ آل سحر : مرة ، وثمامة ، وحنش ، ومرثد ، وحنيف ، وذو خليل . وكذلك آل أزن : الأقيال معد يكرب بن سميفع ، وهمان ، وإخوته بنو أسلم » ، كما أشير فيه إلى أقيال كانوا مع أبرهة وفي جانبه وخدمته [٦] . ويفهم من هذا النص أنه كان للأقيال في هذا المهد شأن خطير ، وأن لقب قيل كان يعادل لقب « كبير » في الأيام المتقدمة ، أيام منافسة الكبراء للملوك ، وذلك قبل الإسلام بأمد .

---

(١) « والقيل الملك من ملوك حمير ..... وقال ثعلب : الأقيال الملوك من غير أن يخص بها ملوك حمير » ، اللسان (١٤/٩٩) .

(٢) Os. 35, CIH 314, Glaser, 1076, Handb., S. 133.

(٣) Handb., S 132.

(٤) Handb S. 132

(٥) Glaser 1571, CIH 398, Handb., S, 132, anm 9

(٦) نص أبرهة : (CIs 241, Glaser 618 (+553 + 555 + 556 ، وكذلك ترجمته وأصله المنشور في الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٦ (ص١٨٦ وما بعدها) .

وترد في الموارد الإسلامية درجة أخرى تذكر عادةً مع الأقيال ، هي درجة « ذو » والجمع « أذواء » . ويظهر أنها من الدرجات الإقطاعية التي صار لها شأن في العهود المتأخرة القريبة من الإسلام . وتكتب « ذو » على هذه الصورة : « ذ » في العربيات الجنوبية ، أي بغير حرف واو ، ويعني بها درجة هي أصغر من درجة « قول » ، أي قيل ، وتطلق على أصحاب الأرَضين ورؤساء الاقطاعيات ، كما تطلق على رؤساء القبائل .

ويعبر عن السادة ورؤساء الجماعات والمقاطعات بلفظة «ابعل»« أبعل» جمع«بعل» ، أي سيد ورئيس . وقد استخدمت في الكتابات ذات الصبغة الدينيه مع أسماء الآلهة للتعبير عن معنى الرب والإلـه . وأما لفظة « ربّ » ، فتؤدي معنى سيد ورئيس كذلك ، أي معنى بعل ، ولكنها لم تستخدم كثيراً في النصوص الدينية القديمة بمعنى إلـه ، وإنما استخدمت بهذا المعنى في النصوص المتأخرة على الأكثر ، على عكس لفظة بعل التي استخدمت كثيراً في النصوص الدينية القديمة بمعنى إلـه . وهي من الألفاظ السامية القديمة التي وردت في معظم لغات الساميين .

وقد ذهب « رودوكناكس Rhodokanakis » الى احتمال وجود طبقة خاصة من الموظفين عرفت بـ « ابعل سـير » ، كانت تحكم الى جانب الطبقة المثمنة المؤلفة من الأشخاص الثمانية التي ورد ذكرها في النص : « Halevy 147 » [1] .

وقد عرف أصحاب الأملاك في الكتابات القتبانية بـ « ط ب ن ن » «طبنن»[2]، وكانوا يشتركون في الـ « مزود » أي المجالس الاستشارية للشعب . وعند ظهور الإسلام ، كان لأصحاب الأرَضين أي لأصحاب الإقطاع نفوذ كبير في اليمن . والظاهر أن الاحتلال الأجنبي الحبشي ثم الفارسي قد ساعد كثيراً على ظهور الإقطاع لرجائهم الاعتماد عليهم في

---

(١) Rhodokanakis, stud lexi, I s, 57 f

(٢) Handb, s, 129, 125 « رجل طبن : فطن حاذق عالم بكل شيء » ، اللسان (١٧/١٣٢) ، القاموس (٤/٢٤٤) .

تثبيت أقدامهم فى تلك البلاد .

ويستفاد من إحدى الكتابات أن لفظ « طبنن » هو فى مرادف قبيلة ، وهو بمنزلة الـ « مزود » [١] . ويمكن أن نقول إنه مجلس أصحاب الأملاك ، ورؤساء أفخاذ القبيلة المالكين ، وإن هذا المجلس يأتي بعد « المزود » في الأهمية عند القتبانيين .

ويقابل طبقة الملاكين « طبنن » القتبانيين ، طبقة دعيت بـ « مسخنن » فى اللهجة السبئية . وقد وردت هذه التسمية فى الكتابات السبئية القديمة وفى الكتابات التى تعود الى عهد « ملوك سبأ وذى ريدان » [٢] . وتشمل هذه اللفظة الملاكين الذين ورثوا ملكهم من عقار وأرض [٣] .

وقد كان لطبقة قواد الجيش أهمية كبيرة فى العربية الجنوبية ، ونفوذ واسع ، لقبضتهم على الجيش ، ويعرف القائد بـ : « ق س د ن » « قسدن » أى « القاسد » ، وتقابل لفظة « القائد » [٤] . وقد ظل هذا الاستعمال معروفاً فى العهد الحبشي كذلك لوروده فى نص « أبرهة » . ولكن هذا لايعني أن « القاسد » كان عسكرياً صرفاً محترفاً ، مختصاً بقيادة الجيش ، فقد كان القوّاد من رؤساء العشائر ومن الوجهاء والكبراء ، يقودون أتباعهم في أثناء الحروب . أما في أثناء السلم ، فيعودون الى أعمالهم الاعتيادية ، كإدارة الأرض أو العشيرة . ولهذا ، ففي أستطاعتنا أن نقول إن من بين قوّاد الجيش أناساً لم يكونوا من المتخصصين بالقيادة وبشؤون الحرب ، وإنما هم قوّاد متطوعون ورؤساء تضطرهم مراكزهم على قيادة أتباعهم فى أمثال هذه المناسبات .

وقد عرف القوّاد كذلك بـ « م ق ت و ى » « مقتوى » فى الكتابات

---

(١) السطر الرابع من النص : Glaser, 1606

(٢) CIs, 60

(٣) Handb., s, 122

(٤) « القسود : كقتول : الغليظ الرقبة القوي » ، اللسان (٣٥٢/٤) ، القاموس (٣٢٧/١) .

السبئية (١) ، كما في هذا النص : « مقتوى شمر يهرعش (٢) » ، أي « قائد شمر يهرعش » ، وشمر يهرعش هو ملك سبأ وذي ريدان الشهير .

وفي أواخر عصور الملكية في سبأ ، نجد طبقة الأشراف وقد أزداد نفوذها وقوي سلطانها ، فنازعت الملك على صلاحياته في بعض الأحيان . وصار لرؤساء القبائل نفوذ قوي في المملكة ، حتى قلصت حكم الـ « مزود » ، واستأثرت بالأرض ، واحتكرتها ، فاضطر الملوك الى النزول عن حقهم في الأرضين الى أولئك الرؤساء في مقابل اتفاقيات تحدد الواجبات والمبالغ التي يجب على رئيس القبيلة أن يقدمها الى الملك في مقابل استغلاله للأرض ، ويقوم الرئيس بإيجار أرضه لأتباعه المتنفذين في القبيلة أو لأفراد قبيلته الاعتياديين ، يتقاضى على ذلك أجراً يتفق عليه . فتحولت المملكة بذلك الى دولة إقطاعية ، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف وإقطاع لطبقات معينة متنفذة .

ويعبر عن علاقة مرؤوس برئيس وتابع لمتبوع بلفظة « مراس » « مرأس » ، وتؤدي معنى « الرئيس » في عربيتنا ، كما في هذه الجملة : « مراسو يصدق ال فرعم شرحمت ملك اوسن (٣) » أي « رئيسه يصدقئيل الفارع شرحمت ملك أوسان » . أما في اللهجات التي تستعمل حرف الهاء عوضاً عن السين مثل السبئية ، فتستعمل لفظة « مراه » بمعنى « رئيس » . يستعملها الإقطاعيون والكبار حين تحدثهم عن الملك ، يضعونها قبل الاسم للدلالة على سلطة الملك أو الملوك عليهم ، وعلى خضوعهم له أو لهم ، واعترافه أو اعترافهم بسلطانه أو بسلطانهم عليهم . وقد استعملت بالنسبة الى الآلهة كذلك ،

---

(١) Rep. Epi. Semi., VII, p. 149, Num. 4220

(٢) Rep. Epi. Semi., Vol., I, III, P. 151, Num. 184.

(٣) Rep. Epi. Semi.. VII, p. 158, Num., 4232.

كما في هذه الجملة : « لراهو عثتر ذ صنح » [1] ، أي : « لسيده عثتر ذي صنع » . وعثتر هو اسم إلـه .

ومن النصوص التي وردت فيها هذه اللفظة نص أبنة ، وقد وردت فيه في هذه الجملة : « مت امرس مراسو » [2] ، ومعناها : « بأمر مرؤوسه » و « بأمر سيده » .

أما « لفظة » ، « شيمهو » بمعنى « سيده » و « ربّه » ، فتستعمل في النصوص الدينية ، وللآلهة في الغالب ، كما في هذه الجملة : « شيمهو تالب ريمم » [3] ، وتعني « سيده تالب ريام » .

وأدنى الطبقات منزلة في المجتمع ، هي طبقة العبيد ، وهي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الانسان الحرّ من ممارستها . وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج المستوردين من إفريقية . وقد كان هؤلاء ملكاً يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة ، ويتصرف صاحب العبد به تصرفه بملكه الخاص ولم يخوله القانون ابداء رأيه في مستقبله في أية حال من الأحوال ؛ لأنه ملك وبضاعة مملوكة ، وإن كان إنساناً حياً له ما لكل إنسان من روح وإدراك وشعور .

ويعرف العبد والعبيد في الكتابات العربية الجنوبية بـ «ادم» و« ادومت[4] » . وتقابل لفظة « ادم » كلمة : « آدمي » و « اوادم » في العراق ، بمعنى خادم وخدم . وقد وردت في الكتابات المعينية[5] وفي الكتابات الأخرى . ووردت على هذه الصورة : « ادىمت» «اديمت»

---

(١) المصدر نفسه ص ٣١٠ .Num. 4673

(٢) Rhodokanakis, stud., II, S. 48.

(٣) Rep. Epi. Semi., VII, P. 471, Num. 4994.

(٤) Glaser 1398.

(٥) راجع النقش رقم ١٦ (ص ٢٣) من كتاب خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين .

و « أدوم » فى الـكتابات القتبانية المتأخرة [1] .

ومثال ما جاء فى السبئية : « وكل قنيهو وادمهو » [2] ، أي « وكل مقتنيـــائه « وأوادمه » و « عبيده » ، وجملة : « ادمهو وهباوم [3] » ، أي « عبدهم وهب أوم » ، وأمثلة عديدة أخرى .

وتؤدي لفظة « ادم »[4] معنى التبعية ايضاً ، وأعني بالتبعية الاعتراف بسيادة رئيس على مرؤوس . فقد كان أصحاب الاقطاع يؤجرون الأرضين لمن لا أرض لهم ، ومن لا مال لهم ، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها ، ويكونون تبعـاً لهم . ويعبرون عن هـذه التبعية بتلك اللفظة المعبرة عنها .

وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى، خاصة في النصوص المتعلقة بقبيلة : « سخيم» [5]. وهي ذات أملاك واسعة وأرضين خصبة ، أجرتها لمن لا أرض له من الوافدين عليهـا من الأماكن الأخرى ، لتستغل هذه الأرضين ، وتعيش عليها ، معترفة بذلك أنهـا فى حماية هذه القبيلة وفى خدمتها .

أما لفظة « عبدم » [6] بمعنى « عبد » و « عبدن » بمعنى « العبد » ، فإنها لا تعني مملوكاً زنجياً ، أورجلاً أسود وإن تمتع بحريته بعد تحرير رقبته كما يفهم ذلك من هذا المعنى عند

---

(١) Glaser, 1398, Hand. der altar alter., S. 122, anm. 4.

(٢) Rep. Epi. Semi., VII, P. 279, Num. 4624.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٩٦ الرقم ٤٦٥١ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٠١ ، رقم ٤٦٥٩ وص ٣٠٢ ، رقم ٤٦٦٠ ، ص ٣٠٣ ، رقم ٤٦٦٢ .

(٦) « عبد هو وهبم » أي « عبده وهب » ،

Rep. Epi. Sem., Tome VII, P. 148, Num 4217.

« عبد همو لحيمث » أي « عبدهم لحيمثت » ،

Rep. Epi Sem., VII, P. 155, Num. 4230.

كثير من الناس ، وإنما تستخدم في التعبير عن العبودية المنوية في الغالب ، مثل نسبة عبودية الإنسان للآلهة أو للملوك أو للكبار ورؤساء المشائر ، فهي لا تعني إذن عبودية حقيقية بالضرورة ، أي عبودية امتلاك وطبقـة معينة خاصة مملوكة تقابل طبقة الأحرار ، فتلك الطبقة هي طبقة الـ « ادم » .

وقد ورد في بعض النصوص لفظ : « ا ج ر م » « اجرم » بمعنى «أجير» و«أجراء» . ويعني الأشخاص غير الأحرار الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم الأحرار أصحاب الأرضين أو أصحاب المال . وقد كانوا طبقة من الطبقات ، بدليل ذكرهم في هذه الجملة : « كل معنم حرم واجرم »[1] ، أي : « كل معين أحرار وأجراء » . ويقصد بـ « كل معين » كل شعب معين . والأجـراء هم أكثر حرية بالطبع من الـ « ادم » ، أي العبيـد ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها . فإذا انتهى العقد ، أو حصل خلاف ، جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، أو الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين .

ويعد « المولى » في طبقة المملوكين ، أي الجماعة الداخلة في طبقة الرقيق ، فهي من غير الأحرار . ولا يشترط في المولى أن يكون أعجمياً ، أي من أصل غير عربي ، فيقع الولاء على العرب كذلك ، كأن يؤسر ، أو يقع في غنيمة قطاع طرق ، فيكون ملـكا لهم ، يبيعونه في الأسواق إذا كان صغيراً أو شخصاً ليس له صـاحب ومعين يحتمل فداءه من مغتصبيه ، فيقع عندئذ في ملك من قبض عليه . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى عدد كبير من هؤلاء ، ومن جملتهم « زيد بن حارثة بن شراحيل الـكلبي » ، مولى خديجة بنت خويلد زوج الرسول ، ثم مولى الرسول . فقد كان من كلب . أصابته خيل من بني القين بن جسر ، وكان قد خرج مع أمه لتزيره أهله ، فباعوه بسوق حباشة من أسواق العرب وهو

---

(١) النقش رقم ٥ الفقرة ٣ من كتاب : نقوش خربة معين (ص ٥) .

يومئذ ابن ثمانية أعوام ، ثم أعتقه الرسول [1] .

ويقابل أهل الوجاهة والمنزلة فى المجتمع ، من يطلق عليهم « ص غ ر م » « صغرم » «صغيرم» ، أي صغير وصغار جمع صغير . ولفظة صغير بمعنى « قطنم » « قطن »أيضاً [2] .

ويرادالسواد الأعظم من الناس ، ممن لا وجاهة لهم ولا مركز لدى الحكومة والمجتمع ، كما فى هذه الجملة « كبرم فاو صغرم » [3] ، ومعناها « كبير أو صغير » .

ومن هنا نستطيع تقسيم المجتمع الجاهلي بصورة عامة الى طبقتين : أحرار ، وعبيد . ونقصد بالعبد كل من كان فى ملك إنسان آخر سواء أكان هذا العبد مملوكاً أبيض أم أسود ، ذكراً أم أنثى ، فهو فى حكم البضاعة أو الملك . أما « الحر » — وهو كل انسان له حق التصرف بنفسه — ويقال له « حرم » فى العربيات الجنوبية بمعنى « حرّ » و « أحرار » ، فلا يباع ولا يشترى ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، بالغاً أم غير بالغ . ويقال للجمع « احرر » أي « أحرار » ، مثل « احرر يهبار » [4] ، بمعنى « أحرار يهبأر » .

والأحرار وحدهم هم الذين يحق لهم الإفصاح عن آرائهم فى سياسة الدولة . وللسادة الرؤساء حق ابداء الرأي والمشورة فى المسائل التي تخص أمور الرعية واتجاه الحكومة وفى القضايا الكبرى ، وذلك فى الـ « مزود » ، أي المجلس الذي يحضره كبار الشعب السادة . وقوامه كبار أصحاب الأرضين والسادة رؤساء القبائل و « الكبراء » وأقرباء الملك ، فيتناقشون فى هذا المجلس فى الأمور المهمة ، ويبدون رأيهم للملك .

---

(١) الروض الأنف (١/١٦٤) .

(٢) « والقطين : اتباع الملك ومماليكه . والقطين أهل الدار. والقطين : الخدم والأتباع والحشم . وفي التهذيب : الحشم الأحرار والقطين المماليك ، والقطين الإماء . » ، اللسان (١٧/٢٢٢) .

(٣) راجع الفقرة السادسة من النص الموسوم بـ : Osiander 35.

(٤) Rep. Epi. Semi., VII, P. 416, Num. 4912, Philby 84.

وهناك طبقة لم تكن من طبقة الأحرار ولا من طبقة العبيد ، وإنما كانت بين بين . طبقة محكومة غلبت على أمرها ، فاحترفت الزراعة ، وأصبحت تابعة للأرض خاضعة لها ولأصحابها ، أو احترفت حرفاً أخرى كالحدادة والنجارة والبناء وما شاكل ذلك ، عرفت بـ « بكل » « بكيل » [1] . ويظهر أنها فقدت حقوقها وصارت من مواطني الدرجة الثانية بسبب الخسائر التي منيت بها في الحروب ، وبتغلب غيرها عليها ، فقد كانت في مدينة « نشق » مثلاً ، وهي من مدن « معين » ، جماعة تشتغل لحساب سادتها السبئيين الذين استولوا على المملكة وضغطوا على المعينيين فجعلوهم دونهم في الحقوق حتى غدوا مواطنين من الدرجة الثانية .

وسكان الدولة من مواطنين أحرار و « ادم » أي غير أحرار ، كلهم بصنفيهم « شعب » تلك الدولة ، وشعب الملك إن كانت الدولة دولة ملكية . وذلك كما ورد في هذه الجملة « المس وشيمهس وملكهس وشعبهس بضر وسلم » [2] ، أي « لالهه وحاميه وملكه وشعبه في حرب وفي سلم » . وقد كنى صاحب الكتابة بلفظة « شعبهس » أي « شعبه » ، والضمير يعود الى الملك عن شعب « معين » الذي ينتمي اليه صاحب هذا النص . مما يدل على وجود هذا المصطلح القانوني السياسي لدى العرب الجنوبيين في ذلك العهد . والعادة أن يراد بلفظة « شعب » القبيلة في الكتابات الأخرى .

وقد اشتهرت اليمن عند الأخباريين بأنها بلاد المحافد والقصور . و « المحفد » في اللهجات العربية الجنوبية هو « محفدن » بمعنى البرج والمكان الحصين الذي يحتمي به . وقد كان رجال الدين والملوك يبنون المحافد للمعابد وللأرضين الموقوفة على المعابد ، وذلك لحمايتها وصيانتها من اعتداء المعتدين .

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 129. f.

(٢) Glaser 1150, Halevy 192, 199, Glaser 1302, Rhodokanakis, Stud., II, S. 67.

وقد وردت مئات كتابات تفيد أن الكاهن الفلاني أو الملك الفلاني أو الرجل الفلاني قد قام بترميم محفد ما أو ببناء محفد جديد تقرباً للإله الفلاني [1] ، كما وردت أسماء عدد كبير من المحافد التي بنيت في مختلف الأماكن ، وذلك لحمايتها من اعتداء المعتدين .

ولم تقف كتب اللغة على ما يظهر على معنى « محفد » في اللهجات العربية الجنوبية ، بدليل الإشارة المبهمة الواردة فيها عن تلك اللفظة من أن « محفد كمجلس باليمن » [2] . ولم تذكر تلك الكتب شيئاً مفيداً يكشف معنى اللفظة .

ولحماية المحفد وتحصينه وجعله منيعاً قوياً يصد عادية المعتدين يحاط في الغالب بخندق يحفر حوله ، يمنع المحاصرين من الوصول إلى جدرانه . ويقال لهذا الخندق : « خبزت » في اللهجة المعينية [3] . وقد ورد في كتب اللغة أن « الخبز » المكان المنخفض من الأرض [4] . أما الخندق ، فيرى علماء اللغة أنه من الألفاظ الفارسية المعربة . وذكروا أنه من الألفاظ التي تكلمت بها العرب قبل الاسلام [5] .

وترد مع المحافد في بعض الكتابات لفظة : « صحفتن » كما في هذا النص : « كل مبنى محفدن بهر وصحفتن رتع .. » [6] . وقد ترجمت لفظة : صحفتن أي : « الصحفة » بمعنى خندق [7] . ومعنى النص : « كل مبنى برج « حصن » بهر وخندق رتع » .

ويقال للمحفد ، « جنرل » كذلك ، وذلك في الحضرمية ، كما في هذا المثال : « م

---

(١) راجع النصوص ٤ ، و ٥ و ١٢ وغيرها من النقوش المنشورة في كتاب : نقوش خربة معين .

(٢) تاج العروس (٣٣٨/٢) .

(٣) نقوش خربة معين (ص ٢) .

(٤) تاج العروس (٣٢/٤) .

(٥) تاج العروس (٣٣٩/٦) .

(٦) راجع الفقرة : ٢ من النقش رقم ٢٥ المنشور في صفحة (٥) من كتاب : نقوش خربة معين .

(٧) المصدر نفسه .

ذخر مت سير ار جنرلهو انودم » [1] ، ومعناه : « عمذخر مذ سار الى قلعـة « حصن » أنود » . أما لفظة « عررت » ، فتعني « حصن » و « قلعة » كذلك ، كما في هذا النص: « يشع امر بين بن سمه على مـكرب سبا جنا عررتم حرب » [2] ، بمعنى « يشع أمر بين بن سمهعلي مكرب سبأ . سوّر حصن حارب » « حريب » .

وفي معنى الحصون والقلاع لفظة: « مصنعت » أي « مصنعة » « مصنع » ، ويراد بالمصنعة [3] المحل الحصين المنيع ، الذي يتحصن فيه للدفاع ولصد غارات الأعداء . وقد كانت للإقطاعيين وللحكومة « مصانع » عديدة ، تحتمي بهـا وتحارب فيهـا إبّانَ الثورات والحروب ، كما كانت المعابد حصوناً يتحصن بها ، في « المصنعات » الملحقة بها كما يفهم ذلك من النصوص .

ويعبر الناس عن انتسابهم الى مدينة أو الى قبيلة أو عشيرة أو أسرة بلفظة « اهل » أي « أهل » ، وتعني من و « من آل » [4] . ويلجؤون أحياناً إلى الاضافة فيقولون : « فلان اذمرين » ، أي « فلان الأذمري » للتعبير عن النسبة الى شيء ما .

ومن أمثلة : « اهل » جملة : « اهل جبان » [5] أي « من آل جبئان » و « من جبئان » . وجبئان قبيلة من القبائل العربية الجنوبية التي ورد اسمها في الـكتابات .

وتحاط القرى والمدن بأسوار في الغالب لحمايتها من الغزو ، تقوى بالحصون والأبراج . ويقوم أهل المـدن ببنائها وإقامتها ، وقد يساعدهم المـكربون والملوك في بعض الأحيان . وتخصص هذه الأعمال باسم إلـه أو آلهة المدينـة ، على سبيل التقرب اليها والتبرك بها .

---

(١) Rep. Epi. Semi., VII, P. 392. f., Num. 4852, P. 396, 4856.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١٠ رقم ٤٩٠٤ .

(٣) راجع السطر ٢١ « وسحت مصنعت كدر » أي « وهدم واكتسح مصنع كدر » المنشور في الصفحة ٢٠٢ من الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي .

(٤) راجع النص رقم 27472Sab المنشور في الجزء الخامس من : Rep. Epi. Semi. .

(٥) Rep. Epi. Semi., Tome V, P. 111, Nu. 2771. Min.

وقد يقال إن ما تم كان « بامر ... » بأمر الإآـه الفلاني [1] ، فيسمى ذلك الإآـه .

وترد لفظة « فتلم » أي « فتل » في بعض الكتابات بمعنى مانع وحاجز ، وتؤدي معنى قلعة صغيرة كذلك . فالفتل حصن صغير يحمي المدينة أو القلعة من الغارات [2].

وتحاط الحصون بخنادق ، يطلق عليها « خبزت » ، وتؤدي معنى منخفضات كذلك.

ويقال في العربية الشمالية : انخبز المكان ، بمعنى انخفض واطمأن [3]. وأما لفظة « اخبب » « أخبب » ، من أصل « خب » ، فتعني الخنادق والمنخفضات التي تكون على هيأة السواقي والخنادق [4] .

وللمدن حدود ، ما كان بعدها عُدّ تابعاً للمدينة ، وما كان خارجها عُدّ منقطع الصلة بتلك المدينة . وقد ذهب « رودوكناكس » الى أن لفظة « اود » التي ترد في بعض الكتابات ، تعني « الحد » كما في هذه الجملة « اود هجرن » ، أي « حد المدينة » [5] .

وقد عبر بلفظة « صر » عن الأرضين التي خارج سور المدن والتي تحيط بها ومن الأودية. وتشمل المزارع والمراعي والحقول. وبلفظة « صفر » من الضواحي، أي الأرض التي تحيط

---

(1) « ب ام ر عم » ، « بامر عم » ، أي بأمر « عم » ، و « عم » هو إله شعب قتبان ،
Rep. Epi. Semi., VII, P. 192. f., Num. 4328, 4329.

(2) Rhodokanakis, Stud. Lexi.. I, S, 69. f.

(3) « الخبز ... والمكان المنخفض المطمئن من الأرض ... » ، القاموس (٢/١٧٤) ، « والخبز للمكان المنخفض والمطمئن من الأرض . والخبازي بالتشديد مضموم الأول ، ويخفف لغة فيه .. » ، شرح القاموس (٤/٣٢) .

(4) « الخب ... والحبل من الرمل اللاطيء بالأرض، وسهل بين حزنين » ، القاموس (١/٥٩) ، شرح القاموس (١/٢٢٢) .Rep. Epi. Semi., VII, II, P. 157, Num. 4231.

(5) في مادة : « آد » ، ..... وكـكتاب ما أيد بـه من شيء والمعقل والستر والـكنف ... والجبل المحصن والتراب يجعل حول الحوض والخباء » ، القاموس (١/٢٧٥)

Rhodokanakis, Stud., II, S. 131.

بالمدينة . ويحكم هذه الأرضين « ابعل » ، وقد ورد في أحد النصوص أن جماعة مؤلفة من ثمانية أشخاص كانت تمتلك وتدير الأرضين الزراعية في ضواحي مدينة « هرم » . وقد نعتت بـ « ابعل » أي سادة ورؤساء [1] ، والظاهر أنها كانت تمتلك تلك القاطعات الكائنة في ضواحي تلك المدينة شركة .

و « المهجر » « مهجرت » هو المحل الذي يهاجر اليه ، ويراد به الموضع الذي يرحل المزارعون أو العمال للاقامة به ، فهو الموضع الذي يهاجر اليه . أما الأرضون التي يقصدها الرعاة للرعي فيها فهي « مرعي » [2] .

وكانت حكومة سبأ تستغل أرضها الخاضعة للخزينة العامة ، إما ببيعها ، ويقال لذلك « شاولت » ، وإما بتأجيرها ويقال لذلك « أوبت » ، ويقال الضريبة التي تأخذها من الأرض للأغراض العسكرية « شاولت » « شاولة » [3] .

وتتكلف الحكومة الانفاق على العمال الذين تكلفهم القيام بالأعمال العامة ، تدفع اليهم عطاياهم ، وتعرف بـ « شبو » ، وتعني « الرزق » عيناً ، وذلك بأن تقدم اليهم الطعام اللازم لعيشهم في مقابل اشتغالهم بتلك الأعمال ، كما يقوم العبد بتقديم ذلك إذا كان العبد هو صاحب العمل والمتفق عليه [4] .

ولم يتبرك الناس بتسمية المباني العامة بأسماء آلهتهم حسب ، بل كانوا يفعلون ذلك

---

(١) راجع السطر الأول من النص الموسوم بـ Halevy. 147

(٢) « ولسرهو ومهجرتهمو ومرعيهمو » ، أي « والى مقاطعاتهم ومهاجرهم ومراعيهم » ، راجع السطر الأخير من النص الموسوم بـ : Halevy 147
Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 57,

(٣) Glaser 904, Halevy 51, 1571 Katab. Texte, I, S. 70. ff., Handb. der altara. alter., S. 137.

(٤) « واشبي اعطى » ، القاموس (٣٤٦/٤) ، « واشبى الرجل : أعطى وأكرم » ، شرح القاموس (١٩٢/١٠) . راجع الفقرة الرابعة من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199.

عند بنائهم بيوتهم كذلك، وعند ترميمها في بعض الأحيان . وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية عشرات النصوص المكتوبة لأمثال هذه المناسبات، وقد ورد فيها أن الشخص الفلاني قد بنى بيته وخصصه بالإلـه الفلاني ، أو بالآلهة الفلانيين . وتستعمل لفظة : « بحج » لهذه المناسبة في بعض الأحيان، بمعنى « لأجل » [1].

وكانوا يضعون هذه الكتابات على الجدر وفي مواضع ظاهرة بارزة ليطلع عليها الناس ويقفوا على محتوياتها . وتبنى هذه الحجارة المكتوبة حفراً عادة في الجدار، بحيث تكون الواجهة المكتوبة هي البارزة للناس . والغالب أنها كانت توضع على أبواب البيوت أو أبواب المعابد أو على الجوانب البارزة من جدران البيوت والمعابد كما يفعل الكثير من الناس في مختلف الشعوب .

وقد اشتهرت اليمن وبقية العربية الجنوبية بأنها بلاد المحافد والحصون والقصور . وهي إن زالت اليوم فذهبت مع الذاهبين، فان بقايا بعضها ما تزال ماثلة في أماكن مختلفة من هذه الأرضين . ومن هذه البقايا استخرج بعض علماء الآثار والسائحين آراءهم في أبنية المحافد والقصور . وقد كانت تلك المحافد قلاعاً وحصوناً، تدافع عن أصحابها، وتقف سداً حاجزاً أمام المغيرين المعتدين والطامعين . وهي أبنية ذوات جدران سميكة فيها زوايا وأبراج لها فتحات صغيرة يستعين بها المدافعون على رمي المهاجمين بالسهام و بوسائل الدفاع الأخرى. وتحيط خنادق عميقة وعريضة في بعض الأحيان بالحصون لتحول بين الحصن وبين تقرب المغيرين منها، فلا توجد سبيل توصل الى الحصن إلا باجتياز هذا الخندق، واجتيازه يكلف المهاجم جهداً عظيماً .

ويعبر عن سكان مدينة ما أو موضع ما بلفظة « ا هـ ل » « أهل » [2]، ويذكر بعد

---

(1) Rep Epi. Semi., VII, P. 196, Num. 4335.

(2) النص الموسوم بـ : Halevy 147.

هذه اللفظة اسم المدينة في المادة . وترد جملة « كل انسن »[1] في بعض الكتابات ، ويراد بها « كل انسان » وكل فرد .

ويقال للمدينة « هجر » في اللهجات العربية الجنوبية . وقد كانت في اليمن جملة مدن ، مثل « هجرن قرنو »[2] ، بمعنى « المدينة قرنو » ، وهي عاصمة معين . و « هجرن مرب » ، ومعناها « المدينة مأرب » ، المدينة التي اشتهرت بسدها في التأريخ ، و « هجرن نجرن » ، بمعنى المدينة نجران ، المدينة الشهيرة عاصمة مخلاف نجران .

والسدود من أعمال الري المهمة التي اشتهر بها اليمانيون ، وقد أقاموا جملة سدود في اليمن لحصر المياه وخزنها للإستفادة منها عند انحباس الأمطار . ويقال للسدّ « عرم » في اللهجات العربية الجنوبية . فعرم إذن لفظة تؤدي معنى « سد » و « حبس » في عربية القرآن الكريم[3]. وقد وردت هذه اللفظة في مواضع عديدة من نص أبرهة ، مثل جملة : « وصهرم لسذبن عرمن وعودن ومشبرتن ذبعرب »[4] ، وجملة : « ودن عرمن عديو هجرن مرب »[5] ومواضع أخرى من النص ، وتعني الجملة الأولى : « والمواد المتصهرة ،

---

(١) Rhodokanakis, Stud. Lexi. I, S. 58

(٢) Rep Epi. Semi., tome, V, P. 124 Nr. 2774.

(٣) « عرم : أوهو جمع بلا واحد ، أو هو الأحباس تبنى في الأودية » ، القاموس (٤/١٤٩) ، « المبس ... وبالكسر خشبة أو حجارة تبنى في مجرى الماء لتحبسه . ويفتح . وكالمصنعة للماء » ، القاموس (٢/٢٠٥) ، « والعرمة كفرحة : سد يعترض به الوادي ج عرم ، ككتف . أو هو جمع بلا واحد وفي الصحاح : العرم : المسناة لا واحد لها من لفظها . ويقال واحدها عرمة . أنشد ابن بري الجعدي :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ ... شرد من دون سيله العرما

أو العرم هو صوابه ، هي الأحباس تبنى في أوساط الأودية » ، شرح القاموس (٨/٣٩٥) .

(٤) السطر ٦٠ من نص أبرهة .

(٥) السطر ٦٥ من النص المذكور .

لترميم السدّ والجدار والثلم التي حدثت بمأرب » . أما الجملة الثانية ، فتعني : « ومن هذا السـد ذهب الى مدينة مأرب »[1] . وقد أشير الى حادث سـدّ مأرب في القرآن الكريم[2] .

وأما لفظة « مذبن » ، فتعني « الجدار »[3]. وقد وردت في نص أبرهة مصطلحات فنية عديدة ، مثل: موفن بمعنى الجدار كذلك. و« خبشم » بمعنى الحوض، و « مضرفت » بمعنى الضرفة ، و « امم » ، وهو قياس ، أي ذراع يقاس به ، وأمثال ذلك . وهي تستحق أن تكون موضع دراسة خاصة لمعرفة الناحية الحضارية في اليمن . ونجد في هذا النص وفي النصوص الطويلة الأخرى أشياء عديدة ،مهمة جداً تفيدنا في هذه الناحية فائدة كبيرة ، فلعل الأيام تحقق لنا هذا الاقتراح .

وقد وردت في هذا النص أسماء أشهر أرخ بها ، ويظهر أنها كانت قد تتبعت في هذا العهد . ومن هذه الأشهر : شهر ذي قيات ، وشهر ذي المذر ، وذي دوان ، وذي معان . ويمكن تكملة هذه الأشهر بالاستعانة بنصوص المسند الأخرى التي ورد فيها عدد كبير منها .

وتتألف المدن من أحياء تكونت على الطريقة القبيلية ، وذلك بإقامة كل جماعة في حي معين من أحياء المدينة . وتكون بين الحي عصبية مثل عصبية أفراد القبيلة للقبيلة . وينتمي الحي الى القبيلة أو العشيرة التي يرجع اليها ، ويتعصب لها .

---

(١) راجع الصفحة ٢١٦ وما بعدها من الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٦ .

(٢) سورة سبأ ، ١٦ ، « فأرسلنا عليهم سيل العرم » .

(٣) « والمذب : طرف كل شيء » ، شرح القاموس (١/٣٦٩) .

ويظهر من بعض الكتابات أن بعض الإقطاعات كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ « ثمنيتن » [1] ، أي « ثمانية » ، فهم بمثابة مجلس مديري شركة يدير أمور تلك القاطعة ، أو بمثابة مشروع زراعي تعاوني ، يتعاون فيه الأشخاص بادارة ذلك المشروع ، وقد تكون هنالك اقطاعات بادارة أناس يزيد عددهم على هذا العدد أو ينقص عنه .

وعرف من يقوم بادارة وحدة من الوحدات الإدارية . بـ « سخخض » ومعناها « مدير » ، فيكون المعنى: مدير ارض ، ويكون واجبه الاشراف على الأرض التي أوكل أمر ادارتها اليه . فواجبه إذن هو واجب سياسي واداري . وأما وظيفته ، فيقال لها « سخخضت ارض » أو « سخخضت » « سخخضة » ، ومعناها « ادارة أرض » أو « ادارة » .

وأما الذي يتولى جباية الضرائب والاشراف على الموظفين الذين يوكل أعمال الجباية اليهم ، فيقال له : « نحل » ، ويقال لوظيفته « نحلت » [2] .

فنحن في اليمن إذن أمام نظام يمكن أن نسميه نظاماً تمثيلياً ، وإن لم يكن يمثل رأي الشعب تمثيلاً تاماً ، فلم تكن للأغلبية المكونة للأمة إرادة في ارسال ممثليهم الى المجلس ، كما هو المفروض والمطلوب من المجالس ، فمن هنا لم يكن نظام الحكم في هذه البلاد نظاماً تمثيلياً صحيحاً ، ولكنه كان تمثيلياً من ناحية ضمه المتنفذين وأصحاب الرأي والجاه والنفوذ في الدولة في مجالس الـ « مزود » وابدائها رأيها لحاكم البلاد ، ولا سيما في المسائل الكبرى التي يتوقف عليها المصير ، مثل إعلان حرب أو عقد صلح .

---

(١) النص الموسوم بـ Halevy 147,

Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, 208, anm. I, 401.

(٢) Rhodokanakis, Stud., II S. 67, f.

وقد كانت الحكومات العربية الجنوبية تقوم مستقلة بانشاء الأبنية العامة والطرق والجسور ، وتقوم بإنشائها بالاتفاق مع السلطة الدينية في أحيان أخرى ، فتقوم هذه السلطة بتقديم المال الى الحكومة ، كما كانت تقوم وحدها بهذه الأعمال من مالها الخاص ومن امكانيتها الخاصة ، في مقابل تنازلها من حقوقها المترتبة لها في ذمم الناس ، أو باصدار أوامر باسم الآلهة تأمر أتباعها المؤمنين بها بالقيام بتلك الأعمال ، فيقوم الناس بالعمل المذكور قربى الى تلك الآلهة وحسبة لها .

وتقام المشروعات العامة بـ « السخرة » أحياناً ، وذلك باجبار الناس على القيام بها . وهي طريقة كانت ولا تزال متبعة في بعض الأقطار الشرقية ، فيحشر الناس في منطقة العمل حشراً للقيام بالأعمال اللازمة ، ولا سيما في النوازل الطارئة التي لا قبل للحكومة في التغلب عليها إلا باتخاذ هذه الخطوة . ولكن الحكومات القديمة كانت تسرف في ذلك وتشتط ، فتنجز بذلك كثيراً من هذه الأعمال التي هي من صميم عملها وواجبها . ولن يتأثر بالسخرة إلا الطبقات الفقيرة التي لا تملك دفاعاً عن نفسها ، ثم إنها لا تستفيد من الهرب لو حاولته ، لأن الأوضاع في الأماكن الأخرى ليست أحسن حالاً من المكان الذي يريد الهرب منه . أما سادات القبائل ووجوه البلد والاشراف والأمراء واصحاب الاقطاع الكبار ، فلا تقع السخرة عليهم ، لأن ما لديهم من نفوذ يجعلهم فوق السلطان وفوق قدرة الموظفين المنفذين للسخرة . ثم إن مفهوم القيام بالأعمال العامة وبالاشتغال للحكومة لا يطبق لدى هذه الحكومات ولدى بعض الحكومات حتى في هذه الأيام إلا على هذه الطبقات الفقيرة ، فعليها وحدها القيام بهذه الواجبات . ومثل هذه النظرة الى السواد الأعظم من الأمة ، جعل هذا السواد يكره حكوماته ، ويكره الحاكمين ، ويتهرب من الخدمة ما أمكنه ذلك ، لأنه لا يشعر بحكومة تعطف عليه ، ولا بحاكمين ينظرون الى مصالحه ، وإنما هم ينظرون الى انفسهم على أنهم هم الناس ، وأما ابناء الشعب فانما خلقوا

لخدمته ليس غير .

وفى إبان الفتح الحبشي لليمن انحصرت السلطات ، كما يظهر من نص أبرهة ، فى أيدي الحاكم العام ونائب « النجاشي » على اليمن ، فأصبح نائب الملك هو السلطة العليا المشرعة والمنفذة والقابضة على الأمور . وقد قضى على الملكية ، وعلى نفوذ كبار الإقطاعيين فى البلاد ، إلاّ أنه لم يتمكن من القضاء عليهم وعلى نفوذهم فى الشعب ، فقاموا بعدة ثورات فى مختلف الأماكن ، ولا سيما المناطق الحصينة والأرضين الوعرة والجبلية ، ضد الحبش المحتلين للبلاد ، حتى تمكنوا فى الأخير من طرد الحبش من اليمن ومن القضاء على « نائب الملك » ، أي نائب النجاشي على اليمن .

ولم ترد فى الكتابات المتأخرة ، وفي ضمنها الكتابات التي تعود الى أيام الفتح الحبشي لليمن ، إشارة ما الى المجالس الاستشارية الممثلة للإقطاعيين ، أي « المزود » . والظاهر أن الملوك المتأخرين وحكام اليمن الأحباش ، كانوا قد استأثروا بالحكم ، واستبدوا بالأمور ، فلم يعودوا يستمعون الى استشارات كبار أصحاب الأملاك والرؤساء وذوي الرأي والوجاهة ، وأخذوا كل شيء فى أيديهم ، وهذا مما أبعد الحكومة من عيون القوم ، وأوجد هوة بينها وبينهم ، وجعلهم يشعرون أن الحكومات غريبة عنهم ، حتى أدى ذلك الى تردّي الوضع هناك والى وقوع ثورات واضطرابات أضرت باليمن كثيراً ، وأثرت في حضارتها .

وقد فقد « المعبد » سلطانه فى هذه الأيام على الشعب كذلك ، لعوامل عديدة ، منها هيمنة الحكام على كبار رجال الدين ، وتعاون رجال الدين معهم ، وتأييدهم لهم فى كل أعمالهم من خير ومن شرّ ، التماساً للربح ولمعاونة الحكومة لهم فى الكسب والإثراء وفى تثبيت نفوذهم على الشعب ، فتحول المعبد الى شركات مساهمة ذوات مسؤولية محدودة ، توزع أرباحها على المساهمين فيها بحسب أهمية العضو ومكانته فى هذه الشركة ، فتدهور

المعبد ، وانعدمت ثقة الشعب برجاله ، وشك الناس في آلهتهم ، وتحول قسم منهم الى اليهودية ونصرانية ، وأدت هذه الحالة الى انصراف الناس عن الاهتمام بالمعابد ، فلم تقدم النذور والهدايا اليها كالسابق ، ولم يتبرع الناس لها مثل ما فعله أجدادهم في العهد الماضي ، وأثر ذلك في كيانها وفي مبانيها ، فتصدع بعضها ولم يجد من يقوم بترميمه وتجديده ، وهكذا أصيبت الوثنية العربية الجنوبية وثقافتها بانتكاسة عظيمة ، وأخذت معالمها تندثر ، ثم زاد من ذلك فتح الأحباش ثم الفرس لتلك الأرضين .

وقد نعت « أبرهة » في النص الذي دونه هو نفسه لمناسبة ترميمه سد مأرب بـ « عزلى ملكن اجعزين »[1] ، أي « مفوض ملك الجعز » ، ونعني لفظة مفوض نائب الملك على اليمن ، فوضه ملك « الجعز » أي النجاشي ملك الحبشة ادارة اليمن نيابة عنه ، فهو إذن بهذه الصفة الحاكم العام على جميع الأرضين المفتوحة في العربية الجنوبية ، يقوم بإدارتها باسم النجاشي ، إلا أنه كان في الواقع الآمر المستبد بأمره ، المستقل بأحكامه وادارته ، ولم يكن للنجاشي من الحكم في الواقع إلا الاسم .

وقد عين « أبرهة » جملة رجال من أهل اليمن نفسها ، لينوبوا عنه في إدارة أمور المدن والقبائل ، جعلهم خلفاء عنه يخلفونه في ادارة الأعمال ، ولهذا نعتهم بجملة : « يزد بن كبشت خلفتهمو ذ ستخلفو على كدت ودا كن لهو خلفتن وقسد ومهو اقول سبا »[2] ، ومعناها : « يزيد بن كبشة خليفته الذي استخلفه على كده ودا . كان خليفته وقاصده على القبيلتين . ومعه أقيال سبأ »[3] . فعرف القاءون بأعمال الحاكم العام الحبشي بالنيابة عنه

---

(١) راجع السطرين الرابع والخامس من نص أبرهة .

(٢) راجع الأسطر من السطر العاشر الى السطر الرابع عشر من نص أبرهه .

(٣) راجع ترجمة النص المنشورة في الصفحة (٢١٥) من الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥٦ .

بـ « خلفتن » أي « الخليفة » . وقـد كان هنالك جلة خلفاء من أمثال الخليفة : يزيـد ابن كبشة .

ومن هنا وردت لفظة « مخلاف » في كتب الأخباريين[1]. ويقسم الأخباريون اليمن

---

(١) ابن هشام (٢٤٤/٤ وما بعدها) ، « والمخلاف ... الكورة . ومنه مخاليف اليمن ... » القاموس (١٣٧/٣) ، « والمخلاف : الـكورة يقدم عليها الانسان . كذا في المحكم . ومنه مخاليف اليمن ، أي كورها . وفي حديث معاذ من تخلف من مخلاف الى مخلاف ، فعشره وصدقته الى مخلاف عشيرته الأول اذا حال عليه الحول .

وقال أبوعمرو : ويقال استعمل فلان على مخاليف الطائف ، وهي الأطراف والنواحي . وقال خالد بن جنبة في كل بلد مخلاف . بمكة والمدينة والبصرة والـكوفة . وكنا نلقي بني نمير ونحن في مخلاف المدينة ، وهم في مخلاف اليمامة . وقال أبو معاذ : المخلاف البنكرد ، وقال الليث : يقال فلان من مخلاف كذا وكذا . وهوعند اليمن كالرستاق ، والجمع مخاليف . وقال ابن بري : المخاليف لاهل اليمن كالاجناد لأهل الشأم والـكور لأهل العراق ، والرساتيق لأهل الجبال ، والطساسيج لأهل الاهواز هـذا ما نقله أئمة اللغة .

قال ياقوت تحت قول خالد بن جنبة المتقدم : قلت وهذا كما ذكرنا بالعادة والالف اذا انتقل اليماني الى هذه النواحي سمى الـكورة بما الفه من لغة قومه . وفي الحقيقة انما هي لغة اهل اليمن خاصة . وقال أيضاً بعد ما نقل كلام الليث ،[*] وما عداه كما تقدم ذكره . قلت هذا الذي بلغني فيه ولم أسمع في اشتقاقه شيئاً . وعندي فيه ما اكره . وهو أن ولد قحطان لما اتخذوا ارض اليمن مسكناً وكثروا فيه ولم يسعهم القام في موضع واحد ، أجمعوا رأيهم على أن يسيروا في نواحي اليمن ، فيختار كل بني أب موضعاً يعمرونه ويسكنونه ، فكانوا اذا صاروا في ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم تلك القبيلة المتخلفة فيه فسموها مخالف لتخاف بعضهم عن بعض فيها ، الا تراهم سموها مخلاف زبيد ومخلاف سيحان ومخلاف همدان لا بد من اضافته الى قبيلة . انتهى كلامه . وقد عد الصاغاني مخاليف اليمن ، فقال : ولـكل مخلاف اسم يعرف[*] به ، كمخلاف أبين ومخلاف أقيان ومخلاف الهان ومخلاف البون ومخلاف يحصان ومخلاف بني شهاب ومخلاف ثاث ومخلاف جيشان ومخلاف جبلان ومخلاف جنب ومخلاف جهران ومخلاف صيفي ومخلاف جعفر ومخلاف حران ومخلاف حضور ومخلاف خولان ومخلاف خارف ومخلاف دمار ومخلاف ذي جرة ومخلاف رعين ومخلاف رداع ومخلاف زبيد ومخلاف السحول ومخلاف سنحان ومخلاف شبوة ومخلاف صعدة ومخلاف العود ، ومخلاف عنبة ومخلاف لحج ومخلاف مأرب ومخلاف مقرأ ومخلاف =

الى مخاليف ، ويعنون بها مقاطعات كبيرة ، وتقسيمات ادارية ، يحكمها حاكم هو « خلفتن » في المسند . وهذا الحاكم هو « الخلفة » أي « الخليفة » في عهد الحبشة ، يخلف الحاكم العام في حكم المخلاف . وقد بقي هذا التقسيم إبان احتلال الفرس لليمن كذلك .

وقد كان من أعمال هؤلاء الخلفاء قيادة الجيوش أيضاً ، فهم بمثابة حكام عسكريين . وربما اقتضى ذلك الوضع العام القلق الذي كانت عليه العربية الجنوبية في ذلك العهد . وتدل لفظة « قسد » « قاسد » الواردة في نص أبرهة على هذا المعنى . على أن ذلك لا يعني أن جميع هؤلاء الخلفاء الوكلاء كانوا قواداً دائماً ، فقد كان الحاكم العام يعين قواداً عسكريين لإدارة شؤون الجيش والأعمال الحربية بصورة مستقلة . فاذا حدثت ثورة أو وقع اختلال أمن ، تسلم هؤلاء القادة أعمال الإدارة وتولوا ادارة العمليات العسكرية لإخماد الثورة والحركات المعادية ، حتى تصفو الأحوال ويعود الأمن الى نصابه . ويعرف أمثال هؤلاء القواد بـ « قاسد » في ذلك العهد [1] .

وقد عرف العاربون النظاميون بـ « اجيش » « أجيش » أي « جيوش » في نص أبرهة [2] . وقد كانت هذه الجيوش في أيدي القواد ، وعلى رأسهم القائد العام الحبشي نائب الملك على اليمن . وقد كانت على نوعين : أجنبية وهي حبشية ، ووطنية ، أي من أهل البلاد ،

= مادن ومخلاف المعافر ومخلاف نهد ومخلاف رادعة ومخلاف هوازن ومخلاف همدان ومخلاف اليحصبيين ومخلاف يام . فهؤلاء أربعون مخلافاً ذكرهن الصاغاني . ورتبته أنا على حروف المعجم كما ترى . وفاته ذكر جملة من المخاليف كمخلاف أصاب ومخلاف ريمة ومخلاف عبس ومخلاف الحيمة ومخلاف السلفية ومخلاف كبورة ومخلاف يفر وغيرها مما يحتاج الى مراجعة واستقصاء » شرح القاموس (٦/٩٧ وما بعدها) .

(١) راجع السطر ١٣ من نص أبرهة .

(٢) « وجمو اجيشهمو حبشت وحيرم » « وجمعوا جيوشهم : الأحباش والحميرين » ، راجع السطر ٢٥ من نص أبرهة .

وهي من حمير ومن غير حمير ، من القبائل الأخرى الخاضعة لحكم الحبش على اليمن .

وترد لفظة : « الهت » في كثير من النصوص ، ولا سيما النصوص المتأخرة وفي نص أبرهة [1] ، بمعنى أرباب وأصحاب ، وهو مصطلح خاص يعبر به عن الرئاسة على القبائل أو الإقطاعيات . ويمكن أن نعبر عنه بلفظة : « شيوخ » و « مشايخ » أي رؤساء العشائر والمشيخات ، أي المقطعات القبيلية ورؤساء الاقطاع . وقد صار لهؤلاء نفوذ كبير في عهد سيطرة الأجانب على العربية الجنوبية والأماكن الأخرى من جزيرة العرب ، يشبه النفوذ الذي حصل عليه بعض هؤلاء في القرن العشرين في عهود الاحتلال . إذا تخذهم المحتلون أداة لقهر الروح الوطني والضغط على شعوبهم ، ولإسكات أي صوت يرتفع ضد المحتلين في مقابل إغداق الأرضين عليهم ، ومنحهم الألقاب الفخمة ، والهدايا والإعطيات . ولهذا نجد نص أبرهة يشير اليهم ، ويشيد بذكرهم ، ويذكر أسماء من انضم الى الحبش في كفاحه ضد اخوانه الثوار من جماعة : « يزيد بن كبشة » رئيس قبيلتي « كدة » و « دا » ، أي « كندة » و « دا » .

فلفظة « الهت » ، لا تعني « آلهة » أو « إلـه » حسب ، كما هو مفهومها في عربية القرآن الكريم ، بل تعني الرئاسة مطلقاً ، سواء أكانت رئاسة آلهة أم رئاسة إنسان على إنسان . أما لفظة « بعل » التي تعني السيد ، والربّ والإلـه ، فقد استخدمت للآلهة ، وقصد بها : « الربّ » . فورد : « ذ سموى بعل وترم » [2] مثلا ، بمعنى « ذو السماء ربّ وتر » . ويراد بـ « ذي سموى » الإلـه إلـه السماء ورب السماء .

وبلغ من سلطان « أبرهة » ، واستقلاله في إدارة شؤون اليمن ، أن أخذ يستقبل الرسل والبعثات السياسية الأجنبية ، حتى نجاشي الحبشة أرسل مبعوثاً إليه ليهنئه بمناسبة إتمام سد مأرب ، مع إنه كان تابعاً له ، ونائباً عنه في إدارة شؤون اليمن . وقد استقبل كذلك

---

(١) راجع السطر ٤٩ من نص أبرهة .

Rep. Epi. Semi., VII, P, 154, Num. 4229. (٢)

مبعوثاً من ملك الروم ، وموفداً عن ملك الفرس ورسولا من المنذر ومن الحارث بن جبلة ومن أبي كرب بن جبلة [1] .

وقد استخدم النص ألفاظاً خاصة للتعبير عن معان سياسية دقيقة ، تناسب المقام مقام الدولة الأجنبية ومقدار صلتها من الحاكم العام . ووجود هذه الألفاظ دليل على وجود عرف سياسي دقيق في اليمن في ذلك العهد ، ووجود درجات في العرف السياسي يومئذ ، وعلى دقة هذه التعابير في الإفصاح عن المعاني الدقيقة ، فاستعمل النص لفظة : « محشكت » مثلاً للتعبير عن معنى « مبعوث » ، وذلك بالنسبة الى النجاشي والى ملك الروم . وتعني هذه اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية « الزوجة » ، فاستعملها النص للتعبير عن ذلك المعنى ، لقرب الحبش والروم من حكومة اليمن في ذلك العهد وصلتهما القريبة بأبرهة . ولهذا فعندما تحدث عن « رسول ملك الفرس » ، لم يستعمل هذه اللفظة بالنسبة الى رسول ذلك الملك ، بل استعمل لفظة أخرى ، هي : « تنبلت » ، ذلك لأن أبرهة لم يكن على صلات بالفرس حسنة ، لأنه حبشي نصراني ، والحبش هم في جانب الروم إخوانهم في الدين ، فاستخدم تلك الكلمة للتعبير هذا المعنى .

ولما تطرق النص الى موفدي الأمراء : المنذر والحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة ، عبر عن الوفدين بلفظة : رسل [2] ، وذلك يدل على أن لفظة رسل ، لم تكن تعبر في معجم سياسة العربية الجنوبية آنئذ عن معنى سياسي يساوي المعنى المفهوم من اللفظتين المتقدمتين . ولهذا استخدمت وأطلقت على رسل الأمراء ومن هم دون الملوك ، والملوك الكبار بوجه خاص .

ولخضوع اليمن في هذا العهد لحكومة نصرانية ، ولنشاط المبشرين النصارى في نشر دينهم بين الوثنيين تساعدهم الحكومة في ذلك ، تأثرت الثقافة اليمانية الأصيلة بهذا التطور ،

---

(١) راجع الأسطر من ٨٨ حتى ٩٢ .
(٢) راجع الأسطر ٨٨ حتى ٩٢ من نص أبرهة .

وأخذت تتأثر بالمؤثرات الغريبة الوافدة عليها مع النصرانية من الحبشة ومن نصارى بلاد الشأم والعراق ، وأخذت تهزل وتضعف . وقد زاد في هزالها أن الذين تولوا الحكم بعد طرد الحبش من اليمن لم يكونوا من اليمن في شيء ، وإنما كانوا وافدين عليها ، كانوا من الفرس وعلى دين آخر لا يمت الى ديانة أهل اليمن بصلة ، ولهذا لم يكن من المأمول ازدهار الثقافة اليمانية القديمة بعد هذا الضعف الذي أصيبت به .

هذا ولا بد لي من الاشارة الى أهمية جمع كل الكتابات لعهد احتلال الحبش لليمن ، وضرورة تصنيفها وتبويبها ونقدها ، لنقف على أثر الأحباش وأثر النصرانية في اليمن ، وما تركته اللغة الحبشية من آثار في لغة أهل اليمن ، ومبلغ تأثر اليمانين بالنصرانية ، ودرجة صفاء تلك النصرانية ومقدار قربها أو بعدها من مذاهب النصارى الشرقيين .

وقد استعاد رؤساء القبائل والاقطاعيون نفوذهم بعد طرد الحبش ، فانتقلت السلطات اليهم . أما الحاكم الفارسي العام ، فلم يكن حكمه على ما يظهر حكماً فعلياً ، بل كان اسمياً ، لبعد اليمن عن الامبراطورية الساسانية وقلة عدد الجنود الفرس الذين جاؤوا الى اليمن لمساعدة سكانها على إخراج المحتلين عنها . ونشأت في اليمن إقطاعيات ومشيخات استأثرت بالحكم بدلاً من حكومة واحدة ذات سلطات مركزية . وقد أدى هذا الوضع الى حدوث قلاقل وفتن ، من تنافس الأمراء والرؤساء بعضهم مع بعض ، وإلى تعكر صفو الأمن أكثر من السابق ، مما أدى الى إهمال السدود وانصراف الناس عن نشاطهم في إصلاح ارضهم ، وخلق حالة شديدة من الفقر والتذمر بين السكان ، حتى لم يبق لهم أمل في الإصلاح .

ولما ظهر الإسلام وانتشر في الحجاز ، رأى أهل اليمن فيه خلاصاً لهم من هذا الوضع ، فأرسلوا وفوداً إلى الرسول ، يبايعونه على الإسلام وقد ذكرت كتب السير أن ملوك حمير

كانوا قد أرسلوا رسلاً عنهم الى الرسول . ويقصدون بهؤلاء الملوك رؤساء قبائل من حمير وإقطاعيين بالطبع . قد يكون بعضهم تلقب بلقب « ملك » ، وهو لقب حبيب الى أنفس رؤساء القبائل والاقطاعيين . وقد كان من أولئك الذين راسلوا الرسول : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين ، ومعافر ، وهمدان ، وزرعة ذو يزن ابن مرة الرهاوي . وقد دخلوا في الإسلام[1].

وكان ممن أسلم من رؤساء اليمن في هذا العهد رؤساء مخلاف خارف ويام وشاكر من قبيلة همدان . وقد مثلهم رسولهم الى الرسول : ذو المشعار مالك بن نمط [2] .

ونرى من هذه الأسماء أن الرسول قد أبقى بعض الفرس والأبناء في وظائفهم في اليمن ، وأقرهم على أعمالهم ، وذلك لتعاونهم مع المسلمين ودخولهم في الإسلام وللإفادة من خبرتهم في الأمور التي تخصصوا بها ، وقد عاش هؤلاء وأضرابهم في اليمن ، ومن نسلهم طبقة الأبناء .

وقد انتهز الأقيال والأذواء فرصة وفاة الرسول ، فأعلنوا الردّة ، ووضعوا خطّة لطرد الفرس والأبناء عن اليمن . وكان الرسول قد عين عمرو بن حزم وأبا سفيان بن حرب على نجران : الأول على الصلاة ، والثاني على الصدقات ، وعلى ما بين رمع وزبيد الى حدّ نجران خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى همدان كلها عامر بن شهر ، وعلى صنعاء فيروز الديلمي يسانده داذويه وقيس بن المكشوح ، وعلى الجَنَد يعلى بن أمية ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري ، وعلى الأشعريين مع عك الطاهر بن أبي هالة ومعاذ بن جبل يعلم القوم يتنقّل في عمل كل عامل . فلما ارتدوا ، وأنضم قسم كبير منهم الى دعوة الأسود العنسي ، أرسل أبو بكر إليهم الرسل يدعوهم الى الإسلام . فلما أبوا وأصروا ، قاومهم ،

---

(١) ابن هشام (٤/٢٣٥ وما بعدها) .

(٢) ابن هشام (٤/٢٤٣ وما بعدها) .

وأستعمل القوة معهم ، إلى أن أعادهم الى دين الله (١) .

ولم يترك العهد الفارسي في اليمن كتابة ما ، ولهذا اقتبسنا حديثنا عن هذا العهد من روايات أهل الأخبار . ولا يستبعد احتمال عثور الباحثين في المستقبل على كتابات تعود الى هذا العهد ، تعود الى الفرس الوافدين ، أو الى يمانيين من أهل البلاد . وسيكون لهذه الكتابات بالطبع أهمية كبيرة بالقياس الى هذه الحقبة المتصلة بتأريخ الإسلام .

(١) الطبري (٣/٢٦٣ وما بعدها . حوادث السنة الحادية عشرة) .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

صار لزاماً عليّ الآن أن أتحدث عن الناحية الاقتصادية لجزيرة العرب قبل الإسلام بعد أن تحدثت في الفصل السابق عن المجتمع العربي بصورة مجملة عامة . وأقصد بالناحيـــة الاقتصادية كلّ ما يتعلق بمفهوم الاقتصاد من معنى ، ما يتعلق منه بالحكومة أو بالشعب .

كان الملوك تجاراً يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبد تجاراً يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسباً فاحشاً ، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجاراً كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم في المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية في نظر تجار ذلك اليوم ، لبيعه في الداخل ، أو نقله الى الحجاز ومنه الى بلاد الشأم أوالعراق لتصريفه في أسواق تلك الجهات .

ولم تترك الكتابات العربية الجنوبية نصوصاً عن التجارة الخارجية والقوانين التجارية التي أصدرتها الحكومات المتعددة لتنظيم شؤون التجارة في ذلك العهد ، وعن المدى الذي وصل اليه تجار اليمن وبقية العربية الجنوبية في تجارتهم ، وهذا أمر يؤسف عليه الأسف كله ، ولهذا سيكون حديثنا عن هذا الموضوع معتمداً من كتابات وردت فيها هذه الأمور

مرضاً ومن الموارد الأخرى . مثل كتب اليونان واللاتين أو السريان ومن كتب أهل الأخبار .

إن خلو كتابات المسند من كل إشارة الى البحر والى السفن والى الاتجار مع الأقطار الواقعة على السواحل ، لأمر يؤسفنا كثيراً ، فقد حرمنا الكلام على البحرية العربية وعلى علم العرب الجنوبيين بالبحار ، وبات علمنا بالتجارة علماً ضئيلاً محدوداً ، وليس لنا إلا التطلع الى المستقبل ، فهو وحده الكفيل بزيادة علمنا فى هذا الموضوع .

وقد كان أكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة ، التجارة البرية والتجارة البحرية ، والاتجار بالمواد الناتجة فى جزيرة العرب ذاتها ، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج ولا سيما السواحل الافريقية أو الهند .

وقد كان الاتجار مع إفريقية سهلاً يسيراً بالنسبة الى تجار العربية الجنوبية ، ولا سيما تجار اليمن . فإن الشقة بين سواحل إفريقية وسواحل اليمن ليست واسعة كبيرة ، ولهذا كان فى استطاعة السفن الشراعية أن تقطعها بدون مشقات وصعوبات كبيرة . تذهب الى إفريقية تحمل اليها حاصلات اليمن ، ثم تعود اليها وهى محملة بالبضائع الإفريقية الثمينة ، مثل الأخشاب والعاج ، وببضاعة ثمينة أخرى : بضاعة حية تتحرك وتنطق ، هى الزنوج . يستوردونهم شراءاً من أسواق النخاسة ، أو اقتناصاً من السواحل ، لحاجة البلاد الى استخدامهم فى الانتاج وفى أداء الخدمات التى يأنف العربي عادة من القيام بها . وقد كان هذا الوارد عصباً حساساً فى الإنتاج فى ذلك العهد .

ولم ترد فى كتابات المسند التي عثر عليها فى جزيرة العرب ويا للأسف معلومات عن أسفار العرب البحرية ، لا الى سواحل افريقية ولا الى سواحل الهند وجنوب ايران. ولكن وجود الحبشيين فى الساحل الإفريقي وتكوينهم حكومة هناك ، ثم احتلال الحبش للعربية الجنوبية الغربية مراراً ، وذهاب المسلمين الأوائل مهاجرين الى الحبشة ، كل ذلك دليل على وجود اتصال بحري بين

إفريقية واليمن ومواضع أخرى من جزيرة العرب .

وقد كانت للعرب الجنوبيين جالية مقيمة بمصر، بقيت مخلصة لقوميتها ، محتفظة بأبجديتها تكتب بها . وتعتز بتراثها كما يظهر ذلك من كتابة من أيام « بطلميوس » كتبت حوالي سنة « ٢٦٣ » قبل الميلاد . وهي كتابة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة ، لأنها تحدثت من وجود العرب الجنوبيين بمصر في ذلك العهد السحيق ، وعن وجود صلات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البر والبحر . وهي تتحدث أيضاً عن رجل اسمه « زيد ابن زيد ايل » من « آل ظيرن » اعترف بوجود دين عليه وواجب هو تورید وتزويد « ابيتت الا لت مصر » ، أي « بيوت آلهة مصر » أو « معابد آلهة مصر » بـ « امررن وقليمتن » « قلمتن » ، أي « بالمرّ والقليمة » . ويقصد بلفظة « قليمة » ما يقال له « Calamus » في الانكليزية و « Kalmus » في الألمانية ، ويراد به ما يقال له قصب الذريرة أو قصب الطيب . وقد عبر عن الدين أو الواجب بلفظة « نفقن » « النفق » من أصل « نفق » . ووردت قبل جملة « امررن وقليمتن » لفظة « ذ سمرب » ، بمعنى الذي ورّد واستورد . وقد ذكر أن ذلك كان في عهد « بطلميوس بن بطلميوس » « بيومهى تلميث بن تلميث » ، أي « بيوم أو بأيام بطلميوس بن بطلميوس » . وقد عبر عن لفظة « بطلميوس » بـ « تلميث » .

وقد استحق عليه التسديد وصار نافذاً في شهر « حتحر » . وعبر عن ذلك بهذه الجملة : « ويهقر زيدال بورخه حتحر » . و « نقر » بمعنى أصبح مستحقاً نافذاً ، ومعنى الجملة « واستحق تسديده على زيدايل بشهر حتحر » . وقد وفّى بذلك دينه « فن دينه » « ويفننو » ، لكل « معابد آلهة مصر » . وقدمت اليه مقابل ذلك ، ربما على سبيل المقايضة أنسجة أو أقمشة أو أكسية بزّ « كسو بوص » أخذها الى سفينة تجارية ربما كانت

سفينته . وقد أُخذ عليه عهد وأعتراف مقابل ذلك بالدين الذي عليه وبوجوب تسديده عند استحقاقه لمعبد الإلـه « اثرهب » « اثرهف » . ويقصد بذلك الإلـه « Osarapis » ، وذلك في شهر « كيحك » من السنة « خرف » الثانية والعشرين من حكم الملك « بطلميوس » . وقد اختتم النص بهذه الجملة : « ورثد زيدال لمنس ونفقس اثرهف والالت مصر بحرمهى » [1] ، أي « ووضع زيدال دخله أو ماله وما لمـه وجمعه ووارده ودينه لأثرهف « Osarapis » ولآلهة مصر . بحرمها أو بحرمها » .

وتعني لفظة « رثد » نضد ، يقال رثد المتاع إذا نضده وجعل بعضه فوق بعض ، فالمتاع رثيد [2] ، وتعني هنا وضع . وأما لفظة « لمنس » ، فمعناها « لمـه » ، و « اللم » بمعنى الجمع . فمعناها هنا إذن ما لمـه وما جمعه . وأما « محرمهس » فمعناها « محرمها » و « حرمها » كما نقول في عربيتنا « البيت الحرام » .

وقد ذهب « رودوكناكس Rhodokanakis » ناشر النص المذكور ومترجمه الى احتمال كون « زيدال » كاهنا في معابد مصر ، ولو كان من أصل غير مصري ، فقد كان المصريون قد تساهلوا في هذا العهد — كما يرى — ، فسمحوا للغرباء بالانخراط في سلك الكهان وخدمة المعابد ، وتساهلوا مع « زيدايل » هذا فأدخلوه في طبقة « اويب Ueeb » وانتخبوه كاهناً ليضمن لهم الحصول على المر والقليمة بأسعار

---

(١) Rep. Epi., 3427, Tome, V, P. 151, Rhodokanakis, Die Sarkophagin-schrift Von Gizeh, S. 113, in Zeitschrift für Semistitik, Bd., II, 1924, Conti. Rossini, Chrest. Ar. Merid., 1931, P. 86.

وكتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، تأليف جورج فضلو حوراني ، وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، (ص ٦٠ وما بعدها) .

(٢) القاموس (١/٢٩٣) .

رخيصة لاستيراده إياها باسمه ومن موطنه مباشرة من غير وساطة وسيط [1] .

وقد ذهب « رودوكناكس » أيضاً الى أن «زيدال» «زيد ايل» ، كان يستورد المرّ والقليمة لا لحسابه الخاص ومن ماله ، بل لحساب المعابد المصرية ومن أموالها . فلم يكن هو الا وسيطاً وشخصاً ثالثاً يتوسط بين البائع والمشتري، يشتري تلك المادة ويستوردها باسمه ، ولكنه يستوردها للمعابد ولفائدتها . وهو لا يستبعد مع ذلك احتمال اشتغاله هو لنفسه وعلى حسابه في التجارة ، يستوردها لنفسه ويبيعها في الأسواق ، ويتصرف بالأرباح التي تدرها كما يريد . وهو لا يستبعد أيضاً احتمال مساعدة المعابد له بتجهيزه بالمال لتقوية رأس ماله ، أو انتشاله من خسارة قد تصيبه .

وقد أصيب هذا التاجر كما يظهر من هذا النص بخسارة كبيرة في شهر « حتحر » ، ربما أتت على كل ما كان يملكه ، فهبت المعابد المصرية لإنقاذه ، واعادة اعتباره المالي اليه ، باسناده بتقديم أقمشة البز « بوص » اليه . وقد أخذها وصدرها في سفينته التي يستورد بها المرّ والقليمة الى الأسواق ، فربح منها ، واستورد المرّ والقليمة ، واعاد الى المعابد ثمن ما أخذه منها من تلك السلعة ، وأدى ديونه في شهر « كيحك » . وقد عاد اليه اعتباره وأنقذ من تلك الضائقة المالية التي حلت به بمدة قصيرة لا تتجاوز شهراً كما يرى ذلك « رودوكناكس » [2] .

والذي حمله على الذهاب هذا المذهب ورود لفظة « ذوب » بعد اسم الأسرة التي ينتسب اليها « زيدايل » . ففسر « ذ » بأنها « ذو» المستخدمة في النسبة عند اليمانيين ، و « وب » بـ « اويب» «Ueeb» «Iepeis» التي تطلق على طبقة من طبقات رجال الدين

---

(١) Zeitschrift für Semitistik Und Verwandte Gebiete, Band 2, 1924, S. 116. ff.

(٢) المصدر نفسه (الصفحة ١١٧) .

(٣) Rhodokanakis, in Zeit. für Semi., 2, 1924, S. 119.

بمصر ، وهي لفظة وردت في بعض الكتابات اللاتينية المتأخرة بهذا المعنى كذلك .
وذكر أن صاحب النص قد وفق بين الاستعمال اللغوي اليماني والمصري ، فأدخل « ذ » على اللفظة المذكورة ، فصارت « ذوب » ، وكتبها بهذا الشكل في النص . ومعناها المنتمي الى هذه الطبقة من رجال الدين .

لقد كانت حكومة البطالمة قد احتكرت صناعة نسيج الكتان وتجارة البز « بوص » . وبيع المرّ والبخور والعطور والصبر وغير ذلك . وكانت تنهج في خطتها الاقتصادية نهج احتكار الدولة بيع السلع الرائجة المهمة . نعم ، سمحت للتجار المستوردين باستيراد ما يشاؤون من المرّ والبخور واللبان والصمغ والصبر وما شاكل ذلك من الخارج ، ولكنها لم تسمح لهم ببيعها أو تحويلها أو تغيير شكلها من غير استئذان الحكومة وموافقتها ، ذلك لأنها تعدها من المواد الداخلة في دائرة الانحصار والاحتكار « Statesmonopol » ، والتابعة لمراقبة الحكومة .

أما نسج البز « بوص » ، فقد أودع أمره الى المعابد ، تشرف عليها وتدير صناعتها ، ورثت ذلك من عهود سبقت أيام البطالمة ، وذلك في مقابل السماح لها بأخذ ما يحتاج الى استعماله في المعابد أو لحاجات رجال الدين الخاصة ، وتسليم بقية ما ينسج الى دوائر الحكومة المختصة لبيعه للناس [1] .

وقد فسر « رودوكناكس » ، لفظة « ص ى » « صى » الواردة في هذا النص بلفظة « سفينة » ، وفسر لفظة « نفق » بمعنى دين كما ذكرت [2] . وقد فسرها غيره بمعنى « قبر » وتابوت . ومن معاني هذه اللفظة في عربية القرآن الكريم هلك وتلف ،

---

(١) المصدر نفسه (الصفحة ١١٥ وما بعدها) .

(٢) « والبوصي بالضم ضرب من السفن معرب بوزي » ، القاموس (٢/٢٩٦) ، « والبوصي ضرب من السفن معرب ، نقله الجوهري وأنشد للأعشى : =

أي معنى قريب من معنى قبر وتابوت .

وقد وردت لفظة « نفق » في بعض النصوص ، ولا سيما في باب الضرائب بمعنى الدَّيْـن ، كأن يكون الإنسان مديناً للحكومة بمقدار من الضرائب المستحقة عليه . وهناك لفظة أخرى وردت في بعض نصوص المسند هي « زخلم » « زخلٍ » ، وهي في معنى الدَّيْـن أيضاً [1] .

ووردت في النص لفظة « تمخهسم » « تمخهس » ، وفسرت بمعنى نسج وينسج . وفي المسند لفظة «تعمت» [2] بمعنى دار النسيج ، أي المحل الذي ينسج فيه النّساجون

= مثل القراني إذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر

وقال غيره : كـكان بوصي بدجلة مصعد

وعبر أبو عبيد عنه بالزورق . قال ابن سيده : وهو خطأ . وقيل البوصي الملاح ، وهو أحد القولين في قول الأعشى . وقال أبو عمرو : البوصي : الزورق وليس بالملاح وهو بالفارسية بوزي » ، شرح القاموس (٣٧٦/٤) .

(١) Rhodokanakis, in Zeitschr. für Semi., Bd., 2, S. 124. ff., 1224.

(٢) « عمت يعمت ، لف الصوف مستديراً ليجعل في اليد فيغزل ... » ، القاموس (١٥٣/١) ، «عمت يعمت عمتاً من حد ضرب ، كما هو مقتضى قاعدته ، لف الصوف بعضه على بعض مستطيلا ومستديراً حلقة ، ليجعل في اليد فيغزل بالمدرة ، كعمت تعميتاً . ورواية التشديد عن الصاغاني ، وتلك القطعة عميتة . وج أعمتة وعمت بضمتين في الأخير . هذه حكاية أهل اللغة . قال ابن سيده : والذي عندي أن اعمتة جمع عميت ، الذي هو جمع عميتة ، لأن فعيلة لا يكسر على أفعلة . والعميتة من الوبر كالفليلة من الشعر . ويقال عميتة من وبر أو صوف ، كما يقال . سبيخة من قطن ، وسليلة من شعر ، كذا في الصحاح . وفي التهذيب عمت الوبر والصوف لفه حلقة فغزله كما يفعل الغزال الذي يغزل الصوف فيلقيه في يده . قال والاسم العميت . وأنشد :

يظل في الشاء يرعاها ويحلبها ويعمت الدهر الا ريث يهتبد

يقال : عمت العميت يعمته عمتاً . قال الشاعر :

فظل يعمت في قوط وراجلة يكفت الدهر الا ريث يهتبد

قال يعمت يغزل من العميتة ، وهي القطعة من الصوف » ، شرح القاموس (٥٦٤/١ وما بعدها) .

النسيج ، كما في هذه الجملة : « تعمت ملكن » ، أي « دار النسيج الملكية »(١) .

وفي النص ألفاظ اختلف العلماء في تفسيرها ، كما في « نفق » وفي « لمنس » ، فقد فسّرها بعضهم بـ « مرقد » و « قبر » ، من « لمم » ، وفسرها بعضهم بدخل وما يجمعه الإنسان من وارد (٢) . ومهما قيل في معاني هذا النص ، وبأي شكل فسّروه ، فإن ذلك غير مهم بالنسبة الينا ، إنما ترجع أهمية النص كما قلنا الى وجود جالية عربية بمصر ، كانت تتعاطى التجارة هناك قبل الميلاد بقرون ، وهذا هو المهم في هذا النص وفي أمثاله .

وتعد الكتابات المعينية التي عثر عليها في جزيرة « ديلوس Delos » ذات أهمية كبيرة كذلك بالنسبة الى بحثنا هذا ، فإنها ترينا وصول المعينيين الى الجزر اليونانية وإقامتهم فيها واتجارهم مع اليونان . ومن جملة هذه النصوص نص مكتوب بالمعينية وبالخط المسند وباليونانية وبالحروف اليونانية ، ورد فيه : « هنا أي هانىء وزيد ايل من ذي خذب نصب مذبح ودّ وآلهة معين . بدلث » أي بـ « ديلوس » . وورد في اليونانيـة « يآ ودّ اله معين يآ ودّ » (٣) . وفي هذا النص دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها ، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت تتصل ببلادها وتتاجر وتتراسل معها ، تصدر اليها حاصلات اليونان ، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وإفريقية والهند . وتعمل مع اليونان شراكة أو تعاوناً في أسواق

---

(١) Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Band 2, 1924, S. 127. ff.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Rep. Epi., Num. 357, P. 225, Conti Rossini, Chrest. Arab. Merid., 1931, P. 78.

التجارة العالمية في ذلك العهد .

وكان السبئيون قد استوطنوا السواحل الإفريقية المقابلة لسواحل جزيرة العرب ، وأقاموا بها مملكة « اكسوم » ، وأدخلوا لغتهم وثقافتهم الى الإفريقيين . ومن أبجديتهم أخذ الأحباش أبجديتهم التي لا يزالون يستعملونها مع بعض التغيير . وفي الصومال وما بعده حكم أمراء عرب . وكان التجار العرب يشاهدون بكثرة في « رهابتا Rhapta » على مقربة من « زنجبار » . وقد ذكر « بريبلوس » أن رئيس « معافر » كان يحكمها بموجب حق قديم . وأن أهل مدينة « Muza » يحكمونها باسمه ، ويبعثون اليها بسفن تجارية يديرها ربابنة ووكلاء عرب ألفوا أهل البلاد ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم ، وخبروا الساحل ، واطلعوا على لغتهم [1] .

وصناعة السفن الكبيرة تحتاج الى أخشاب والى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، وإلى أيدي فنّية عاملة ، ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب . ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب ، وهي سفن ليس في مقدورها اختراق آفاق البحار الكبيرة والمحيطات ، والتجول بحرية في أية ناحية كانت من نواحي البحر الواسعة . ولم يكن لها الا السير في محاذاة السواحل ، وهو سير يكلفها كثيراً ، فعلى السفن أن تقطع مسافات طويلة معرضة نفسها لمخاطر الاصطدام بالصخور الكامنة في المياه ، ولهجمات القرصان الجائعين وللجوء الى مراسي كثيرة طلباً للماء العذب والزاد ، ولتمضية وقت طويل ، على حين لا تحتاج السفن الكبيرة الى كل ذلك ، فهي قادرة بفضل متانتها وقوة صنعها على اختصار المسافات وتقصير الوقت وحماية نفسها من هجمات القرصان باستخدام الرياح البحرية ، وقطع البحر باستقامة وبحرية الى أي ميناء يريده الربّان .

---

(١) Periplus, 7, 10, 14, 17.

وكان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج ، أو شراء السفن جاهزة من الأسواق الخارجية ، وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفاً باهظاً ، ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج . وهذا ما سهل لمنافسي العرب القادمين من الشمال والطامعين في العالم وفي السيطرة عليه ، وأعني بهم الرومان واليونان من مزاحمة الدول العربية الجنوبية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، ومن إنزال خسائر فادحة في ثروة العرب ، أثرت أثراً كبيراً في الأوضاع السياسية والاقتصادية لجزيرة العرب ، ولا سيما في الأقسام الغربية والجنوبية الغربية من هذه المنطقة .

وقد أشار بعض الكتبة من اليونان واللاتين الى نوع من السفن دعوه « Madarata »، ذكروا أن ميناء « عمانة Omana » كان قد اشتهر ببنائه . وقد صنعت هذه السفن من الألواح المشدودة بالليف . وقد رأى بعض المستشرقين أن هذه اللفظة من أصل عربي ، هو « مدرّعات » ويراد بها السفن المشدودة بدروع النخل [1] . ورأى آخرون أنها من أصل « Mabarata » جمع « معبر » [2] من أسماء السفن في لغة بني إرم [3] . على كل حال ، عرف هذا الميناء العربي ببناء هذا النوع من السفن .

---

(١) حوراني (ص ٥١) .

(٢) « والمعبر ما عبر به النهر ... والمعابر خشب في السفينة ، يشد اليه الموجل .. » ، القاموس (٨٣/٢) ، « والمعبر : بالكسر : ما عبر به النهر ، من فلك أو قنطرة أو غيره ... والمعابر : خشب بضمتين في السفينة منصوبة يشد اليها الموجل . وهو أصغر من الأنجر تحبس السفينة به » ، شرح القاموس (٣٧٨/٣) .

(٣) حوراني (ص ٥١) .

ولم يشر أولئك الكتبة الى وجود سفن كبيرة عربية في البحار . بل الذي يفهم من كتبهم أن السفن العربية لم تكن في سعة السفن اليونانية وفي قابليتها على الحركة والعراك في البحر ، وأن تلك السفن كانت تتغلب على السفن العربية ، كالذي ذكره « أغاثرخيدس » مثلاً عن تغلب السفن اليونانية الرومانية ذات الصفوف الأربعة من المجاذيف على سفن القرصان التي كانت تلاحق السفن التجارية في البحر الأحمر [1] ، وكالذي ذكره « سترابون » عن خطأ « أوليوس غالوس » في بنائه سفناً طويلة لمجابهة السفن العربية التي كان يتصور احتمال ظهورها ومقاومتها له . مع أن العرب قوم تجارة وبيع وشراء ، ولذلك لم يكونوا بأمة حرب ، لا في البحر وحده ، بل في البرّ أيضاً . ومع ذلك بنى غالوس ما لا يقل عن ثمانين سفينة حربية ، منها سفن ذوات صفين من المجاذيف ومنها ذوات ثلاثة ، ومنها ذوات صف واحد ... ولما أدرك خطأه ابتنى مئة وثلاثين سفينة للحمل ، ركب فيها نحو من عشرة آلاف من المشاة ... وبعد أن خسر كثيراً من سفنه ، غرق عدة منها وغرق من فيها من بحارة ، وذلك بسبب صعوبة الملاحة لا بمقاومة من عدوّ » [2] .

وإذا كنّا لا نعرف شيئاً عن ركوب السبئيين وغيرهم من شعوب اليمن البحار ، للوصول الى الهند ، فإننا لا نستطيع أن ننكر ركوب الحضارمة وأهل عمان وسواحل الخليج البحر في طريقهم الى الهند . فقد عرف سكان هذه المناطق بأنهم من قدماء رجال البحر في العالم. وهم لا يزالون يركبون البحر بسفنهم الشراعية التي يقومون ببنائها بأخشاب يستوردونها من الخارج ، فيصلون بها الى سواحل افريقية والى الهند ، بل الى ما وراء الهند . وقد ذكر « بلينيوس » أن ميناء « أكيلا Acilla » ،

---

(١) حوراني (ص ٥٨ وما بعدها) .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي ٢/٢٦٤ لسنة ١٩٥٢ م .

الواقع على مقربة من « رأس الخيمة Massandum » كان أحد المواضع التي تبحر منها السفن الى الهند [1] . وهو أقرب طريق يوصل العرب الجنوبيين وعرب سواحل عمان الى تلك البلاد .

وقد اشتهر الفينيقيون ببناء السفن ، وصارت مدنهم مثل صور وصيدا من أشهر مدن العالم في بناء السفن ، وبهم استعان ملوك آشور وملوك اليهود في بناء السفن وتسييرها وتدريب رجالهم على ادارتها . وقد ساعد في اختصاصهم هذا وجود الخشب الصالح لبناء السفن في لبنان . وقد بعث « حيرام » ملك صور الفينيقي بفعلة فينيقين الى « عصيون جابر » ليبنوا للملك سليمان سفنه التي جاءت اليه بالذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس والبضائع الثمينة [2] ، كما ساعد الفينيقيون الملك « سنحريب » في بناء سفن اخترقت نهر دجلة حتى وصلت الى « دلمون » [3] .

ووضع « دارا الأكبر » مشروعاً خطيراً جداً من الأوجه العسكرية والسياسية والاقتصادية ، للسيطرة على البحار ، يتلخص في انشاء أسطول يصل فارس بالهند وبمصر . وحفر أو أعاد حفر القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر عن طريق الفرع البلوزى أحد فروع النيل القديمة ، بالقرب من الزقازيق ، مخترقة وادي الطميلات ثم البحيرات الى السويس . وهو مشروع يؤثر على البلاد العربية بالطبع . ويقتطع منها أرباحها من التجارة العالمية ، ويوقع بها خسائر فادحة ولا شك .

وكان الاسكندر الأكبر الرائد والمعلم الأول للغربيين في مشروعاتهم الاستعمارية الخطيرة الرامية الى السيطرة على الشرق . لقد رأينا قائده « نيرخوس Nearchus » على

---

(١) حوراني (ص ٥٢) . Pliny, VI, 32, Glasser, Skizze, II, S. 186,

(٢) الملوك الأول : الاصحاح التاسع الآية ٢٦ وما بعدها ، الاصحاح العاشر الآية ١١ وما بعدها .

(٣) Luckenbill, ancient records of Assyria and Babylonia, II, 218, ff.

رأس أسطول ضخم ، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج الفارسي والبحر العربي حتى ذلك العهد . وقد رأينا كيف قرر الاحاطة بجزيرة العرب من الجنوب والغرب بالسيطرة على سواحلها وانشاء أسطول يمخر المياه المحيطة بها . وقد استعان نفسه بخبرة الفينيقيين وعلمهم بالبحر . نقلهم الى هذه المياه وكلفهم بناءَ السفن له ، وبادارتها له . ولو قدر له أن يعيش طويلاً لتحقق مشروعه الضخم ، ولكن القدر قضى عليه مبكراً ، فمات مشروعه معه ، ولم يكن لخلفائه ما كان لسيدهم من عزم ، فتركوا المشروع ، ولم يتحمسوا له [1] .

وبدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني البضائع الثمينة ، تأتي اليه الى أسواق مصر أو بلاد الشأم محملة بسفن عربية أو على ظهور جمال القوافل كما كان ذلك في الغالب ، وهي بأسعار عالية ، إرتاد هو البحر الأحمر ، ومنه المحيط الهندي الى سواحل افريقية أو سواحل العربية الجنوبية أوالهند فما وراءَها ، يشتري من موانئها وأسواقها ما يريد ، بأسعار رخيصة جداً بالقياس الى تلك الأسعار التي كان يدفعها للتجار الموردين في أسواق مصر أو أسواق بلاد الشأم ، فاستفاد هو ، واستفادت حكومته منه ، وخسر التجار العرب بوصول هؤلاء التجار الى تلك الأسواق ومنافستهم لهم خسائر فادحة ، أوجدت خللاً في الحياة الاقتصادية للدول العربية ، وضرراً عاماً في جميع نواحي الحياة الأخرى .

وطالما تشكى الرومان واليونان من فداحة الأرباح والضرائب التي كان يفرضها التجار العرب على البضائع المرسلة اليهم ، والتي كانوا يحتاجون اليها ويشترونها بأي ثمن كان . وقد ذكر « سترابون » الجغرافي الشهير في جملة الأسباب التي حملت القيصر « أغسطس » على ارسال حملته الشهيرة ، الحملة المعروفة بحملة « أوليوس غالوس » على

---

(١) Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20

العربية السعيدة هو ثراء أهل تلك البلاد ، وحصولهم على أرباح مفرطة من الغرباء وفي ضمنهم الرومان واليونان من اتجارهم معهم ، دون أن يعطوا أولئك التجار الغرباء والبلاد التي يحملون تجارتهم اليها شيئاً (١) .

لقد أثرت الأوضاع السياسية ، في الانبراطوريتين الرومانية واليونانية ، في حالة الملاحة في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي . ففي أيام الفتن والاضطرابات وحدوث القلاقل ، لم يكن في وسع أصحاب السفن الرومان أو اليونان التوغل في البحار البعيدة عن مناطق نفوذ الإنبراطوريتين ، لضعف وسائل الحماية ، وانشغال الحكومة عن تقوية الأسطول الحربي الذي يتولى حماية السفن التجارية وحماية التجار والمستعمرات العديدة المقامة على السواحل . ولهذا نجد « سترابو » يذكر أنه قبل أيامه لم تكن هنالك سفن كثيرة تجتاز البحر الأحمر ، فقد كان كل ما يرسله الرومان من السفن لا يزيد على العشرين سفينة ، تجتاز هذا البحر ، فتصل الى ما وراءه في المحيط (٢) .

وقد أدرك البطالمة قيمة القناة القديمة التي كانت تربط النيل فالبحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأمر بطلميوس الثاني (١٨٥ — ١٤٦ ق . م) بإعادتها ، ومكن بذلك تجاره من دخول البحر الأحمر ومن نقل التجارة من اسواقها الأصلية الى مصر ، ومنها الى أسواق اليونان والرومان وسائر بلاد أوربة بالطرق المائية ، وضبط بذلك الطريق المائي العالمي القديم ، هذا الطريق الذي فتح أذهان « دلسبوس » فيما بعد فجعله يفكر في موضع أصلح رآه في المكان الحالي المعروف بـ « قناة السويس » القناة العالمية التي ما برحت الدول الكبرى تحلم في استمادتها والسيطرة عليها ، وكانت بريطانيا تعدها العصب الحساس في جسم الانبراطورية ، وتتخذها وسيلة للتمسك باحتلالها مصر .

---

(١) واجع الترجمة المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي ٢/٢٦٣ لسنة ١٩٥٢ م .

(٢) Strabo, 17, I, 13.

ونجد في كتابة تعود الى سنة « ١٣٠ » قبل الميلاد إشارة الى موظف كان مسؤولاً عن سير السفن وعن الطريق الصحراوية الممتدة الى قفط ، ونجد أخباراً تعود الى ما بين سنتي ١٢٠ و ١١٠ قبل الميلاد تتحدث عن سفن كانت تسير بين مصر والهند ، كما نجد فيها وفي نصوص تعود الى عهود متأخرة عن هذه اشارات الى وجود موظفين مسؤولين عن البحرين الأحمر والهندي (١) .

وقد كان لاستفادة اليونان من الرياح الموسمية التي تهب في المحيط الهندي أثره الخطير في الملاحة العربية في هذا المحيط . فقد مكنهم ذلك من الوصول سريعاً الى أماكن بعيدة ، مستفيدين من قوة الرياح الدافعة ، سالكين المياه البعيدة عن السواحل . وقد اطمأنوا بذلك على سلامة أنفسهم وسفنهم من أخطار الابحار على مقربة من السواحل ، ومن جملتها الارتطام بالصخور البحرية والتعرض لغارات القرصان والتصادم مع السفن العربية . وكان من أبرز اليونان الذين دونت أسماؤهم مع هذه الرياح هو اليوناني « هيبالوس « Hippalus » الذي نسب له بعض الكتاب القدماء والمحدثين اكتشاف تلك الرياح (٢) .

وأخذ التجار اليونان والرومان يقصدون سواحل إفريقية وبلاد العرب والهند ، ويقيمون في موانئها للاتجار . وقد عثر على نقود يونانية ورومانية في مواضع متعددة من هذه السواحل ، كما عثر فيها على آثار معابد ومباني تشير إلى أصل يوناني وروماني ، كذلك نجد أخباراً لأشخاص يونانيين ورومانيين ذهبوا الى أرض سبأ للاتجار (٣) .

---

(١) حوراني (ص ٦٦) .

Rostovtzeff, The Social and economic History of the Hellenistic World, II, P. 923. ff.

(٢) Pliny, VI, 26, Tarn, The Greeks in Bactria and India, P. 366. ff.

حوراني (ص ٦٦ وما بعدها) .

(٣) حوراني (ص ٦١) الحاشية « ٢٢ » .

وكان ميناء « مخا Muza » من موانىء اليمن على ساحل البحر الأحمر ، وميناء « عدن » Arabia Eudaemon » من أهم الموانيء التي قصدها التجار والملاحون من اليونان والرومان [1] .

وقد كان القيصر « أغسطس » من أهم القياصرة الذين وجهوا أنظارهم نحو الشرق ، ونستطيع أن نقول إنه خليفة « الاسكندر الأكبر » في هذا الباب ، ومن أساتذة « نابليون » في خططه العسكرية الرامية الى السيطرة على الشرق . وقد رأينا مشروعه في السيطرة على العربية السعيدة وعلى العرب . وكان هدفه منه — كما قال سترابون — « إما أن يسترضي العرب ، وإما أن يخضعهم ، كما أنه فعلت في نفسه الروايات الشائعة منذ القدم أن العرب قوم واسعو الثراء ، وأنهم يستبدلون الفضة والذهب بعطرهم وحجارتهم الكريمة ، دون أن ينفقوا مع الغرباء ما يحصلون عليه في مقايضاتهم التجارية . فأمل أحد أمرين إما أن يحصل على أصدقاء موسرين ، وإما أن يتغلب على أعداء موسرين . » [2] .

وإذا كان « أغسطس » قد أخفق في تحقيق مشروعه في احتلال جزيرة العرب ، فإنه لم يهمل ناحية الاستفادة من البحار ، فشجع الملاحين ، وزاد عدد السفن الذاهبة الى الهند ، وقد كان عددها لا يزيد على عشرين سفينة في السنة الواحدة قبل أيامه ، فارتفع عدد ما يصل إلى الهند منها الى ما لا يقل عن (١٢٠) سفينة في السنة الواحدة [3] . وقد أقام اليونان والرومان معبداً في موضع « Mauziris » على ساحل الـ « مالابار » في أيام « أغسطس » [4] ، ووجود هذا المعبد في هذا الموضع دليل على المدى الذي

---

(١) حوراني (ص ٦١) .

(٢) الصفحة (٢٦٤) من المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة (١٩٥٢) .

(٣) حوراني (ص ٧٥) ، Strabo, 17, 1, 13

(٤) حوراني (ص ٧٥) .

وصل اليه التجار اليونان والرومان في بلاد آسية . وعلى مقدار تشجيع أيام القيصر لأولئك التجار .

ولم يجد الرومان ولا اليونان مقاومة تذكر حينما ولجوا البحر الأحمر والمحيط الهندي . لقد كانت سفنهم أكبر وأقوى من سفن العرب ، وأحدث منها ، وأقدر على الحركة والمقاومة . تتحمل صعاب البحر، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا مما يقلل بالطبع من أجور النقل ، ويخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، ويزيد في عدد المستهلكين .

ولكنهم كانوا يجابهون مع ذلك بالقراصنة الذين كانوا يتعقبون السفن ، ويغيرون عليها عند تقربها من السواحل . كان هؤلاء القراصنة قد ابتنوا سفناً لهم ، فإذا رأوا سفناً يونانية أو رومانية أو غيرها وقد وقعت في قبضة الأعاصير ، أو اصطدمت بالصخور البحرية أو كانت على مقربة منهم وفي مناطق يمكن وصولهم اليها ، أغاروا عليها وأخذوا منها كل ما تقع أيديهم عليه . ولا ينجو منها أحد ، حتى أصحابها يؤخذون أسرى في الغالب ، فيباعون في الأسواق لاستخدامهم في الأعمال التي يحتاج اليها سكان جزيرة العرب .

ولحماية السفن والتجار ، أنشأ الرومان واليونان أسطولاً بحرياً حربياً ، يتولى حراسة السفن التجارية وحماية المستعمرات التي أنشؤوها على سواحل هذه الطرق المائية العالمية المهمة . ولم تكن المسافات بين المستعمرات الساحلية قصيرة ، ليكون في الامكان الدفاع عنها والتعاون فيما بينها . وللتغلب على هذا الضعف ولحمايتها حماية قوية زودوها ما تحتاج اليه من مياه عذبة ومن أطعمة ومن جنود لصد غارات المعتدين .

وبذلك هيمنوا على البحار ، وضبطوا البحر الأحمر بصورة خاصة ، ولم يبق للعرب من

مجال في التجارة العالمية إلاّ بسلوك الطرق البرّية الموصلة الى بلاد الشأم والعراق .

وقد رأى البحر الأحمر سفناً أقوى وأضخم من السفن العربية الصغيرة ومن سفن سكان سواحل إفريقية : رأى سفناً تسير بقوة أربعة صفوف من المجاذيف « Quadriremes »[1] أخذت تتعقب أولئك القراصنة ، وتحمي سفن اليونان والرومان ، وتحمي المستعمرات الصغيرة التي أنشئت على سواحل البحر الأحمر لايواء تلك السفن ، وتقديم المساعدات الى أصحابها ، وشراء السلع من القبائل الساكنة على مقربة منها ، وسرعان ماصارت أسواقاً صغيرة للبيع وللشراء ، يبيع فيها هؤلاء التجار الأجانب ما يأتون به من تجارة من حوض البحر المتوسط ، ويشترون منهم ما عندهم من مواد أولية ، يقبل عليها أهل مصر واليونان والرومان وسكان البحر المتوسط . وقد أثرت هذه الأسواق بالطبع في مصالح التجار العرب الذين كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال ، وألحقت بهم ضرراً ولا شك .

وقد ضمنت هذه السفن الضخمة للرومان السيطرة على البحر الأحمر وعلى قسم من المحيط الهندي ، واستطاعت احتلال « عدن » . ففي أيام « كلوديوس » « ٤١ ـ ٥٤ م » كان هذا الميناء في قبضة الرومان[2] . وكانت به حامية رومانية . وقد سار الرومان على سياسة التحالف مع بعض الملوك والرؤساء في سبيل بسط سيطرتهم على البلاد العربية ، فتحالفوا مع رئيس حمير على ملك سبأ ، وكانت غايتهم من ذلك ضمان مصالحهم بالطبع ، وإضعاف الحكومات العربية بهذه الطريقة ، ليتمكنوا من التدخل في شؤونها ومن السيطرة عليها ، كما تفعل الدول الكبرى في هذا العهد .

واهتم « تراجان » بأمر التجارة الشرقية كذلك ، اهتم بالتجارة البرية والبحرية .

---

(١) حوراني (ص ٥٩) Agatharchides, I, 83, 85. 88, Strabo, XIII, I, 44, 45.

(٢) حوراني (ص ٧٩ وما بعدها) Periplus maris Erythraei, 26.

جعل أرض النبط ولاية خاصة دعاها : « الكورة العربية أو المقاطعة العربية » « Arabia Provincia » ، وذلك سنة « ١٠٦ » للميلاد . واهتم بالطرق البرية ، فأصلح طريقاً مهمة تمر من أيلة الى دمشق فالبتراء وبصرى ، وهى طريق قديمة ومعروفة ، ولكنها كان في حاجة الى عناية واصلاح ووضع معالم . ونافست « أيلة » ميناء « لويكة كومة » . وقد كانت هذه المنافسة هى السبب في موت هذا الميناء ، وانطفاء شعلة حياته ، وأصلح القناة القديمة ، بعد أن تراكمت فيها الاتربة حتى سدت مجراها ، وحفر قسما جديداً من طرفها الغربي ، أوصلها بالنيل عند « بابلون » « Babylon » ، موضع مصر القديمة . وبذلك سهل الاتصال بالفرع الغربي للنيل المؤدي الى الاسكندرية ، وبرز ميناء « القلزم Clysma » حيث التقت قناة تراجان بالبحر الأحمر [١] .

وعثر على كتابة دونها جماعة من أهل تدمر ، اشتغلت بالملاحة في البحر الأحمر ، أشادت بفضل القيصر « هادريان » « ١١٧ — ١٣٨ م » عليها [٢] ، تدل على اشتراك التدمريين في الملاحة ، مع أنهم من أهل مدينة صحراوية ، عماد حياتها التجارة بالبضائع الواردة اليها بالطرق البرية .

وقد توغل الملاحون في أيام أسرة « انطونينوس Antonines » « ٩٨ ـ ١٩٢م » حتى أدركوا موضع « رهابتا » على مقربة من « زنجبار » في السواحل الإفريقية ، ووصلوا الى سواحل الصين في آسية . وهذا هو سرّ وجود أسماء مواضع في جغرافيا بطلميوس (في حوالي ١٥٠ — ١٦٠ للميلاد) لم ترد في كتب المؤلفين السابقين الذين

---

(١) حوراني (ص ٨٦) .

(٢) حوراني (ص ٨٧) ، Dio Casius, 68, 14, Ptolemy, IV, 5, 14,

عاشوا قبل هذا الجغرافي اليوناني الشهير [١] . وفي جملة ما ذكره هذا الجغرافي أسماء مواضع عـديدة في جزيرة العرب ، لم يشر اليها المؤلفون اليونان والرومان السابقون ، وأوصاف أدق وأصدق من الأوصاف التي ذكروها ، وفي ذلك دلالة على زيادة علم اليونانيين والرومان في هـذه الأيام بأحوال الشرق نتيجة زيادة اختلاطهم واتصالهم بالشرقيين .

ومعارفنا بأخبار الملاحة في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي في العهد الساساني والبيزنطي ، أي العهد الذي أصبحت القسطنطينية فيه عاصمة بدلاً من روما (٣٣٠م) ، قليلة ضحلة ، لأن أكثر المؤرخين الذين عاشوا في هذه الحقبة ثم ما بعدها الى ظهور الاسلام انما اهتموا بالأمور الدينية ، وكانوا اذا ما تطرقوا الى النواحي الجغرافية أو التأريخية المعاصرة للبلاد الخارجة عن نطاق الانبراطورية البيزنطية أو نفوذها السياسي ، أوجزوا القول ايجازاً لا يعطي القارىء رأياً في الأحوال العامة وفي ضمنها التجارة والملاحة في بلاد الشرق . وفي ضمن ذلك البحر الأحمر والمحيط الهندي .

أما البحرية والتجارة البحرية الساسانية ، فإننا لا نعرف عنها في هذا العهد معرفة واسعة ، على كل فإنّ هذا الذي نعرفه عنهما هو خير من الذي نعرفه عن البيزنطيين . وقد ذكر أن « أردشير الأول » (٢٢٥ — ٢٤١ م) بنى جملة موانيء بحرية ، وأن « نرسى » (٢٩٢— ٣٠٢ م) عقد صلات ودية مع ملك الزنوج في شرق الصومال ، وأن « سابور الثاني » (حوالي سنة ٣١٠) هاجم البحرين ، وأقام حامية بها ، وفتك بقبائل عديدة ، وذلك رداً على هجوم تلك القبائل على سواحل فارس [٢] .

وصار للفرس نشاط ملحوظ في الخليج وفي المحيط الهندي . وقد أنشأ الفرس

---

(١) حوراني (ص ٨٧ وما بعدها) .

(٢) حوراني (ص ٩٠ وما بعدها) .

جملة كنائس في « الملبار » والهند وسقطرى ، أنشأها الفرس النساطرة بالطبع ، وكانوا تجاراً ، نزلوا في هذه المواضع للاتجار ، كما كانت هنالك سفن فارسية في « أدولس » .

ولا ريب أنه لولا هذا النشاط البحري الذي أظهره الساسانيون في البحر ، لما أمكن للفرس احتلال اليمن ، بعد اخراج الجيش منها ، والبقاء في اليمن إلى دخول عاملها الفارسي في الإسلام ومعه سائر الفرس والأبناء .

وقد كان لنشاط الساسانيين في البحر ، والأوضاع القلقة التي ظهرت في الدولة البيزنطية ، والحروب المتوالية بين الساسانيين والبيزنطيين ، أثر في مركز التجارة اليونانية في المحيط الهندي ، فقل عدد سفنهم في مياه هذا المحيط ، ولم تتمكن من الابتعاد كثيراً عن باب المندب [(١)] . ولهذا اقتصر نشاطها على البحر الأحمر وعلى السواحل الإفريقية التي كانت على صلات حسنة بالبيزنطيين . كانت تصل الى ميناء « ادولس » ، ومنه يصل التجار الى أسواق الحبشة الداخلية ، أو الى موانىء « سقطرى » ، وقد كان بها مستوطنون يونانيون ، أقاموا فيها منذ أمد طويل ، وبنوا بها كنائس ومستوطنات للإقامة فيها ، وظل بعضهم بها الى أيام الإسلام [(٢)] .

---

(١) حوراني (ص ٩٦) .

(٢) « سقطرى » بضم أوله وثانيه وسكون ثالثه وراء والف مقصورة ، ورواه ابن القطاع : سقطراء بالمد في كتاب الأبنية . اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها ، وهي الى بر العرب أقرب منها الى بر الهند . والسالك الى بلاد الزنج يمر عليها . وأكثر أهلها نصارى عرب ، يجلب منها الصبر ودم الأخوين . وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر ، وهو صنفان : خالص يكون شبيهاً بالصمغ في الخلقة ، إلا أن لونه كأحمر شيء خلقه الله تعالى ، والصنف الآخر مصنوع من ذلك ...... فلما مات الاسكندر وظهر للمسيح بن مريم عليه السلام ، تنصر من كان بها من اليونانيين وبقوا على ذلك إلى هذا الوقت ، فليس في الدنيا موضع والله أعلم فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى . وكان يأوى اليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار . فأما الآن فلا ...... ويذكرون أن قوماً من بلد الروم طرحهم =

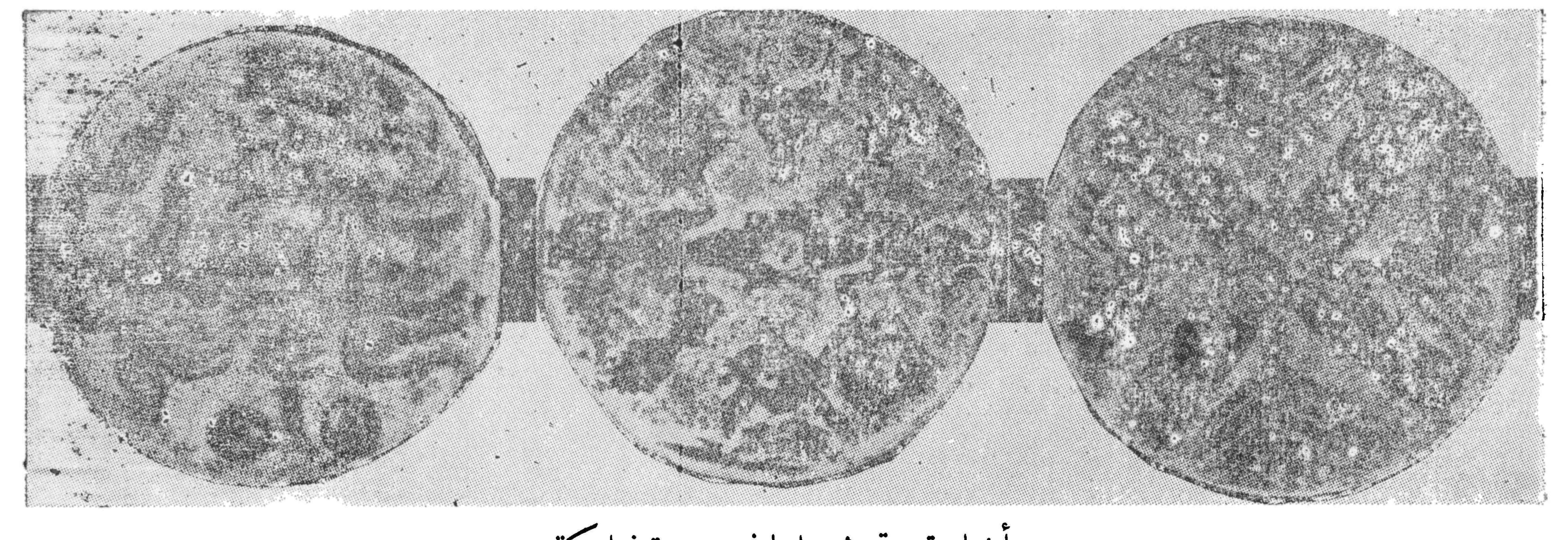
والحديث — بعدُ — عن التجارة البحرية ، وعن دخول الروم والرومان والفرس الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر ، وعن الموانىء والمواطن والجزر التي أقاموا فيها ، أو اختلفوا اليها ، في شيء من التفصيل والتوسع ، هو حديث طويل يضطرنا الى الرجوع الى الكتب القديمة التي ألفها الروم والرومان وغيرهم ، والى اعادة حديث سبق أن تحدثنا به بتفصيل في الأجزاء السابقة ، ولا سيما في موضوع « العرب واليونان والرومان »[1] . واعادة الحديث عن شيء دون حاجة تدعو اليه ، لغو ترفضه الطباع السليمة ، ولذلك نحيل من أراد المزيد على تلك الأجزاء .

هذا ، ولا بد لي هنا من لفت نظر القاريء الى ورود شيء في كتب أهل الأخبار عن حملات الروم على بلاد العرب وعلى البحر الأحمر ، ولو أن هذا المذكور المدّون هو من نوع القصص المعروف المألوف الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار ، فيه مبالغة وغرابة وخيال ، وفيه سذاجة تنم على عقلية سطحية تروي كل ما يقال لها من غير نقد ومناقشة . ولكنه قصص يستند — على كل حال — الى أصل وسبب وإن كان بعيداً . ثم إنه قصص طريف يريك مبلغ علم القوم بأحوال الماضين ، وكيف يروون قصص الحوادث المتقدمة وينقلونه على أنه تأريخ للماضين . ويكاد يكون أكثر تأريخ من تقدم زمن الإسلام من هذا النوع .

خذ باب المندب ، واقرأ في كتب أهل الأخبار تأريخه ، ترَهُمْ يذكرون أن هذا البحر لم يكن بحراً قديماً ، وإنما شقه ذو القرنين ، وذلك أنه لما بلغ هذا الوادي ، نظر فوجد به شدة الحرّ ، ففتحه ، أي نقر صدر الوادي ، فخرج البحر ، وخرج عرق منه الى

= بها كسرى . ثم نزلت بهم قبائل من مهرة فسا كنوهم وتنصر بعضهم ، وبها نخل كثير ، وبسقط بها العنبر ، وبها دم الأخوين وهو الأيدع والصبر الكثير ... » ، البلدان (٥/٩٣ وما بعدها) .

(١) ٢/٢٧٠ وما بعدها ، و ٣/٢٧٤ وما بعدها ..



أختام قديمة عثر عليها في جزيرة فيلكة

من مجلة العربي (شباط ١٩٦٠)

القُلْزُم ، ووقف عنده يقول : أردنا أن نفرق ما بين الاقليمين ليعرف كلٌ صاحبه ، ويجوز كل أرضه وبلاده ، وينقطع ما بين القوم من التغلب والتعدي »[1]. وخذ ما ذكروه عن جزيرة سقطرى[2]، وما رووه عن حصن الهجوم[3] وعن مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ترَ أثر وصول الروم الى هذه الأماكن في هذا القصص، في أسلوب قصصي خرافي .

وقد أخذت الاكتشافات الأثرية الحديثة تؤيد ما جاء في تلك الكتب من أخبار عن وصول الروم والرومان الى جزيرة العرب ، والى توطن كثير منهم في مواضع متعددة منها وفي الجزر القريبة منها والواقعة عند سواحلها . وسوف يزداد علمنا بذلك عند اقدام علماء الآثار على الحفر في أماكن عديدة منها ، وعند ما يتوسع تطواف كثير من العلماء المتخصصين بالتأريخ في كل انحائها. وقد عثرت بعثة دانمركية في جزيرة « فيلكة » من جزر امارة الكويت على آثار بيت يتكون من اثنتي عشرة غرفة لاتزال قواعده باقية، وعثرت على آثار ترجع الى أصل يوناني ، من بينها قوالب استخدمت لصنع الدمى والتماثيل ، ومنها قالب لعمل وجه الاسكندر ، وقالب لصنع إلآهة النصر اليونانية ، وقالب لا لآهة الجمال ، وقالب فتاة بلباسها اليوناني قد تشير الى بنت إلآهة التربة والخصب . وعثر بين هذه الآثار على رأس ملك ، وعليه طاقية مدببة ، وله لحية تشبه لحى ملوك أشور ، مما يبعث على الظن أنه تمثال يمثل رأس ملك أشوري . ووجود هذه الآثار في هذا البيت دليل على اقامة غرباء فيه وفدوا على الجزيرة من الشمال ، وأنهم

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن (ص ٩٥ وما بعدها ، ١٧٠) .
(٢) المصدر نفسه (ص ١١٤) .
(٣) ابن المجاور (١/ ٢٠) .

سكنوا هذا البيت ، وأن صاحب هذه القوالب ربما كان قيناً أو صانع تماثيل [١] .

وعثر في مكان آخر من هذه الجزيرة على بقايا بناءٍ ظهر من فحصها أنها بقايا حصن ، له جدار ذو ابراج للدفاع عنه ، وحوله خندق يحول بينه وبين الطامعين فيه . ووجدت في داخله آثار هيكل من طراز الهياكل اليونانية ، المتخذة لعبادة آلهتهم ، وعلى قطعة من جرة فخار عليها كتابة يونانية باسم صاحب الجرة ، وسمة تدل على مالكها ، على طريقة أهل « رودس » في اتخاذ السمات للدلالة على أصحابها [٢] .

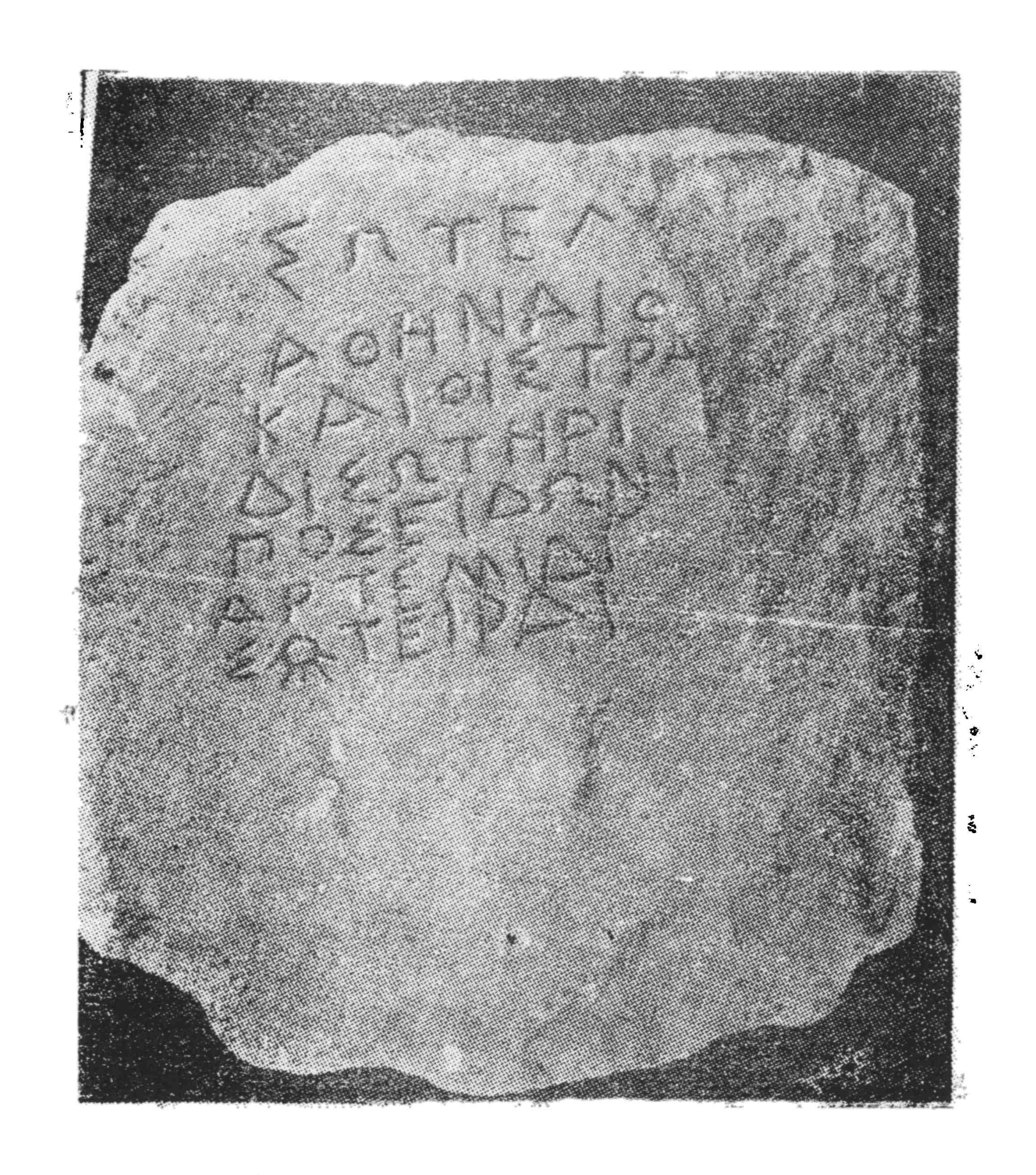
وعثرت البعثة على آثار أخرى ، من بينها آثار مصنوعة من النحاس ، وجرة كبيرة قطرها (٥٦) سم ، ذات شكل كُرِيّ ، وقطع كثيرة من الفخار الذي يمثل عصراً يظن أنه أقـــدم من عصر الآثار اليونانية التي تحدثت عنها . وعثر على أختام مستديرة ، عليها رسوم ، لم يتوصل بعـدُ الى أصل أصحابها ، ولا الى العهد الذي تمثله . وكان أحد أمراء الكويت وهو الشيخ سالم الحمود الصباح ، قد عثر على حجر مصقول ، عليه كتابة باليونانية ، قد دخل في بناء جدار بيت قديم ، عثر عليه سنة ١٩٢٧ م ظهر من فحصه وقراءة كلماته أنه من عهد الاسكندر ، وقد كتب عليه : « سوتيلس المواطن الاثني والجنود (قدموا هذا) الى زوس سوتر (المخلص) والى بو زيدون والى أرتميس (المخلصة) » [٣] . ووجود هذه الآثار اليونانية في هـــذه

---

(١) أشكر السيد عبد العزيز حسين مدير معارف الكويت على اهتمامه بما سألته ارساله الي من تقارير نتائج الحفريات في جزيرة « فيلكة » ودليل المتحف وتقرير الآثار من الحفريات السابقة في جزيرة فيلكة ، فقد بادر فأنفذ الي كل هذا بسرعة مكنتني من الاستفادة منه في هذا الفصل .

(٢) تقرير البعثة الدانمركية عن حفرياتها لجزيرة فيلكة للسنة الماضية .

(٣) أخذت هذه المعلومات من مقالة نشرها الأستاذ السيد درويش المقدادي أستاذي في الأعدادية المركزية ببغداد سابقاً ، والموظف في حكومة الكويت الآن ، في مجلة (العربي) بعنوان « آثار الكويت ترجع الى ٥٠٠٠ عام » ، وعليها اعتمدت في ايراد هذه الخلاصة ، راجع (العربي) : الجزء الخامس عشر ، شباط ١٩٦٠ (ص ٥٢ وما بعدها) .



كتابة يونانية عثر عليها في جزيرة فيلكة
من مجلة العربي : (شباط ١٩٦٠)

الجزيرة وفي ذلك الزمن السحيق قبل الميلاد ، دليل مادي على وصول الروم الى هذ الموضع ، ودخولهم الخليج العربي ووصولهم الى المحيط الهندي .

ثم ان ورود أخبار العرب وأسماء قبائلهم ومدنهم ومرافئهم البعيدة ، وأسماء سواحل جزيرة العرب في مؤلفات الكتبة اليونان والرومان ، ورسم جزيرة العرب في خوارطهم التي رسموها للأرض : كل ذلك دليل أيضاً على علم الروم واللاتين يومئذ بالعرب وببلادهم واتجارهم معهم واقامتهم معهم في المواضع التي تقع على سواحل جزيرة العرب وفي الجزر القريبة منها منذ عهود بعيدة عن الإسلام . وسوف تزيد الاكتشافات الأثرية التي تقوم بها البعثات الأثرية العربية والأجنبية في المستقبل علمنا بهذا الموضوع كثيراً ولا شك .

وقد دخل الأحباش البحر ، فكانوا يسيرون سفنهم بين السواحل الإفريقية والسواحل العربية الغربية والجنوبية الغربية [1] . ولولا أسطولهم التجاري وسفنهم ، ما تمكن الحبش من النزول باليمن مرتين أو أكثر ، كان آخرها استيلاؤهم عليها سنة (٥٢٤) ، أو (٥٢٥) للميلاد . وقد تولت سفنهم نقل حاصلات الحبشة والسواحل الإفريقية الى بلاد العرب ، وكان التجار العرب ينقلون هذه السلع الى بلاد الشأم أو العراق . ويظهر أن حكومات اليمن إذ ذاك لم تكن تملك أسطولاً قوياً تدافع به عن حدودها وتهاجم به الأعداء ، ولهذا تغلب الحبش على اليمن ، وقامت سفنهم بنقل ما يحتاج الجيش اليه من الحبشة .

---

(١) « الجار » ... مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ... وهي فرضة ، ترفأ اليها السفن من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند . وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلا في ميل لا يعبر اليها الا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة » ، البلدان (٣/٣٥) .

ولم يكن للحبش أسطول قوي كذلك ، فلو كان لهم أسطول قوي ، لما تمكن «أبرهة» من الاستئثار بالحكم في اليمن ، ولما تمكن الفرس من طرد الحبش عن اليمن ، مع ضعف قوتهم البحرية على ما يفهم من روايات الأخباريين . فقد ذكروا أن قوة الفرس التي أرسلها « كسرى أنو شروان » لم تكن تبلغ ألف رجل ، ولم يكن عددها يزيد على ثماني سفن . غرق منها سفينتان . وقد تمكن هؤلاء بهذه السفن الست من القضاء على حكم الحبش في البلاد .

وضعف بحرية الحبشة ، هو الذي جعلها لا تستطيع الوفاء بوعدها للقيصر « جستينيان Justinian » في شراء الحرير من الهنود ، وبيعه للرومان ، لحرمان الفرس من ثمرة الأرباح التي كانوا يجنونها من هذه التجارة . فقد كان هذا القيصر قد أرسل في عام (٥٣١ م) وفداً الى « أكسوم » ، ليفاوض الحبش في هذا الموضوع لحرمان الساسانيين من ربح كبير كانوا يجنونه من الاتجار بالحرير المستورد من الهند ومن وراء الهند ، فوافقوا على ذلك ، لكنهم لم يتمكنوا في النهاية من الوفاء بالوعد [١] ، لعدم تمكن سفنهم البحرية من الوصول الى الهند ومن منافسة التجار الفرس الذين كانوا قد استقروا في سيلان وفي الهند وفي مواضع أخرى منذ عهد طويل .

ولم يتمكن الأحباش أن يُفيدوا فائدة تجارية كبيرة من فتحهم لليمن . ولم يحصل البيزنطيون على ما كانوا يتوقعون الحصول عليه من الاتصال بالحبش من البر ، وذلك عن طريق « المقاطعة العربية » فالحجاز الى اليمن . فلم يتمكن الحبش من احتلال الحجاز ، للاتصال بالروم . وأخفق « أبرهة » في الاستيلاء على مكة في سيره نحو الشمال ، ومُنِيَ بخسائر فادحة في الأرواح ، من الأمراض التي فتكت بجيشه ، والتي

(١) Procopius, Persian Wars, I, 20, 9-13, Malalas, 18, 456-459.

كانت أشد فتكاً بجيشه من فتك أهل مكة بها . وأضطر الى التراجع الى اليمن في سرعة . ولولا ذلك ، لتمكن من فتح الحجاز ، ومن الاتصال بالروم ، ومن جعل العربية الغربية كلها ولعل العربية الجنوبية وكل جزيرة العرب أيضاً تحت نفوذ البيزنطيين. ولكن هذه النكبة أفسدت خطته وخطط الروم ، وأقصته كما أقصت الحبش عن حلفائه اليونان ، وبذلك خسروا الاتصال بهم ، ومعنى ذلك انقطاعهم عن الاتصال بهم اتصالاً تجارياً من البرّ ، واستفادة أهل مكة من هذا الوضع ، فقاموا هم بنقل التجارة بين بلاد الشأم واليمن ، وبذلك حصلوا على ثروة عظيمة ، وقبضوا بأنفسهم على هذه التجارة البرية الرابحة . وقد خسر أهل اليمن بذلك خسارة كبيرة ، نتيجة منافسة أهل مكة لهم ، وقيامهم أنفسهم بتسيير القوافل ، وبالاتجار بين الروم واليمن بدلاً من اليمانيين .

وعدم تمكن الدول العربية الجنوبية من السيطرة على البحار سيطرة تامة جعلها تنصرف الى الاستفادة من الطرق البرية في تصريف تجارتها ، ففعلت ما فعله أهل مكة عند ظهور الإسلام من إرسال القوافل التجارية الى بلاد الشأم والى العراق ، فكانوا يرسلون بتجارتهم إلى أسواق تلك البلاد لتصريفها فيها ولشراء ما تحتاج العربية الجنوبية أو السواحل الافريقية المقابلة لها من بضائع . وما قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان إلا ترديد لصدى تلك القوافل التجارية التي كان يرسلها السبئيون الى الشمال (١) .

وقد اكتسب السبئيون ثروة عظيمة من هذه التجارة ، وكانت لهم الهيمنة على القسم الغربي من جزيرة العرب الى بلاد الشأم ، فكانت المناطق الواقعة في جنوب الأردن تابعة لهم . وهذا ما جعل قوافلهم التجارية بمنجاة من الجبايات الكيفية التي

(١) الملوك الأول : الاصحاح العاشر : الآية ١ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس ، (٦١٣/١) .

كان يفرضها سادات القبائل ومشايخ العشائر على القوافل في مقابل حمايتها والسماح لها بالمرور في الأرضين الواقعة تحت نفوذ أولئك السادات والشيوخ .

وقد طار صيت السبئيين في ذلك حتى بلغ مسامع اليونان والرومان . وأولد قصصاً يتمثل في هذا الذي كتبه كتابهم عنهم ، فذكر « أغاثر شيدس » أن السبئيين وأهل « جرها » أغنوا بلاد الشأم بالذهب ، وكانوا السبب في اثراء الفينيقيين [1] . وبلغ غناهم هذا مسامع العبرانيين ، وتردد صداه في التوراة ، كما كان من جملة العوامل التي حملت « أغسطس » ، كما يقول «سترابون» على إرسال حملته الشهيرة الى العربية السعيدة. وقد بالغ « سترابون» في وصف ذلك الثراء فقال: « وفي بلاد السبئيين يوجد « اللاريم» « Larimnum » ، وهو من أذكى العطور رائحة . وقد غدا « السبئيون » و « الجرعائيون » بتجارة المواد العطرية هذه أكثر القبائل كلها ثراء ولذلك كان لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة ، كالأسرة والموائد الصغيرة ، والآنية ، والكؤوس ، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة » [2] .

وقد كان « الطيب » ، من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون . تاجروا بتصديره الى خارج العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ومصر والعراق ، وتاجروا به في الداخل أي في أسواق اليمن . وفي الحجاز وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد عرف الطيب بـ « طيب » كذلك في اللهجات العربية الجنوبية [3] ، وعرف بهذه اللفظة في اللغة العبرانية كذلك [4] .

---

(١) حوراني (ص ٥٩) .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي ٢/٢٦٢ لسنة ١٩٥٢ .

(٣) Rhodokanakis, Stud. Zur Lexi., I, S. 4, Mordtmann-Müller, Sab. Denkm., S. 81, Glaser, Abesinier, S. 10, 27, Hastings, P. 667.

(٤) Müller, Biblische Studien, III. 85. ff.

ويستعمل الطيب في أيام الأعياد خاصة ، وفي الأفراح . ولهذا عدّ التطيب من علامات الفرح كما عدّ تركه من علامات الحزن [1] . وليس هذا خاصاً بالعبرانيين ، بل كان عاماً عند العبرانيين وعند غيرهم كالمصريين والفينيقيين والجاهليين وجميع الساميين . ولا يزال الطيب مستعملاً لهذه الغاية حتى الآن .

ويتكون الطيب الذي يرش أو يدهن به أو يمسح به ، من تركيب جملة مواد عطرية مع الماء أو الدهون في الغالب . ونجد في التوراة تركيباً خاصاً لطيب مقدس ، لتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت العهد والآنية المقدسة ، ولم يسمح باستعماله إلا لهذه الأمور المقدسة . ويتألف هذا الطيب من المرّ والقرفة العطرة وقصب الذريرة والسليخة وزيت الزيتون [2] . ويضاف الى ذلك العطر .

و « المسك » من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم [3] ، ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية . ويذكر معه «العنبر» ، وأجوده ما يجلب من شَحْر عُمان . وهو كذلك من موادالتجارة النفيسة التي كانت رائجة ومطلوبة في الأسواق [4] .

و « المرّ » ، ويعرف بـ« Myrrh » في الانكليزية ، و « مور Mör »[5] في العبرانية ، و « امرر » في المسند ، من المواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها ، وقد أقبل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية وفي الحفلات التي لها صلة بالأفراح الدينية والأعياد ،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣٢) .

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٢١) .

(٣) « ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ، سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

(٤) الاشارة الى محاسن التجارة (ص ١٩ وما بعدها) .

(٥) Hastings, P. 659

فاُستعمل في التحنيط ، واستعمل في جملة الأجزاء التي تدخل في الدهن المقدس [١] .

وأما القرفة فانها : « Cinnamomum Zeylanicumn » ، وتنبت في جزيرة « سيلان » بصورة خاصة . وتقشر ، ويستعمل قشرها ، أو يستعمل دهنها الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان [٢] .

وأما « قصب الذريرة » ، فهو « قليمتن » أي « القليمة » في المسند ، و « Calamus » و « Sweet Cane » ، ويسمى أيضاً بـ « Calamus aromaticus » ، وبـ « قصب الطيب » [٣] . وينبت على سواحل الأنهر والبحيرات في وادي الأردن ومستنقعات الحولة . ويعرف بالعبرانية بـ « قانه Qàneh » كذلك . ولعله القن في عربيتنا .

« ويراد بلفظة : « السليخة » ، نوع من الـ « Cassia » أو قشرة تؤخذ من شجرة القرفة ، أو من أشجارها [٤] .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ، (٢/٢٢٦) ، Hastings, P. 639.

(٢) « القرف ... وضرب من الدارصيني ، لأن الدارصيني على الحقيقة احمر أملس مائل الى الحلو ، ظاهره خشن برائحة عطرة وطعم حاد حريف ، ومنه المعروف بقرفة القرنفل ، وهي رقيقة صلبة الى السواد بلا تخلخل أصلا ورائحتها كالقرنفل . » ، القاموس (٣/١٨٤) ، « والقرفة : ضرب من الدارصيني . وهو على أنواع ، لأن منه الدارصيني على الحقيقة ويعرف بدارصيني الصين ، وجسمه أشحم . وفي بعض النسخ زيادة : وأسخن ، أي أكثر سخونة ، وأكثر تخلخلا ، ومنه المعروف بقرفة القرنفل ، وهي رقيقة . والكل مسخن ملطف مدر مجفف » ، شرح القاموس (٦/٢١٩) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٢) ، Hastings, P. 142.

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٦) ، Hastings, P. 786,

(٤) « والسليخة : عطر ، كأنه قشر منسلخ » ، القاموس (١/٢٦١) ، « والسليخة عطر ، تراه كأنه قشر منسلخ ذو شعب ... والسليخة : دهن ثمر البان قبل أن يربب بأفاويه الطيب ، فاذا ربب بالمسك والطيب ثم اعتصر ، فهو منشوش . وقد نش نشاً ، أي اختلط الدهن بروائح الطيب » ، شرح القاموس (٢/٢٦٢) . Hastings, P. 119.

ويكون اللبان « Frankincense » ، جزءاً مهماً من تجارة البلاد العربية الجنوبية ، واللبان هو « ليبوناه Lebonah » في العبرانية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وافريقية ، وهو نوع من أنواع البخور ، ويصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجيرة ، وتجفيف العصير [1] . وقد كانت له أهمية كبيرة لدى العبرانيين ، لاستخدامه في المعابد وحرقه للرب . وقد أشير في سفري « اشعياء » [2] ، و « ارمياء » [3] الى أن العبرانيين كانوا يستوردونه من « شبا » ، أي من أرض « سبأ » ، ويقصد بها اليمن وحضرموت. وأشهره من شحر عُمان . ويستخرج من صمغ شجر . وأحسنه ما يجمع من موضع تجمّعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه [4] .

ومن المواد الثمينة الأخرى التي تاجر بها أهل البلاد العربية الجنوبية : البخور « Incense » لحرقه في المعابد . يحرق في محرقة خاصة تسمى « محرقة البخور » أي مبخرة [5]. والبخور من أهم المواد المستخدمة في معابد العرب الجنوبيين ومعابد

---

(١) « واللبان بالضم : ضرب من الصمغ ، يقال له الكندر . وقال أبو حنيفة : اللبان شجيرة شوكة لا تسمو أكثر من ذراعين ، ولها ورقة الآس ، وثمره مثل ثمرته ولها حرارة في الفم . واللبان شجر الصنوبر . حكاه البكري وابن الأعرابي ، وبه فسر البكري قول امرىء القيس :

لها عنق كسحوق اللبان

فيمن رواه كذلك . قال ابن سيده : ولا يتجه على غيره لأن شجرة اللبان من الصمغ ... » ، شرح القاموس (٣٢٩/٩) . قاموس الكتاب المقدس (٢٨٨/٢) ، Hastings, P. 381.

(٢) اشعياء الاصحاح ٦٠ الآية ٦ .

(٣) ارمياء الاصحاح ٦ الآية ٢ .

(٤) الاشارة الى محاسن التجارة (ص ٢٢) .

(٥) « والبخور كصبور : ما يتبخر به » ، القاموس (٣٦٩/١) ، « والبخور كصبور : ما يتبخر به . وثياب مبخرة مطيبة . وتبخر بالطيب ونحوه ، تدخن » ، شرح القاموس (٣٢/٣) .

(٦) الخروج الاصحاح الـ ٣٠ الآية ٢٢ .

الأجزاء الأخرى من بلاد العرب . وقد رأينا أنهم كانوا يحرقونه في مباخر خاصة ، لتفوح رائحته داخل المعبد ، ولا تزال الكنائس تستعمله ، وكذلك معابد اليهود .

والتجمير من العادات الجاهلية المعروفة في تكريم الضيوف واحترامهم وفي التطييب ، فهو عرف اجتماعي عند الطبقات الراقية . وقد بقي في الاسلام أيضاً . واستعمله الخلفاء والملوك في القصور ، حتى استعمل في الحمّام كذلك ، وذلك لتطييب المكان . ويستعمل في ذلك العود ، وأنواع أخرى من عود الطيب ، منها القسط والمُرَنّج . ويكون ذلك بوضعه في مبخرة للتبخر به . وتعرف هذه المبخرة بـ «المجمر» ، ويقال : استجمرت بالمجمر ، أي تبخرت . وتجمر الثياب أي تبخر ، لتكتسب رائحة طيبة هي رائحة البخور [1] . ويقال للمجمرة « المقطرة » كذلك ، وإذا قيل قطر ثوبه ، فيراد بذلك بخر ثوبه [2] .

و « الجزع » من الأحجار التي تستعمل في الفصوص التي توضع في الأختام . وقد تحفر عليها كتابة أو صور [3] . وقد عثر على فصوص من هذا النوع في مواضع عديدة من الآثار في اليمن وفي العربية الجنوبية والغربية وفلسطين .

ولما كنا قد تحدثنا عن التجارة البحرية عند العرب الجنوبيين وعن تجارة غيرهم معهم ، فلا بد لنا من الكلام عن التجارة البحرية في بقية أنحاء جزيرة العرب وعن الموانيء الشهيرة على سواحلها التي كانت تقصدها السفن ويرتادها التجار من عرب وعجم . وقد سبق أن تحدثت عن أكثرها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب ، ولذلك سأقصر كلامي هنا على المهم منها وعلى علاقة هذه بالتجارة البحرية .

---

(١) والمجمر كمنبر : الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة . وفي التهذيب : قد يؤنث كالمجمرة . قال : من أنثه ذهب به الى النار ، ومن ذكره عنى به الموضع : جمعها مجامر . وقال أبو حنيفة : المجمر العود نفسه ... » ، شرح القاموس (١٠٨/٣) .

(٢) المخصص (١٩٨/١١ وما بعدها) .

(٣) الاشارة الى محاسن التجارة ، (ص ١٨) .

لقد سبق لي أن أشرت مراراً الى موضع « لويكة كومة » على الساحل العربي للبحر الأحمر في جنوب « أيلة » أو « العقبـــة » ، الموضع الأول الذي نزلت به القوات الرومانية في جزيرة العرب في منهجها الذي وضعه القيصر «أوغسطس» لغزو العربية الغربية والعربية السعيدة سنة (٢٥ أو ٢٤) قبل الميلاد ، وهو مرفأ لم يرد آسمه كثيراً فيما بعد في كتب اليونان والرومان ولا في كتب الإسلاميين ، كان في أرض النبط ، ويظهر أن « أيلة » التي في شماله والطرق البرّية التي أخذت تنافسه . وتغير سياسة بعض القياصرة ، وتوسعهم في المقاطعة العربية الرومانية وسيطرتهم عليها ، جعلت كل هذه حياته قصيرة ، لم تمكنه من المعيشة طويلاً حتى يدرك الإسلام ، ولهذا ترك ، وأعرض البحارة عنه . ويقال إنه ظل قائماً حتى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد [١] .

والميناء المهم الثاني الذي يقع الى الجنوب من « لويكة كومة » هو ميناء « مخا » « Muza » . ويقع على ساحل اليمن ، على البحر الأحمر [٢] . وهو في الواقع أهم ميناء في هذا الساحل . وكان مقصوداً ، وتصل اليه السفن البيزنطية والسفن الواردة من مصر ، ومن هنا كانت تتزود تلك السفن بضائعَ البلاد العربية ، أو تبيع فيه ما آستوردته من مصر أو من سواحل حوض البحر المتوسط . وقد تتزود ما تحتاج اليه من ماء وزاد ، ثم تتجه الى افريقية أو الى سواحل الهند . وقد كانت به جاليات من اليونان أو من غيرهم مقيمة هناك للاتجار والتعامل مع الوطنيين .

---

(١) Handb. der altar., S. 114. f.

(٢) « المخا : موضع باليمن بين زبيد وعدن ، بساحل البحر . وهو مقصور » ، البلدان (٧/٢٠٢)، « ومخا : مقصورة ، بساحل بحر اليمن تجاه باب المندب ... قال الصاغاني : مرفأ بكلتيها السفن . » ، شرح القاموس (١٠/٣٢٨) .

وبين الميناءين مراسٍ صغيرة ، لم تكن ذات أهمية وشأن ، مثــل الشعيبة [1] والجار وأمثالهما ، كانت تقصدها السفن التي ترد من السواحل الإفريقية ، وهي سفن صغيرة حبشية في الغالب .

و « الشُعيبة » من المراسي القديمة في الحجاز ، وهي أقدم من جدة . وهي خور أمين تقصده السفن لتتزود ما تحتاج اليه من زاد وماء ، ولتفرغ فيــه ما تأتي به من شحن من إفريقية الى الحجاز [2] .

ولا حاجة لي في هذا المكان الى التحدث عن الميناء : « Arabia Eudaemon » ، وأعني به ميناء « عدن » ، وهو الميناء المهم الذي اشتهر وعرف في بلاد العرب ، ولا يزال يحافظ على مركزه وأهميته من الوجهة العسكرية والاقتصادية [3] . وقد ذكره « بطلميوس » الجغرافي المعروف باسم « Arabia Emporion » . وقد كان مركزاً لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ، ومكاناً تبحر منه السفن الى الهند ، كما تلتجيء اليه السفن الواردة من تلك البلاد . وقد كانت به حامية رومانية لحماية التجار الداخلين الى البحر الأحمر من مصر .

ويذكر أنه في حوالي سنة « ٣٤٥ م » ، أسس أحد المبشرين واسمه « ثيوفيلوس »

---

(١) « وفي حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه ، أن سفينة حبستها الريح الى الشعيبة ، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . ومعنى حبستها الريح ، أي دفعتها ، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة » ، البلدان (٥/٢٧٦) ، « والشعيبة هو خور عظيم ومرسى قديم مقابل وادي الحرم » ، ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، (القسم الأول) (الصفحة ٤٢ وما بعدها) .

(٢) ابن المجاور (١/٤٣) .

(٣) « عدن .. هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند . والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك ، فانها بلدة تجارية وتضاف الى أبين ، وهو مخلاف عدن ... وهو أقدم أسواق العرب . » ، البلدان (٦/١٢٢) ، ابن المجاور (١/١٠٦ وما بعدها) .

، Theophilus ، المعروف بالهندي ، كنيسة في « عدن Adane » . وقد يكون ذلك بتأثير الجوالي اليونانية والرومانية أو القبطية النصرانية في هذا المكان [١] .

والميناء الآخر الذي يلي « عدن » الى الشرق ، هو ميناء « كانة » « قانة Cane » ، وهو موضع « حصن غراب » « حصن الغراب » . وهو سوق اللبان الذي يزرع داخل البلاد ، يؤتى به الى ذلك الميناء على ظهور الجمال ، أو في الأرمات المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب . وهو ميناء له تجارة كذلك مع مدن الساحل البعيد ، مع بعض مدن الهند ، وميناء « عمانة Umana » والموانيء التي على الخليج [٢] .

وأما ميناء «Moscha» ، فهو « ظفار » [٣] من أعمال الشحر ، قريب من صحار . وبجبال ظفار « اللبان » ، واليه يحمل ، وبه يقسم ويوزع ، ولا يسمح بحمله إلى غيره [٤] . وقد ذكره « بطلميوس » كذلك . ذكر أنه كان موضعاً مقصوداً ، تقصده السفن الذاهبة الى الهند والآتية منها ، وكذلك الى الخليج وسواحل إفريقية . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنه « مسقط » وأنه « Mosca Portus » [٥] .

وكان أهل « جرها Gerrha » على ساحل الأحساء من أنشط الناس في التجارة ، يتاجرون في البحر والبر ، ويتاجرون مع الهند وسواحل ايران الجنوبية ، كما كانوا يتاجرون مع العربية الجنوبية وأرض العراق . وكانوا قوماً أصحاب تجارة مسالمين لا يرغبون في الحروب . فلما أراد « أنطيوخس Antiochus » الثالث الاستيلاء على

---

(١) حوراني (ص ٩٤) .

(٢) Periplus, 20 f., 27.

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٤٢) ، Glaser, Skizze, II, S. 180.

(٤) Ptolemy, VI, 7, 10.

(٥) Pauly-wissowa, 31 ter Halbband, Stuttgart, (1933), S. 343, Forbiger, Handbuch d. alter Geography, II, S. 757.

المدينة وذلك في حوالي سنة « ٢٠٥ » قبل الميلاد ، سألوه الصلح والمهادنة « وألا يقضى على ما أعطتهم الآلهة من سلام وحرية أزليين » [١] .

وأما مدينـــة « أبولوكس Apologus » ، فيقـــول عنهـــا مؤلف كتاب « Periplus Maris Erythraeus » أنها سوق من الأسواق التجارية ، وكانت تصدر الى اليمن اللؤلؤ والتمر والبلح والذهب والعبيد ، وهي الأُبُلَّةُ في الكتب الاسلامية و « Ubulum » في الكتابات الأكادية . وقد كانت معروفة في أيام فتح المسلمين للعراق [٢] . وقد كانت من الموانئ التي تتجر مع الهند ، وتصدر اليها حاصلات العراق وبلاد الشأم ، وتستورد منها أخشاب الأبنوس ومنتجات الهند [٣] .

ويقال لشاطئ البحر « الساحل » في العربية الشمالية [٤] . وقد وردت اللفظة في موضع من القرآن الكريم ، في الآية : « ... فاقذفيه في اليمّ ، فليلقه اليمُّ بالساحل يأخذه عدوّ لي » [٥] . وقد خصصت هذه اللفظة بالبحر ، أما شطّ النهر ، فقد عرف بـ « الشاطئ » [٦] . ويقال للساحل أيضاً « السيف » . ويقال : « سيف البحر » [٧] . وذكر بعض علماء اللغة أن « العيقة » ساحل البحر وناحيته [٨] ، وأن « العَدان » ،

---

(١) Polybius, Historia, Book: 13, Chap. 9.

(٢) العرب والملاحة في المحيط الهندي في القرون الوسطى ، تأليف حوراني ، وتعريب الدكتور يعقوب بكر (ص ٦ وما بعدها) ، وقد رمزت اليه : حوراني .

(٣) Pliny, VI, 31, 32, Dio Cassius, Roman History, 68, 28, 29. ، حوراني (ص ٥٠) .

(٤) « والساحل ريف البحر وشاطئه » ، القاموس (٣/٣٩٤) .

(٥) سورة طه (الآية ٣٩) .

(٦) المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٣/٣٦٨) .

(٧) « وبالكسر ساحل البحر ... » ، القاموس (٣/١٥٦) ، المخصص (١٠/٢٠) .

(٨) « العيقة : ساحل البحر وناحيته .. » ، القاموس (٣/٢٧٥) .

موضع كل ساحل . وقيل هو الساحل نفسه [1] .

وقد تحدثت في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وفي الأجزاء الأخرى بالمناسبة ، حديثاً مفصلاً عن الموانئ والمراسي والمواضع التي على سواحل جزيرة العرب والتي وردت أسماؤها في كتب المؤلفين اليونان واللاتين ، وذكرت آراء المستشرقين في تلك الأماكن ، ومواضعها بالنسبة الى هذا اليوم ، فمن رغب في الوقوف عليها ، فعليه الرجوع الى ذلك الجزء والأجزاء الأخرى من هذا الكتاب .

ولقد عرف بعض هذه الموانئ بصنع السفن ، صنعوها من الأخشاب المستوردة ، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن كما سبق أن قلت في بلاد العرب ، فاستوردت موانئ العربية الشرقية والجنوبية الخشب من الهند ، واستوردت موانئ اليمن وحضرموت خشبها من الهند ومن إفريقية . ولهذه السفن المصنوعة أسماء متعددة ، تطلق على السفن بحسب كبرها وسعتها وشكلها وما أشبه ذلك . وتفيدنا دراسة أسمائها وأسماء الآلات المستعملة فيها في معرفة الأصول التي أخذت منها ، والمدارس التي تعلم فيها الجاهليون فن استخدام البحار فيها . غير أننا لا نعرف ، ويا للأسف ، اسماً من تلك الأسماء ، لعدم ورود إشارات الى البحر وما يتصل به في الكتابات الجاهلية . ولهذا فليس أمامنا من ملجأ وسبيل الا الرجوع الى الألفاظ القديمة الواردة في معجمات اللغة نستعين بها في معرفة علم العرب بالبحر أيام الجاهليين المتصلة بالإسلام .

ووردت في كتب اللغة ألفاظ عديدة لها صلة بالبحر . وهي تكون لنا فكرة عن مدى معرفة العرب بالبحار ، وعن ركوب لها . ومنها البَرْزَخ ، وهو في اللغة

---

(١) القاموس (٤/٢٤٧) ، شرح القاموس (٩/٢٧٥) .

الحاجز بين الشيئين [1] . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . والقاموس بمعنى وسط البحر [2] ، وأسطمة البحر بمعنى وسطه [3] ، وعرْض البحر بمعنى وسطه ، وبلدة البحر بمعنى وسطه [4] ، ولجّة البحر [5] ، و « الشرم » لجّة البحر ، وقيل : موضع فيه [6] والعَوْطب لجّة البحر كذلك [7] ، و « الدُّرْدور موضع في البحر

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين » ، القاموس (١/٢٥٧) ، شرح القاموس (٢/٢٥٢) ، المخصص (١٠/١٦) .

(٢) « القمس : الغوص ... والقومس ، الأمير ومعظم ماء البحر كالقاموس ..... والقاموس ، البحر أو أبعد موضع فيه غوراً » ، القاموس (٢/٢٤٣) ، « والقومس ، كجوهر الأمير بالنبطية . نقله الصاغاني عن ابن عباد . وقال الأزهري : هو الملك الشريف ، وأنشد الصاغاني للفضل بن العباس اللهبي في خ م ش :

وأبي هاشم هما ولداني　　　قومس منصبي ولم يك خيشا

وقيل هو الامير بالرومية والقومس : البحر ، عن ابن دريد . وقيل هو معظم ماء البحر كالقاموس . وفي حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وقد سئل عن المد والجزر : ملك موكل بقاموس البحر ، كلما وضع رجله فيه فاض ، فاذا رفعها غاض ..... والقاموس : البحر . عن ابن دريد . وبه سمى المصنف رحمه الله تعالى كتابه هذا . وقد تقدم ذلك في مقدمة الكتاب ... » ، شرح القاموس (٤/٢٢٣) .

(٣) « وأسطمة القوم كطرطبة : وسطهم وأشرافهم .. » ، القاموس (٤/١٢٨) ، شرح القاموس (٨/٣٣٥ وما بعدها) ، المخصص (١٠/١٦ وما بعدها) .

(٤) المخصص (١٠/١٦ وما بعدها) .

(٥) « واللج بالضم : الجماعة الكثيرة ومعظم الماء كاللجة فيهما ، ومنه بحر لجي ويكسر » ، القاموس (١/٢٠٥) ، « واللج معظم الماء ، وخص بعضهم به معظم البحر . وفي اللسان لج البحر الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه كاللجة ، بالضم فيهما ولا ينظر الى من ضبطه بالفتح نظراً الى ظاهر القاعدة ، فان الشهرة كافية و ... ومما يستدرك عليه لج البحر عرضه ولجة الأمر معظمه ... » ، شرح القاموس (٢/٩٢) .

(٦) « الشرم : شجر ولجة البحر أو الخليج منه .. » ، القاموس (٤/١٣٥) .

(٧) « والعوطب : الداهية ولجة البحر » ، القاموس (١/١٠٦) .

يجيش ماؤه ، قلما تسلم منه السفينة [1] . والخليج [2] ، وهو من البحر ، سمي بذلك لأنه يجذب من معظم البحر ، والخور الخليج من البحر [3] ، والغُبّ الضارب من البحر حتى يمعن في البرّ [4] .

وقال علماء اللغة ان الجزيرة إنما سميت جزيرة لانقطاعها عن معظم الارض أو لما جزر عنه [5] . و « البضيع » الجزيرة في البحر [6] . وأما « الدَّبْر » ، فقطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها [7] .

وقد ذكر علماء اللغة الفاظاً عديدة عن المدّ والجزر ، وعن تلاطم أمواج البحر

---

(١) « الدردور بالضم : قال الجوهري : الماء الذي يدور ويخاف منه الغرق . وقال الأزهري : هو موضع في وسط البحر يجيش ماؤه لا تكاد تسلم منه السفينة . والدردور اسم مضيق بساحل بحر عمان . . » شرح القاموس (٣/٢٠٥) .

(٢) « والخليج : النهر ، وشرم من البحر . . وسفينة صغيرة دون العدولي . . » ، القاموس (١/١٨٦) ، « وفي التهذيب : الخليج نهر في شق من النهر الأعظم ،وجناحا النهر خليجاه ... وفي الحديث : ان فلاناً ساق خليجاً . الخليج : نهر يقتطع من النهر الاعظم الى موضع ينتفع به فيه . والخليج شرم من البحر . وقال ابن سيده : هو ما انتطع من معظم الماء » ، شرح القاموس (٢/٣٤) .

(٣) « والخور : الخليج من البحر ، وقيل مصب الماء في البحر ، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر اذا اتسع وعرض . وقال شمر : الخور عنق من البحر يدخل في الأرض والجمع خؤور » ، شرح القاموس (٣/١٩٢) .

(٤) « الغب .. وبالضم الضارب من البحر حتى يمعن في البر .. » ، القاموس (١/١٠٩) ، شرح القاموس (١/٤٠٣) .

(٥) المخصص (١٠/١٩) ، القاموس (١/٣٨٩) .

(٦) « والبضيع ، كأمير الجزيرة في البحر . ومرسى دون جدة مما يلي اليمن » ، القاموس (٣/٦) ، « والبضيع ، كأمير ، الجزيرة في البحر ... والبضيع مرسى بعينه دون جدة مما يلي اليمن غلب عليه هذا الاسم ... والبضيع البحر نفسه . . » شرح القاموس (٥/٢٢٨) .

(٧) « والدبر .. قطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها . والمال الكثير .. » القاموس (٢/٢٦) ، شرح القاموس (٣/١٩٨) .

واشتدادها ، وعن ارتفاعه وانخفاضه وانحساره عن الساحل ، والفاظاً أخرى تشير الى الانفعالات التي تحدث للناس عند ركوب البحر . كما ذكروا الفاظاً تشير الى مواضع البحر ، كالأماكن العميقة والأماكن الضحلة ومواضع دخوله في الأرض مثل الخليج وغير ذلك . وفي ورود هذه الألفاظ القديمة في كتب اللغة دلالة على أن للعرب قبل الاسلام وبعده علم وفقه بالبحر ، فلا يعقل بالطبع ورودها في اللغة دون أن يكون للمتكلمين بها ، ولا سيما سكنة السواحل علم بالبحر .

والساج من أثمن الأخشاب وأنفسها في صناعة السفن ، فهو خشب مقاوم صلب ، وقد استورد من الهند [1] . ويظهر أنه هو الخشب الذي ذكر « ثيوفراستوس » « Theophrastus » أنه كان بجزيرة « تيلوس « Tylus » ، ويقصد بها البحرين ، والخشب الذي كان في ميناء « عمانة » عمان الذي أشار اليه صاحب مؤلف « الطواف حول البحر الأريتري » ، والذي ذكر أنه خشب مستورد من ميناء « بريجازا » بالهند [2] .

وتتكون السفينة من سقائف ، وهي ألواح السفينة . وكل لوح سقيفة [3] . وقيل : إن اللوح من ألواح السفينة ، هو القادس [4] . وأما ما بين كل خشبتين

---

(١) القاموس (١/١٩٥) ، « الساج : شجر يعظم جداً .. وفي الصباح : الساج ضرب عظيم من الشجر الواحدة ساجة وجمعها ساجات ، ولا تنبت إلا بالهند ، ويجلب منها الى غيرها . وقال الزمخشري : الساج خشب اسود رزين يجلب من الهند ولا تكاد الأرض تبليه والجمع سيجان كنار ونيران . وقال بعضهم : الساج يشبه الآبنوس وهو أقل سواداً منه ...) ، شرح القاموس (٢/٦٦) .

(٢) حوراني (ص ٢٤٤ وما بعدها) .

(٣) « ... ولوح السفينة ، أوكل خشبة عريضة كاللوح ... » ، القاموس (٣/١٥٣) .

(٤) « والقادس : السفينة العظيمة ... » ، القادس (٢/٢٣٩) ، « والقادس : السفينة العظيمة ، قاله أبو عمرو . وقيل هو صنف من أصناف المراكب ، وقيل : لوح من الواحها ... » ، شرح القاموس (٤/٢١٣) .

من السفينة ، فيقال له الطائق [1] . وتخرز ألواح السفن بالليف ، ويجعل في خللها القار [2] . والجلفاظ الذي يجلفظ السفن ، وهو أن يدخل بين مسامير الألواح ، وخروزها مُشاقة الكتان ، ويمسحه بالزفت والقار [3] . وقد تطلى السفن بالقار ، وتدسر . ويراد بالدسر المسامير لغاية التسمير والتدسير [4] . ويقال للموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح جمّة المركب [5] .

ومن مصطلحات السفن في العربية ، الشحن ، فيقال شُحنت السفينة شحناً بمعنى ملئت ، ومخرت السفينة أي جرت [1] ، والجارية السفينة ، ويقال حبت السفينة تحبو أي جرت ، وجنحت جنوحاً إذا انتهت الى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض ، وجمحت جموحاً إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاّحون ، ويقال ماهت السفينة إذا

---

(١) « ... وفيما بين كل خشبتين من السفينة ... » ، القاموس (٣/٢٦٠) ، « طوق » .

(٢) المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) ، « القير : بالكسر والقار شيء أسود يطلى به السفن والإبل ، أو هما الزفت . قير الحب والزق ، طلاهما به » ، القاموس (٢/١٢٤) ، شرح القاموس (٣/٥١٣) .

(٣) « الجلفاظ بالكسر ، مصلح السفن وفعله الجلفظة » ، القاموس (٢/٣٩٤) ، « الجلفاظ بالكسر ، ساد دروز السفن الجدد بالخيوط أو الخرق بالتقيير » ، القاموس (٢/٣٥٣) .

(٤) « ... واصلاح السفينة بالدسار للمسمار . وادخال الدسار في شيء بقوة . والدسار : خيط من ليف تشد به ألواحها ... » ، القاموس (٢/٢٩) . « الدسر ... اصلاح السفينة بالدسار ، بالكسر اسم للمسمار ، وبه فسر بعضهم قوله تعالى : ذات ألواح ودسر . وفي حديث علي : رفعها بغير عمد يدعمها ولا دسار ينظمها . والدسر أيضاً ادخال الدسار أي المسمار في شيء بقوة .. والدسار أيضاً خيط من ليف تشد به من الواحها . وبه فسر بعض الآية المذكورة . وجمع الفراء بين القولين . فقال : الدسر : مسامير السفينة وشرطها التي تشد بها ... » شرح القاموس (٣/٢٠٦) .

(٥) « وجة السفينة : الموضع الذي يجتمع فيه الرشح من خروزه » ، القاموس (٤/٩١) .

(٦) « مخرت السفينة كمنع مخراً ومخوراً ، جرت أو استقبلت الريح في جريها . والفلك المواخر التي يسمع صوت جريها أو تشق الماء بجآجئها » ، القاموس (٢/١٣١) .

دخل فيها الماء ، ورست وأرست ، إذا بلغ أسفلها القعر فثبتت ، واذا أرسيت وسخرت أطاعت وطاب لها السير، وحدرت السفينة أحدرها ، وتقاذفت في البحر جرت، وشجت البحر قطعته [1] . وهناك مصطلحات عديدة أخرى يشير ورودها في اللغة الى معرفة في البحر وفي استخدام السفن في البحار .

ونجد صنّاع السفن يصنعون سفنهم في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب حتى الآن ، يستعملون في ذلك الخشب المحلي المتيسر لديهم ، و « الساج » المستورد ، وبعض الأخشاب القوية الصلدة المستوردة الأخرى .

وقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم كذلك ، مستعينين بالخشب المحلي بالدرجة الأولى ، ولا سيما في صنع السفن الصغيرة والقوارب التي لاتبتعد كثيراً عن الساحل وبالخشب المستورد من إفريقية ومن الهند ، وذلك في صنع السفن الكبيرة التي تخترق البحار . ولتثبيت قشر السفينة تثبت الألواح بمسامير تلف حولها مادة تزيت لمنع دخول الماء من الثقوب . وتستعمل الشحوم وبعض الزيوت لسدّ الشقوق والخروق ولطلي الأخشاب لمنع تأثرها بالماء . وتعمل أصباغ كثيرة محلية من أنواع عديدة من النباتات للدهان وصبغ الأقسام التي تحتاج الى صبغ .

ولحماية السفن من القراصنة والأعداء يؤجر أرباب السفن أناساً يعرفون بالياسرة ، ومهمتهم محاربة من يتعرض لتلك السفن بسوء [2] .

وقد وردت لفظة « سفينة » و « السفينة » في القرآن الكريم [3] ، ويدل ذلك على أنها من الألفاظ التي كانت معروفة ومستعملة بهذا المعنى في أيام ظهور الإسلام .

---

(١) المخصص (١٠/٢٣ وما بعدها) .

(٢) المخصص (١٠/٢٩) .

(٣) الكهف الآية ٧٢ ، ٨٠ ، العنكبوت : الآية ١٥ .

ولم ترد في نصوص المسند المصورة صورة سفينة نهتدي بها الى معرفة أشكال السفن عند العرب الجاهليين . كذلك لم يعثر المنقبون حتى الآن على صورة لها في النصوص التي ظُفر بها في أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا يستبعد أن تكون سفن العرب أنواعاً متعددة ، بحسب أغراضها ووفرة الخشب الصالح لبناء السفن، وعلى قدر اختلاط سكان سواحل الجزيرة بغيرهم من أصحاب السفن . فأهل العربية الغربية لابد أن تكون صناعة سفنهم متأثرة بصناعة السفن اليونانية والرومانية ، وهي سفن كبيرة كما رأينا ، سوّغ كبرها لها أن تمخر العباب بعيداً عن السواحل تجنباً من القرصان ، ولا بد أن يكون سكان العربية الجنوبية والعربية الشرقية قد تأثروا بصناعة السفن الإفريقية والساسانية والهندية والصينية ، لاختلاطهم بهم . وهذا مما عمل في تنويع صناعة السفن عند الجاهليين .

وعبر عن السفينة بلفظة « الفلك » في مواضع متعددة من القرآن الكريم [1] . وقد وردت بصورة خاصة تعبيراً عن سفينة نوح الواردة في الطوفان . ويذكر بعض المفسرين أن السفينة ، أي « الفلك » ، كانت مصنوعة من خشب الساج ، وكانت « ذات ألواح ودُسُر » ، أي أن ألواحها كانت قد التصقت بعضها ببعض بـ « دسر » وهي المسامير [2] .

---

(١) الروم : الآية ٤٦ ، الجاثية : الآية ١١ ، البقرة : الآية ١٦٤ ، الأعراف : الآية ٦٣ ، يونس : الآية ٢٢ ، ٧٣ ، المؤمنون : الآية ٢٢ ، ٢٨ ، العنكبوت : الآية ٦٥ ، يس : الآية ٤١ ، الصافات : الآية ١٤٠ ، الزخرف : الآية ١٢ ، هود : الآية ٣٧ ، سبأ : الآية ٣٨ ، ابراهيم : الآية ٣٢ ، نوح : الآية ١٤ ، الإسراء : الآية ٦٦ ، الحج : الآية ٦٥ ، لقمان : الآية ٣١ ، فاطر : الآية ١٢ ، تفسير النيسابوري الموضوع بهامش تفسير الطبري « طبعة بولاق » ، (٢/٨٨ وما بعدها) .

(٢) قصص الأنبياء (ص ٣٤) ، « والفلك بالضم : السفينة ويذكر ، وهو للواحد والجميع ، أو الفلك التي هي جمع تكسير للفلك التي هي واحد وليست كجنب التي هي واحد وجمع .. » ، القاموس (٣/٣١٦) ، Ency. of, Islam, II, P. 117.

وورد في القرآن الكريم : « والفلك التي تجري في البحر » [1] . وورد في الشعر :

جوافل في السراب كما استقلت فلوك البحر زال بها الشرير

والفلوك هنا جمع « الفُلْك » ، وأما الشرير ، فشجر البحر [2] . ويظهر من هنا أن « الفُلْك » هي سفينة من سفن البحر . وهي من السفن الكبيرة ، وقد ورد في القرآن أيضاً « في الفلك المشحون » أي السفينة المشحونة المملوءة كما ورد : « حتى اذا كنتم في الفُلْك وجرين بهم بريح طيبة » . وفي هذه الآية معنى مهم ، يدل على احاطة الجاهليين بالبحر وركوبهم الفلك فيه ، وتسييرهم لها بفعل الرياح . وقد وردت في القرآن الكريم اشارات الى صنع الفلك والى سيرها مواخر في البحر .

وعبر القرآن الكريم عن السفن بلفظة « الجاريات » و « الجوار » و « الجارية » كما في هذه الآية : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » [3] ، وكما في هذه الآية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » [4] ، وفي مواضع أخرى [5] .

وقد اهتدى ربابنة السفن في البحار بالنجوم ، كما اهتدى بها أصحاب القوافل في الفيافي والبوادي .

وقد أثارت هذه الآيات ، وما ورد فيها من بيان عن البحر الشوق في نفوس المسلمين الى ركوبه والى الاستفادة منه . والإسلام هو الذي حمل العرب في الواقع على ركوب البحر والتجول في المحيطات وبناء الأساطيل الحربية لمقاتلة الأعداء وفتح

---

(١) البقرة (الآية ١٦٤) ، « والفلك بالضم : السفينة » ، القاموس (٣/٣١٦) .

(٢) المخصص (١٠/٢٣) ، « والشرير ، كأمير جانب البحر ، وشجر ينبت في البحر » ، القاموس (٢/٥٧) .

(٣) الرحمن الآية ٢٤ ، القاموس (٤/٢١٢) .

(٤) الشورى الآية ٣٢ .

(٥) الحاقة الآية ١١ .

السواحل ، وإنشاء المراسي ومواضع بناء السفن لمد المسلمين بالسفن الحربية وسفن التجارة على حدّ سواء .

وقد سخر الله البحر للناس ليستفيدوا منه ، « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حِلْيَةً تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » [١] . وقد أشير الى وجود « سبعة أبحر » في القرآن الكريم [٢] .

وفي هذه الآية دلالة على تحلي الجاهليين بالحلي المستخرجة من البحر وعلى استفادتهم منها . ومن يدري ، فلعل هناك من كان يحترف حرفة صقل هذه الحلية واعطائها الشكل المطلوب المرغوب فيه ، وتهذيب الخرز والأصداف المستخرجة من البحر وثقبها لتكون صالحة للاستعمال . وقد كان الصاغة يساهمون في هذه الحرفة بادخالها في الزينة المصنوعة من الذهب أو الفضة .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على ركوب الجاهليين البحر واستعمالهم في ذلك السفن ، من مثل قوله تعالى : « هو الذي يسيّركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الى الله مخلصين له الدين » [٣] ، وقوله : « أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم » [٤] ، وقوله « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم الى البرّ أعرضتم وكان

(١) النحل : الآية ١٤ .

(٢) لقمان : الآية ٢٧ .

(٣) يونس : الآية ٢٢ .

(٤) الاسراء : الآية ٦٩ .

الانسان كفورا » (١) وقوله « أو كظلمات في بحر لُجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سَحابٌ . ظُلُماتٌ بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها » (٢). وهذه الآيات وان كانت تشير الى خوف في نفوس القوم من ركوبه ، لكن هذا الخوف عام يدرك كل إنسان ولا سيما في ذلك العهد ، إذ كانت السفن بدائية صغيرة ، وما ورد فيها إنما جاء على سبيل الموعظة والتذكير .

وعند دنو السفن من الأماكن التي تريدها ، ترسو في مرفأ لتفريغ حمولتها أو لتحميلها أو لتزوّد ما تحتاج اليه من زاد وطعام ، فتلقى بمراسيها في المرفأ تثبيتاً لها فلا تتحرك ولا تأخذها الأمواج ولا الرياح . ويسمى الملاحون المرساة « الأنجر » — فارسي معرب — ويكون من الخشب الصلب الثقيل أو حديداً أو حجراً كبيراً فيه . فإذا ارادت السفينة الرسو أنزل الى الماء ليستقر على القاع فتتثبت السفينة (٣) .

والموضع الذي تدنوا السفينة اليه وتقف عنده يقال له المرفأ ، والجمع مرافيء ، ويقال له فرضة وتجمع على فُرَض . وقد يعبر عنها بـ « مكلأ » كذلك (٤) .

وقد أشير في القرآن الكريم الى صيد البحر ، فورد فيه : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حُرماً ، واتقوا

---

(١) الاسراء : الآية ٦٦ وما بعدها .

(٢) النور : الآية ٤٠ .

(٣) شرح القاموس (١٤٩/١٠) ، « والمرساة بالكسر أنجر السفينة التي ترسي به وتسميها الفرس لنكر ، أنجر ، ضخم يشد بالحبال ويرسل بالماء فيمسك السفينة ويرسيها حتى لا تسير » ، القاموس مادة : وسا .

(٤) « رفأ السفينة أدناها . والموضع مرفأ : بالفتح ويضم » ، شرح القاموس (٧٠/١) ، والقاموس (١٦/١) .

الله الذي إليه تحشرون . »[1] وصيد البحر ، ما يصطاد من البحار من حيوانات تعيش فيه . وقد كان العرب يعتاشون من البحر ، ولا سيما سكان السواحل حيث يسدّ هذا الصيد جزءاً مهماً من معيشتهم ، فيستعملون ما يحتاجون اليه ، ويبيعون الفائض منه ، أو يتقاضون به . وقد كان سكان السواحل يخرجون بالوسائل المتيسرة لهم لصيد السمك ، ومنهم من يصطاد عند السواحل فيجمع ما يقع تحت يديه ليستفيد منه .

وقد عاش على صيد البحر خلق كثير من سكنة السواحل ، في ذلك الزمن ، حيث كانت سبل العيش قليلة ضيقة . وقد استفادوا من الحيتان والأسماك الأخرى الكبيرة بصورة خاصة للحمها الغزير ، ولاستعمال عظامها وهي كبيرة في حاجات متعددة ، حتى جلودها استفادوا منها . والحيتان معروفة في البحر الأحمر وفي الخليج[2] . وهي لضخامتها يحتاج في صيدها إلى آلات والى أيدي متعددة . وقد أشير اليها والى ضخامتها في القرآن الكريم . وعلى السمك وحده كانت معيشة سكان بعض السواحل حتى في الاسلام[3] . وقد كان العنبر من جملة المواد الثمينة التي يستخرجها سكان سواحل البحر الأحمر والبحر العربي والتي تدر على أصحابها بثمن كبير[4] .

وقد كان السمك ولا زال ، من أهم المواد التي يعيش عليها سكان سواحل البحر .

---

(١) المائدة : الآية ٩٩ .

(٢) « الحوت : السمك » ، القاموس (١٤٦/١) ، « الحوت : السمكة كما في الصحاح . وفي المحكم : الحوت ، السمك ، معروف ، وقيل هو ما عظم ... » ، شرح القاموس (٥٣٩/١) .

(٣) ابن المجاور (٩٩/١) .

(٤) ابن المجاور (١٨٤/٢) ، « العنبر : من الطيب ، روث دابة بحرية ... وسمكة بحرية ، والزعفران والورس والترس من جلد السمكة البحرية » ، القاموس (٩٦/٢) .

وقد ورد في كتب اللغة أن الذين يصيدون السمك يعرفون بالعَرَك [1] . ويجفف السمك في الشمس ، ويملح أحياناً ، ويجفف في الهواء ليؤكل وقت الحاجة اليه ، وقد يستعمل علفاً للحيوانات . وهناك أنواع عديدة من الأسماك البحرية بعضها صغير وبعضها كبير ، وتستعمل عظامها في مختلف الأدوات والآلات المفيدة . وقد يطحن السمك المجفف ويؤكل طحينه ، ويجعل علفاً للحيوانات . وقد يحفظ السمك في ماءٍ مملح أو في خلٍّ ، ويقال للسمك المملح ما دام طرياً « القريب » [2] . وأما السمك

---

(1) « عركه ... والعركي محركة صياد السمك . ج عرك محركة وعروك ، ولهذا قيل للملاحين عرك » ، القاموس (٣/٣١٣) ، المخصص (١٠/٢٨) ، « والعركي محركة صياد السمك . ومنه الحديث : ان العركي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الطهور بماء البحر . ج عرك محركة ، كعربي وعرب . وفي الحديث في كتابه الى قوم من اليهود أن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروكم وربع المغزل . قال ابن الأثير : عروك جمع عرك بالتحريك ، وهم الذين يصيدون السمك ولهذا قيل للملاحين عرك ، لأنهم يصيدون السمك ، وليس بأن العراك اسم لهم . وهذا قول أبي عمرو كما نقله الجوهري ، وأنشد لزهير :

تغشى الحداة بهم حر الكثيب كما ... يغشى السفائن موج اللجة العرك

ورواه أبو عبيدة موج بالرفع ، وجعل العرك نعتاً للموج ، يعني المتلاطم . وقال أمية بن أبي عائذ الهذلي :

وفي غمرة الآل خلت الصوى ... عروكاً على رائس يقسموها

رائس جبل في البحر ، وقيل الرئيس منهم » ، شرح القاموس (٧/١٦١) .

(2) « والقارب : السفينة الصغيرة وطالب الماء ليلا . والقريب : السمك المملوح ما دام في طراءته » ، القاموس (١/١١٥) ، « والقارب : السفينة الصغيرة ، تكون مع أصحاب السفن الكبار البحرية ، كالجنائب لها ، تستخف لحوائجهم ، والجمع : القوارب . وفي حديث الدجال ، فجلسوا في أقرب السفينة ، واحدها قارب وجمعه قوارب . قال ابن الأثير : فأما أقرب فغير معروف في جمع قارب إلا أن يكون على غير قياس : وقيل أقرب السفينة أدانيها ، أي ما قارب الأرض منها . وفي الأساس : ان القارب هو المسمى بالسنبوك . والقارب طالب الماء هذا هو الأصل . وقد أطلقه الأزهري ، ولم يعين له وقتاً ، وقيده الخليل بقوله : ليلا . كما تقدم البحث فيه آنفاً . والقريب ، أي كأمير ، وضبط في بعض الأمهات ككميت : السمك المملوح ما دام في طراءته » ، شرح القاموس (١/٤٢٥) « قرب » .

الممقور في ماء وملح ، فهو « النشـــوط » [1] ، والمقر السمكة المالحة أو المنقعة في الخل [2] . و « الحساس » سمك يجفف ويسمى « قاشماً » كذلك [3] .

ومن حيوان البحر ، الحوت . وهو في نظر بعض علماء اللغة السمك كله . ولـكن الغالب أنه ما عظم منه ، وقد أشير اليه في القرآن الـكريم . والسمك في العرف أصغر من الحوت . والبياح ضرب من الحيتان [4] . والتّـامور دابة من دواب البحر [5] . والأَطوم سمكة في البحر [6] . والنـكيع دابة من دواب البحر [7] . والزجر ضرب من

---

(١) « نشط ... وكصبور : سمك يعقر في ماء وملح » ، القاموس (٢/٣٨٨) .

(٢) « مقر ... والسمكة المالحة نقعها في الخل » ، القاموس (٢/١٣٦) .

(٣) « والحساس... بالضم : سمك صغار يجفف » ، القاموس(٢/٢٠٧) ، المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .

(٤) « والبياح ككتاب وكتـان : ضرب من السمك » ، القاموس (١/٢١٦) ، « والبياح ككتاب وكتان : ضرب من السمك صغار . أمثال شبر ، وهو أطيب السمك قال :

يارب هيبغ من بني رباح   اذا امتلا البطن من البياح

وفي الحديث : أيما أحب اليك كذا وكذا أو بياح مربب » ، شرح القاموس (٢/١٢٢) .

(٥) المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .

(٦) « و ... كصبور : سـلحفاة بحرية غليظة الجلد وسمـكة . » ، القاموس (٤/٧٥) ، « والاطوم كصبور : السلحفاة البحرية كما في الصحاح . وفي المحـكم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، يشبه بها جلد البعير الأملس وتتخذ منها الخفاف للجمالين وتتخذ منها النعال ، والاطوم سمكة ، يقال لها المصلة والزالحة ، وقال ابن القصار : عند قول الجوهري : السـلحفاة الصواب أنها سمكة عظيمة تحذى من جلدها النعال شاهدتها بعيذاب . وأنشد أبو عبيد للشماخ :

وجلدها من أطـوم ما يؤسيه   طلح بضاحيـة البيـداء مهـزول

... قيـل الاطوم القنفذ وقيل البقرة ، قيل إنما سميت بذلك على التشبيه بالسمكة لغلظ جلدها » ، شرح القاموس (٨/١٨٧) .

(٧) المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .

الحيتان عظيم [١] . والجوفي ضرب من حيتان البحر [٢] . واللخم سمكة عظيمة [٣] . والجمل كاللخم [٤] . والكنعد [٥] والكنعت ضرب من سمك البحر [٦] . والحرشف ضرب من السمك ، وقيل : هو فلوسه [٧] . وسابوط دابة من دواب البحر [٨] . وقضاعة اسم كلب الماء على قول علماء اللغة [٩] . وقبع دويبة من دواب البحر [١٠] . وعنز الماء ضرب من سمكه [١١] . والدوع ضرب من الحيتان بلهجة أهل اليمن [١٢] . والدعموص ضرب من دواب البحر [١٣] .

وفي البحر الأحمر والخليج الفارسي والبحر العربي أنواع عديدة من الأسماك ، منها النوع المعروف بـ « القرش Shark » ، وهو سمك ضخم كبير ، يستفاد من

---

(١) « وسمك عظام » ، القاموس (٢/٣٨) .

(٢) « ماقة الجوف » ، « والجوفي ، كـكوفي ، وقد يخفف وكغراب سمك » ، القاموس (٣/١٢٥) .

(٣) « وبالضم سمك بحري » ، القاموس (٤/١٧٥) .

(٤) « والجمل محركة : النخل ، وسمكة طولها ثلاثون ذراعاً » ، القاموس (٣/٣٥١) .

(٥) « الكنعد : سمك بحري » ، القاموس (١/٣٣٤) .

(٦) « الكنعت كجعفر ضرب من السمك » ، القاموس (١/١٥٦) .

(٧) « الحرشف : فلوس السمك » ، القاموس (٣/١٢٦) .

(٨) « وسابوط دابة بحرية » ، القاموس (٢/٣٦٣) .

(٩) القضاعة بالضم : كلبة الماء .. والفهد . وبه لقب عمرو بن مالك بن حميرقضاعة..» ، القاموس (٣/٦٩) .

(١٠) « دويبة بحرية » ، القاموس (٣/٦٥) .

(١١) « . . وسمكة كبيرة لايكاد يحملها بغل » ، القاموس (٢/١٨٤) .

(١٢) « والدوع بالضم : سمكة حمراء صغيرة » ، القاموس (٣/٢٢) .

(١٣) المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) ، « الدعموص بالضم ، دويبة أو دودة سوداء تكون في الغدران » ، القاموس (٢/٣٠٣) .

لحومه ، كما يستفاد من شحومه في الأغراض الطبية ، وقد يستفاد من جلوده الغليظة في صنع الأحذية [١] . وقد انتبهت المملكة العربية السعودية الى ذلك ، فعمدت الى استعمال الوسائل الحديثة في صيده بدلاً من الوسائل البدائية القديمة التي لم تكن لتأتي بالسمكة الكبيرة من أمثال القرش إلا على سبيل المصادفة [٢] .

والصدف ، وهو المحار ، مادة مهمة للصيادين [٣] . يستخرج منه أهل البحرين اللؤلؤ ، ويستفاد منه في أمور عديدة ، وتتخذ منها بعض الحلي والزينة ، ويؤكل ما في جوفها . وهنالك ألفاظ تؤدي معنى الصدف ، مثل : الجُمّ ، وهو صدف من أصداف البحر [٤] . والقبقب [٥] والقنقن ضرب من صدف البحر ، يعلق على الصبيان من العين [٦] . والدوك ضرب من صدف البحر [٧] . والدلاع ضرب من محار البحر [٨] .

وقد ذكر اللؤلؤ والمرجان في القرآن الكريم ، وفي ذلك دليل على وقوف العرب عليهما . ويستخرج اللؤلؤ من أجواف الصدف . وقد اشتهر به أهل العربية الشرقية بصورة خاصة ، يستخرجه الغواصون من البحر . ولا تزال هذه المنطقة تستخرجه وتربح منه . وقد أشير اليه في التوراة كذلك ، واعتبر عند العبرانيين من الجواهر المستحبة النفيسة الغالية [٩] . ويوجد اللؤلؤ في البحر الأحمر ، ولا سيما قرب جدة

---

(١) « ... القرش : دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها » ، القاموس (٢/٢٨٣) .

(٢) تويتشل : المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية ، ترجمة شكيب الأموي (القاهرة ١٩٥٥) (الصفحة ٣٦ وما بعدها) .

(٣) « الصدف : محركة غشاء الدر ، الواحدة بهاء . ج اصداف » ، القاموس (٣/١٦٠) .

(٤) بالضم ، القاموس (٤/٩١) .

(٥) « وبالكسر صدف بحري » ، القاموس (١/١١٣) .

(٦) المخصص (١٠/٢٠) ، « والقنقن ، صدف بحري الواحدة بهاء » ، القاموس (٤/٢٦١) .

(٧) المخصص (١٠/٢٠) .

(٨) « .. وكرمان ضرب من محار البحر » ، القاموس (٣/٢٢) .

(٩) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨٤) .

وإلى الجنوب [١] ، لكنه لم يشتهر لؤلؤه شهرة لؤلؤ الخليج ، ولم يشتهر غواصو البحر الأحمر بالغوص [٢] . ولعلّ اللؤلؤ الذي ذكر في القرآن الكريم هو من اللؤلؤ المستورد من الخليج .

والمرجان مادة كلسية ، يفرزها نوع من الحيوانات البحرية نظير هيكل لوقاية جسمه من الأمواج . وقد تتوسع فتكون صخوراً مرجانية تكون خطراً على السفن [٣] . وله ألوان مختلفة ، من أبيض وآخر أحمر ، وبعضه متفرع على هيأة مروحة أو أشكال النبات . وتصنع منه حلي ، ولذلك عُدّ في جملة المواد الثمينة مثل اللآلئ التي تدخل في التجارة . وهو في البحر الأحمر ، ولا سيما سواحله الغربية أي ساحل جزيرة العرب ، كثير . وقد ورد في سفر « حزقيال » أن « ارام » تاجرت بالمرجان في أسواق « صور » [٤] .

ويطلق أهل العربية الجنوبية على البحر اللفظة نفسها التي نطلقها عليه، فيقولون «بحرم» أي (بحر) البحر. وأما اليابسة، فقد عرفت بـ«يبسم» أي يابسة [٥]. وقد ذهب رودوكناكس الى أن لفظة البحر تعني الجنوب ، وأن لفظة « يبسم » ، « يابسة » « يابس » تعني الشمال ، وقد استدل على ذلك من هذه الجملة : « وكل إلالت ذبحرم ويبسم ومشرقم

---

(١) ابن المجاور (١/١٠٥) .

(٢) ك . س . تويتشل Twitchell ، المملكة العربية السعودية القاهرة، ١٩٥٥، (ترجمة عكيب الأموي) (الصفحة ٣٧) .

(٣) « والمرجان صغار اللؤلؤ » ، القاموس (١/٢٠٧) .

(٤) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٥٢) .

(٥) راجع الجملة الثانية من النص المعروف بنص أبنة ،

Hommel Chrestomathie, S. 119, Aufsätze Und abhandlungen, 166, Rhodokanakis, Stud., II, S. 10.

ومحرم » .[١] ومعناها الحرفي : « وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب » ، فرأى أن معنى البحر واليابسة ، لايناسب المقام في هذا المكان ، بل يناسبه قولنا « وكل آلهة الجنوب والشمال والمشرق والمغرب » ، وكان قد ترجمها سابقاً الترجمة الحرفية التي ذكرتها[٢] . وأعتقد أنها هي الترجمة الصحيحة ، وهي تناسب المعنى كل المناسبة ، وليس في المعنى المذكور أي نشاز أو تنافر[٣] .

وفي معاهدة الأخوة والتآخي « تاخين » التي عقدت في القرن الرابع للميلاد بين ملك الحبشة « جدرت » والملك « يدع اب غيلان » ملك حضرموت ، لمقاومة ملك سبأ وذي ريدان ، نجد إشارة الى البحر واليابسة أي البرّ[٤] . ومعنى هذا أن المتحالفين قد تعاهدوا وتعاقدوا على المحاربة في البر والبحر . ويستدعي ذلك بالطبع وجود اسطول يحارب المتحالفون به ، ويحاصرون به سواحل ملك سبا وينزلون قواتهم بها ، وإلا فليس لذكر الحرب في البحر من معنى اذا لم يكن لدى المتحالفين أسطول وضباط يحاربون .

ووردت لفظة « اليم » في القرآن الكريم[٥] ، ويراد بها البحر . وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً ، منها « القَلَمَّس » و « الدأماء »

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 10, « بيحرم وبيبسم وكل تشعت! وزبد » ، « بيحر ويابسة وكل العطايا والهدايا » ، السطر الخامس عشر من نص : Glaser, 830 وما بعده Mordtmann' Himj. Inschr., S. 21.

(٢) Rhodokanakis, Stud.. II, S. 10, 166.

(٣) Mordtmann, Himj. Inschr., S. 21.

(٤) السطر الخامس عشر والسادس عشر من النص : Glaser 830

(٥) طه : الآية ٣٩ ، ٧٨ ، ٩٧ : ، القصص : الآية ٧ ، ٤٠ ، الأعراف : الآية ١٣٥ ، « اليم : البحر ، وقيل هي لغة سريانية » ، المخصص (١٠/١٦٣) .

و « الكافر » ، و « الخضارة » و « السَدِر »[1] و « البقيع » و « الحنبل » و « المهرقان » و « الخضم » « والرّجاف » ، و « العَيْلم » وغير ذلك من الفاظ ترد في كتب اللغة[2] .

ويظهر من معلقة طَرَفَةَ أن رجلاً اسمه ابن يامن « ابن يامين » كان تاجراً يملك سفناً، وأن سفنه كانت تمخر البحار. وذكر أيضاً أنه كان « بحاراً » ، وورد « ابن نبتل » بدلاً من « ابن يامن »[3] .

وذكر أهل اللغة أن لفظة « خلايا » في بعض أبيات هذه المعلقة — وواحدتها خلية — تعني السفن العظيمة ، وأن لفظه « سفين » ، هي جمع « سفينة » . أما لفظة « عدولية » ، فانها نسبة الى « عَدَوْلى » ، وهي قرية بالبحرين[4] . وذهب بعض

---

(١) « سدر : البحر . وأنشد بيت أمية : سدر تؤاكله القوائم أجرد » . المخصص (١٠/١٦)، شرح القاموس (٤/٢٢٢) .

(٢) المخصص (١٠/١٥ وما بعدها)، « القلس : كعملس الكثير الماء من الركايا ، والبحر » ، القاموس (٢/٢٤٣) ، « والكافر : الليل والبحر والوادي العظيم والنهر الكبير » ، القاموس (٢/١٢٨) ، « والخضارة بالضم معرفة البحر » ، « السدر ... وككتف : البحر » ، القاموس (٢/٤٦) ، « البضيع : كأمير الجزيرة في البحر ، ومرسى دون جدة مما يلي اليمن والعرق وجبل والبحر والماء النمير كالباضع » ، (٣/٦) ، « الحنبل ... والبحر » ، القاموس (٣/٣٦٢) ، « والمهرقان كسحلان وملكمان ، وبضم الميم وفتح الراء : البحر أو الموضع الذي فاض فيه الماء » ، القاموس (٣/٢٩٠) ، « الخضم ... والبحر » ، القاموس (٤/١٠٧) ، « رجف ... وكشداد البحر لاضطرابه » ، القاموس (٣/١٤٣) ، « والعيلم : البحر ، والماء الذي عيله الأرض » ، القاموس (٤/١٥٤) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٣٦٥ وما بعدها) .

(٤) « وعدولى بالبحرين ، والشجرة القديمة الطويلة ، والعدولية : سفن منسوبة اليها ، أو الى قوم كانوا ينزلون هجر ، والعدولى جمعها ، والملاح » ، القاموس (٤/١٤) ، بلوغ الأرب (٣/٣٦٥)، « وعدولي ، بفتح العين والدال وسكون الواو مقصورة بالبحرين . وقد نفى سيبويه فعولى ، فاحتج عليه =

المستشرقين الى أن المراد بها « أدولس » ميناء تجاري على ساحل الحبشة اشتهر بالتجارة قبل الإسلام [1] .

ومن الأدوات والآلات المستعملة في السفن : القلع [2] والشراع [3] والدقل [4]

= بعدولى ، فقال الفارسي : أصلها عدولا ، وإنما ترك صرفه لأنه جعل اسماً للبقعة ، ولم نسمع في أشعارهم عدولا مصروفا . فأما قول نهشل بن حرى .

فلا تأمن النوكي الى كان دارهم وراء عدولاة وكنت بقيصرا

فزعم بعضهم أنه بالهاء ضرورة . وهذا يؤنس بقول الفارسي . وأما ابن الأعرابي ، فانه قال : هي موضع ، وذهب الى أن الهاء فيها وضع لا انه أراد عدولى ، ونظيره قولهم قهوباة للنصل العريض . والعدولي : الشجرة القديمة الطويلة . والعدولية سفن منسوبة اليها . أي الى القرية المذكورة ، كما في الصحاح لا الى الشجرة ، كما يتوهم من سياق المصنف . قال طرفة بن العبد :

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

وهكذا فسره الأصمعي . قال : والخلج سفن دون العدولية . وقال ابن الأعرابي في قول طرفة : عدولية الخ . قال نسبها الى ضخم وقدم . يقول هي قديمة أو ضخمة ، وقيل نسبت الى موضع كان يسمى عدولاة بوزن فعولاة . أو الى عدول ، رجل كان يتخذ السفن . نقله الصاغاني ، أو الى قوم كانوا ينزلون هجر ، فيما ذكر الأصمعي .... والعدولي الملاح » ، شرح القاموس (٨/١١) .

(١) حوراني (ص ٢١) .

(٢) « القلع ، بالكسر : الشراع كالقلاعة ككتابة » ، القاموس (٣/٧٤) ، « وأقلع السفينة : رفع شراعها أو عمل لها قلاعاً أو كساها اياها . وقال الليث : أقلعت السفينة : رفعت قلعها أي شراعها . وأنشد :

مواخر في سواء اليم مقلعة إذا علوا ظهر قف ثمت انحدرا

قال شبهها بالقلعة في عظمها وشدة ارتفاعها ... » ، شرح القاموس (٥/٤٨٢) .

(٣) « شراع ككتاب ... وكالملاءة الواسعة فوق خشبة تصفقه الريح فيمضي بالسفينة » ، القاموس (٣/٤٤) .

(٤) « .. وسهم السفينة » ، القاموس (٣/٣٧٦) ، « والدقل أيضاً سهم السفينة . وفي المحكم : هي خشبة طويلة تشد في وسط السفينة . وزاد الأزهري : يمد عليها الشراع » ، شرح القاموس (٧/٣٢٣) .

والقلس وهو حبل ضخم من ليف أو خوص [١] ، والجُؤجؤ وهو صدر السفينة [٢] ، وأما ذيلها فيقال له « الكَوْثَل » [٣] والمردي [٤] والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة [٥] ، والمِرْساة وهي الآلة التي ترسى بها السفينة ، والمَرْساة بفتح الميم البقعة التي ترسو فيها السفينة [٦] ، وأما الجداف فهو ما تجدف به السفينة [٧] .

ويقال لرئيس السفينة « الرُّبان » . وأما الملاح فيقال له « النوتي » و« العَرَكيّ » أيضاً . وأما ما يدفع أجراً عن ركوب السفينة فيقال له « النول » [٨] . . والسفّان

---

(١) « القلس : حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر » ، القاموس (٢/٢٤٢) ، « القلس : حبل ضخم من ليف أو خوص . قال ابن دريد : فإن السفن لا تكون إلا في البحر . ويروى أيضاً : القلس بالكسر » ، شرح القاموس (٤/٢٢١) .

(٢) « وجؤجؤ الانسان والطائر والسفينة ، كهدهد الصدر » ، شرح القاموس (١/٤٩) .

(٣) « الكوثل : مؤخر السفينة ، أو سكانها » ، القاموس (٤/٤٣) ، الكوثل : مؤخر السفينة ، نقله الجوهري ، وهو نص العين . وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقال أبو عمرو : الرنجة صدر السفينة والدوطيرة كوثلها ، أو الكوثل : سكانها » ، شرح القاموس (٨/٩٥) .

(٤) « والمردي ، بالضم والشد : خشبة تدفع بها السفينة . ج . مرادي » ، القاموس(٤/٣٣٤)، « والمردي ، بالضم والشد ، وليس في نسخ الصحاح شد الياء . خشبة تدفع بها السفينة ، تكون بيد الملاح . ج . مرادي كما في الصحاح . وهي المداري بلغة العامة واحدها مدري » ، شرح القاموس (١٠/١٤٨) .

(٥) بلوغ الأرب (٣/٣٦٦) .

(٦) شرح القاموس (١٠/١٤٩) ، القاموس (٤/٣٣٤) .

(٧) القاموس (٣/١٢٢) ، وجدافاه : جناحاه ، قال الأصمعي : ومنه سمي جداف السفينة . قال الجوهري : قال ابن دريد ، هو بالدال والذال جيماً لغتان فصيحتان . وفي المحكم : جداف السفينة : خشبة في رأسها لوح عريض يدفع بها ، مشتق من جدف الطائر . وقال أبو عمرو : جدف الطائر وجدف الملاح بالمجداف ، والمقذف والمقذاف » ، شرح القاموس (٦/٥٤) .

(٨) بلوغ الأرب (٣/٣٦٦) .

هو ملاّح السفينة [1] .

وذكر علماء اللغة أن من أسماء السفن الكبيرة الفُلْك [2] والقرقور والجارية [3] والخلية [4] ، وأن من أسماء المراكب المائية الصغيرة الزورق والقارب والركوة والبوص أو البوصي ، وهذه لفظة معربة وردت في شعر للأعشى [5] . وقد اشتهرت قرية « عدولي » بالبحرين بصنع نوع كبير من السفن عرف بأسمها ، فقيل لها سفن عدولية . وأما « الخلج » فإنها سفن دون العدولية . وأما « الصلفة » فسفينة كبيرة ، وزنبرية وهي نوع من أنواع السفن الكبيرة [6] .

وقد عرفت السفن المستعملة في القتال بأسماء خاصة منها البارجة وهي سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال [7] .

وقد يستعاض عن السفن بسبب غلائها وكثرة تكاليفها وصعوبة عملها بعمل وسائل نقل بسيطة لا تكلف كثيراً ، وذلك بجمع خشب وضمّ بعضه الى بعض وشده

---

(١) المخصص (١٠/٢٣ وما بعدها) .

(٢) « والفلك بالضم : السفينة ، ويذكر وهو للواحد والجميع ... » ، القاموس(٣/٣١٦) .

(٣) « والجارية : الشمس والسفينة » ، القاموس (٤/٣١٢) .

(٤) « ... والسفينة العظيمة ، أو التي تسير من غير أن يسيرها ملاح ، أو التي يتبعها زورق صغير » ، القاموس (٤/٢٢٥) .

(٥) مثل الفراتي إذا ما طمى يقذف بالبوصي والماهر
بلوغ الأرب (٢/٣٦٧) ، المخصص (١٠/٢٣) .

(٦) المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) .

(٧) المخصص (١٠/٢٦) ، « والبارجة : سفينة كبيرة للقتال » ، القاموس (١/١٧٨) ، « والبارجة سفينة كبيرة ، وجمعها البوارج ، وهي القراقير والخلايا . قاله الاصمعي ، وقيد غيره ، فقال : انها سفينة من سفن البحر ، تتخذ للقتال » ، شرح القاموس (٢/٧) .

ثم يركب عليه ويقال لذلك الرَمث والجمع « أرْماث ». [1] و « الطوف » . وجمعه الأطواف. وقيل « الطوف » قرب تنفخ ويشد بعضها ببعض [2] . وأما « العمائم » ، فعيدان مشدودة تركب في البحر [3] .

ولا يتسع هذا المكان لذكر كل الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر ، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن ، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن ، وأسماء للساحل وللجزر وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة ، واليها يجب أن يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات [4] .

وتفيدنا هذه الألفاظ والمصطلحات فائدة كبيرة في الوقوف على مدى تأثر البحرية العربية الجاهلية بالبحرية الأجنبية ، وذلك بدراسة أصول هذه الألفاظ والمصطلحات لمعرفة المكان الذي جاءت منه والشعب الذي موّن البحارة العرب بها .

وقد وجد بعض المستشرقين في مصطلحات البحر ألفاظاً حبشية ، وألفاظاً يونانية ، وألفاظاً فارسية ، ودخول هذه الألفاظ اللهجات العربية دليل على تأثر البحرية العربية

---

(١) « الرمث... وبالتحريك خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر » القاموس (١٦٧/١) ، « ... وفي الحديث : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنا نركب أرماثاً لنا في البحر ولا ماء معنا ، افنتوضأ بماء البحر ، فقال : هو الطهور ، ماؤه الحل ميتة . قال الاصمعي : والرمث هو هذا الطوف وهو الخشب ... » ، شرح القاموس (٦٢٥/١) .

(٢) « والطوف : قرب ينفخ فيها ، ويشد بعضها الى بعض كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها » ، القاموس (١٧٠/٣) ، « ... ويحمل عليها الميرة والناس ويعبر عليها . وهو الرمث وربما كان من خشب والجمع اطواف . وقال الأزهري : الطوف الذي يعبر عليها الانهار الكبار يسوى من القصب والعيدان يشد بعضها فوق بعض ثم يقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها ، وربما حمل عليها الحمل على قدر قوته وثخانته ويسمى : العامة بتخفيف الميم » ، شرح القاموس (١٨٤/٦) .

(٣) المخصص (٢٩/١٠) ، « عمائم ... وعيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها في النهر » ، القاموس (١٥٤/٤) ، شرح القاموس (١٠/٨) .

(٤) راجع الجزء العاشر من المخصص .

ببحرية تلك الأمم واتصالها بها وأخذها منها . وقد أشار علماء اللغة قبل المستشرقين بمئات من السنين الى أصول بعض هذه الألفاظ ، فذكروا أنها أعجمية . ولما كان علمهم باللغات الأجنبية غير الفارسية محدوداً ، لم يتمكنوا من تشخيص أصول بعض المصطلحات المعربة عن اليونانية أو الحبشية ، فرجعوها الى أصل فارسي في الغالب وهي ليست من الفارسية في شيء .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية ما يفيد بدخول أهل العربية الغربية البحار ، والأخبار الاسلامية لا تشير إلى ذلك أيضاً ، بل الذي يفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر ، كالذي ذكروه من تسقيف أهل مكة الكعبة بخشب سفينة يونانية ، تحطمت عند الساحل [1] ، وكالذي ذكروه من ذهاب المهاجرين المسلمين الأولين إلى الحبشة على ظهر سفينة حبشية .

ثم إنها ترينا أن الحجازيين قوماً كانوا يخشون البحر ، ولا يريدون ركوبه ، بدليل ما ورد في الأخبار الإسلامية عن « عمر بن الخطّاب » من أنه كان يتخوف من البحر ، وينهي الأمراء عن المجازفة بأرواح المسلمين في ركوبه ، فأنب « عثمان الثّقفي » والى البحرين لقيامه بغارة بحرية على ساحل الهند ، والعلاء بن الحضرمي لعبوره البحر الى فارس ، ونهى معاوية من غزو « قبرس » ، ومن أنه كان ينهي أن يكون بينه وبين المسلمين ماء .

والظاهر أن أرباحهم من التجارة البرية وقربهم من أسواق بلاد الشأم واليمن ، وسهولة الوصول اليها من البرّ ، وعدم وجود الأخشاب اللازمة لصنع السفن لديهم ، كل هذه وغيرها قد حالت بين أهل العربية الغربية وركوب البحر والاستفادة من تجارته ، فانصرفوا الى الاتجار بالطرق البرية السالمة الأمينة التي لا تكلفهم كثيراً ولا

---

(١) ابن هشام (١/٢٠٤ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٧٠) « طبعة مصطفى محمد » .

تعرضهم للمخاطر التي يتعرض لها راكبو البحار ، فكان أهل مكة مثلاً عند ظهور الإسلام من أشهر التجار وأصحاب المال في العربية الغربية ، وتجارتهم هذه وأموالهم عن طريق قوافلهم الى اليمن والعراق وبلاد الشأم جلبت لهم النفوذ والغنى والمال .

ولا يعني هذا بالطبع أن في دم عرب العربية الغربية أو عرب نجد أو البوادي كره البحر والابتعاد عنه والخوف منه ، فعثمان الثقفي مثلاً هو من ثقيف ، وثقيف من عرب الحجاز ، وآخرون غيره من أهل الحجاز ونجد قد دخلوا البحر وركبوا السفن وبرزوا فيه وأسهموا في بناء المراسي وبناء السفن . إنما كره هؤلاء البحر لأنهم كانوا بعيدون عنه ، وليست لهم المواد الكافية لبناء المراكب القوية المتينة الضخمة التي يكون في مقدورها حمل الناس بأمان وسلامة . فلما تهيأت لهم الوسائل وأشرفوا على البحر واختبروه ، لم يجدوا فيه ما كانوا يخشونه ، فركبوه ، كما ركبه غيرهم ، وبنوا السفن كالأمم البحرية الأخرى التي أظهرت كفاية ومقدرة في ركوب البحار .

وكما خلت كتابات المسند من الإشارات الى البحر والى الاتجار فيه ، كذلك خلت الكتابات الصفوية واللحيانية والثمودية من الاشارات اليه . أما الشعر الجاهلي فقد وردت فيه اشارات في أشعار بعض الشعراء اليه كما في شعر عمرو بن كلثوم [١] ، وفي شعر طرفة بن العبد [٢] ، وفي شعر نفر آخر . غير ان هذا الشعر لا يمدنا بعلم غزير مفيد عن البحر وسفنه وعن تجارته وتجاره ، وعن المصطلحات والألفاظ التي كان يستعملها أصحاب السفن والبحارة الجاهليون . وليس لنا إلا أن نفتش في المعجمات والموارد اللغوية الأخرى لعلنا نظفر فيها بما يخص السفن والبحر في أيام الجاهليين .

---

(١) ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

(٢) بلوغ الأرب (٣/٣٦٥) ، المعلقة : الأبيات ٣ ــ ٥ .

وإذ كنّا قد ذكرنا السبئيين والمعينيين في مقدمة الشعوب العربية التي اقتحمت البحار وذهبت فيها الى أماكن بعيدة عن مواطنها ، فلا بد لنا من ذكر أهل مهرة من شعوب العربية الجنوبية المعروفة ، فقد عرف هؤلاء بحبهم للبحار وبالنزوح الى سواحل إفريقية والسكنى في جزيرة سقطرى قبل الاسلام . وقد عرفهم الكتاب اليونان والرومان . ولهم لهجة خاصة بهم تكلم عليها المستشرقون ، ولا تزال لهم بقية في العربية الجنوبية وفي سواحل إفريقية تتحدث بلهجة خاصة تختلف عن عربية القرآن الكريم [1] .

وأما أهل العربية الشرقية ، فاننا وإن كنا لا نملك أخباراً عن ركوبهم البحر قبل الإسلام ، لكننا نستطيع أن نجزم بأنهم كانوا — على خلاف أهل العربية الغربية ، أي السواحل المقابلة لسواحلهم وفي الجهة الأخرى من جزيرة العرب — قوماً أصحاب سفن ، وخبرة بركوب البحر ، وأنهم وصلوا الى سواحل ايران على الخليج كما يفهم من خبر غزوهم لهذه الحدود المذكور في روايات أهل الأخبار نقلاً عن الموارد الساسانية ، وأنهم ربما وصلوا الى الهند وسيلان ، أو ما وراء هذه البلاد .

---

(١) راجع مادة « مهرة Mahra » في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الانكليزية (٣/١٣٨ وما بعدها) ، والبلدان (٨/٢١١) .

الفصل الثالث

التجارة البرية

هذا هو كل ما عرفناه عن البحر وعن البحرية والتجارة في البحار عند الجاهليين . وهي كما رأينا معارف قليلة شحيحة ، نأسف على عدم تمكننا من الإتيان بأكثر منها ، ولكن ما الذي نفعله ، وهذا هو كل ما وصل الينا في كتب اليونان والرومان. أما كتابات المسند ، فقد رأينا أنها صامتة ساكتة لم تتحدث بأي شيء عن تلك الأمور.

وأما التجارة البرية ، التجارة التي كان عمادها وسندها القوافل ، فان علمنا بها مستمد أيضاً من الموارد التي ذكرتها عن البحر وتجارة البحار ، يضاف الى ذلك ما ذكره أهل الأخبار . أما كتابات المسند ، فلم تتعرض لتجارة العربية الجنوبية مع البقاع الأخرى من جزيرة العرب ، أو مع خارج الجزيرة ، بل حتى بالإتجار بين المدن العربية الجنوبية ، ولهذا فهي من هذه الناحية بخيلة شحيحة لم تعطنا ويالللأسف شيئاً ما عن هذا الموضوع .

والعربية الجنوبية في كتب اليونان والرومان وفي روايات أهل الأخبار وفي التوراة ، بلاد غنية ذات خيرات وثروات وتجارات وأموال ، قوافلها تخترق جزيرة العرب الى بلاد الشأم والعراق ، وفي بلادها الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، تتاجر

مع الخارج فتربح بتجارتها هذه كثيراً ، وبذلك اكتنزت المعادن الثمينة المذكورة والأموال النفيسة حتى صارت من أغنى شعوب جزيرة العرب .

وفي « المزامير » أن « شبا » ستعطى « الذهب » لملك العبرانيين في جملة الشعوب التي ستخضع له تقدم له الجزية [١] . وورد في « ارميا » أن « شبا » كانت ترسل « اللبان » الى اسرائيل [٢] . وقد ذكروا في سفر « حزقيال » في جملة كبار التجار . كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب [٣] . وأشير في «أيوب» الى قوافل « شبا » التي كانت تسير نحو الشمال حتى تبلغ اسرائيل [٤] .

وفي هذه الاشارات دلالة على الصلات التجارية المستمرة التي كانت بين العبرانيين والسبئيين، وعلى أن السبئيين كانوا هم الذين يذهبون الى العبرانيين ، يحملون اليهم الذهب والأحجار الكريمة والطيب . فتبيع قوافلهم ما عندها في أسواق فلسطين ، ثم تعود حاملة ما تحتاج اليه من حاصلات بلاد الشأم ومصر وفلسطين . وقد كان الطيب بأنواعه والبخور من أهم المواد التجارية التي يستوردها العبرانيون من الخارج لإحراقها في معابدهم ، وللتقرب بها الى إلـه اسرائيل . وقد حصل السبئيون من هذه التجارة على أرباح طائلة مفرطة جعلتهم من الشعوب التي يشار اليها في الثراء .

وقد فرقت التوراة بين « شبا » و « سبا » . فالشبئيون كما يفهم منها هم السبئيون أهل اليمن . اما « السبئيون » ، فيراد بهم السبئيون الساكنون على مقربة من فلسطين، وفي داخل فلسطين ، كما يفهم ذلك من هذه الآية في سفر أيوب : « ان رسولاً جاء الى أيوب ، وقال : البقر كانت تحرث ، والأتن ترعى بجانبها ، فسقط عليها السبئيون ،

---

(١) « ويعيش ويعطيه من ذهب شبا » المزامير : المزمور الثاني والسبعون ، الآية ١٥ .

(٢) ارمياء : الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .

(٣) حزقيال : الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها .

(٤) أيوب : الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

وأخذوها ، وضربوا الغلمـان بحد السيف ، ونجوت أنا وحدي لأخبرك »[١] . وقد جعلت ديارهم بعيدة عن اسرائيل في سفر « يوئيل » ، فقد ورد فيه تهديد لأهل صور وصيدا بأن رب اسرائيل سينتقم منهم جزاء اعتدائهم على الاســرائيليين ، ونهبهم ذهبهم وفضتهم . وجاء ، وخاطبهم الرب بقوله : « وأبيع بنيكم وبناتـكم بيد بني يهوذا ليبيعونهم للسبئيين . لأمة بعيدة . لأن الرب قد تكلم . »[٢] وفي هذه الآية دليل على أن مواطن السبئيين في هذا المـكان هي بعيدة عن مواطن أهل صيدا وصور .

ويظهر من هــذه الآية المتقدمة أن السبئيين كـانوا يشترون السبي من فلسطـين ، وينقلونه الى بلادهم للاستفادة منهم في مختلف نواحي الحياة ، يتخذون النساء الجميلات زوجات لهم ، ويتخذون البشعات والقويات للخدمة ، ويعهدون للرجال بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى ذكـاء ومهارة وفن واتقان . أما الأعمال التي تحتاج الى قوى جسمية ، أو التي لا تحتاج الى ذكـاء ، فكانوا يعهدون بها الى العبيد المستوردين من إفريقية ، فكانوا يتخذون منهم رعاة للماشية وعمالاً للحفر وللإسقاء ولحمل الأثقال وأمثال ذلك . وقد كـان هؤلاء بنوعيهم الأبيض والأسود مصدر ثروة لأصحابهم . إنهم معامل وآلات أولئك السادات ، أصحاب الرقيق والعبيد . كلما زاد عددهم عند صاحبهم ، زادت ثروته ، وتعاظم رأس ماله بزيادة الإنتاج .

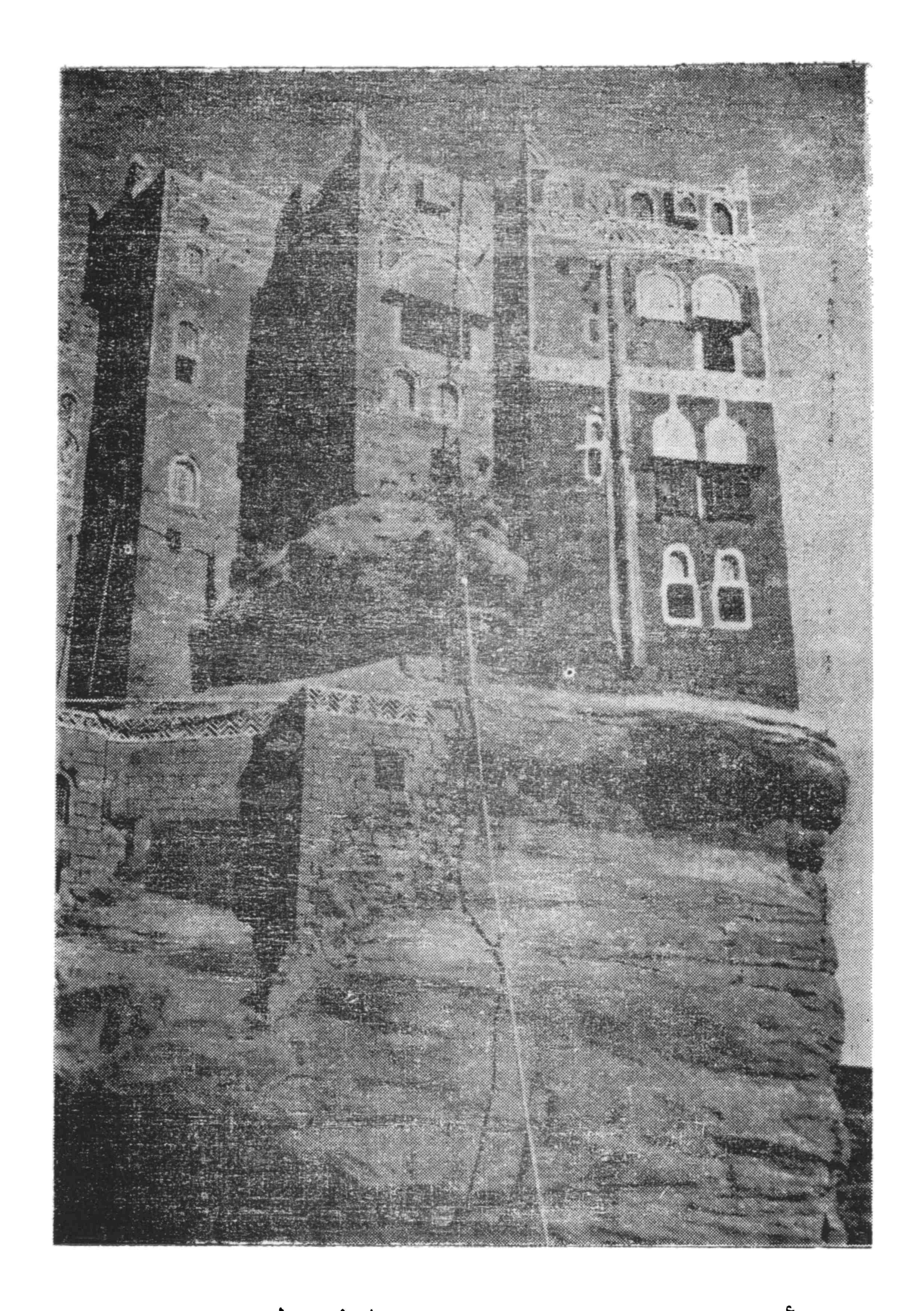
ويجب عدُّ الرقيق من أنواع التجارة الرابحة في ذلك الزمن . وهو أصناف وأنواع. ويقال للرقيق في العبرانية « عبهيذ ebhedh‘ » أي « عبد »[٣] ، وهو بهذا المعنى في لهجة القرآن الكريم . ثم خصص في الغالب بالعبد الأسود وبالحبشي ، فقيل عبد أسود

---

(١) أيوب : الاصحاح الأول الآية ١٥ وما بعدها .

(٢) يوئيل : الاصحاح الثالث ، الآية ٨ .

(٣) Hastings, P. 864.



أحد القصور ، وهو يمثل الطراز اليماني الجميل في البناء

من كتاب : .Jemen' das Vebotene Land

لمؤلفه Gunther Pawelke

(الصفحة ١٦٠)

وعبد حبشي ، ثم اكتفى بلفظة « عبد » للدلالة على هذا المعنى .

أما العبدالأبيض ، فنعت بنعوت أخرى ، مثل «ادم»« آدم» في اللهجات العربية الجنوبية ، وتعني كلمة « آدمي » العبد الأبيض المملوك . وعرف بـ « رقيق» وبـ«مولى» وبأمثال ذلك من نعوت ومصطلحات في لهجة القرآن الكريم .

وكانت الحروب والغزوات أهم مورد لتجارة الرقيق . وهو مورد قديم معروف . فالغالب المنتصر يأخذ من يقع في قبضته من أسرى ، ويعدّه ملكاً له . وقد كان في إمكان الأسرى فك أسرهم بـ « الفداء » . أما من لم يتمكن من دفع الفدية منهم ، فيعد بحسب القانون ملكاً لآسره أو للدولة للتصرف به بحسب القوانين النافذة ، فيجوز في هذه الحالة امتلاك الأسير وتشغيله في الأعمال التي يكلفه إياها سيده ، ويجوز له اطلاق حريته وعدّه حرّاً معتق الرقبة وبيعه في أسواق النخاسة . وقد كان تجار العبيد يفدون الى هذه الأسواق ، ليبتاعوا منها العبيد الذين يحتاجون اليهم ، ويأخذوهم معهم الى بلادهم ، ليبيعوهم مرة ثانية في أسواق النخاسة ، ليستخدموهم .

ونظراً الى ماكان يعانيه الرقيق من معاملة غليظة شديدة قاسية ، ومن قسوة ينزلها بهم أصحابهم عند صدور أي شيء منهم لا يرضى عنه أصحابهم ، فقد فرّ أكثرهم من ساداتهم ، ودخلوا في الاسلام ، وكانوا من أوائل المبشرين به والداعين اليه . ولما حاصر النبي الطائف فرّ كثير منهم من المدينة الى الرسول ، فأعتقهم وأصبحوا أحراراً ، منهم نقيع بن مسروح والأزرق والدنافع بن الأزرق الخارجي [1] .

وبين الرقيق المستورد من البلاد الشمالية ، كالرقيق المستورد من أسواق بلاد الشأم أو العراق من كان على مستوى عال من المهارة الفنية والاختصاصية والثقافية .

---

(١) البلدان (٦/ ١٠ وما بعدها) .

وقد أفاد هؤلاء فائدة كبيرة في تطوير الصناعة والفن في تلك البلاد . وساعدوا ، ولا شك ، في رفع مستوى الحياة هناك ، وذلك بادخالهم ما تعلموه في بلادهم وما تعوّدوه عند أهلهم ، الى أهل اليمن والى غير أهل اليمن من أنحاء جزيرة العرب . فكانوا بذلك حلقة من حلقات الوصل التي وصلت بين شعوب جزيرة العرب والشعوب الشمالية الساكنة في أماكن بعيدة نائية عن هذه البلاد .

وإذا كنّا لا نستطيع الإتيان بأمثلة على هذا التأثير مأخوذة من كتابات المسند ، فإننا نستطيع أن نتحدث عن ذلك بالرجوع الى الأبنية أو الى القطع الفنية التي عثر عليها في اليمن وفي حضرموت ، وعليها أمارات هذا الاتصال وصوره الناطقة عن ذلك الاتصال . ثم أخبار الأخباريين التي أشارت عرضاً ومن غير قصد الى وجود أناس من هؤلاء الرقيق في مكة وفي أماكن أخرى كانوا يقومون لسادتهم بأداء أنواع الحرف مثل الحدادة والنجارة والبيع والشراء وأعمال البناء ، وبينهم من كان يقرأ ويكتب ويدون أعماله ، ويقرأ التوراة والانجيل والكتب ، ويترجم من لغته إلى لغة القوم . وقد أشير في كتب السير عرضاً الى نفر من هؤلاء . وقد قام بعضهم بتعليم المسلمين بعض وسائل الدفاع في الحروب ، كالذي نسبوه الى سلمان الفارسي من إشارته على الرسول بحفر الخندق للدفاع عن المدينة ، ومن تعليمه لهم صنع المنجنيق [1] .

وقد أشير الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة في بعض الكتابات الآشورية ، فذكر « تغلاتبليزر الثالث Tiglath Pileser III » مثلاً أنه أخذ الجزية من السبئيين ، أخذها ذهباً وفضة وإبلاً جمالاً ونوقاً ولباناً وبخوراً من جميع الأنواع ، كما ذكر « سرجون » (٧٠٧ قبل الميلاد) أنه أخذ الجزية من « يثع أمر It'amara » ملك سبأ ، أخذها

---

(١) السيرة الحلبية (٣/١٣٤ وما بعدها) . « غزوة الطائف » .

ذهباً وخيلاً وجمالاً ومن مصنوعات الجبال [1] .

وأغلب الظن أن هؤلاء السبئيين الذين دفعوا الجزية الى الأشوريين ، هم — كما قلت سابقاً وفي أثناء كلامي على العرب والأشوريين — من السبئيين الذين كانوا يقطنون أعالي جزيرة العرب ، وفي أعالي الحجاز خاصة حيث سكنت جاليات كبيرة منهم هذه الأنحاء منذ أمد طويل ، فكانوا من ترسبات حكومة سبأ في هذه الأماكن ، أو كانوا من القبائل السبئية النازحة الى هذه الأماكن ، والى بادية الشأم ، فاضطروا الى دفع الجزية الى الأشوريين ، إذ يصعب تصور دفع حكومة سبأ الأصلية الجزية الى الأشوريين ، لبعد الشقة بين أشور واليمن ، ولصعوبة وصول جيش أشور الى تلك الأرضين .

ومن المستوطنات التي آستقر فيها المعينيون والسبئيون خارج اليمن مستعمرة « معين مصران » التي تحدثت عنها في فصل المعينيين و « ددان » « ديدان » ، و « الحجر Higra » . وتقع كل هذه وغيرها على طريق القوافل البري المهم الذي يربط اليمن والعربية الجنوبية ببلاد الشأم وبالطرق المتصلة بها . ولعلّ « يثرب » هي إحدى هذه المستوطنات التي كونها أهل اليمن في الحجاز ، بدليل اعتزاز أهلها بانتسابهم الى اليمن ، ورَجعهم نسبهم الى قحطان ، وتنافسهم الشديد مع أهل مكة المدون في كتب التأريخ والأخبار .

وقد أشير في التوراة الى القوافل التي كانت تأتي من بلاد العرب الى فلسطين للاتجار . وقد كان سكان جزيرة العرب الغربية يرسلون قوافلهم الى « غزة » لتتاجر مع العبرانيين ومع غيرهم من الشعوب [2] .

---

(١) Hastings, 842.

(٢) قاموس الكتاب المقدس (١/٢٧٩) .

ولم يرد في كتابات المسند، اسم مدينة « غزة »، لكننا نعلم من الموارد اليونانية واللاتينية ومن غيرها أن هذه المدينة كانت من أهم المراكز والأسواق التجارية التي قصدها العرب قبل الميلاد وبعده. وقد كانوا يقصدونها لبيع ما عندهم من سلع مطلوبة من حاصل اليمن والعربية الجنوبية ومن ناتج افريقية والهند، ولشراء ما يرد على هذه المدينة من البحر من حاصل اليونان أو ايطالية أو مصر أو غيرها من أماكن، فتعود قوافلهم وهي محملة بالبضائع المطلوبة في جزيرة العرب من مختلف المواد.

وقد كان تجار اليمن يسيرون القوافل الى بلاد الشأم، أو الى العراق. أما التي تقصد بلاد الشأم فتقصد « بصرى » أو « غزة » على البحر المتوسط، ويكون ذلك عن طريق « نجران »، ثم « الحمى »، وهو موضع يقع في شمال « نجران »، ومنه الى « يثرب »، ولا نعلم على وجه مضبوط المواضع التي تمر بها هذه القوافل فيما بين الحمى و « يثرب »، ومن « يثرب » تتجه شمالاً الى الموضعين المذكورين.

وفي كتب اليونان واللاتين تأييد واتفاق تام مع ما جاء في التوراة عن ثراء السبئيين، وعن امتلاكهم للذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقد بالغت في ذلك مبالغة أخرجتها من حدود الواقع الى الخيال، فنسبوا لهم استعمال الأثاث المصنوع من الذهب والأواني المستعملة من الذهب والفضة، وغير ذلك مما أخرج وصفهم من حدود التاريخ وأدخله في عالم القصص والأساطير.

وقد بالغ « سترابون » في وصف ثراء السبئيين بسبب اتجارهم بنوع من العطور الزكية، دعاها باسم « اللاريم Larimum » وبالمواد الأخرى النفيسة، وذكر أنه كانت « لديهم كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة، كالأسرة والموائد الصغيرة،

---

(١) Wissmann—Hofner, S. II. f.

والآنية، والكؤوس، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة [1] ».

وقد كانت هذه الشهرة من أهم العوامل التي دفعت بالقيصر « أغسطس » الى ارسال حملته المشهورة المخفقة على اليمن. وهاك ما كتبه المؤرخ « بلينيوس Pliny » عن ثروة العرب وعن تجاراتهم، لترى ما كان ماثلا في مخيلة الرومان واليونان عن العرب، قال: « ومن الغرابة أن نقول: إن نصف هذه القبائل التي تفوق الحصر، يشتغل بالتجارة، أو يعيش على النهب وقطع الطرق. والعرب أغنى أمم العالم طراً، لتدفق الثروة من روما وبارثيا إليهم، وتكدسها بين أيديهم. فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم. ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك. » [2]

وقد أشار « بلينيوس » الى أن المعينيين كانوا يملكون أرضاً غنية خصبة، تكثر فيها النخيل والأشجار، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية، وأن السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأرضين المزروعة المرواة، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل. كما كانوا ينتجون العطور [3].

وقد عدّ « سترابون » العسل في جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية الجنوبية، وذكر أنه كثير جداً فيها [4].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٠٢) ١٩٥٢.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي (ج ١ م ٣ ص ١٢٩).

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الأول: المجلد الثالث) ، ١٩٥٤ (ص ١٢٩).

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧).

ولا تزال صادرات اليمن الى عدن والى جهات أخرى ، تؤيد ما ذكره هـذا الكاتب ، وما كتبه الكتبة القدماء الآخرون . فتصدر اليمن اليوم مثلا الى عدن والى موانيء البحر الأحمر في الزمن الحاضر أنواع الفواكه والعسل ، كما تصدر فصوص العقيق ، الى هذه الأماكن ، والى مكة لبيعها من الحجاج في موسم الحج وفي مواسم الزيارات [1] . والعسل كثير في اليمن ، حتى إن حكومة اليمن تفرض ضريبة في الزمن الحاضر على خلايا النحل ، لتكون وارداً من الواردات [2] . وقد كان العسل من جملة موارد الثروة التي كانت في أيام الجاهليين .

وقد اشتهرت مواضع عديدة من جزيرة العرب بالنحل وبكثرة عسلها . وذكر أنه كان لبني سُلَيْم في الجاهلية نحل عظيم . وقد اشتهرت جبالهم بتصدير العسل ، وبقيت على شهرتها هذه في الإسلام ، فكان الحجاج وأهل الحجاز وبعض أهل اليمن يشترون العسل منهم [3] .

وقد اتخذ الجاهليون الخلايا لتربية النحل ، وضعوها في بيوتهم أو في بساتينهم وحقولهم ومزارعهم على الأشجار وبين الصخور . وقد صنعوا أنواعاً من الخلايا ، ذكر علماء اللغة أسماءها . وقد يلجأ النحل الى مواضع منعزلة وحشية في الجبال ، فيعيش فيها ويضع عسله فيها . وهناك « معيدون » والمفرد « المُعِيد » [4] ، وهو العالم بالرقى والنزول من الجبال يذهبون الى الجبال للبحث بين صخورها على خلايا النحل ، لاستخلاص العسل منه .

---

(١) الدكتور أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ، (الصفحة ٢٣) .
(٢) المصدر نفسه (الصفحة ٢٨) .
(٣) ابن المجاور (١/١٤) .
(٤) المخصص (٨/١٨٠) .

وقد كان الطّيب بأنواعه من أهم المواد التي تاجر بها أبناء العربية الجنوبية والحجاز مع الخارج . ويعرف الطيب في المسند بـ « طيب » ، وتستخرج من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وإفريقية ، ويصدر الى مصر وأسواق بلاد الشأم ، ويدخل في ذلك البخور والأفاويه . وقد ذكر بلينيوس أن شبوة « Sabota » ، وهي عاصمة مملكة حضرموت ، كانت من أهم مراكز الاتجار بهذه المواد ، تجلب اليها من الجبال ومن أماكن بعيدة ، وتجمع فيها ، ثم تشتريها التجار للتصدير [1] .

واذا ذكر الطيب ، فلا بد من ذكر المسك [2] ، وهو من أنواع الطيب ، بل عدّ أطيب الطيب . وذكر علماء اللغة أن العرب تسميه المشموم ، وقيل : رائحة المسك وريح المسك ونفحه . وقد ورد أسمه في القرآن الكريم [3] وفي الحديث [4] . وقد كان معروفاً مشهوراً يتطيب به عند ظهور الاسلام .

وقد ذكر « الكافور » في القرآن الكريم : « إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » [5] . وفي ذلك دلالة على معرفة العرب به ، ووقوف قريش عليه واستعمالها له [6] .

وقد كانت في المعابد مخازن تجمع فيها أصناف الطيب والمرّ والبخور ، وذلك للتصدير والبيع . وقد كانت تقوم بوظيفة وسيط في البيع والشراء . تبيع ما تخزنه

---

(١) Pliny, XII, 54

(٢) بالكسر .

(٣) « ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » سورة المطففين . الآية ٢٦ .

(٤) القاموس (٣/٣١٨) ، شرح القاموس (٧/١٧٦ وما بعدها) .

(٥) سورة الدهر الآية (٥) .

(٦) القاموس (٢/١٢٨) .

وتحصل بذلك على عمولة تستفيد منها وتدر عليها أرباحاً طائلة جداً، تثرى منها. وهكذا نجد المعابد وهي تكاد تحتكر تلك المواد وتنفرد ببيعها الى التجار [١].

وقد اشتهرت اليمن بتصدير أفخر أنواع البرد والثياب الى الحجاز والى أماكن أخرى، كما اشتهرت بتصدير المصنوعات المعدنية، مثل السيوف والخناجر وأدوات الحرب والصحائف المعدنية المصقولة [٢] وأدوات الزينة وأنسجة الصوف والكتان والجلود المدبوغة والحبوب والطحين والأحجار الكريمة، وغير ذلك من حاصلات مصنوعة وطبيعية ساقت الى اليمن الثروة والمال.

ومن الأماكن التي اشتهرت بالأدم وبالدباغة مدينة « جُرش »، وهي من مخاليف اليمن من جهة مكة، وقد نسب اليها الأدم المعروف بـ « أدم جرش » وقيل « أدم جرشي »، والنوق فقيل « ناقة جرشية »، وهي مدينة تسقى بالآبار، فيستخرج منها الماء بالدلاء، على الأبل، وقد فتحت في حياة النبي في سنة عشر للهجرة صلحاً على الفيء، وأن يتقاسموا العشر ونصف العشر [٣].

وعرفت جزيرة العرب بتصديرها بعض أنواع الصمغ واللّثى [٤]

---

(١) Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 6,

(٢) « وكانت بيد الأشتر صفيحة يمانية إذا طأطأها خلت فيها ماء منصباً، واذا رفعها كاد يغشي البصر شعاعها » الطبري (٦/١٢).

(٣) البلدان (٣/٨٥).

(٤) « اللثي كالمعي بالفتح مقصور يكتب بالياء قاله القالي : شيء يسقط من شجر السمر كما في المحكم، وفي الصحاح : هو ماء يسيل من الشجر كالصمغ، فاذا جمد فهو صمرور. وقال القالي عن أحمد بن يحيى، اللثى الصمغ. وأنشد لبعض الأعراب :

نحن بنو سواءة بن عامر ‌ ‌ أهل اللثى والمغد والمغافر

وفي التهذيب : اللثى ما سال من ماء الشجرة من ساقها خاثراً، وقيل شيء ينضحه الثمام فما سقط منه على الأرض أخذ وجعل في ثوب وصب عليه الماء، فاذا سال من الثوب شرب حلواً وربما عقد. قاله ابن =

والمغافير [1] والعلوك [2] . وبعض هذا مستورد ، مثل صمغ « المرّ » المستورد من « سقطرى» ، و« الأيدع » وهو صمغ أحمر يُؤتى به من « سقطرى » أيضاً وتداوى به الجراح ، و « الكافور » ويجلب من الخارج كذلك [3] .

وفي اليمن معادن استغلها أهل اليمن قبل الاسلام ، مثل الذهب والفضة والرصاص ...

= السكيت . قال الأزهري : يسيل من الثمام وغيره . وللعرفط لثى حلو يقال له للمغافير . وفي كتاب الجيم : لثى الثمام ما يقع من دسمه الى الأرض .. وأنشد :

يخبطها طاح من الهدام   جنادب فوق لثى الثمام

وقال أبو حنيفة : اللثى ما رق من العلوك حتى يسيل ، فيجري ويقطر . وقد لثيت الشجرة كرضى لثا كذا في النسخ . والصواب أن يكتب بالياء ، فهي لثية ، كفرحة ، خرج منها اللثى . وفي التهذيب : سال ... » ، شرح القاموس (١٠/٣٢٣) ، القاموس (٤/٣٨٤ وما بعدها) .

(١) « والمغافر والمغافير والمغاثير: وهوصمغ شبيه بالناطف ينضحه العرفط ، فيوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب ... وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والسلم والثمام والطلح وغير ذلك . وفي التهذيب : يقال لصمغ الرمث والعرفط مغاثير ومغافير الواحد مغثور ومغفور ومغفر ومغثر بالكسر . وقال ابن الأثير : المغافير صمغ يسيل من العرفط ، غير أن رائحته ليست بطيبة . وقال الليث : صمغ الاجاصة مغفار . وقاله أبو عمرو : المغافير ، الصمغ يكون في الرمث وهو حلو يؤكل واحدها مغفور . وقال ابن شميل : الرمث من بين الحمض له مغافير ، وهو شيء يسيل من طرف عيدانها مثل الدبس في لونه . وقال غيره : المغافير عسل حلو مثل الرب الا أنه أبيض ... » ، شرح القاموس (٣/٤٥٣) .

(٢) والعلك بالكسر صمغ الصنوبر والأرزة والفستق والسرو ، والينبوت والبطم . وهو أجودها ... وبائعه علاك » ، القاموس (٣/٣١٤) ، شرح القاموس (٧/١٦٤) .

(٣) المخصص (١٢/٢١٧ وما بعدها) ، « والكافور : نبت طيب نوره كنور الاقحوان والطلع أو وعاؤه ، وطيب يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين يظل خلقاً كثيراً وتألفه النمورة . وخشبه أبيض هش ويوجد في أجوافه الكافور . وهو أنواع ولونها أحمر وإنما يبيض بالتصعيد .. » ، القاموس (٢/١٢٨) .

وقد استخدموا الرصاص في كثير من الأعمال ، منها صبه في أسس الأعمدة [1] . والجزْع [2] واليفران والعقيق [3] والحديد ومنه طبع أهل اليمن سيوفهم الشهيرة .

---

(١) « والرصاص كسحاب ولا يكسر : ضربان : أسود وهو الأسرب والابار ، وأبيض وهو القلعي ... » ، القاموس (٢/٣٠٤) ، « والرصاص كسحاب ولا يكسر . ونسبه الجوهري للعامة ... قال ابن دريد : وهو عربي صحيح من رص بناه لتداخل اجزائه . وشاهد الرصاص بالفتح قول الراجز :

أنا ابن عمرو ذي السنا الوباس وابن أبيه مسعط الرصاص

قال وأول من أسعط بالرصاص من ملوك العرب ثعلبة بن امريء القيس بن مازن بن الازد ... » ، شرح القاموس (٤/٢٩٧) .

(٢) « والجزع ويكسر : الخرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض تشبه به الأعين ... » ، القاموس (٣/١٢) ، « والجزع بالفتح وعليه اقتصر الجوهري ويكسر عن كراع . ونسبه ابن دريد للعامة . الخرز اليماني ، كما في الصحاح وزاد غيره الصيني . قال الجوهري : هو الذي فيه سواد وبياض تشبه به الأعين قال امرؤ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

لأن عيونها ما دامت حية سود ، فاذا ماتت بدا بياضها وان لم يثقب كان اصفى لها . وقال أيضاً يصف سرباً :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشيرة مخول

وكان عقد عائشة رضى الله عنها من جزع ظفار . قال المرقش الأكبر :

تحلين ياقوتاً وشذراً وصنعة وجزعاً ظفارياً ودراً توائما

وقال ابن برى : سمي جزعاً لأنه مجزع ، أي مقطع بألوان مختلفة . أي قطع سواده بياضه وصفرته ... » ، شرح القاموس (٥/٣٠٠) .

(٣) « العقيق كأمير خرز أحمر تتخذ منه الفصوص يكون باليمن بالقرب من الشحر ، يتكون ليكون مرجاناً فيمنعه اليبس والبرد . قال التيفاشي : يؤتى به من اليمن من معادن له بصنعاء ، ثم يؤتى به الى عدن ومنها يجلب الى سائر البلاد . قلت وقد تقدم للمصنف في قرأ أن معدن العقيق في موضع قرب صنعاء يقال له : مقرأ ... » ، شرح القاموس (٧/١٥) .

وأطلق علماء اللغة على الرصاص ألفاظاً أخرى ، هي : الآنك [1] والأسرب [2] والأسرف والصرفان . وأما الرصاص القلعي ، فإنه الرصاص الشديد البياض . وتستعمل لفظة « هاع » بمعنى سال وذاب ، فيقال : هاع الرصاص ، أي سال وذاب [3] . وهي من الألفاظ الواردة في المسند .

وتعرف الفضة في نصوص المسند بـ « صرف » ، وقريب من هذه اللفظة كلمة صربو « Sarpu » في الأشورية وسرف في العبرانية [4] . والفضة من المعادن المشهورة المعروفة في اليمن . وقد كانت جزيرة العرب في جملة الأسواق التي مونت العبرانيين بهذا المعدن [5] . ومن هذا المعدن صنعت حلي ونقود ، لأنه من المعادن النفيسة المستعملة بعد الذهب .

وفي المسند ألفاظ كثيرة عديدة ذات معاني تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك

---

(١) « الآنك : بالمد وضم النون ، وليس أفعل غيرها واهد الأسرب أو أبيضه أو اسوده أو خالصه ... » ، القاموس (٣/٢٩٢) ، « انك ... الاسرب ، وهو الرصاص القلعي ، قاله القتبي . قال الأزهري : وأحسبه معرباً . أو أبيضه أو اسوده أو خالصه . وقال القاسم بن معن : سمعت أعرابياً يقول : هذا رصاص آنك أي خالص . وقال كراع هو القزدير .... وقد جاء في الحديث : من استمع الى قينة صب الله الآنك في أذنيه يوم القيامة . رواه ابن قتيبة ... » ، شرح القاموس (٧/١٠٤) .

(٢) المخصص (١٢/٢٥ وما بعدها) .

(٣) راجع النصوص .

(٤) « والصريف الفضة الخالصة ...... والصرفان ...... النحاس والرصاص » القاموس (٣/١٦٢) ، « قال ابن السكيت : الصريف كامير الفضة ، ومثله قول أبي عمرو . وزاد غيرهما : الخالصة ، وأنشد :

بني غدانة حقاً لستم ذهباً ولا صريفاً ولكن أنتم خزف

وهذا البيت أورده الجوهري : بني غدانة ما ان انتم ذهباً ... ولا صريفاً . قال ابن بري : صواب انشاده ما ان انتم ذهب ... » شرح القاموس (٦/١٦٣) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 4.

(٥) Hastings, P. 619.

والعقود ، وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا قوماً تجّاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ، ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون في الداخل وفي الخارج ، يقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما يقيمون الأسواق في بلادهم في المواسم أو في أيام معينة من الأسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضة بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

والتجارة هي « ش ت ى ط » « شتيط » في لغة قتبان . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص القتبانية ، في أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتنظيم الجباية ، وفي كيفية جباية « المكس » عن البضائع التي تباع في الأسواق ، وفي العقوبات التي تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع « جبـاية » السوق . وقد حددت القواعد التي يسمح بموجبها للغرباء في الاتجار بأسواق مملكة قتبان ، وفي كيفية اتجار القتبانيين في الأسواق الخارجية . وفي جملة هذه النصوص نص أصدره الملك « شهر هلل « هلال » بن يدع اب » في تنظيم التجارة وفي كيفية الاتجار . وقد نشر على شكل اعلان أو مرسوم ملكي موجه من الملك الى التجار من أهل قتبان ، ومن الغرباء الوافدين عليها للاتجار ، وقد كتب ونشر ليطلع عليه الناس كما تفعل الدول في الزمن الحاضر .

وقد جاءت في النص هذه العبارات : « ملك قتبن وقتبن بتمنع وبرم وذذهبن خوكم وولدعم وضبر تمنع وخدر ولدعم » ، ومعناها « ملك قتبان والقتبانيين بتمنع وبخارجها . والتابعين لحوكم وولدعم وجماعة تمنع والتابعين لولدعم » . ويراد بلفظة « برم » « برّ » والميم فيها يقابل التنوين في لغة القرآن ، ويراد بها الخارج ، كما تقول « برّاني » و « جوّاني » أي خارج وداخل . فقصد هنا أهل تمنع والساكنين

خارج المدينة تمنع عاصمة قتبان ، كما نقول أهل بغداد وخارجها ، كما يراد بها « بر » ، بالمعنى اللغوي المفهوم عندنا من اللفظة . أما جملة : « ذذهبن حوكم » ، فتعني الذين يتبعون « حوكم » . وتفسر « ذذهبن » بالذين يذهبون ، وبعبارة أصح الذين يذهبون وراء حوكم ، أي يتابعون الإلـه « حوكم » إلـه قتبان . وأما « ولدعم » ، فتعني قوم عم ، أو جماعة الإلـه عم . وأبناء عم . وأما لفظة « ضبر » ، فتعبر عن مصطلح ديني اجتماعي هو : جماعة وقوم وأمة [١] .

وقد وردت في النص جملة مصطلحات وألفاظ ، لها معان تجارية ، مثل « يشط » أي يتاجر ، و « يعرب » من « عرب » بمعنى يقدم عَرَبوناً ويضع عربوناً [٢] . ومن أصل « عرب » العرابة والعربون في العربية الشمالية [٣] . و « خدر » بمعنى أقام ومقيم ومقيمين ونازلين . وقد ورد في المعجمات اللغوية أن من معاني هذه اللفظة الاقامة بالمكان [٤] . ويُقصَدُ بذلك النازلون في مكانٍ ما . ولما كان هذا النص أمراً وقانوناً في تنظيم التجارة ، فقد حدد ما جاء فيه من أوامر ، بالنسبة الى سكان المدينة تمنع وخارجها ، وكذلك مملكة قتبان ، والمقيمين بها ، الوافدين من خارج قتبان للعمل بالاسواق والاتجار . ولذلك وردت هذه الجملة : « من بيشط تمنع وبرم

(١) في مادة ضبر ، « والتضبير : الجمع . يقال : ضبرت الكتب وغيرها تضبيراً جمعتها ... والضبر بالفتح : الجماعة يغزون على أرجلهم ، يقال : خرج ضبر من بني فلان .... والضبر أيضاً : جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرب الى الحصون لقتال ، أي لقتال أهلها . ج ضبور . وقال الزمخشري والليث : الضبور : هي الدبابات التي تقرب للحصون ، لتنقب من تحتها . الواحد ضبرة ... والضبائر : جماعات الناس في تفرقة ، كأنه جمع ضبارة مثل عمارة . » شرح القاموس (٣/٣٤٧ وما بعدها) .

(٢) راجع السطر الثامن من النص : Rep. Epi., Num. 4337.

(٣) القاموس (١/١٠٢) ، شرح القاموس مادة : « عرب » .

(٤) القاموس (٢/١٨) .

شيطم ول يعرب عد تمنع وخدر بشمر وأثرم قتبن بمشطم وأرمم وقنيم بيخدر وأرم ومشام بشمر ... »[1] ، ومعناها « من يتجر تجارة بتمنع وبخارج تمنع ، فعليه أن يقدم عربوناً الى تمنع ، وأن يكون مقيماً بشمر ، وإن آثر قتبان محلاً لاتجاره ، وأراد أن يتجول ليشتري ، فعليه أن يشتري من شمر ... » . ولفظة « شتا » بمعنى يشتري واشترى . وأما « اثرم » ، فمن « اثر » ، بمعنى آثر واختار ، و « شمر » اسم موضع .

وقد حدد هذا القانون حقوق الـ « خدر » أي النازل والمقيم في إمارة شمس ، والذي يتجول فيذهب الى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها ، ويذهب الى قبائلها لبيع ما عنده اليها ، أو شراء ما يحتاج اليه من تجارة منها ، وعليه أن يفعل ذلك ، ولكنه ملزم باخبار « عهر شمر »، بذلك ، وذلك لتسوية المشكلات والحسابات التي تتولد من المعاملات التجارية . وقد تطرق النص الى الاضرار التي قد تصيب الأجانب أو القتبانيين ، والى احقاق الحقوق ، ولهذا وضع الملك هذا الأمر . وقد جاءت في آخر النص هذه الجملة : « وخمسى ورقم » ، أي « خمسين ورق » . وقد سقطت كلمات قبلها ، فلم يعرف المراد من ذكر هذا الرقم ، ولعله قصد جزاء يفرض على المخالفين ، أو غير ذلك .

ومن الألفاظ الواردة في هذا النص، لفظة «اذى» «أذى» ، بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا ، وذلك في هذه العبارة : « اذى بيشتيط » ومعناها « أذى بمن يتجر » . ولفظة « عهر » ، هي لقب صاحب شمر ، مثل كلمة « قيل » التي هي منزلة ودرجة تطلق على حملة هذا اللقب . وقد أطلق على صاحب « شمر » فورد « عهر شمر » . ولفظة « يستضف » ، بمعنى يستضاف . وأما لفظة « ضيف » ، فإنها « ستضف » . و « مشطم » و « مشط » معناها سوق . وقد وردت لفظة « يبش » بمعنى استشارة ،

---

(١) السطر السابع وما بعده من النص ، Rep. Epi., Num. 4337

وإبداء رأي ومشورة . و « متزر » بمعنى وزر وأذى .

وعبر عن الرجل الغريب بلفظة « نكر » ، أي نكرة غير معروف ، وذلك كما في هذه الجملة : « نكرشعبم » ، أي « نكرة في شعب » وبمعنى آخر « غريب بين قوم أو شعب » . وأما لفظة آتفاقية ومعاهدة ، فعبر عنها بلفظة : « ختفر » ، من أصل « خفر » . و « خفره » في عربيتنا بمعنى « اجاره » . ومن هذا الأصل الخفارة [١] . وقد اشتهر العرب بالمحافظة على الخفارة . ومن يخفر أحداً أي يجيره ، فعليه المحافظة على خفارته هذه ولو كلفه ذلك حياته .

وترد لفظة « بيعدوم » ، من أصل « عدّ » ، بمعنى يدفع ويعيد ، وذلك كما في هذه الجملة الواردة في أمر ملكي آخر ، أصدره « ملكقتبان » و « عهرشمر » ، وهي: « ال بيعدوم نعمت بزعرتم بعلو مشطم » ومعناها « الذي يدفع النعم عن حق الحكومة على السوق » . ويراد من لفظة « نعمت » نعم ، وتعني هنا ما أنعم على الانسان ، أي ما يحصل عليه من السوق ، وما يربحه من تجارته . وأما « زعرتم » ، فمن أصل « زعر » ، وتعني لفظة « زعر » يصغر ، أي يكون صغيراً ، وصغير في العبرانية القديمة . وتعني « زعرت » قليلاً وصغيراً وما شاكل ذلك من معان [٢] . وهي هنا بمعنى ما يؤخذ ويخرج ويستخلص من « النعمة » أي الربح [٣] ، فكأنه آستعمل هذه اللفظة ، وذلك لأن ما يدفع الى الحكومة هو مما يقلل من المبلغ ويصغره ، فاستعملها اذن بمعنى الخراج في عربيتنا ، وهو ما يخرّج ويدفع عن استحقاق الحكومة من الضريبة في أرض الخراج .

---

(١) القاموس (٢/٢٢) .

(٢) Rep. Epi., 4337, Jastrow, A Dicti. of The Targ ..., P. 407, (1886).

(٣) « زعر : قل وتفرق .... ورجل زعر كصيقل : قليل المال ... ومن المجاز الأزعر وضع القليل النبات على التشبيه ، كقولهم أكمة صلعاء » ، شرح القاموس (٣/٢٣٧) .

ووردت لفظة « حمد » بمعنى « الضريبة » و « الحميد » في عربية القرآن الكريم « المال المكتوب عليك في الديوان » و « الصدقة »[1] . وأما لفظة « قتدم » ، فإنها من اصل « قدم » ، وهي بمعنى « تقدمة » في هذا النص ، أي تقديم شيء في مقابل حق من الحقوق . ووردت لفظة « مبيع » بصيغة اسم المفعول بمعنى يباع من مبيعات كما في عربيتنا . أما لفظة « سفلن » ، فقد وردت بمعنى « السافل » أي الواطىء والمنخفض . ويراد بذلك الطبقات الواطئة من الناس . ووردت لفظة « مهرم » « مهر » بمعنى القانون ، وذلك كما في هذه الجملة : « بهن مهرم مهرمم ملك قتبن » ، أي « بهذا القانون » أو « وفقاً لهذا القانون الذي قننه ملك قتبان »[2] .

وفي أمر ملكي آخر من الأوامر التي أعلنها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتحديد الحقوق التي يجب أن يدفعها التجار الى ملوك قتبان و « لعهر شمر » ، أي أقيال شمر ، وردت هذه الجملة الختامية : « بيمتع ذن مهرن كل ملكم » ، أي « وليحمي هذا القانون كل ملك » . ويقصد صاحب الأمر بهذه الجملة : ليطبق أو ولِيَسرْ على هذا القانون جميع الملوك . وقد تطرق القانون إلى كيفية متاجرة الناس بعضهم مع بعض ، والى التجار الذين يأتون ليلاً الى قتبان ، والذين يبقون هناك . وفي كيفية دفعهم حصة الملوك . وقد عبر عن الليل بـ « ليل » ، وعن الصبح بـ « صبح » أي التعابير نفسها المستعملة في عربيتنا[3] .

---

(١) « والحميد : المال المكتوب عليك في الديوان ، يقال : هاتوا صدقته . وقد ذهب المال . يقال أخذنا الساعي بالحميد ، قاله ابن شميل ، أي بما مات من الغنم والإبل » شرح القاموس (٢/٥٤٧) مادة : حمد .

(٢) السطر ٢٤ من النص Rep. Epi., 4337, - P, 203,

(٣) راجع النص : Rep. Epi , Num. 4337, P. 205

Glaser 1616, S. E. 88.

والعرب عموماً قوم اشتهروا بالتجارة . وكانوا ينظرون اليها على أنها أشرف الحرف ، وأعلاها قدراً ومنزلة . وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة في الإسلام كذلك . وقد وردت لفظه « تجارة » و«التجارة » و « تجارتهم » في مواضع متعددة من القرآن الكريم . وأشير الى شرفها وسمو منزلتها في الحديث ، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة في نفوس الناس .

وفي اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل ، وهي من اللغات العالمية الغنية في هذه المادة . ويلاحظ بصورة عامة أن اللهجات السامية غنية كلها تقريباً بالألفاظ المستعملة في البيع والشراء والتعامل والتجارة ، وفيها مترادفات كثيرة في هذا الباب . وكثرة هذه الألفاظ فيها دليل على حذق الساميين عموماً بالتجارة وافتتانهم بها ، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم . والتأريخ يؤيد ذلك ، فنرى الساميين عموماً ، وهم أنشط من غيرهم ، يتنقلون من مكان الى مكان طمعاً في ربح ، وركضاً وراء تجارة ، وهم من أحذق الناس يومئذ في التحكم في الأسعار وفي التعامل وفي البيع والشراء .

وقد كان أهل مكة من أبرع التجار في العربية الغربية عند ظهور الإسلام . وقد أشير الى تجارتهم في القرآن الكريم [1] ، وكانوا يقصدون « بصرى » أو « غزة » في الغالب في رحلتهم الى بلاد الشأم ، كما كانوا يقصدون أماكن أخرى ، وكانت هذه عادتهم قبل الإسلام بمئات السنين .

وقد استفاد أهل مكة ، ولا شك ، من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش اليها ، ومن تردّي الأوضاع السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش ، فانحسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل ، ووجدت قريش نفسها حرّة مستقلة وفي وضع

---

(١) سورة قريش .

يمكنها من استغلال مواهبها في التجارة ، فقامت بمهمة الوسيط ، تنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية الى أسواق فلسطين ، وتنقل تجارة بلاد الشأم وحوض البحر المتوسط الى الحجاز ونجد واليمن ، وبذلك حصلت على أرباح طائلة عظيمة ، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام ، وصيرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين .

وقد اشتهرت بعض الأسر من قريش بالتجارة مع الأقطار البعيدة عن مكة . وقد ذكر أهل الأخبار أن بني عبد مناف المعروفين بـ « أصحاب الإيلاف » كانوا أسرة ثرية غنية اختصت بالاتجار مع الخارج ، وكانوا أربعة إخوة ، هم : هاشم ، وكان يؤالف ملك الشأم حيث أخذ منه خيلاً فأمن به في تجارته الى الشأم . ويقصدون بملك الشأم ملك الغساسنة على ما يظهر . أما الأخ الثاني ، فعبد شمس ، وكانت تجارته مع الحبشة . وأما الثالث فكان المطلب ، وكان يرحل الى اليمن . وأما الرابع فهو نوفل ، وكان يرحل الى فارس . وقد عرف هؤلاء بـ « المتجرين » [1] .

وقد ذكرت كتب التأريخ والأخبار اسماء عدد من رجال مكة كانوا يخرجون الى التجارة بأموالهم وأموال غيرهم من أمثال أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله وكان يخرج تاجراً الى الشأم . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله وأموال رجال من قريش أبضعوها معه [2] .

ويظهر من سورة قريش أن قريشاً كانت ترحل رحلتين في السنة [3] : رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى بلاد الشأم . وهما رحلتان تجاريتان ، تشتري فيهما وتبيع ، وتربح منهما ربحاً صيرها في وضع مالي حسن . وحينما نذكر قريشاً ، فانما

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٣٨٥) .

(٢) الطبري (٢/٢٩٢) .

(٣) سورة قريش .

نعني مكة بالطبع ، وهي موطن قريش . وقد صارت مكة لذلك العهد مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع . ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزنها في مكة ، أو لتصرفها في اسواق مكة وحدها . فمكة وحدها بلدة صغيرة لاتستوعب أسواقها هذه التجارات ، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب ، لتصرف مايمكن بيعه في اسواق مكة وهو في القليل ، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب الى الشمال أعني بلاد الشأم ، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشأم ، الى اليمن ومنها الى بقية العربية الجنوبية والسواحل الإفريقية المقابلة ، فتربح من هذه الصفقات ربحاً حسناً .

وقد كان تجارها بالطبع يتاجرون مع العراق ومع أماكن أخرى بقوافل أخرى أصغر في الشتاء وفي الصيف وفي الفصلين الآخرين . يشترون ويبيعون . وقد رأينا كيف كانت لأسر معروفة من مكة صلات مع عرب الأنبار وعرب الحيرة ، وكيف كان رجالها يذهبون بتجاراتهم الى المكانين ، ثم يقيمون فيها ما دامت معاملتهم غير كاملة ، فاذا انتهت ، عادوا الى مكة ببضاعة جديدة ومال . وقد رأينا كتب الأخباريين تقول إن تلك الأسر لم تكتف بالتجارة ، بل حملت معها شيئاً أهم وأعظم قيمة من التجارة ، هو حروف الهجاء ، الحروف التي أخذ منها الخط الذي كتب به القرآن الكريم ، فصار الخط الرسمي للمسلمين ، الخط الذي لم يقتصر استعماله على العرب ، بل صار خطاً لملايين المسلمين الذين تربطهم بالعرب رابطة الدين .

والأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والحرير والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى ، هي من أهم السلع الرئيسة التي تتكون منها تجارة قريش . وبعض هذه السلع مهم وغالٍ ومطلوب في أسواق بلاد الشأم ، مثل التبر . وقد كانوا يستوردونه من إفريقية ، كما كانوا يشترونه من سادات القبائل

وكبار التجار المسيطرين على مناجم الذهب في اليمن وفي مواضع من الحجاز. وقد ذكر « ديودورس الصقلي» أن شعبي «Alilaei » و« Gasandi» كانا يملكان أرضاً فيها معدن ذهب، فكانا يستخرجانه صافياً من مناجمه، ولا ينقيانه بصهره بالنار، وإنما كانا يستخرجانه قطعاً قطعاً: كل قطعة بحجم الجوزة، وذكر أنهما يسميان هذه القطع في لغتهم « Apyros »، ومعناها الذهب الخالص. ويقصد بها كلمة « إبريز » العربية ولا شك.

وقد ذكر أن هذين الشعبين كانا يتحلّيان بالذهب كثيراً، لوفرته عندهم، فيزينون به رقابهم وأيديهم، ويحبكونه مع عدد من العظام اللمّاعة، كما كانوا يبيعونه بأثمان بخسة، ويبادلونه بالحديد والبرنز وزنا بوزن، لقلتهما عندهم [١].

وبالغ « ديودورس » أيضاً في أثناء كلامه على شعب « Debae » بالذهب في أرضهم، فذكر أن فيها نهراً يحمل مع مياهه تراب الذهب « التبر » ويصب في البحر. وقال: إن الناس هناك لا يعرفون كيفية استخلاص الذهب وتنقيته [٢]. وذهب « كلاسر » الى احتمال وقوع هذه المنطقة بين « القنفدة » و « مرسى الحلج »، وهي منطقة عرفت بوجود الذهب فيها [٣]. ومهما يكن من شيء ففي هذه الأخبار التي لا تخلو من مبالغات حقيقة هي متاجرة العرب وفي ضمنهم تجار قريش بالتبر، يحملونه الى بلاد الشأم، لاستخلاص الذهب منه. وقد كان من السلع التي تدر الأرباح الكثيرة على أصحابها.

وقد كان تجار مكة كما كان غيرهم ممن يتاجرون مع بلاد الشأم جمعين جداً في

---

(١) تأريخ العرب قبل الاسلام (٢/١١١) ، Glaser, Skizze II, S. 30,

(٢) Booth, P. 106 ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢/١١٠) .

(٣) تأريخ العرب قبل الاسلام (٢/١١٠، وما بعدها) ، Glaser, Skizze, II, S. 29.

الحصول على الدنانير . وهذا ما كان يزعج الروم كثيراً ويؤذيهم . ونجد هذا الشعور واضحاً في كتب بعض كتبة اليونان واللاتين ، الذين أشاروا اليه ولم يكتموه . وقد رويت ذلك في أثناء كلامي على حملة «أوليوس غالوس» ، كما أشار الى ذلك « بلينيوس » الذي قال إن التجار العرب يأخذون الملايين من الروم ، ولكنهم لا يدفعون شيئاً [1]. ويقصد بذلك أن أولئك التجار كانوا بائعين ومستوردين ، يأخذون ذهباً في مقابل تجاراتهم ، ولا يشترون إلا قليلاً ولا ينفقون في الأسواق التي يبيعون سلعهم فيها الا القليل ، ولهذا يكون لهم الربح والمنفعة ويكون لهم الميزان التجاري [2] وهذا مما غاض أولئك الروم .

وقد كان الحج نفسه موسم تجارة وبيع وشراء ، يأتي فيه الناس من أطراف مكة ومن البوادي فيبيعون ما عندهم ويشترون ما يحتاجون اليه مما جاءت به قريش من تجارات ، وتعمر في تلك الأيام أسواق مكة وتنشط ، وتعود على أهلها بأرباح . ولتأمين هذا الموسم ، اتخذت قريش كل ما استطاعت أن تتخذه من وسائل لحماية الوافدين واراحتهم على قدر الامكان ، كما عنيت بالأصنام وبخدمة بيتها الذي صار « بيت الله » ، بعد أن أزيلت الأوثان وطهرت منها مكة ، ولم تبق فيها إلا عبادة « الله » الواحد الأحد الذي لا ندّ له ولا شريك ولا مثيل .

وقد كان في مكة أغنياء لهم رؤوس أموال يقرضون المحتاجين إياها في مقابل ربح فاحش عرف بـ« الربا » ، أي الفائض . وهو فائض حرمه الاسلام ، لما فيه من ظلم فاحش وغبن بالنسبة الى المستدينين المحتاجين . وقد كان في يثرب وفي الطائف وفي اليمن وفي أماكن أخرى من جزيرة العرب مرابون بالطبع ، يعيشون على الربا ، وعلى

---

(١) Pliny, Hist. Nast., VI, 28.

(٢) Ency. of Islam, III, P. 440.

هذه التجارة التي لا تستدعي تعباً ولا نصباً . فكل ما فيها هو وجود مال زائد متكدس لدى المرابي وحاجة شديدة ملحة اليه لدى المستدين ، تجعله يدفع أي فائض يطلبه المرابي منه .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على وجود مستوى راق في مكة ، وفي أماكن أخرى للتجارة والاقتصاد أيضاً ، وتدل على تنسيق وعمل منظم بين التجار . وقد وردت فيه اشارات الى « رؤوس الأموال » ، وهي الأموال الخالصة التي تشغل في التجارة والتي تعطى المحتاجين اليها لتربو ولتعطى صاحبها الربا ، كما وردت فيه اشارات الى البيع والشراء والقروض والرهون والشركات والتكاتب والتعامل التجاري وأمثال ذلك . وكل ذلك قد نظم وهذب وفقاً لقواعد الإسلام وصار أساساً لنظم التجارة والمال في الإسلام . ولهذا تستدعي دراسة النظم الاقتصادية والتجارة في الاسلام الرجوعَ الى السناد ، وسنادها هو نظمها وقواعدها قبل الإسلام .

ويظهر من كتب التفسير والسير أن أهل مكة كانوا يسهمون في رؤوس أموال قوافلهم التي يبعثون بها الى بلاد الشأم واليمن ، وفي الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو جملة أسر ، بل معظم أفراد مكة الأحرار في تلك القوافل ، كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد ساعدت هذه الشركة على اعانة أصحاب السهام وعلى مساعدة أهل مكة في رفع مستواهم المعاشي . وإذا كنا لا نملك موارد تتحدث عن أنظمة تلك الشركة أو الشركات وقوانينها ، وعن كيفية توزيع الأرباح بين المساهمين ، وعن أنواع تلك الشركات وأصول حساباتها ووكلائها في الخارج ، فمن الميسور أن نظفر بقدر كبير من جذورها وأصولها في فصول الشركات والقضايا المتعلقة بتنظيم التجارة في الإسلام في كتب التفسير والحديث والفقه خاصةً ، ففي هذه الفصول اشارات كثيرة الى شؤون التجارة والاقتصاد عند الجاهليين .

وتعد أيام مغادرة القوافل وأيام عودتها سالمةً ، من الأيام المشهودة في مكة ، يخرج فيها أهل البلدة لتوديع القافلة متمنين لها النجاح والفلاح والعودة سالمة بربح وافر كثير ، داعين آلهتهم أن تبارك في رجالها وتمنحهم العون والفلاح في البيع وفي وقايتها من شرّ السفر ومن أذى الأشرار قطاع الطريق . ويخرج فيها أهل مكة فرحين مستبشرين ، لاستقبال القافلة قادمةً من سفرتها البعيدة وهي محملة بسلع جديدة وبثمن ما باعته من سلع وما ربحت من فروق الأسعار : سعر الشراء وسعر البيع ، حتى اذا ما بلغت القافلة المدينة ، كان أول واجبها زيارة رئيسها وأصحابها « البيت الحرام » لرفع الحمد والشكر الى رب البيت على ما أنعمه عليها من الأمن والسلامة وما رزقها من ربح . ثم يعود مع أصحابه الى بيوتهم ليستريحوا وليقوموا بتصفية حسابهم ، واعطاء كل واحد من المساهمين في رأس مال القافلة نصيبه من الربح .

ومن السلع التي كانت تتاجر بها قريش الزبيب والأدم [1] والذهب الابريز ، تشتريه من مستخرجيه من مَعْدِن بني سُلَيْم . وهو موضع اشتهر بوجود الذهب فيه ، وقد استغله الجاهليون ، والسلع المستوردة من إفريقية والهند لبيعها في أسواق بلاد الشأم . وكانت قافلة قريش برئاسة أبي سفيان من أكبر قوافلها ، وبسببها وقعت معركة بدر في السنة الثانية للهجرة . وقد عبر عن القافلة بـ « عير قريش » . ولما وصل المنادي الذي أرسله أبو سفيان الى مكة ، ليحرض أهلها على الالحاق بأبي سفيان لنجدته ، كان يصيح : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث [2] .

---

(١) الطبري (٢/٢٦٢) « السنة الثانية من الهجرة » .

(٢) الطبري (٢/٢٧١) « حوادث السنة الثانية للهجرة » ، « العير ... بالكسر القافلة ، مؤنثة ، أو الابل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها أو كل ما امتير عليه ، ابلا كانت أو حميراً أو بغالا » القاموس (٢/٩٨) ، « واللطيمة : وعاء المسك ، أو سوقه أو عير تحمله » ، القاموس (٤/١٧٦).

واذا كان تجار مكة يسيرون تجارتهم على ظهور الجمال الى مسافات بعيدة ، فقد كان هناك تجار صغار ووكلاء تجار وعملاء قامت تجارتهم على التنقل بين المدن أو القرى أو الأعراب للبيع والشراء ، يبيعون ما يحملونه معهم من بضاعة ليأخذوا في مقابل ذلك سلعاً أخرى يبيعونها في أماكن أخرى ، وبهذه الطريقة يتعيشون . ونجد نفراً من هؤلاء من أصل غير عربي ، انتشروا في كل مكان من جزيرة العرب ، وعاشوا حتى مع الأعراب في الخيام ، طلباً للرزق والربح والمعاش . ونجد مثل ذلك عند العبرانيين ، حيث تجول تجارهم بين القرى والمدن وسكان البوادي طمعاً في الأرباح [1] .

والجمال هي واسطة النقل في جزيرة العرب ، هي قطار القوم وسياراتهم في ذلك العهد . وليس في استطاعة حيوان آخر القيام بمثل تلك المشاق من قطع المسافات البعيدة في أماكن لا ماء فيها إلا في مواضع متباعدة وفي أماكن تتغلب عليها الجدب والشظف . كان على ذلك الحيوان أن يتحمل ثقل ما يوضع على ظهره ، وأن يسير بها مسافات طويلة ، ثم عليه أن يتحمل العطش والجوع . ولولا الخواص الجسمية التي امتاز بها عما عداه من الحيوانات ، لما كان في إمكانه احتمال هذه المشقات ولعجز عنها حتماً .

ولا بد لنا من الاشارة الى مركز آخر خطير من مراكز الثروة كان في الحجاز ، هو الطائف . وهو موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ويعد مصيف هذه المدينة اليوم وقبل الاسلام كذلك . وهو موضع تحكمت فيه قبيلة ثقيف . وثقيف قبيلة كانت مستقرة متحضرة بالقياس الى القبائل البدوية المتنقلة النافرة من كلّ صناعة وزراعة ، لأن الصناعة والزراعة في نظرها من الأعمال التي لا تليق بالرجل الطليق الشريف ، ولذلك

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (١ / ٢٨٠) .

كانت تعدّ من يشتغل بها دونها في المنزلة ودون منزلة الأعراب . كما يروى ذلك أهل الأخبار .

وقد اشتهرت الطائف في دباغة الجلود وبكثرة أعنابها ونخيلها وفاكهتها ، وعرفت برّمانها خاصة ، وبحسن هوائها ، وبصناعاتها ، وبكثرة ماشيتها . وكان رؤساؤها من المثرين الكبار ، لهم حصون يدافعون بها عن أنفسهم وعن أموالهم ، ولهم علم بالحرب . ولحماية مدينتهم أقاموا حصوناً على مسافات منها ، وحوّطوا مدينتهم بسور حصين عال ، يرد من يحاول دخولها ، وجمعوا عندهم كل وسائل المقاومة الممكنة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، مثل أوتاد الحديد التي تحمى بالنار لتلقى على الجنود المختفين بالدّبابات ، وغير ذلك من وسائل المقاومة والدفاع ، كما كانوا قد تعلموا من أهل اليمن مثل مدينة جرش صناعة العرّادات والمنجنيق والدبابات [1] .

وقد اشتهرت الطائف بكثرة زبيبها ، وكانت تصدره وتصدر الفواكه الى مكة والى مواضع أخرى من الحجاز . وذكر أن مدابغ الطائف كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي فتنبعث منها روائح كريهة مؤذية [2] .

وقد اشتهرت اليمن بدباغة الجلود وبالاستفادة من هذه الجلود في أغراض صناعية ، وبتصدير الجلود الى أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا تزال اليمن تصنع الجلود على الطريقة القديمة ، وتصدرها الى الخارج . وقد ذكر ابن المجاور أن الأديم يدبغ في جميع اقليم اليمن والحجاز ، وأنهم يبيعونه طاقات بالعدد . وقد اشتهرت مكة في الاسلام

---

(١) طبقات ابن سعد (٣١٢/١) « طبعة بيروت ١٩٥٧ » ، السيرة الحلبية (١٣١/٣ وما بعدها) .

(٢) البلدان (١٠/٦ وما بعدها) .

بدبغ الجلود كذلك ، جلود الجمال والبقر والغزلان [(١)] . وقد كانت الدباغة حرفة أكثر أهل الطائف ، يدبغون بصورة خاصة الأدم الثقيل المليح [(٢)] .

وقد ذكر علماء اللغة أسماء مواد كثيرة استعملت في دباغة الجلود ، وذكروا أيضاً طرقاً متعددة في كيفية الدبغ وفي أسماء الجلود المدبوغة والمواد التي تصنع من مختلف الجلود [(٣)] . والواقع أن اعتماد العرب الجاهليين على الجلود كان كبيراً ، لأنها كانت متيسرة لديهم ، وهي أسهل في العمل من الخشب أو الحديد أو الأشياء الأخرى بالنسبة الى عمال جزيرة العرب في ذلك العهد .

و « القَرَظ » من أهم ما استعمل في دباغة الأدم ، يجلب فيطحن بحجر الطواحين ، ثم يستعمل في الدباغة . ومن « العقيق » يجلب القرظ الى مكة لاستعماله في الدباغة [(٤)] .

وقد أشار بعض الأخباريين الى ضخامة حجر الطواحين التي يطحن بها القَرظ لأجل دباغة الأدم ، وهي حجارة ضخمة استعملها الجاهليون للطحن ، وكانت هذه الحرفة ، حرفة دباغة الأدم ، في ذلك الوقت ذات شأن عند القوم [(٥)] .

---

(١) ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسماة تأريخ المستبصر ، القسم الأول (ص ١٣) .

(٢) ابن المجاور (١/٢٥) .

(٣) المخصص (٤/١٠٠ وما بعدها) .

(٤) والقرظ : محركة ورق السلم ، أو ثمر السنط ويعتصر منه الأقاقيا ، والقارظ مجتنيه . وكشداد بائعه . وأديم مقروظ دبغ أو صبغ به ، وكبش قرظي ، كعربي وجهني ، يمني ، لأنها منابته » ، القاموس (٢/٣٩٧) .

« القرظ ، محركة : ورق السلم يدبغ به كما في الصحاح وهو قول الليث ، أو ثمر السنط ، ويعتصر منه الاقاقيا . وقال أبو حنيفة : القرظ أجود ما يدبغ به الاهب في ارض العرب . وهي تدبغ بورقه وثمره . وقال مرة : القرظ شجر عظام لها سوق غلاظ ، أمثال شجر الجوز وورقه أصغر من ورق التفاح وله حب يوضع في الموازين وهو ينبت في القيعان ، واحدته قرظة » ، شرح القاموس (٥/٢٥٨) ابن المجاور (١/٣٢) .

(٥) ابن المجاور (١/٢٠) .

ومن أهم المواد المصنوعة من الجلود الدلاء والقرب والنعال والخفاف والأنطعة[1] ومواد أخرى تستخدم في البيت. وقد ذكر علماء اللغـة أسماء الآلات والأدوات المستعملة في صناعة الجلود وتحويلها الى الأدوات المذكورة، مثل الإشفى والمبقر والمسرد والمِخْصَف والمِفْراص والمِجْوب وغير ذلك من أدوات[2].

وتنقل التجارة البرية بطرق القوافل، وذلك لضمان حماية الأموال والتجـارة والأرواح. وكلما كانت الأموال ثمينة وكثيرة، كانت القافلة كبيرة. ولا تخرج القافلة بغير حرس يحرسها من قطاع الطرق الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب. ونقل التجارة بالقوافل طريقة كانت عالمية إذ ذاك. وقد أشير اليها في الكتابات، كما أشير اليها في الكتب المقدسة. وكانت العادة احتماء القافلة بالآلهة أو بإلـه القوافل، حيث تصورت الشعوب القديمة وجود إلـه خاص وظيفته حماية القوافل وحراستها ورعايتها من اعتداءات المعتدين.

وقد كانت القوافل تقصد الأماكن التي تريد البيع والشراء فيها في مواسم معينة في الغالب، وذلك لاجتماع التجار فيها، وهذا مما يهيء للتاجر أكبر عدد ممكن من التجار، كما كان التجار يقصدون الأسواق الموقتة التي تقام في الأعياد وفي المناسبات الدينية لبيع ما عندهم من بضاعة ولشراء ما يأتي به الناس من أموال، ولم يكن ذلك خاصاً بجزيرة العرب، فقد كان العبرانيون وغيرهم من بقية الشعوب السامية يفعلونه أيضاً[3]. ونرى أن الأسـواق التي كانت تقام في جزيرة العرب، كانت تقام في مواسم معينة تقع في الأشهر الحرم، وذلك لضمان مرور التجار بأمان، فلا يتحرش

---

(١) « النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب. بساط من الأديم »، القاموس (٣/٨٩)، شرح القاموس (٥/٥٢٦).

(٢) المخصص (٤/١٠٤ وما بعدها).

(٣) قاموس الكتاب المقدس (١/٢٨٠).

بهم الا مستهتر طريد ، والغالب أن ينتقم المجتمع من هؤلاء . وقد كان العبرانيون يبيعون المواشي للذبح ويصرفون الدراهم في الهيكل . وهذا مما جعل المسيح يقلب موائد الصيارفة ، ويطرد الباعة من الهيكل [1] .

والغالب أن تعهد حراسة القوافل منذ يوم مغادرتها مكانها الى حرّاس أشداء أقوياء يحملون سلاحهم معهم ، لمقاومة المعتدين . أما رئاسة القافلة ، فلا تعطى إلا للمعروفين بشجاعتهم وقوتهم وبأسهم وبالبطش والحيل وبمعرفتهم للطرق ، أو لأهل البيوتات والجاه العريض والسمعة بين القبائل . فرئيس القافلة وكبيرها ، هو دماغها المفكر وقلبها النابض ، وعلى حركاته وأعماله يتوقف مصير القافلة ومصير الأموال الثمينة التي عهد أصحابها بها اليه .

حتى رؤساء الحكومات مثل كسرى وملوك الحيرة ، كانوا لا يسلمون زمام قوافلهم إلاّ للأشدّاء المعروفين من الرجال . كانوا يتاجرون في الاسواق يشترون ويبيعون ، فإذا أقبل الموسم أرسلوا قافلتهم الى السوق برئاسة رجل مشهور معروف بالشجاعة لا يهاب الموت ليوصلها الى السوق المقصود أو المكان المراد وصول البضاعة اليه ، ذلك لأن مجال حكمهم أو نفوذهم ، لا يصل الى الأنحاء البعيدة ، فاضطروا الى استئجار الشجعان المعروفين بقيادتهم للقوافل ، لحماية تجارتهم وأموالهم من اعتداءات المعتدين .

واذ كانت هذه القوافل في حياة القوم على جانب من الخطورة ، كما كانت المصدر المهم من مصادر الثروة ، وضعها أصحابها في حماية آلهتهم ، واتخذ بعضهم إلهاً خاصاً واجبه حماية القافلة وايصالها سالمة الى المحل المقصود . وقد عرف الإله بـ « شيع ها قوم » « شيع القوم » . وكانوا يقدمون اليه النذور والقرابين بعد انتهاء رحلة

---

(١) متى الاصحاح ٢١ الآية ١٢ ، يونا ، الاصحاح الثاني الآية ١٤ .

القافلة براً ، بنذرهم له ، وتقرباً اليه ، كي يستمر في بذل حمايته لهذه القوافل ورعايته لها ، كما كانوا يأتون الى المعابد والمحجّات فيطوفون بها ، ويقصدون أصنامهم فينحرون عندها شكراً وتقرباً اليها لما أنعمت عليهم من نعم الحماية والربح الوافر الذي كسبوه في رحلاتهم هذه . وفي الذي يذكره أهل الأخبار عن طواف رؤساء قوافل مكة بالكعبة قبل بدئهم الرحلة وبعد انتهائهم منها ، الكفاية للدلالة على أهمية هذه الرحلات التجارية في نفوس القوم .

ونظراً الى وجود مشيخات وإمارات وعشائر وقبائل عديدة تمر بأرضها القوافل ، فقد كان على أصحاب القوافل إرضاء هؤلاء المتنفذين باعطاء اتاوات مرور لهم [١] ، وهدايا لحمايتهم وللسماح لهم بالمرور . فاذا تحرش بهم متحرش ، وحاول قطّاع الطرق الاعتداء عليهم ، كان من واجب المتنفذ في تلك المنطقة تعقيب المعتدين وتأديبهم

---

(١) « واتوته اتاوة ، ككتابة رشوته . والاتاوة أيضاً الخراج والرشوة ، أو تخص الرشوة على الماء » . القاموس (٢٩٧/٤) ، « والاتاوة أيضاً الخراج . يقال أدى اتاوة أرضه أي خراجها ، وضربت عليهم الاتاوة أي الجباية . وجعله بعض من المجاز . وهكذا بالاتاوة أي الرشوة . وأنشد الجوهري والزمخشري لجابر بن حنى التغلبي :

ففي كل أسواق العراق اتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

... وأما قول الجعدي :

موالي حلف لا موالي قرابة   ولكن قطينا يسألون الاتاويا

أي خدم يسألون الخراج . . . . وأتى كعروة وعري ، وهو نادر

وقال الطرماح :

لنا العضد الشدى على الناس والاتى   على كل حاف من معد وناعل

وقال أيضاً :

وأهل الاتى اللاتى على عهد تبع   على كل ذي مال غريب وعاهن

قال ابن سيده : وأراه على حذف الزائد ، فيكون من باب رشوة ورشا » ، شرح القاموس (٧/١٠) .

واعادة ما استولوا عليه الى أصحابه . وبهذه الطريقة أمنت القوافل على أموالها ، وأخذت تقطع البوادي والطرق البعيدة الطويلة ، وهي في حمى هؤلاء المتنفذين .

وقد كان المشايخ الذين تمر قوافل التجارة بمناطق نفوذهم ، والملوك وسادات القبائل والمتنفذون الذين تقع الأسواق في أرضهم أو في مناطق نفوذهم ، يشتطون في الاتاوة ويشتدون في جباية المكس ، ويبالغون في رفع حق المرور والحقوق الأخرى المكتسبة بالعرف والعادة أو بقانون القوة والكيف ، فيؤذون بذلك التجار والتجارة ويضطرون التجار الى رفع اسعار البيع ، للحصول على أرباح لهم ، فتضررت التجارة بذلك ضرراً كبيراً ، وقلّ الاقبال على شراء السلع المستوردة من جزيرة العرب إلا ما كان منها ضرورياً ، ولا مناص من شرائها ، وارتفع على المشتري سعر المواد المستوردة ، واضطر التجار الى التحكم في اسعار الشراء من الأسواق المحلية في بلاد العرب ، بشرائها بأسعار متهاودة لضمان تصريفها في الأسواق الخارجية وفي كل هذه الأحوال ضرر عام للبائع وللمشتري وللمستهلك وللاقتصاد العربي بوجه عام .

ومعظم تجارة العرب الداخلية تقوم على المواسم والأعياد . والعرب في ذلك مثل العبرانيين الذين كانت تقوم تجارتهم على المواسم والأعياد كذلك . وقد رتبت أوقات الأسواق مع الأشهر الحرم ، حتى يسودها الهدوء والسلام ، وهما من طبيعة التجارة .

وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش ، تبيع قريش ما عندها للأعراب القادمين اليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة ، وتشترى منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع ، ثم تقوم قوافلهم بنقل الفائض مما اشترته الى الأسواق الخارجية في بلاد الشأم أو العراق ، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج اليه الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد .

والسوق المحل الذي يتسوق منه . وهي إما ثابتة مع أيام السنة ، يبيع فيها الباعة

ويقصدها المشترون للشراء ، وإما موسمية ، تعقد في مواسم معينة ، فإذا انتهى الموسم رفعت . ويقال للسوق القسيمة كذلك [١] .

وهناك مصطلحات تطلق على السوق من حيث الرواج والكساد . فإذا نشطت السوق وراج عمل أصحابها قيل نفقت السوق [٢] ، وإذا كسدت قيل انحمقت [٣] .

وقد أقام العرب أسواقاً للاتجار والامتيار في نواحي متعددة من جزيرة العرب . اشتهر منها عند ظهور الإسلام : سوق « دومة الجندل » ، و « سوق هجر » ، و « سوق عمان » ، و « سوق المشقر » ، و « سوق عدن أبين » ، و « سوق صنعاء » ، و « سوق حضرموت » ، و « سوق ذي المجاز » ، و « سوق مجنّة » ، و « سوق عكاظ » و « سوق حُباشة » [٤] ، وسوق بدر [٥] وسوق بني قينقاع [٦] وغير ذلك من أسواق .

---

(١) « والقسيمة ، وهي السوق أيضاً » ، القاموس (١٦٥/٤) ، « والقسيمة كسفينة ، وبه يفسر قول عنترة :

وكأن فأرة تاجر بقسيمة   سبقت عوارضها اليك من الفم

وعلى قول ابن الاعرابي أصله القسمة فأشبع الشاعر ، ضرورة . وهي السوق . » ، شرح القاموس (٢٧/٩) .

(٢) « نفق البيع نفاقاً كسحاب : راج . والسوق قامت . » القاموس (٢٨٦/٣) ، « نفقت السوق ، أي قامت وراجت » ، شرح القاموس (٧٩/٧) .

(٣) القاموس (٢٢٤/٣) ، « انحمقت السوق : اذا كسدت » ، شرح القاموس (٣٢٤/٦)، بلوغ الأرب (٣٨٧/٣) .

(٤) بلوغ الأرب (٢٦٤/١) .

(٥) الطبري (٢٧٦/٢) .

(٦) الطبري (٢٩٧/٢) ، « كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الاسلام تأثموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح في مواسم الحج . قرأ ابن عباس كذا » ، البخاري (٦٢/٣) « كتاب البيوع » ، عمدة القاري (٢١٧/١١) « كتاب البيوع » .

أما دومة الجندل ، فكانو ينزلونها أولَ يوم من شهر ربيع الأول ، يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل . وكان أكيدر صاحب دُومةَ الجَنْدَل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم ، وتدوم سوقهم الى نصف الشهر . وربما يتولاها بنو كلب الذين يأتونهم متأخرين ، فيتولونها ، وتدوم عندئذ الى آخر الشهر [1] .

وأما « بدر » فكان موضعاً فيه ماء وفيه وقعت معركة بدر الكبرى . وكان موسماً من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام . يجتمعون فيه للتجارة وللتنزّه ، فكانوا ينحرون ويطعمون ويشربون ويسمعون الغناء [2] . وأما بنو قينقاع ، فسوق لليهود يذهب اليها الناس للاتجار وابتياع ما عند يهود من سلع ، ولبيع ما عندهم ليهود .

وأما سوق حُباشة ، فمن أسواق العرب المشهورة القديمة في الجاهلية في العربية الغربية . وهي سوق بتهامة ، يتاجر فيها أهل الحجاز وأهل اليمن . وكان في جملة من حضرها وتاجر فيها الرسول : تاجر فيها بمال خديجة ، وكانت استأجرته ، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش . ولم يكن لديه مال كثير يخصه يتاجر به على حسابه . وقد أشير الى ذلك في كتب السير والأحاديث [3] .

وتؤخذ الإتاوة من الأسواق ومن التجار والقوافل . وأما « المكس » ، فإنه

---

(١) بلوغ الأرب (١/٢٦٤ وما بعدها) ، البلدان (١٠٦/٤ وما بعدها) .

(٢) الطبري (٢/٢٧٩) ، البلدان (٨٨/٢) .

(٣) بالضم والشين معجمة ، البلدان (٢٠٩/٣) ، وقد كان هذا الموضع هو السبب الباعث لياقوت الحموي على تأليف كتابه معجم البلدان ، شرح القاموس (٢٩٣/٤) ، ومقدمة الجزء الأول من معجم البلدان .

دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال للعشّار صاحب المكس والماكس والمكّاس . والمكس انتقاص الثمن في البياعة ، ومنه أخذت المماكسة [١] . ويقال للاتاوة الخرج ، تؤخذ من أموال الناس . وقد يعبر عن ذلك بلفظة الخراج[٢].

وتتقاضى الحكومات من التجار ضرائب عن أرباحهم في البيع والشراء . فكانت حكومة قتبان مثلاً تتقاضى « العشر » [٣] ، من الأرباح التي يربحونها من البيع أو الشراء ، وتوسعت في ذلك حتى عممت هذه الضريبة على كل ربح أو وارد يصيبه الرجل ، سواء أكان ذلك من البيع والشراء أو من الإجارة والإرث [٤] .

---

(١) « مكس في البيع يمكس ، اذا جبى مالا . والمكس : النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الجاهلية ، أو درهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة » ، القاموس (٢/٢٥٢)، « مكس في البيع يمكس مكساً اذا جبى مالا . هذا أصل معنى المكس . والمكس : النقص . عن شمر وبه فسر قول جابر بن حنى التغلبي :

افي كل أسواق العراق اتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وقيل : المكس انتقاص الثمن في البياعة . والمكس : الظلم ، وهو ما يأخذه العشار . وهو ماكس ومكاس . وفي الحديث : لا يدخل صاحب مكس الجنة . وهو العشار . والمكس : دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية » ، شرح القاموس (٤/٢٤٩) ، المخصص(١٢/٢٥٣)

(٢) شرح القاموس (٢/٢٨) .

(٣) « وعشرهم يعشرهم عشراً وعشوراً وعشرهم ، أخذ عشر أموالهم » ، القاموس (٢/٨٩)، « وعشرهم تعشيراً أخذ عشر أموالهم ، وعشر المال نفسه وعشره كذلك ... والعشر أخذك واحداً من عشرة ... والعشار قابضه ، وكذلك العاشر ... وفي الحديث : ان لقيتم عاشراً فاقتلوه ، أي ان وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية مقيما على دينه فاقتلوه لكفره أو لاستحلاله ذلك أن كان مسلماً ، وأخذه مستحلا وتاركا فرض الله وهو ربع العشر ... وعشر أموال أهل الذمة في التجارات » شرح القاموس (٣/٤٠٠) .

(٤) راجع الفقرة الخامسة من النص الموسوم بـ

Glaser 1601 Rhodokanakis Kata. Texte, I, S. 7. ff.,

ويبيع البيّاعون بضاعتهم في « مبيعة » [١] ، ويقال لها « حانوت » كذلك [٢] . والحانوت مكان البيع والشراء . وأما العضادة ، لحانوت صغير ، يكون قدّام الحانوت الكبير [٣] . والغالب جلوس صغار الباعة في الأسواق المذكورة وفي غيرها على الأرض ومعهم سلعهم معروضة للمارة ، أو موضوعة تحت ستارة تحميها وتحمي الباعة من وهج الشمس ومن العوارض الطبيعية الأخرى . فإذا انتهى موسم السوق ، أو انتهى وقت العمل ، رفع البائع سلعته معه الى مسكنه ، أو انتقل بها الى سوق أخرى ، وعاد الى مكانه ليعود الى السوق تارة أخرى . وقد يبقى في محله مع سلعته ينام في مكانه ليلاً ليحرسها ، حتى إذا حلّ النهار ، فتح محله وزاول عمله كما في الأسواق القائمة ، الدائمة في القرى والمدن .

أما مواضع شراء الخمور ، فتعرف بالحانات جمع « حانة » . وقد كان أهل الجاهلية يكثرون من شرب الخمور [٤] . ويتولى اليهود والنصارى في أكثر أنحاء جزيرة العرب بيعها في الحانات . أما مواضع الشرب في منازل الخمارين ، فيقال لها الماخور [٥]. وأما « الخمّار » ، فبائع الخمر [٦] .

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٣٩٢) .

(٢) « الحانوت : دكان الخمار ، ويذكر ، والخمار نفسه » ، القاموس (١/١٤٦) ، « ودكان كرمان : الحانوت ج دكاكين معرب » القاموس (٤/٢٢٣) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٣٩٣) .

(٤) « والحانية : الخمر ، والحانة موضع بيعها » ، القاموس (٤/٢١٨) .

(٥) بلوغ الأرب (٣/٣٩٢) ، « والماخور : بيت الريبة ومن يلي ذلك البيت ويقود اليه . معرب . من خور أو عربية من مخرت السفينة ، لتردد الناس اليه . جمع مواخر ومواخير » ، القاموس (٢/١٣١) .

(٦) القاموس (٢/٢٣) .

وذكر « بلينيوس » أن العرب كانوا يصنعون الخمر من النخيل ، وذلك كما يفعل سكان الهند [1] . ويقصد بذلك التمور بالطبع . وقد ذكر ذلك من باب التنويه بالأمور الغريبة ، فليس استخراج الخمر من التمور مألوفاً عند اليونان والرومان ، ولهذا السبب أشار اليه ، ليقف عليه قومه . على أن العرب كانوا يستخرجون النبيذ من الكروم ، وذلك في الأماكن التي توجد فيها الكروم ، مثل الطائف واليمن . وقد أشار « سترابون » الى صنع الخمر من التمر كذلك [2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يفرطون في شرب الخمر ، وأنهم كانوا يستهلكون كميات كبيرة منه ، وأنهم كانوا يقدمونه الى الضيوف في موضع المشروبات التي تقدم للزائرين . وقد تأثرت صحة كثير منهم من جرّاء الإفراط في تناولها . وبعض هذه الخمور من صنع محلّي ، وبعضها مما كانوا يستوردونه من الخارج ولا سيما بلاد الشأم التي اشتهرت بصنع الخمور الجيدة . وكان اليهود يستوردون كميات كبيرة منه من هناك ، لبيعه على أهل يثرب ، كما كانوا يستوردون الحبوب والطحين . وقد درّت هذه التجارة عليهم أرباحاً كبيرة جعلتهم من أصحاب المال والثروة في الحجاز .

وتعمل الخمر في جزيرة العرب من التمر ، وهو الغالب . أما الشراب وهو النبيذ ، فصنع من العنب . ويقال للنبيذ والخمر « سقيم » ، وهو « سقي » في كتابات المسند . وقد أشير في نص أبرهة الشهير الموضوع على سدّ مأرب الى نبيذ صنع من نوع خاص من العنب اسمه « غربم » « غربيب » ، وهو ضرب من العنب شديد السواد ، والى

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الأول ، المجلد الثالث) (ص ١٣٩) « ١٩٥٤ » « بلاد العرب : من تأريخ بلينيوس » .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الثاني) « ١٩٥٢ م » ، (ص ٢٦٧) .

نوع آخر من الشراب، صنع من « الفصيم » أي الزبيب . والزبيب هو « فصم » في كتابات المسند . كما أشير الى « سقيم » أي شراب مصنوع من التمر . ولفظة «سقيم» هنا أي « الشراب » يراد بها النوعان : الخمر والشراب [١] .

وقد كان شراب أهل المدينة وربما كان شراب مكة وأكثر أنحاء جزيرة العرب أيضاً ، الخمور المصنوعة من البسر والتمر [٢] ، لتوفر النخيل عندهم أكثر من الأعناب. أما الأماكن المشهورة بوفرة الأعناب فيها ، فقد صنعت الخمر من الأعناب أيضاً ، كما في اليمن وفي الطائف ، وربما كان هذا هو السبب في اطلاق لفظة « الخمر » على العنب . وقد ذكر علماء اللغة أن أهل اليمن يسمون العنب خمراً [٣] . وقد صنعت الخمور من مواد أخرى : من الحبوب ، ومن الفضيخ البسر ، ومن البلح والرطب [٤] .

ويراد بالبُسر التمر قبل إرطابه ، والبُسرة واحدتها ، وبَسْرُ التمر وإبساره نَبْذُه وخلط البسر به . وكانوا يصنعون منه شراباً . وقد ينبذ مع التمر أو الرطب أو مواد أخرى ، وأما التَّجْرُ ، فهو أن يؤخذ تَجير البسر أي ثُفْلُهُ ، فيلقى مع التمر . وقد وردت الاشارة الى نبيذ البسر في « الحديث » [٥] . وقد كان أهل المدينة يأخذون تجير البسر فيخلطونه بالتمر للانتباذ [٦] .

وقد يوضع الخمر والشراب في أوعية تسمى : الزقاق ، وواحدها زق . فإذا أرادوا

---

(١) واجم الأسطر الأخيرة من النص .

(٢) القاموس (٢/٢٢) .

(٣) شرح القاموس (٣/١٨٧) .

(٤) المصدر نفسه (٣/١٨٧) .

(٥) القاموس (١/٣٧٢) ، شرح القاموس (٣/٤٢) .

(٦) شرح القاموس (٣/٧٣) .

الشرب استخرجوا من الزق حاجتهم .

ومن أدوات الشرب الكأس ، وهي الإناء يشرب فيه ، أو ما دام الشراب فيه ، فاذا لم يكن فيه ماء فهو القدح . ويستعمل لشرب الخمر في الغالب . وقد وردت هذه اللفظة في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم وفي الحديث [1] . وقد كان الملوك وسادات القبائل والأغنياء يستعملونها في شربهم . وقد عثر على بقايا منها في الآثار الباقية من العهد الجاهلي .

والتمر من السلع المهمة في أسواق جزيرة العرب ، فإنه مع الخبز طعام أكثر السكان ، ولا سيما الأعراب . وهو في كتابات المسند « تمر » « تمرم » أيضاً . وعند العبرانيين « تامار Tamar » [2] . وهو أنواع كثيرة عديدة . وقد اشتهرت به جزيرة العرب والعراق وبعض أنحاء من فلسطين مثل مدينة أريحا التي سميت بـ « مدينة النخل » [3] وأماكن أخرى . والنخل من الأشجار المقدسة عند الساميين . وقد اتخذ سعفه لتزيين المعابد والمدن في الاحتفالات . وكان العبرانيون يحملونه في احتفالاتهم . وقد اتخذ علامة للظفر ، فكان يحمل أمام المنتصرين في مواكبهم . وقد صورت نخلة على نقود قديمة رمزاً عن اليهودية ، وصورت أيضاً على نقود رومانية ضربت بعد استيلائهم على فلسطين دلالة على استيلائهم على فلسطين [4] .

وله فوائد أخرى كثيرة جعلها بعضهم نحواً من ٣٦٠ فائدة ، مثل استعمال سعفه

---

(١) المخصص (١١/٧٩ وما بعدها) . القاموس (٢/٢٤٤) ، شرح القاموس (٤/٢٢٨) .

(٢) Hastings, P. 675.

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤١٩) .

(٤) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٢٠) .

وخوصه وجذوعه وليفه في حاجات الإنسان [1] . حيث يصنع منها مختلف الأشياء ، ويباع بعضها في الأسواق ، فتكون دخلاً لأصحابها . ولذلك صارت النخيل مورداً مهماً للعيش ، تدر على أصحابها دخلاً طيباً يتناسب مع سعة المساحة المزروعة به . وقد اشتهرت مواضع العيون والآبار في مختلف جزيرة العرب بزراعة النخيل ، فضلاً عن الأماكن التي تجري فيها الأنهار والنهيرات .

والحنطة هي من أهم المواد الضرورية التي يتاجر بها ، وهي «Chittah» «حيطاه» في العبرانية [2] ، و « بُرّ » في المسند [3] . ومنها يصنع الطحين في الغالب للخبز والمواد الغذائية الأخرى . وهي غذاء الطبقة الموسرة في الأكثر . أما الطبقات الفقيرة ، فقد كانت تقتات بالخبز المصنوع من الشعير . ويستعمل هذا النوع من الخبز الفلاحون وأهل القرى والأعراب ، ويطلق عليه « سيعوراه Se'örāh » في العبرانية [4] .

ويقال للطحين في كتابات المسند « دقم » أي « دقيق » [5] . ويصنع بطرق مختلفة ، أشهرها « الرحى » ، التي تدار باليد ، والتي يديرها الحيوان ، والتي تدار بالقوى المائية . ومع أن معظم الأسر تصنع الطحين في بيوتها ، فإن كثيراً من الناس يشترون الطحين من الأسواق ، ويستوردونه من الخارج من بلاد الشأم مثلاً ، ويبيعونه

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠ ، ٤) .

(٢) التكوين الاصحاح الثلاثون الآية ١٤ ، والخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون الآية ٢٢ ، Hastings, P. 160

(٣) راجع السطر : (٩٧) من النص الموسوم بـ : Cis 241, Glaser 618

(٤) Hastings, P. 85,

(٥) راجع السطر الـ « ١٢٠ » من النص الموسوم بـ : Cis 241, Glaser 618 ، « والدقيق الطحين ، وبائعه دقاق » ، القاموس (٣/٢٣٢) .

في الأسواق المحلية للاستعمال .

والإبل مصدر ثروة عظيمة في الجاهلية ، لاستفادتهم منها في أمور كثيرة عديدة . ويستعملونها للنقل وللحرث وللإرواء ويستعملون وبرها ولحومها وألبانها ، فهي إذن من الثروات المهمة في جزيرة العرب . وبعدد الابل تقاس الثروات . وتستعمل العربية الجنوبية لفظة « ابل » « أأبل »[1] بدلاً من « ابل » المستعملة في عربية القرآن الكريم[2] . وقد وردت صور الابل محفورة في كتابات قوم ثمود والصفويين واللحيانيين لارتباط حياتهم بحياة هذا الحيوان .

وقد وردت لفظة « ها ب ل » « هابل » في الكتابات الصفوية بمعنى « الابل »[3] ، أي كما هو في المسند وفي عربية القرآن الكريم . وقد وردت لفظة « هـ ب ك ر ت ن » ، « هبكرتن » بمعنى « البكرة » في عربية القرآن الكريم[4] ، كما وردت لفظة « هـ ن ق ت »[5] بمعنى « الناقة » . وقد رأينا أن لفظة « ابلم » أي « ابل » قد وردت في المسند . وقد وردت لفظة « ك م ل » « كمل » في العبرانية للجمل . والفرق بين العبرانية وعربية القرآن الكريم هو في الحرف الأول فقط ، حيث استعملت العبرانية حرف « الكاف » في موضع « الجيم » و « الجمل » من الألفاظ الواردة

---

(١) راجع السطر « ١٢٧ » من نص أبرهة .

(٢) « الابل بكسرتين وتسكن الباء . م واحد يقع على الجمع ، ليس بجمع ولا اسم جمع . ج آبال ، وتصغيرها أبيلة » ، القاموس (٣/٣٢٦) ،

(٣) Cis, Insc. Saracen., Pars Quinta, Tome I, P. 44, 385.

(٤) المصدر نفسه (ص ٣٩) .

(٥) كذلك (٣٩٢) .

بكثرة في اللهجات العربية الشمالية ، للدلالة على الذكر من هذا الحيوان [1] . ويقال لأنثاه « الناقة » وقد وردت لفظة « هجمل » أي « الجمل » في الكتابات الجاهلية المدونة ببعض اللهجات العربية الشمالية . وأما لفظة « البعير » ، فالجمل البازل أو الجذع ، وقد يكون للأنثى . ويقال : بعر الجمل ، أي صار بعيراً [2] .

وتعد لحوم الإبل من اللحوم اللذيذة الطيبة عند العرب . وتنحر عند قدوم شخصية كبيرة تقديراً له ، وتنحر تقرباً الى الأصنام وفي المناسبات الدينية ، وتعقر على القبور إكراماً لصاحب القبر ، ويبيع الجزارون لحومها وسائر اللحوم الأخرى . أما العبرانيون فهم على عكس العرب يعدون الإبل من الحيوانات النجسة ، ولذلك لا يستحلون أكل لحومها .

---

(١) « الجمل محركة ويسكن ميمه : م ، وشذ للأنثى ، فقيل شربت لبن جملي ... ج أجمال وجامل وجمل بالضم وجمال بالكسر وجمالة وجمالات مثلثين وجائل وأجامل والجامل : القطيع منها برعاته وأربابه » ، القاموس (٣/٣٥١) ، « معروف ، وهو ذكر الابل . وقال الفراء : زوج الناقة ، وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل والناقة بمنزلة الرجل والمرأة ، وشذ الأنثى ... وقال ابن سيدة : هذا نادر ولا أحقه » شرح القاموس (٧/٢٦٢) .

(٢) ج . أبعرة وأباعر وأباعير وبعران (بالضم) وبعران (بالكسر) » ، القاموس (١/٣٧٥) « والبعير كأمير ، وقد تكسر الباء وهي لغة بني تميم ، والفتح أفصح اللغتين . الجمل البازل أو الجذع ، وقد يكون للأنثى . حكي عن بعض العرب : شربت من لبن بعيري ، وصرعتني بعيري أي ناقتي ، وأنشد في (الأساس) :

لا نشتري لبن البعير ، وعندنا لبن الزجاجة واكف التهتان

ويقولون : كلا هذين البعيرين ناقة . وفي (الصحاح) : والبعير من الإبل بمنزلة الإنسان من الناس يقال : الجمل بعير والناقة بعير ، قال وإنما يقال له بعير اذا أجذع . يقال : رأيت بعيراً من بعيد ، ولا يبالي ذكراً كان أو أنثى . وفي (المصباح) : البعير مثل الانسان يقع على الذكر والأنثى . يقال : حلبت بعيري ، والجمل بمنزلة الرجل يختص بالذكر ، والناقة بمنزلة المرأة تختص بالأنثى ، والبكر والبكرة مثل الفتى والفتاة » ، شرح القاموس (٣/٥٢) .

والشحوم من المواد التي تباع في الأسواق وتدخل في غذاء الأعراب وفي حاجاتهم الأخرى. يتمونون بها من المدن والأسواق في جملة ما يكتالونه منها في أثناء قدومهم اليها في المناسبات المختلفة، وفي جملتها المواسم التي تعقد فيها الأسواق أو مواسم الحج الى مكة، ويضاف الى هذه المادة الزيوت التي تستورد من فلسطين في الغالب لاستعمالها في الغذاء أو للانارة. وهي أنواع، منها زيت الزيتون، والزيوت المصنوعة من السمسم ومن بذور الكتان ومن الشحم والودك.

وقد تاجر يهود الحجاز بالشحوم، فكانوا يجتملونها أي يذيبوها، ويبيعونها ويقبضون أثمانها. وقد أشير الى ذلك في حديث: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، ثم اجتملوها فباعوها»[1]، أو «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرّم عليهم شحومها أجملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه»، وكان بعض الصحابة قد قال للرسول: «يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؟ فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام» ثم بقية الحديث[2]، وطرقاً أخرى في هذا المعنى.

وقد اشتهرت اليمن عند ظهور الاسلام بالنسيج والحياكة. وهي قد أصدرت أنواعاً عديدة من الأقمشة والثياب الى مختلف أنحاء جزيرة العرب. ومن ثياب أهل اليمن الناعمة، الثياب التي تعرف باسم «الخال»، وهو ثوب ناعم، وضرب من البرود[3]، و«الوصائل» وهي ثياب يمانية حمر[4]، والعصب، وهي ضرب من

(١) مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن النبي، رواية أبي يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت (١٠/٣٦ وما بعدها)، تحقيق الدكتور سامي حداد (١٩٤٠).

(٢) جامع الأصول (١/٣٧٦)، عمدة القاريء (١٢/٣٦).

(٣) المخصص (٤/٦٤)، «خال .. والثوب يستر به الميت»، القاموس (٣/٣٧٢)، «والخال: لواء الجيش، والخال: برد معروف أرضه حمراء فيها خطوط سود. قال الشماخ:

وبردان من خال وتسعون درهماً — على ذاك مقروظ من الجلد ماعز

وقال ابن الاعرابي ...»، شرح القاموس (٧/٣١١).

(٤) القاموس (٤/٦٥)، «والوصيلة: ثوب أحمر مخطط يماني. والجمع الوصائل. ومنه الحديث: أول من كسا الكعبة كسوة كاملة، تبع. كساها الانطاع، ثم كساها الوصائل وقال الدبياني:

ويقذفن بالافلاء من كل منزل — تعحط في اشلائها كالوصائل

وهي برود حمر فيها خطوط خضر»، شرح القاموس (٨/١٥٦).

البرود وضرب من الثيـــاب [1] ، و « المرجل » ، ثيـــاب من الوشي فيها صور المراجل [2] ، والحبرة وهي ضرب من ضروب البرود كذلك [3] ، و « المعاجر » وهي

---

(١) القاموس (١/١٠٥) ، « وفي الاساس : عليهم أردية العصب . وهو ضرب من البرود اليمنية يعصب غزله ، أي يدرج ثم يحاك . وليس من برود الرقم ولا يجمع ، إنما يقال : برد عصب ، أي بالتنوين والاضافة كما في النهاية ، لانه مضف الى الفعل ، وربما اكتفوا بأن يقولوا عليه العصب ، لأن البرد عرف بذلك الاسم . قال :

يبتذلن العصب والخز معاً والحبرات

ومنه قيل للسحاب ، كالعطخ عصب . وفى الحديث : المعتدة لا تلبس المصبغة إلا ثوب عصب . العصب : برود يمانية يعصب عزلها ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتي موشيا لبقاء ما عصب فيه أبيض ، لم يأخذه صبغ . وقيل هي برود مخططة ، فيكون النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسج .

وفى حديث عمر ، أنه أراد أن ينهي عن عصب اليمن . وقال : نبئت أنه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق . كذا في لسان العرب ، وبعضها في الأساس والفائق وفتح الباري والمشارق والمطالع والمصباح والمجمل . ونقل شيخنا عن الروض للسهيلي : أن العصب برود اليمن ، لأنها تصبغ بالعصب ولا ينبت العصب والورس واللبان الا في اليمن . قاله أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات . وقد قلده السهيلي فى ذلك وخالف الجمهور حيث أنهم أجمعوا على أنه من العصب وهو الشد لئلا يعم الصبغ البرد كله كما تقدم . وفي لسان العرب ما نصه : وفي الحديث أنه قال لثوبان اشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج . قال الخطابي في المعالم : ان لم يكن الثياب اليمنية ، فلا أدرى ما هو ، وما أرى أن القلادة تكون منها . وقال أبو موسى يحتمل عندي ، أنها هي العصب ، بفتح الصاد ، وهي أطناب المفاصل ، وهي شيء مدور ، فيحتمل أنهم يأخذون عصب بعض الحيوانات الطاهرة فيقطعوته ويجعلونه شبه الخرز ، فاذا يبس يتخذون منه القلائد ، فاذا جاز وأمكن أن يتخذ من عظام السلحفاة وغيرها الاسورة جاز ، وأمكن أن يتخذ من عصب أشباهها خرز ينظم منها القلائد . قال : ثم ذكر لي بعض أهل اليمن أن العصب من دابة بحرية تسمى فرس فرعون ، يتخذ منها الخرز وغير الخرز من القحط » ، شرح القاموس (١/٣٨٣) .

(٢) « والمرجل ثياب من الوشي فيها صور المراجل . فمرجل على هذا مفعل . وجعله سيبويه رباعياً لقوله :

بشية كشية المرجل : وجعل دليله في ذلك ثبات الميم في المرجل ويجوز كونه من باب تمدرع وتمكن فلا يكون له فى ذلك دليل » ، شرح القاموس (٧/٣٣٩) « والمرجل : ثياب فيها صور المراجل » ، القاموس (٣/٣٨٢) .

(٣) « والحبرة . وضرب من برود اليمن ، ويحرك : ج حبر وحبرات ، وبائعها حبري لا حبار =

من ضروب الثياب المصنوعة في اليمن [1] ، والسحل ضرب من البرود [2] ، وكذلك

= والحبير كأمير : السحاب المنمر والبرد الموشى والثوب الجديد » ، القاموس (٢/٢) ، « والحبرة : ضرب من برود اليمن ، منمر ، ويحرك ج حبر وحبرات . قال الليث : يقال : برد حبرة على الوصف والاضافة وبرود حبرة . قال : وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً : إنما هو وشي كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز صبغه . وفي الحديث : مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب . وبائعها حبرى لا حبار . نقله الصاغاني ، وفيه ما مر أن فعالا مقيس في الصناعات . قاله شيخنا . . والحبير البرد الموشى المخطط . يقال : برد حبير على الوصف والاضافة . وفي حديث أبي ذر : الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير ، وفي آخر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خطب خديجة رضي الله عنها وأجابته ، استاذنت أباها في أن تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك . وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . فنحرت بعيراً وخلقت أباها بالعبير ، وكسته برداً أحمر ، فلما صحا من سكره ، قال : ما هذا الحبير وهذا العبير وهذا العقير ؟ والحبير الثوب الجديد الناعم » ، شرح القاموس (٣/١١٨) .

(١) « والاعتجار : لي الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك . وفي بعض العبارات : هو لف العمامة دون التلحي . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه دخل مكة يوم الفتح معتجر بعمامة سوداء المعنى أنه لفها على رأسه ولم يتلح بها . وقيل : الاعتجار : لبسة المرأة شبه الالتحاف ، قال الشاعر :

فما ليلى بناشزة القصيري ... ولا وقصاء لبستها اعتجار

والمعجر ، كمنبر ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة . وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلب فوقه بجلبابها كالعجار والجمع المعاجر . ومنه أخذ الاعتجار بالمعنى السابق . والمعجر أيضاً : ثوب يمني يلتحف به ويرتدي ، والجمع المعاجر . وقال الليث : المعاجر : ضرب من الثياب تكون باليمن . والمعجر أيضاً ما ينسج من الليف شبه الجوالق ، والجمع المعاجر » ، شرح القاموس (٣/٣٨٣) .

(٢) « السحل : ثوب لا يبرم غزله كالسحيل وقد سحله ، والحبل الذي على قوة واحدة ، وثوب أبيض أو من القطن ... وكصبور ، باليمن تنسج به الثياب » ، القاموس (٣/٣٩٤) ، « السحل ثوب لا يبرم غزله ، أي لا يفتل طاقين كالسحيل كأمير ... والسحل ثوب أبيض رقيق أو من القطن خصه الأزهري هكذا . وقال الجوهري : الثوب الأبيض من الكرسف من ثياب اليمن ... وسحول كصبور ع باليمن ، تنسج به الثياب السحولية قال ابن سيده . وقال غيره ، قرية باليمن ، =

« المُـرحَّـلْ » وقد صورت عليه صور الرّحال [١] ، والسيراء وهي ثياب مخططة [٢] .

وبعض هذه الأقمشة والثياب والبرود مصنوعة من الكتان ، وبعضها من القطن ، مثل الثياب السحولية البيض ، المصنوعة من القطن . وقد اشتهرت اليمن بهذه الثياب ، وطلبها الناس من مختلف أنحاء جزيرة العرب . وقد كان أثرياؤهم يتباهون باستعمالهم الحلل والثياب اليمنية . ولما توفي الرسول ، كفن في ثلاث أثواب بيض سحولية

= تحمل منها ثياب قطن بيض تسمى : السحولية . قال طرفة بن العبد :

وبالسفح آيات كأن رسومها يمان وشته ريذة وسحول

أي أهل ريذة وسحول ، وهما قريتان باليمن . وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها : كفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في ثلاثة أثواب سحولية كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة . ويروى في ثوبين سحوليين. يروى بالفتح وبالضم ، الاول ظاهر . وأما الضم ، فعلى أنها نسبة الى السحول جمع سحل ، وهو الثوب الابيض من القطن » ، شرح القاموس (٣٧٩/٧ وما بعدها) .

(١) « والمرحل ، كمعظم برد فيه تصاوير رحل وما ضاهاه ، كما في التهذيب . وتفسير الجوهري اياه بإزار خز فيه علم غير جيد . وانما ذلك تفسير المرجل بالجيم . قال شيخنا : وقد يقال لا منافاة بينهما اذ يجوز أن يكون العلم مصوراً بصورة الرجل . اه . وقول امرىء القيس :

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على أثرنا أذيال مرط مرحل

يروى بالحاء وبالجيم ، أي معلم . ويجمع على المرحلات او المراحل . ومنه الحديث : كان يصلي وعليه من هذه المرحلات . يعني المروط المرحلة . وفي آخر حتى يبنى الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحل » ، شرح القاموس (٣٤١/٧) .

(٢) « والسيراء كالعنباء نوع من البرود ، فيه خطوط صفر أو يخالطه حرير والذهب الخالص » ، القاموس (٥٤/٢) ، « والسيراء كالعنباء ويسكن ، نوع من البرود . وقيل ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور . وقال الجوهري : هو برد فيه خطوط صفر . قال النابغة :

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود

أو يخالطه حرير . وقيل : هي من ثياب اليمن . قلت : وهو المشهور الآن بالمضف . وفي الحديث أهدى اليه أكيدر دومة حلة سيراء . قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور وفعلاء ..... وفي حديث عمر رأى حلة سيراء تباع . والسيراء : الذهب ، وقيل هو الذهب الصافي الخالص » ، شرح القاموس (٢٨٧/٣) .

قطنية [1] .

وقد اشتهرت عدن بصنع البرود كذلك ، وورد في الحديث أن الرسول كان قد استعمل هذه البرود [2] .

وقد اشتهرت قطر بنوع من الثياب يقال له الثياب القطرية ، كما اشتهرت بنوع من النجائب هي « النجائب القطريات » [3] .

وقد اشتهرت صناعة البسط في جزيرة العرب . وهناك أنواع عديدة منها تنسب الى مواضع متعددة ، وهي تصنع من الأصواف ومن شعر المعز ، ويشتغل بنسجها النساء والرجال . وقد اشتهرت بعضها باسم « العبقري » والعباقري . وفي الحديث : أنه كان يسجد على عبقري ، وهي هذه البسط التي فيها الاصباغ والنقوش . وذكر بعض علماء اللغة أن « عبقرة » موضع باليمن أو بالجزيرة ، يوشى فيه الثياب والبسط ، ثيابه في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلا لكل منسوب الى شيء رفيع [4] .

ولم تكن بيوت أهل الوبر مصنوعة من الوبر وشعر المعز أو الصوف فقط ، بل صنعوها من جلود الأنعام كذلك ، فكانوا يحملونها معهم ، فاذا نزلوا في مكان ما ، نصبوها وناموا تحتها . وقد أشير اليها في القرآن الكريم [5] ، كما أشار اليها بعض الكتاب اليونان واللاتين . ومثل هذه البيوت (أي البيوت المصنوعة من جلود

---

(١) جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم ، تأليف ابن حزم ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ونشر دار المعارف بمصر ، (الصفحة ٦) .

(٢) مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٢٨/١٠ وما بعدها) .

(٣) القاموس (١١٩/٢) .

(٤) شرح القاموس (٣٧٩/٣) .

(٥) النحل : الآية ٦٦ .

الأنعام) تكون صالحة وملائمة للسكنى في أثناء نزول الأمطار ، بخلاف البيوت المصنوعة من الوبر أو شعر المعز أو الصوف ، فانها تتشبع بالمطر فينفذ منها الماء الى الآوين اليها ، كما أنها لا تحمي ساكنيها من البرد والرياح حماية البيوت المصنوعة من الجلود .

ويقال لبائع البز ، وهو الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها ، البزّاز ، وحرفته البزازة [1] . وأما بائع الخز ، فيقال له الخزّاز ، ويراد بالخز ما ينسج من صوف وابريسم ، أو ما نسج كله من الابريسم [2] .

وقد استورد التجار العرب وغيرهم المنسوجات النفيسة الغالية والمصنوعات الجميلة الدقيقة الصنع ، ليستعملها أصحاب الثروة والمال . استوردوها من بلاد الشأم والعراق والهند ومن أماكن أخرى عرفت بالتقدم في الصناعات وباتقانها لبعض الحرف . وتجد في القرآن الكريم وفي الشعر وكتب اللغة بعض الأسماء والألفاظ التي تنص على المواضع التي استوردت منها ، والمواضع التي استوردت اليها من بلاد العرب . وفي جملة ذلك الديباج والإستبرق والسندس وما شابه ذلك من ألفاظ فارسية الأصل ، دخلت العربية من اتصال العرب بالشعوب قبل الاسلام ، كما أن هنالك ألفاظاً يونانية في مثل هذه الأشياء دخلت العربية بواسطة عرب بلاد الشأم .

وقد أشرت في الفصل السابق الى اشتغال أحد المعينيين الساكنين بمصر بتصدير الأنسجة والثياب المصنوعة بمصر الى بلاد العرب . كما اشتهرت بلاد الشأم بتصدير أقمشة خاصة الى الحجاز والى أماكن أخرى من جزيرة العرب .

---

(١) بالكسر ، شرح القاموس (٤/٨٠) ، القاموس (٢/١٦٦) .
(٢) شرح القاموس (٤/٣٣) .

والديباج من البضائع الثمينة الغالية التي تنافس الأغنيـاء وذوو الثروة والجـاه في اقتنائه . وهو يعد من أثمن أقمشة الحرير . ويظهر أنه دخل العربية عن بني ارم ، أو من الساسانية رأساً . وقد ذكر علماء اللغة أن اللفظـة أعجمية [١] ، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربيــة [٢] . وقد وردت في شعر حسان بن ثابت [٣] . والأصل في الفارسية هو ديبا « Diba » و « ديباه Dibah » [٤] . وقـد أشـير الى « الديباج الخسرواني » ، على أنه من أحسن أنواع الديباج [٥] .

وأما الاستبرق ، فالديباج الغليظ . ذكر بعض علماء اللغة أن اللفظـة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأنها معرب « استروه » [٦] أو « استبره » ، وقالوا : إن معنى « ستبر » أو « استبر » ، الغليظ بالفارسـية . وكانوا يطلقون اللفظة على الغليظ من الديباج . وذكر بعض آخر أنها من الألفاظ المعربة عن السريانية [٧] . وقيل : إن الاسـتبرق ديباج يعمل بالذهب ، أو ثياب حرير صفاق نحو الديبــاج ، أو قدة حمراء [٨] .

وأما السندس ، فهو من الألفاظ المعربة كذلك[٩] . وذكر أنه «البزيون» ، وقيل : إنه ضرب منه يتخذ من المرعزي ، أو ضرب من البرود . وقيـل : إنه رقيق الديباج

(١) اللسان (٥/٣٧٨ ٣٧٨) ، القاموس (١/١٨٧) .

(٢) Ency. Islam, I, 976. Fränkel, Aram. Frem., S. 41.

(٣) الأغاني (٤/١٢) .

(٤) Ency. Islam. I, p. 967.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) القاموس (٣/٢١٥) .

(٧) شرح القاموس (٦/٢٩٣) .

(٨) القاموس (٣/٢١٣) ، شرح القاموس (٦/٢٩٣) .

(٩) القاموس (٢/٢٢٢) .

ورفيعه، وهو بهذا عكس الاستبرق الذي هو غليظ الديباج عند بعض العلماء [١].

وقد تعرض أهل الأخبار لبعض أنواع البيع وطرقها التي كان يستعملها الجاهليون وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة ما يسمى بـ « الحظ والنصيب » في العهد الحاضر، فذكروا أن في جملة طرق البيع المتبعة في سوق « دومة الجندل » المنعقدة في أول يوم من شهر ربيع الأول المبايعة فيه ببيع الحصاة. وقد ذكروا أن هذه المبايعة كانت من بيوع الجاهلية التي أبطلها الاسلام. وتفسير ذلك أن يقول أحد المتبايعين للآخر: إرْم هذه الحصاة، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم، أو أن يبيع أحد المتبايعين من أرضه قدر ما انتهت اليه رمية الحصاة، أو أن يقبض على كفٍ من حصى ويقول: لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول: لي بكل حصاة درهم، أو أن يمسك أحدهما حصاة في يده، ويقول: أي وقت سقطت الحصاة وجب البيع، أو أن يتبايعا ويقول أحدهما: إذا نبذت اليك الحصاة فقد وجب البيع، أو أن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول: أي شاة أصابتها فهي لك بكذا [٢].

ومن طرق البيع بيع الملامسة، وهو على أوجه. وهي: أن يأتي بثوب مطوي أو في ظلمة، فيلمسه المستام، فيقول له صاحب الثوب: بعتكه بكذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيارَ لك إذا رأيته [٣]. الوجه الثاني: أن يجعلا نفس اللمس بيعاً

---

(١) شرح القاموس (٤/١٩٨).

(٢) بلوغ الأرب (١/٢٦٥). « نهى عن بيع الغرر، وبيع الحصاة »، جامع الأصول (١/٤٤١).

(٣) « وفي البيع، أن يقول اذا لمست ثوبك أو لمست ثوبي، فقد وجب البيع بكذا، أو هو يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليه »، القاموس (٢/٢٥٠)، « والملامسة المنهى عنها في البيع. قال أبو عبيدة: أن يقول: إذا لمست ثوبك أو لمست ثوبي، أو اذا لمست المبيع، فقد وجب البيع بيننا، بكذا وكذا. أو هو أن يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليه، ثم يوقع البيع... وقد نهى عنه »، شرح القاموس (٤/٣٤٠)، بلوغ الأرب (١/٢٦٥ وما بعدها).

بغير صيغة زائدة . الوجه الثالث : أن يجعلا اللمس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره ، وهو أيضاً من البيوع التي أبطلها الاسلام كبيع المنابذة ، وهو أن يجعلا نفس النبذ بيعاً كما تقدم في الملامسة ، أو أن يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة، أو أن يجعلا النبذ قاطعاً للخيار . ويقال له بيع الالقاء [١] .

ومن طرق البيع أيضاً : البيع ناجزاً بناجز . أي يداً بيد [٢] . و « النجش » ، وهو أن يبيع الانسان بياعة فتساومه بها بثمن كثير لينظر اليك ناظر ، فيقع فيها ، وكذلك في الأشياء كلها . وقد نهى عنه الاسلام [٣] . و « التناجش » ، أن يقول الرجل للرجل بَيْعٌ فيقول نظر ، أي أنظرني حتى أشتري منك [٤] . والبيع نقداً وهو خلاف

---

(١) « والمنابذة أن تقول : انبذ الى الثوب أو انبذه اليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا ، أو أن ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله ، أو أن تقول : اذا نبذت الحصاة وجب البيع » ، القاموس (١/٣٠٩) ، « وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المنابذة في البيع والملامسة . قال أبو عبيدة : المنابذة هو أن تقول لصاحبك : انبذ إلي الثوب أو غيره من المتاع ، أو انبذه اليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا . ويقال له بيع الالقاء كما في الأساس . أو هو أن ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله . وهذا عن اللحياني معاطاة من غير عقد ولا يصح » ، شرح القاموس (٢/٥٨١) .

(٢) المخصص (١٢/٢٥٤) .

(٣) « النجش ، أن تواطيء رجلا اذا أراد بيعاً أن تمدحه ، أو أن يريد الانسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها بثمن كبير لينظر اليك ناظر فيقع فيها ، أو أن ينفر الناس عن الشيء الى غيره » ، القاموس (٢/٢٨٩) ، « النجش أن تواطيء رجلا إذا أراد بيعاً أن تمدحه ، قاله أبو الخطاب . أو هو أن يريد الانسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها بثمن كبير لينظر اليك ناظر فيقع فيها . وقد كره ذلك . نجش ينجش نجشا . وقال أبو عبيد : النجش في البيع أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته » ، شرح القاموس (٤/٣٥٤) ، « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النجش » ، البخاري (٣/٦٩ وما بعدها) « كتاب البيوع » ، عمدة القاريء (١١/٢٥٨ وما بعدها) .

(٤) المخصص (١٢/٢٥٤) .

النسيئة (١) . والبيع مُزابنة وهو بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر ، وقد كره (٢) . والمخاضرة ، بيع الثمار خضراً قبل أن يبدو صلاحها (٣) . والطفى : شراء الشجر وقيل بيع النخل (٤) .

---

(١) « النقد : خلاف النسيئة » ، القاموس (١/٣٤١) ، « النقد خلاف النسيئة . ومن أمثالهم : النقد عند الحافرة .. والنقد اعطاء النقد .... فنقدني الثمن أي أعطانيه نقداً معجلا » شرح القاموس (٢/٥١٦) ، « باب شراء النبي صلى الله عليه وسلم بالنسيئة » ، البخاري (٣/٥٦) ، « كتاب البيوع » ، عمدة القارىء (١١/١٨٢) « كتاب البيوع » .

(٢) « الزبن كالضرب الدفع وبيع كل ثمر على شجره بتمر كيلا .... والمزابنة : بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر . وعن مالك كل جزاف لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود أو بيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن » القاموس (٤/٢٣٠ وما بعدها) ، « والزبن : بيع كل ثمر على شجره بتمر كيلا . ومنه المزابنة ... وقد نهى عنه ، لما فيه من الغبن والجهالة . سمي به أحدهما اذا ندم زبن صاحبه عما عقد عليه أي دفعه ... والمزابنة بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلا . وكذلك كل ثمر بيع على شجره بتمر كيلا . وأصله من الزبن الدفع . وقد نهى عنه في الحديث لأنه بيع مجازفة من غير كيل ولا وزن . قال ابن الأثير : كان كل واحد من المتبايعين يزبن صاحبه عن حقه بما يزداد منه وانما نهى عنه لما يقع فيها من الغبن والجهالة . وروى عن الامام مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال : المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود . أو هي بيع معلوم بمجهول من جنسه أو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن ، لأن البيعين اذا وقفا فيه على الغبن أراد المغبون أن يفسخ البيع وأراد الغابن أن يمضيه ، فتزابنا فتدافعا فاختصما » ، شرح القاموس (٩/٢٢٤ وما بعدها) .

(٣) « والمخاضرة بيع الثمار قبل بدو صلاحها » ، القاموس (٢/٢١) ، « والمخاضرة المنهى عنها في الحديث ، هو بيع الثمار قبل بدو صلاحها . سمي لأن المتبايعين تبايعا شيئاً اخضر بينهما مأخوذ من الخضرة . ويدخل فيه بيع الرطاب والبقول وأشباهها على قول بعض » شرح القاموس (٣/١٨٠) .

(٤) « الطفى ... وشراء الشجر أو بيع ثمر النخل خاصة » ، القاموس (٤/٣٥٨) ، شرح القاموس (١٠/٢٢٨) .

ومن ذلك أيضاً البيع المعروف بـ « المُجْر » ، وذلك أن يُشترى البعير بما في بطن الناقة [1] . و « الغَدَوى » ، وذلك أن تبيع الشاة بنتاج ما نزا به الكبش ذلك العام . وقيل « الغَدَوى » : كل مافي بطون الحوامل ، وقوم يجعلونه في الشاء خاصة . وهو أن يباع البعير أو غيره بما يضرب الفحل [2] . و « الرجع » أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الاناث . وقيل بيع الابل بعد الارتجاع منها . وورد : « قيل لقوم من العرب بم كثرت أموالكم ؟ فقالوا : أوصانا أبونا بالنجع والرجع » ، فالنجع : طلب الكلأ ، والرجع : أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الأناث . والرَّجيعة : بعير ارتجعته ، أي اشتريته من أجلاب الناس ، ليس هو من البلد الذي هو به » . « والرجعة

---

(١) « المجر ما في بطون الحوامل من الابل والغنم ، وان يشترى ما في بطونها ، وأن يشترى البعير بما في بطن الناقة » ، القاموس (٢/١٣١) ، « المجر : ما في بطون الحوامل من الابل والغنم . والمجر أن يشترى ما في بطونها . وقيل هو أن يشترى البعير بما في بطن الناقة . وقال أبو زيد : هو أن يباع البعير أو غيره بما في بطن الناقة . وقال الجوهري : أن يباع الشيء بما في بطن هذه الناقة . وفي الحديث أنه نهى عن المجر ، أي عن بيع المجر . وهو ما في البطون كنهيه عن الملاقيح . ويجوز أن يكون سمي ببيع المجر مجراً اتساعاً ومجازاً . وكان من بياعات الجاهلية . ولا يقال لما في البطن مجراً إلا اذا اثقلت الحامل . فالمجر اسم للحمل الذي في بطن الناقة وحمل الذي في بطنها » ، شرح القاموس (٣/٥٣٣) .

(٢) المخصص (١٠/٢٠١) ، « والغدوى كعربي ، كل ما في بطون الحوامل أو خاص بالشاء ، أو أن يباع البعير أو غيره بما يضربه الفحل ، أو أن تباع الشاة بما نزا به الكبش » ، القاموس (٤/٣٦٩) ، « والغدوى كعربي ، كل ما في بطون الحوامل من الابل والشاء عن أبي عبيدة ، أو هو : أن يباع البعير أو غيره بما يضرب الفحل ، أو تباع الشاة بما نزا به الكبش . وفي الصحاح أن يباع الشيء بما نزا به الكبش ذلك العام . قال الفرزدق :

ومهور نسوتهم اذا ما انكحوا غدوى كل هبنقع تنبال

قال منسوب الى غد كأنهم يمنونه فيقولون تضع ابلنا فنعطيك غداً . وفي النهاية في حديث يزيد بن مرة : نهى عن الغدوى ، وهو كل ما في بطون الحوامل . كان الرجل يشتري بالجمل أو العنز أو الدراهم ما في بطون الحوامل وهو غرر ، فنهى عنه » . شرح القاموس (١٠/٢٦٣) .

إبل تشتريها الأعراب ليست من نتاجهم وليست عليها سماتهم »[1] .

وقد كان الناس يلجؤون الى أساليب غير حميدة من أساليب التلاعب بالأسعار ، وغش المشترين والتحايل بالبيع ، كأن يأتي البائع بجماعة من أصحابه يتظاهرون بالشراء وبالتكالب على السلعة لرفع السعر ، أو تشتري السلع من الأعراب الوافدين على القرى وهم في طريقهم الى السوق وأماكن البيع بأثمان بخسة ، ثم عرضها في السوق واغلاء أثمانها فيها ، أو تشرى السلع ، وهي في السوق وعرضها مرة أخرى للبيع ، لكسب الفرق بين السعرين . ومن ذلك شراء الطعام ثم بيعه وهو في مكانه . لرفع السعر والحصول على ربح فاحش منه ، والتطفيف في الكيل والوزن[2] ، والحكرة ويعرف أيضاً بالاحتكار، ويراد به حبس الطعام ليتربص به الغلاء . فعلوا هذا وأمثاله للكسب والحصول على الربح من أي طريق كان من غير تفكير في مصلحة الناس . وقد ورد النهي عن ذلك في الحديث[3] لِما في أمثال هذه الأعمال من ظلم ومن ابتزاز للأموال وإلحاق الضرر بالآخرين وبالمصلحة العامة .

وفي جملة البيوع التي نهى عنها الرسول ، بيع حاضر لبادٍ ، والبادي هو الذي يكون في البادية ، مسكنه المضارب والخيام ، والحاضر ساكن الحضر . وصورة البيع للبادي أن يقدم غريب من البادية بمتاع ليبيعه بسعر يومه ، فيقول له بلدي : أتركه عندي ، لأبيعه لك على التدريج بأغلى منه . وقد نهى الاسلام عن هذا البيع ، لِما فيه

---

(١) المخصص (٢٠٢/١٠) ، « والرجم كعنب : أن يبيع الذكور ويشترى الاناث ... وارجع ابلا شراها وباعها على هذه الحالة والراجعة : الناقة تباع ويشترى بثمنها مثلها . فالثانية راجعة ورجيعة قال علي بن حمزة : الرجيعة أن يباع الذكر ويشترى بثمنه الأنثى . فالانثى هي الرجيعة » ، شرح القاموس (٢٥٢/٥) .

(٢) عمدة القارى (٢٤٢/١١ وما بعد) .

(٣) « في الاحتكار والتسعير » ، جامع الأصول (٢٢/٢ وما بعدها) .

من احتكار وإضرار بالمصلحة العامة ، ليكتسب بذلك نفر محدود من الناس . وللفقهاء في هذا البيع كلام وآراء [1] .

ونهى الاسلام عن بيوع أخرى من بيوع الجاهلية ، منها بيع الغَرَر وبيع حبل الحبلة ، ويدخل في بيع الغرر البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان ، وهو بيع المخاطرة وهو الجهل بالثمن أو المثمن أو سلامته أو أجله ، ومن ذلك بيع السمك في الماء وبيع الطير في السماء والعبد الآبق وغير ذلك من أمثلة . وأما بيع حبل الحبلة ، فكان الرجل في الجاهلية يبتاع الجزور الى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها ، وهو في الواقع نوع من بيع الغَرَر ، لأنه بيع مجهول [2] . ونهى كذلك عن بيع المضطر وبيع الحصاة [3] .

وقد كان الباعة الجاهليون يفعلون في أسواقهم ما يفعله باعة أيامنا من صخب في السوق ، ومن لغط ومن قسم على جودة السلع ورخص أسعارها ، يريدون التأثير على المشترين وحملهم على الشراء . وقد لاحظ الرسول ما في هذا الصخب من ضرر فكرهه [4] .

ويلاحظ أن أكثر هذه البيوع ، هي متشابهة ، وأنها تكاد تكون شيئاً واحداً . وإن اختلفت فيها التعابير . وقد رأينا أن تعريفات علماء اللغة لها ، هي تعريفات واحدة في الغالب .

ولقد لخصت بعض كتب الحديث والفقه البيوع وعرفتها على النحو الآتي : البيع المطلق

---

(١) عمدة القارىء (٢٠٨/١١) .

(٢) عمدة القارىء (٢٦٣/١١ وما بعدها) ، جامع الأصول (٤٤١/١ وما بعدها) .

(٣) جامع الأصول (٤٤١/١) .

(٤) عمدة القارىء (٢٤٢/١١) ، باب كراهية الصخب « السخب » في السوق » .

إن كان بيع العين بالثمن ، والمقايضة إن كان عيناً بعين ، والسلم إن كان بيع الدين بالعين، والصرف إن كان بيع الثمن بالثمن ، والمرابحة إن كان بالثمن مع زيادة ، والتولية إن لم يكن مع زيادة ، والوضيعة إن كان بالنقصان ، واللازم إن كان تاماً ، وغير اللازم إن كان بالخيار [1]، والصحيح والباطل والفاسد والمكروه . وهذا التقسيم تقسيم إسلامي بالطبع ، رتب على وفق أحكام الاسلام ونظرته الى بيوع الجاهليين .

ويقال للشراء « شام » في العربيات الجنوبية ، واللفظة من الألفاظ الواردة في اللهجات السامية الشرقية [2] ، وتقابل لفظة « سام » في عربيتنا . و « ساوم » من الألفاظ التي ما تزال مستعملة عندنا ومعروفة ، فيقال « ساوم على ... » بمعنى فاوض على السعر للاتفاق على شراء شيء ما . فاذا تم الشراء ودخل في حوزة الشاري ، صار ذلك الشيء في ضمن الـ « قِنَى » أي المقتنيات . ومن لفظة « شام » كلمة « اشتام » « اشتيام » التي ترد في الحميرية المتأخرة بمعنى الشراء [3] .

ويعمد البائع والمشتري الى تقديم « عربون » يتخذ اساساً للبيع والشراء . ويعبر عنه بـ « عربن » في المسند ، أي « عربون » ، وبـ « ودعت » أيضاً ويراد بها « الوديعة » ، وذلك كما في هذه الجملة : « ومن من ذىهرابن ويهوهبن ورقم ودعتم .. » [4] ، ومعناها « ومن يعقد عقداً ، ويقدم ذهباً وديعة » ، أي عربوناً ، فالوديعة في هذه الجملة بمعنى العربون ، وهي بهذا المعنى أيضاً في عربية القرآن الكريم .

---

(١) عمدة القاري، شرح صحيح البخاري (١٥٩/١١ ، ١٧٥) « كتاب البيوع » .

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 136.

(٣) Mordtmann, Himj. Inschr. S. 44.

(٤) Rep. Epi., 3911.

ومن معاملات السوق : الدين ، وهو كل شيء غير حاضر ويجمع على ديون . ودنت الرجل بمعنى أقرضته [1] . والمُعرض من يستدين من امكنه [2] . والقرض ما يتجازى به الناس بينهم ويجمع على قروض . والقراض المُضاربة حجازية [3] . والغرم الدين . والغريم الغارم والجمع غرماء [4] . وعَسَرْتُ الغريم أعسره وأعسرته واستعسرته طلبت معسوره ولم أرفق به الى ميسوره [5] . والتبعة والتباعة والمُتابعة ، الشيء لكَ فيه بغية شبه ظلامة ونحوها . وتابعته بمال طالبته [6] . والتلية بقية الدين [7] . وتسلم الدين من قبضه وكذلك أسلفت الدين وسلفته . وأعطيته مالاً

---

(١) المخصص (١٢/٢٦٦ وما بعدها) ، « الدين ما له أجل كالدينة بالكسر ، وما لا أجل له فقرض » ، القاموس (٤/٢٢٥) ، شرح القاموس (٩/٢٠٧) .

(٢) « المعرض كمحسن الذي يستدين من أمكنه من الناس . ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاسيفع حين خطب ... وهو الذي يعرض الناس فيستدين ممن أمكنه . وقال الاصمعي : أي أخذ الدين ولم يبال ان لا يؤديه ولا ما يكون من التبعة ... » ، شرح القاموس (٥/١٩) .

(٣) « واقرضه أعطاه قرضاً وقطع له قطعة يجازي عليها . . والقراض ، والمقارضة للمضاربة » ، القاموس (٢/٣٤٧) ، « القرض ما تعطيه من المال .. والقراض والمقارضة عند أهل الحجاز المضاربة . ومنه حديث الزهري : لا تصلح مقارضة من طعمته الحرام ... وصورته أن يدفع اليه مالا ليتجر فيه ، والربح بينهما على ما يشترطان . والوضيعة على المال » ، شرح القاموس (٥/٧٢) .

(٤) « والغريم الدائن والمديون ضد ، والغرامة ما يلزم أداؤه كالغرم » ، القاموس (٤/١٥٦) « والغريم الدائن أي الذي له الدين . قال كثير :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنى غريمها

والغريم أيضاً المديون ، وهو الذي عليه الدين . يقال خذ من غريم السوء ما سنح . فهو ضد . والغرامة ما يلزم أداؤه كالغرم بالضم . والمغرم كمكرم . وقال الراغب : الغرم ما ينوب الانسان في ماله من ضرر لغير جناية منه ... ومما يستدرك عليه : الغرم بالضم الدين » ، شرح القاموس (٩/٣) .

(٥) « ورجل معسر كمنبر مقعط على غريمه » ، القاموس (٢/٨٩) .

(٦) المخصص (١٢/٢٦٦) .

(٧) « ... بقية الدين وغيره كالتلاوة » ، القاموس (٤/٣٠٧) ، « والتلية بهاء بقية الدين . =

مضاربة أي مقارضة . والعِينة السلف ، يقال تعين فلان عينة وعينه فلان . والعينة في الربا . وأوعب في ماله أسلم وأسلف . والحَوالة احالتُك الغريم ، وقضيت الغريم دينه ، أديته اليه . واستقضيته طلبتُ اليه أن يقضيني ، وتقاضيته الدين قبضته . والضمار من الدين ما كان بلا أجل معلوم ، والضمار خلاف العيان [1] . وتَمَكَّكْتُ على الغريم الححت . وبرئت من الدين براءة [2] .

والكافل والكفيل الضامنُ والجمع كفل وكفلاء [3] . واكفلت فلاناً المالَ ضمنته إياه . والحَمَالة الدية التي يحملها قوم عن قوم [4] ، والضمينُ الكفيل والجمع ضمناء [5] ، والأذين الكفيل [6] . وفلان قُنْعانٌ لي أي رضى يقنع به أن أُخِذ بكفالة أو دم أو شهادة أو حكم [7] والغرير الكفيل [8] ، وأنا لك رهن بكذا ، أي

= هكذا خصه الجوهري زاد غيره والحاجة . وقال غيره بقية الشيء عامة » ، شرح القاموس (١٠/٥٣) .

(١) « والضمار ككتاب من المال الذي لا يرجى رجوعه ، ومن العدات ما كان ذا تسويف وخلاف العيان ، ومن الدين ما كان بلا أجل » ، القاموس (٢/٧٦) ، « والضمار ككتاب من المال الذي لا يرجى رجوعه . وقال أبو عبيد المال والضمار هو الغائب الذي لا يرجى ، فاذا رجي ، فليس بضمار ... والضمار خلاف العيان ... والضمار من الدين ما كان بلا أجل معلوم . قال الفراء : ذهبوا بمالي ضماراً مثل قار . قال : وهو النسيئة أيضاً . وقال الجوهري : الضمار ما لا يرجى من الدين » ، شرح القاموس (٣/٣٥٣) .

(٢) المخصص (١٢/٢٦٦) .

(٣) القاموس (٤/٥٥) ، « ضمن الشيء وبه كعلم ضمانا فهو ضامن وضمين كفله » ، القاموس (٤/٢٤٣) .

(٤) المخصص (١٢/٢٦٨) .

(٥) المخصص (١٢/٢٦٨) ، القاموس (٤/٢٤٣) ، شرح القاموس (٩/٢٦٥) .

(٦) شرح القاموس (٩/١٢٠ وما بعدها) .

(٧) المصدر نفسه (٣/٢٦) .

(٨) « والغرير كأمير . والكفيل » ، القاموس (٢/١٠١) ، « والغرير الكفيل والقيم والضامن » ، شرح القاموس (٣/٤٤٥) .

كفيل (١) .

ويقال عند تخليص الرهن فككتُ الرهن وفديتُ الرهن، بمعنى فصلته وتخلصت منه بدفع فديته وبدله وعوضه (٢) .

وقد أشير في القرآن الكريم الى كيفية تنظيم الدَّيْن والتداين والرهان وأوجب على المؤمنين تدوين أجل الدين وتثبيته وكتابته يكتبه لهم كاتب بالعدل ، ويشهد عليه شاهدين أو رجل وامرأتان إن لم يكن رجلان ، وقبض رهان عند تعذر الكاتب لسفر أو ما شابه ذلك (٣) . وفي ورود هذا في القرآن الكريم اشارة الى صفحة من الصفحات المتعلقة بالتجارة وبالمال وبالاقتصاد عند الجاهليين ، والى طرق من طرق تعاملهم في عقود الدين والاستدانة ووضع الرهان والائتمان ، وذلك بتسجيل الدين وكتابته بين الدائن والمدين وشهادة شهود على ذلك ، وبوضع رهان كاف في مقابل الدين ، يستولي عليه الدائن عند عجز المدين عن الوفاء بأداء الدين ، أو امتناعه عنه ، وأمثال ذلك من التعامل بالمال واقتراض الناس له .

وتختلف معاملات المؤاجرة والاكتراء بحسب الاتفاق والعقد . فقد تكون المعاملة مساوعة ، وقد تكون محاينة ومُياومة ومُلايلة ومُزامنة ومداهرة ومشاتاة ومصايفة ومرابعة ومخارفة ومُسانهة ومسانهة ، من الساعات والحين والأيام والليالي والزمان والدهر والشتاء والصيف والربيع والخريف والسنة. ويقال العَزْرُ والعَزير ،

---

(١) المخصص (١٢/٢٦٨) .

(٢) المخصص (١٢/٢٦٧) .

(٣) البقرة : الآية ٢٨٢ وما بعدها .

ثمن الكلأ إذا حصد وبيعت مزارعه [1] . وأَجرْتُ المملوك وآجرته وقد أعطيته أجرته ، وهو المُستأجر والأجير . والكراء اجرة المُسْتأجر والاسم الكروة . وقيل الكروة الأُجْرة [2] . والفلاح المكاري [3] . والماقط والمقاط أجير الكري ، وقيل هو المكتري من منزل الى منزل [4] . والعُمالة رزق العامل وأجره [5] .

وفي العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة في الرزق ، منها الكسب وهو طلب الرزق ، وكسب بمعنى أصاب وحصل ، وفلان طيب الكسب والمكسب ، والإسم الكِسْبة . والكاسب الرجل المتعيش الطالب للرزق [6] . ورجل مَشُوع بمعنى كسوب [7] . والعسوم الكسب [8] . والترقح الاكتساب والاسم الرقاحة ، ومنه قولهم في تلبية الجاهلية : « جئناك للنصاحة ولم نأت للرقاحة » [9] . والرقاحي التاجر ، ورَقّح معيشته بمعنى أصلحها . والسامل الساعي في إصلاح المعيشة [10] .

---

(١) « العزو .. وثمن الكلا اذا حصد وبيعت مزارعه كالعزير » ، القاموس (٢/٨٨) .

(٢) المخصص (١٢/٢٦٩) ، القاموس (٤/٣٨٢) .

(٣) « والفلاح : الملاح والاكار وللمكاري » ، القاموس (١/٢٤١) .

(٤) المخصص (١٢/٢٦٩) ، شرح القاموس (٥/٢٢٦) ، القاموس (٢/٣٨٦) .

(٥) المخصص (١٢/٢٦٩) .

(٦) القاموس (١/١٢٤) ، شرح القاموس (١/٤٥٥) .

(٧) المخصص (١٢/٢٦٩) .

(٨) القاموس (٤/١٥٠) .

(٩) المخصص (١٢/٢٦٩ وما بعدها) .

(١٠) القاموس (١/٢٢٣) ، « الرقاحة : الكسب والتجارة . ومنه قولهم في تلبية بعض أهل الجاهلية : جئناك للنصاحة ولم نأت للرقاحة ... وفي الأساس كاسبه ومصلحه ، والرقاحي التاجر القائم على ماله المصلح له منها » ، شرح القاموس (٢/١٤٤ وما بعدها) .

والتقرش كالترقح ، والقرش الجمع [1] . وجَأب جأباً بمعنى كسب [2] . وكدح يكدح كدحاً اكتسب . وقيل الكدح عامة الكسب ، وقيل هو السعي في مشقة [3] . واحتجن اختزن ومَهَدَ لنفسه كسباً وعملاً [4] . ومأن أهله يمأنهم مأنا المؤونة . والحرفة المكسب . والمحارف الذي قد حورف كسبه فميل عنه . وقيل المحارف المقتر عليه . والحكر المحتجن للشيء المستبد به . والاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل واحتباسه وانتظار وقت الغلاء به . والذخر ما ذخرته من مالٍ [5] . واستحقبه ادخره . والخرش الطلب للرزق والكسب . والأثل والوثل الجمع . والعصف الكسب واقترفت الشيء اكتسبته . وكدش اكتسب . وارتفدت مالاً أصبته من كسب . والهُباشة ما تهبشته لأهلك أي جمعته وكسبته والقنيان المكسوب . وعقب طلب مالاً أو شيئاً وسعى يسعى أي يكسب . والحرث الكسب ومتاع الدنيا . والهابل المهتبل المكتسب والمغتنم . والهبّال والمهتبل المحتال لصيد وغيره . والهابل من حذق مصلحة الإبل . والتلد والتلاد والتليد ، ما وُلِدَ عندك من مالك أو نُتج . وقيل هو كل مالٍ قديم يورث عن الآباء . والطارف والطريف والمطروف والمستطرف ما استحدث من المال . وارتفدت المال اكتسبته . والاسفاف والدّقاعة والإدقاع سوء الكسبة [6] .

---

(١) « .. كانوا يتقرشون البياعات ، فيشترونها ... والتقريش .. الاكتساب .. » ، القاموس (٢/٢٨٣ وما بعدها) .

(٢) « وجأب كمنع كسب المال » ، القاموس (١/٤٣) .

(٣) القاموس (١/٢٤٥) ، شرح القاموس (٢/٢١٠) .

(٤) القاموس (٤/٢٢١) .

(٥) القاموس (٢/١٢ وما بعدها) .

(٦) المخصص (١٢/٢٦٩ وما بعدها) .

والسُّحت ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبيح الذكر . والربا العينة والزيادة على رأس المال [1] . والمؤكل المعطي بالربا . والإلياط الربا كذلك ومنه الحديث في الربا الذي كان في الجاهلية : « فإنه لياط مبرأ من الله جلّ وعز » [2] .

ويقال لما يقتنيه الانسان ويملكه « المال » في عربية القرآن الكريم[3] . ويشمل المال الصامت وهو العين [4] والورق وسائر المصوغ منها [5] ، والعرض ويشمل الأمتعة والبضائع والجواهر والمعادن والأخشاب وسائر الأشياء المصنوعة منها ، والعقار من مسقف ومن مزروع مثل البساتين والكروم والمراعي والغياض والآجام

---

(١) القاموس (٤/٣٣٢) ، شرح القاموس (١٠/١٤٢) .

(٢) « واللوط : الربا كاللياط . واوية ، لأن أصلها لواط . وجمع اللياط ليط ، وأصله لوط عن ابن الأعرابي : سمي به لأنه شيء ليط برأس المال ، أي لصق به . ومنه الحديث : وما كان لهم من دين الى أجله ، فبلغ أجله فانه لياط مبرأ من الله » ، شرح القاموس (٥/٢١٩) .

(٣) المخصص (١٢/٢٧٣) .

(٤) « المال : ما ملكته من كل شيء ج اموال » ، القاموس (٤/٥٢) ، أبو الفضل جعفر ابن علي الدمشقي : كتاب الاشارة الى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديها وغشوش المدلسين فيها (مطبعة المؤيد ١٣١٨) ، (ص ٢ وما بعدها) .

(٥) « ... والدينار والذهب وذات الشيء والربا » ، القاموس (٤/٢٥١) ، شرح القاموس (٩/٢٨٨) .

(٦) ... الدراهم المضروبة ... والوراق الكثير الدراهم ... والمال من إبل ودراهم وغيرها . . وأورق : كثر ماله ودراهمه ... » ، القاموس (٣/٢٨٨ وما بعدها) ، (الورق : الدراهم المضروبة كما في الصحاح ، وقال أبو عبيدة : الورق الفضة كانت مضروبة كدراهم أولا . وبه فسر حديث عرفجة أنه لما انقطع أنفه اتخذ أنفا من ورق فانتن عليه ، فاتخذ انفاً من ذهب ... قال ابن سيده : وربما سميت الفضة ورقا . أعطاه ألف درهم رقة لا يخالطها شيء من المال غيرها . وقال أبو الهيثم : الورق والرقة الدراهم خاصة . وقال شمر : الرقة العين . ويقال : هي من الفضة خاصة . ويقال الرقة الفضة والمال . . . والوراق الكثير الدراهم ، كما في الصحاح . وقال غيره رجل وراق صاحب ورق ... » ، شرح القاموس (٢/٨٦ وما بعدها) .

وما يحويه من العيون والحقوق في مياه الأنهار ، والحيوان بأنواعه [1] . ويدخل الرقيق أيضاً في أصناف المال بالنسبة الى ذلك العهد ، ، لأن له قيمة وثمناً ، وهو ثروة لصاحبه وملك .

والغني هو من يملك مالاً مهما كان مصدره كسباً وتجارة أو إرثاً ، وفي القرآن الكريم ألفاظ لها علاقة بالغنى وصلة بالثراء مثل « يغنينا » و « تغنى » و « يغن » و « غنى » و « الغنى » ، كما وردت فيه لفظة « الاغنياء » و « أغنياء » . وضد « الغنى » الفقير ، وهو الذي لا يملك شيئاً . وقد وردت اللفظة أيضاً في القرآن الكريم . ويعرف من لا يملك شيئاً بـ « المعدم » و « الصعلوك » [2] . وهنالك ألفاظ أخرى تدل على الحاجة والفقر ، مثل « إملاق » الواردة في القرآن الكريم بمعنى الجوع والفقر [3] .

---

(١) القاموس (٢/٩٢ وما بعدها) ، « . . وخص بعضهم بالعقار النخل . يقال للنخل خاصة من بين المال عقار . وقيل العقار : متاع البيت ونضده الذي لا يتبدل إلا في الاعياد والحقوق الكبار ونحوها . وبيت حسن الأهرة والظهرة والعقار . وقيل عقار المتاع خياره وهو نحو ذلك لأنه لا يبسط في الاعياد إلا خياره . وفي الحديث فرد النبي صلى الله عليه وسلم ذراريهم وعقار بيوتهم ، أي وفود بني العنبر . قال الحربي : أراد بعقار بيوتهم أراضيهم. وقد غلط، بل أراد به أمتعة بيوتهم من الثياب والأدوات . وعقار كل شيء خياره . ويقال في البيت عقار حسن ، أي متاع وأداة . هكذا رواه أبو زيد وابن الاعرابي . عقار البيت في الحديث بالفتح . وقد يضم وهو قول الاصمعي . وقد خالف به الجمهور . وقال ابن الاعرابي عقار الكلأ البهمي . كل دار لا يكون فيها بهمي ، فلا خير في رعيها الا أن يكون فيها طريفة . وهي النصي والصليان » ، شرح القاموس (٢/٤١٦ وما بعدها) .

(٢) « والصعلوك كعصفور : الفقير كما في الصحاح . زاد ابن سيده : الذي لا مال له ، زاد الازهري ولا اعتماد .. وتصعلك الرجل افتقر . وأنشد الجوهري لحاتم الطائي :

عنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

أي عشنا زماناً » ، شرح القاموس (٧/١٥٣) .

(٣) « أملق .. انفق ماله حتى افتقر » شرح القاموس (٧/٧٣) .

ورجل مُضيع كثير الضيعة ، وفلان أضيع من فلان ، أي أكثر ضياعاً . والغَلّة الدخل من كراء دار وأجر غلام وفائدة أرض وضيعة وغير ذلك . ورجل كثير الدَّبْـر اذا كان كثير الضيعة والمال . والحِلْق المال الكثير ، والاحراف مثله . وقد أحرف نما ماله وصلح . وحرفة الرجل صنعته . وحَريبة الرجل ماله الذي يعيش به . وأضعف الرجل فشت ضيعته وكثرت . والمقدر الذي غلبته ضيعته تكون له إبل وغنم ولا معين له عليها . أو يسقى إبله ولا ذائد له يذودها . والدخل ما دخل على الرجل من ضيعته من المنالة . والندهة الكثرة من المال . وعنده نَدْهة ونُدهة من صامت أو ماشية ، وهي العشرون من الابل ونحو ذلك والمائة ، من الغنم أو قُرابتها والألف من الصامت أو نحوه . والدثر المال الكثير ، وهات من المال ما شاء هيئاً أي أصاب ، فاذا كثرت غنمه وسخله ، فهو مُقْترد وقتارد . واستوثج من المال واستوثن إذا استكثر ، ويقال إنه لمترب أي له مال مثل التراب وقيل اترب قلّ ماله . والثراء والثروة المال الكثير . وتفهر الرجل في المال اتسع فيه . والوفر الكثير من المال والمتاع . والتخرق ، أن تكون له الإبل والغنم والرقيق . ويقال لفلان ظهر أي مال وغنم . وظهرة المال كثرته . والسكة السطر المستطيل من النخل . وضفا مال فلان أي كثر . وفلان في ضفوة من المال أي سعة . وأضفى القوم ، كثرت ماشيتهم ، والماشية تكون من الإبل والغنم ، وقد مشت الماشية كثرت أولادها . واراعت الابل كثرت . وارتعج المال كثر . وإن له مالاً جمّاً أي كثيراً . والناضّ ما كان متاعاً فتحول عيناً . ورجل أكرش عظيم المال والبركة النماء والزيادة . ورُغس أعطى والأكل الحظ . ويقال رجل مرغب كثير المال وكثير المال ومغضور إذا كان ينبتُ عليه المال ويصلح . ومال لُبد ، كثير لا يخاف فناؤه . والمُحرَّف الذي ذهب ماله ثم عاد اليه ، والهوش الجمع الكثير ولذلك سُمّي ما ينتهب في الغارة هواشاً . والفنع كثرة المال . والواجد

الغَـنِيُّ . ورجل مُدنّـر كثير الدنانير ورجل مدرهم كثير الدراهم . واليسار والميسرة الغنى [١] .

ومن مصطلحات البيع والشراء : نفقت السوق إذا غلت وارتفع السعر . وأما السعر فالذي يقوم عليه الثمن . والغلاء هو نقيض الرخص . ويقول غلا السـعر . وقط السعر يقط قطوطاً غلا . أما إذا توقفت السوق ، فيقال كسدت ، واكسدت القوم كسدت سوقهم ، ويقال سعر سعبر أي رخيص [٢] . وبارت السـوق أفرط رخص سِلَعها . وماق البيع مَوقاً رَخُـص . ويقول لسوقنا غرار اذا لم يكن للمتاع نفاق . ويقال السوق مغفورة إذا قدمت إبل أو غنم فترخص السوق لذلك . وقد غفر السوق الجلبُ يغفرها غفراً . ويقال قصر السعر يقصر قصوراً غلا ونقص ، ونامت السـوق أي كسدت ، وكذلك رقدت السـوق ، وكذلك حمقت وانحمقت . ويقال خاس البيع والطعام . أي كسد . ويقال خستُ الرجل خيساً أي أعطيته بسـلعته ثمناً ثم أعطيته انقص منه . وَخدَعت السوق قامت . ودرت السوق نفق متاعها [٣] .

وقد وردت لفظة « شامت » في نصوص المسند بمعنى المساومة والبيوع مطلقاً ، ولفظة « اقيض » بمعنى دفع ، أي دفع الثمـن ، وترد بمعنى المقايضة كذلك ، وذلك كما في هذه الجملة : « لـكل شامت واقيض يشامنوا »[٤] ، ومعناها : « لـكل مساومة « بيوعات » ومقايضة « ودفع » يساوم عليها » .

ويعرف المشتغل بالتجارة بـ « التاجر » . ويقال للربح : الـشِفُّ . أما عكس

---

(١) المخصص (١٢/٢٧٥ وما بعدها) .

(٢) « وسعر سعبر رخيص » ، القاموس (٢/٤٩) .

(٣) المخصص (١٢/٢٥٥ وما بعدها) .

(٤) Rep. Epi., 3910.

الربح ، فهو الخسارة ، فيقال تجارة خاسرة ، وخسر التاجر . ويقال للذين يتاجرون بغير رؤوس أموالهم الصعافق . والصعفق والصعفوق كل من لم يكن له رأس مال في شيء [1].

ويباع في الأسواق كل شيء : سلع مختلفة الأصناف والألوان ومنها البشر والحيوان . وقد ذكر العبيد والإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء ، وفي كيفية جباية حصة الحكومة من البيع والشراء ، كما في هذه الجملة المقتبسة من أمر ملكي أصدره الملك « شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان » في تنظيم التجارة والجباية : « بن انسم وابلم وثورم وبعرم وشامت بمنمو ذيشامتم عبدم فعو امتم وبعرم » [2] ، ومعناها : « من انس « بشر » وابل وثيران وبعر تشتري . ومن يشتري عبداً أو أمتاً وبعراً » . فذكر « انسم » أي « انس » وذكر بعدها الابل والثيران والبعر وغير ذلك . وكيف يميز بين الانسان والحيوان ، وهما سلعة من سلع السوق ، تباع وتشترى مثل سائر السلع . وقد قصد بالعبد هنا الذكر ، أما الأنثى فعرفت بـ « امت » ، أي أمة .

وطالما اضطر الناس الى الاستدانة مقابل رهن يقدم الى الدائن ، ليكون الرهن ضامناً عند الدائن يكفل له استعادة دينه . ويقال « فككت الرهن » حتى يعيد المدين الشيء الذي استدانه الى صاحب الدين ، فيأخذ عندئذ رهنه . ويقال « فديت

---

(١) « ... والقوم يشهدون السوق للتجارة بلا رأس مال ، فاذا اشترى التجار شيئاً دخلوا معهم . الواحد صعفقي . وصعفق وصعفوق بالفتح ج صعافيق أيضاً » ، القاموس (٣/٢٠٢) ، « القوم يشهدون السوق للتجارة بلا رأس مال عندهم ولا نقد عندهم ، فاذا اشترى التجار شيئاً دخلوا معهم فيه . ومنه حديث الشعبي : ما جاءك عن أصحاب محمد فخذه ودع ما يقول هولاء الصعافقة . أراد أن هؤلاء ليس عندهم فقه ولا علم بمنزلة أولئك التجار الذين ليس لهم رؤس أموال » ، شرح القاموس (٦/٤٠٧).

(٢) المخصص (١٢/٢٦١ وما بعدها) .

(٣) Rep. Epi., 3910.

الرهن » كذلك [١] .

وقد اشتط أهل المال في الاستفادة من المقترضين ، فتقاضوا منهم الربا الفاحش ، وألحفوا في زيادته ، وتشددوا في المطالبة برأس المال ورباه ، ولم يمهلوا معسراً ، ولم يتساهلوا في الأداء الى وقت الميسرة . « فكان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه اذا حلّ عليه الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي » [٢] . ولهذا الظلم منع الاسلام الربا وحرمه ، وأعلن حرباً على أربابه والعاملين به . وقد هدد الرسول المرابين ، وكانوا من كبار الاسر ومن أصحاب الحل والعقد والرئاسة ، ونهاهم عنه وأمرهم بالاكتفاء بأخذ رؤوس أموالهم من غير زيادة . فنقموا عليه وألبوا الجهلة والسفلة عليه وأعلنوا الحرب على الاسلام [٣] .

وقد استغل المرابون الأعراب ورؤساءهم وسيطروا عليهم بتقديم الديون . وكان اليهود من أشهر المرابين في الحجاز ، كما اشتهرت بذلك مكة والطائف [٤] .

هذا ولا بد لي من الاشارة الى ما في كتب التفسير والحديث وكتب الفقه بصورة خاصة من مادة غزيرة عن الشركات والبيع والشراء والرهون وغير ذلك مما يتعلق بالأعمال التجارية عند الجاهليين ولا سيما أهل الحجاز . يستطيع المؤرخ الرجوع اليها للالمام بالأحوال الاقتصادية عند أهل مكة والمدينة بصورة خاصة عند ظهور الإسلام .

ويتبين من كتب الحديث أن الصحابة كانوا يتعاطون التجارة ، ويتكسبون في الأسواق ، وقد كانوا نشطين جداً في ذلك . وكان أهل مكة أكثر نشاطاً من أهل

---

(١) المخصص (١٠/٢٦٢) .
(٢) عمدة القارىء (١١/٢٠٢) .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) البلدان (٦/١٠ وما بعدها) .

المدينة في هذا الباب ، فلا يكاد بعضهم يصل الى المدينة مهاجراً من مكة حتى يسأل عن السوق ، ويبحث عن رزق . فذهب بعضهم الى سوق بني قينقاع ، وهي من أسواق يهود ، فنجحوا فيها وحصلوا على ربح ومال أعالوا به أنفسهم . وقد كان في جملة ما أجاب به أبو هريرة ، وقد قيل فيه : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وإن المهاجرين والأنصار لا يحدثون عنه بمثل حديث أبي هريرة : « إن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ملء بطني ، فأشهد اذا غابوا ، وأحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصُّفّة أعي حين ينسون »[1] .

ويقصد أبو هريرة من قوله : « وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم » اشتغال الأنصار بزراعتهم وإدارة أموالهم ، وكانوا أصحاب زرع . أما المهاجرون ، فكانوا أصحاب تجارات[2] .

وكانوا إذا التهوا في السوق وانصرفوا في التجارة ونسوا أمورهم الأخرى ، قالوا ألهانا الصفق بالأسواق ، يعني الخروج الى تجارة[3] . وقد أدى انصراف بعض الصحابة الى السوق وتعلقهم بالتجارة الى انفضاضهم أحياناً عن الرسول وهم حوله ، فورد في الحديث : « بينما نحن نصلي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبلت من الشأم عير تحمل طعاماً فالتفتوا اليها حتى ما بقي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلا اثنا

---

(١) صحيح البخاري (٣/٥٢ وما بعدها) « كتاب البيوع » ، عمدة القاري (١١/١٦١) « كتاب البيوع » ، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٤/١٥ وما بعدها) ، « طبعة بولاق » .

(٢) عمدة القاري (١١/١٦٢) « كتاب البيوع » .

(٣) البخاري (٣/٥٥) ، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤/١٤) .

عشر رجلاً ، فنزلت (واذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً) [1] .

وقد كانت بلاد الشأم الممون الأول للحجاز بالطعام . فقد كانت الرقعة المزروعة في الحجاز غير كافية لإعاشة أهلها من حضر وبدو ، وكان الجدب الذي يحدث في بعض السنين ينزل بالزرع التلف والضرر ، ويجعل بأهل الحجاز حاجةً شديدة الى الطعام ، فيستوردونه من بلاد الشأم [2] . وهناك أمطار ومياه وزراعة واسعة ، وفلاحون يشتغلون بزرع الحبوب ، فيذهب تجار من الحجاز الى الشام ليمتاروا ، وقد يأتي تجار من بلاد الشأم بالميرة الى الحجاز لبيعه من التجار . وقد كان في جملة من يستورد الطعام والزيت والتجارات الأخرى من بلاد الشأم نفر من الصحابة المعروفين .

وقصد الحجاز واليمن والعربية الجنوبية والشرقية ونجد نفر من الأجانب بقصد التجارة والاشتغال بالحرف المختلفة . وقد أشير اليهم في كتب المؤلفين اليونان واللاتين . وكان منهم من استقر في بلاد العرب واختلط بأهلها وتعلم لغتهم ، وقد سكن أكثرهم في الموانيء المقصودة ، مثل عدن حيث ترد اليها السفن من مختلف جهات المحيط الهندي ، وحيث يرد اليها أبناء جلدتهم بسفنهم لتنقل ما تجده فيها من بضائع أو لتتزود منها الماءَ والطعام . وقد سبق أن تحدثت عن انشاء كنيسة فيها وعن

(١) المصدر نفسه (الصفحة ٥٥) .

(٢) البخاري (٣/٥٥) « كتاب البيوع » ، « وروي أن اهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشأم والنبي ، صلى الله عليه وسلم ، يخطب يوم الجمعة ، فلما رأوه ، قاموا اليه بالبقيع ، خشوا أن يسبقوا اليه ، فلم يبق مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلا رهط ، منهم : أبو بكر وعمر ، رضي الله تعالى عنهما » عمدة القاري (١١/١٦٠ وما بعدها) « كتاب البيوع » .

(٣) صحيح البخاري (٣/٥٥) « كتاب البيوع » .

قيام « فيميون » بالتبشير بالنصرانية بين اليمانين [1] .

وقد أشارت كتب اللغة الى جماعة من الموالي والعبيد تعربت واستقرت فصارت من العرب ، وكانت من الرقيق المشترى الذي جيء به من الخارج . وقد ذكروا في جملة هؤلاء « الصعافقة » . وقال علماء اللغة إن آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو أنهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلت أنسابهم . وقد ذكروا أن مساكنهم كانت في اليمامة في موضع يقال له : « صعفوق » أو بالحجاز [2] . وقد ضاعت أنساب جماعات كثيرة غيرهم ، بامتزاجها بالعرب ودخولها فيهم ، فصاروا في عداد العرب الصرحاء ، ووجدوا لهم نسباً هو نسب من اختلطوا بهم وانتسبوا اليهم بالولاء . وقد نسي ذلك الولاء ، بمرور الزمان وتقادم العهد ، فصار نسباً وأصلا .

وقد دلت التحريات العلمية (التي قام بها بعض الباحثين للعظام والهياكل التي عثروا عليها في مواضع متعددة من بلاد العرب وعلى الأحياء أيضاً) على حدوث ذلك الاختلاط ، ووقوع ذلك الامتزاج بنسب كبيرة ، تختلف نسبها بحسب المواضع والأماكن والاتصال بالعالم المقابل لذلك المكان من جزيرة العرب .

لم يكن من السهل على التجار في ذلك الزمن التوسع في تجارتهم والمجازفة بالمتاجرة مع أماكن أخرى بعيدة . فالتاجر محتاج الى حماية حياته وأمواله ، ولم تكن الحماية ممكنة إلا في ظل حكومة مدنية قوية ، تحمي أبناءها وكل من يفد على أرضها وعلى الأرض الخاضعة لها من اعتداء المعتدين .

ولهذا صار لزاماً على التجار الالتجاء الى نظام القوافل ، ولا سيما القوافل القوية الكبيرة معتمدة على حماية نفسها بنفسها أولاً ، ثم على حماية الحكومة ثانياً . وقد

---

(١) راجع قصة تبشيره في البلدان (٨/ ٢٦٠ وما بعدها) .

(٢) شرح القاموس (٦/ ٤٠٧) .

عمدت في الدرجة الأولى الى استرضاء سادات القبائل ، وذلك لتأمين حمايتهم في المناطق التي تمر بها القافلة ولبذل العون والمساعدة لها بتقديم حق مرور للرؤساء وهدايا وعطايا مناسبة وعقد عقود ومواثيق ، وإلا تعرضت أموال القافلة للأخطار . ولطول الطرق وبعد المسافات ، كان على القوافل استرضاء كبار سادات القبائل للحصول على حمايتهم ، ومعنى هذا دفع اتاوات لهم ، وتحميل المشترين تلك الاتاوات . وهذا مما زاد في الأسعار وجعل الأثمان عالية ، وقد أضر ذلك بالتجارة العربية ولا شك ، كما أضر بالمنتجين الذين كانوا يبيعون إنتاجهم اليسير وأكثره مواد خام يتعيشون عليها بأسعار بخسة لسدّ رمقهم في هذه الحياة .

وقد سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق ، فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها . وبعد حروبها مع قتبان والممالك العربية الجنوبية الصغيرة الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى حضرموت تحت نفوذها وحكمها . وهي طرق ذات أهمية كبيرة ، إذ تؤدي الى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، والى الموانىء والمرافيء التي تتاجر مع افريقية والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة .

واتجهت نحو السيطرة على الطرق البرّية المؤدية الى شمال الحجاز ، ولهذه الطريق أهمية كبيرة بالنسبة الى اليمن والعربية الجنوبية . وهي طريق موازية للطريق البحرية الممتدة في البحر الأحمر ، ولها شأن خطير في التجارة العالمية . ولم يكن اسبأ بعد عجز الحكومات العربية من السيطرة على البحر الأحمر بعد الميلاد على الأخص الا الاستفادة من الطرق البرية لتصريف تجارتها وللتعيش عليها . فأخذت تبذل كل جهدها لمنافسة الطريق البحرية التي يسيطر عليها الروم . وهي طريق ، النقل فيها أرخص وأقل كلفة

من النقل في الطريق البرّية ، ولذلك استفاد منها الروم كثيراً ، وقد أثرت على الوضع السياسي والاقتصادي لليمن تأثيراً كبيراً .

ووجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانئ الخليج العربي كذلك ، فاستخدموا الطريق الممتدة من نجران الى السليل ، ومن هناك الى الخليج والعراق (١) .

وتوجد آثار طرق جاهلية مبلطة تبليطاً حسناً وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد أنشئ بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة ، وذلك باستعمال الآلات بمهارة في قطع الصخور لإنشاء هذه الممرات . وقد زفّت بعض هذه الطرق وغطي بطبقة من الاسفلت ، ووضعت عليها صُوىً ترشد المارة ، ولما كانت الطرق الطويلة المبلطة تبليطاً فنّياً تحتاج الى نفقات طائلة والى أيدٍ عاملة كثيرة والى حكومة كبيرة غنية لم يكن من الممكن يومئذٍ فتح طرق طويلة ممهدة تخترق جزيرة العرب ، على شكل الطرق التي أنشأها الرومان في انبراطوريتهم ، لسير القوات العسكرية عليها والتجارات واقتصر على إقامة الطرق الضرورية القصيرة التي توصل المدن والقرى بالمواضع المهمة ومع ذلك كانت عناية الجاهليين بذلك في هذه الناحية وفي جزيرة العرب بالذات أشدّ وأعظم من عناية المسلمين (٢) .

وقد كان اعتماد التجار على الحيوانات ولا سيما الجمل . أما العربات فلم تكن مستخدمة في أغراض تجارية في جزيرة العرب . ولم ترد اشارات اليها في نصوص المسند ، ولا في النصوص الجاهلية الأخرى ، ولا في اخبار أهل الأخبار . وقد ظل اعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الاسلامية الى أواخر القرن التاسع

(١) Rhodokanakis. Altsab. Texte, S. q, W. H. Irvine Shakespear, in The Geogr. Jaurn., LIX No 5, (1922) P. 321 .

(٢) Sabaeica, I, P. 78. f.

عشر للميلاد ، ففيه أخذ في تمهيد الطرق لسير العربات عليها ، ثم أدخلت السيارات فأخذت تنافس تلك الوسائل القديمة ، وستقضي عليها في المستقبل بالبداهة .

وقد شقت الحكومات والمشيخات اليمانية الطرق في المناطق الجبلية ، ويعرف الطريق الجبلي بـ (مسبا) في القتبانية . ويقال لنحت الصخور لفتح الطريق فيها « برر » . وأما المضيق والمعبر ، فيقال له « منقل » . وقد يبلط الطريق ويزفت في المناطق الترابية والأرض الرخوة بمادة يقال لها « صلل » في اللهجة القتبانية [١] .

وقد كانت نجران من أهم المراكز التجارية في اليمن ، وسوقاً مهمة جداً ، ومركزاً لتوزيع المنتجات وتصدير التجارة إلى الخارج ، ومنها تتفرع الطرق البرية التي يسلكها التجار في ذلك العهد الى بلاد الشأم او العراق . ولمركزها الاقتصادي الخطير هذا وفد اليها الغرباء فجلبوا معهم اليهودية والنصرانية الى اليمن . وفي هذا المكان اشتد التنافس بين الديانتين : اليهودية والنصرانية ، حتى تحول الى مذابح سقط فيها صرعى من الجانبين .

وكانت نجران أيضاً ذات شأن في الصناعة في اليمن ، قامت بها جملة صناعات ، وكانت أيضاً من مراكز الزراعة الخطيرة ، وهي اليوم من المملكة العربية السعودية.

والتجارة هي التي نقلت بعض الكتابات الشمالية الى العربية الجنوبية ، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية الى اليمن. وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة في العربية الشمالية كما هو معروف . فكتابتهم لم تأت الى هنا قافزة متخطية المسافة ، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التي عثر عليها بعض العلماء

---

(١) Rep. Epi., 4327-4328.

في أماكن متعددة من خرائب اليمن [١] . ولا بدّ أن سيعثر على عدد منها في المستقبل بعد قيام بعثات الحفر بالتنقيب هناك .

ان هؤلاء الواردين على اليمن انما وردوا عليها من الشمال ، من الطرق التي سلكها أهل اليمن في سيرهم من بلادهم نحو الشمال ، وسلكها تجار قريش فيما بعد . وقد يعثر في المستقبل على كتابات يونانية عديدة أو كتابات بلغات أخرى في اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب ، كتبها تجار وفدوا عليها من أماكن متعددة للاتجار كما يفعل التجار في هذا اليوم .

وقد كان الجاهليون يضعون أعلاماً على الطريق ليهتدى بها ، يقال لها : «الصُّوى» و « الثوة » . ويقول علماء اللغة إن الصُّوى : الأعلام المنصوبة ، والثوة كالصوة ، وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدى بها ، وإن العوة كالصوة التي هي العلم . وفي الحديث : « إن للاسلام صُوى ومناراً كمنار الطريق »[٢] . ويفهم منه أن لفظة المنار تشير أيضاً الى العلامات التي يسترشد بها لمعرفة الطريق .

وقد استعمل أهل العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم ، استعملوا نقوداً سكت من الذهب ، ونقوداً سكت من الفضة ، وأخرى سكت من النحاس ومن معادن أخرى . وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه الانواع . كما استعملوا نقوداً اجنبية أيضاً ، وصلت اليهم بتعاملهم مع الأسواق الأجنبية . وقد عثر على بعض منها في مواضع من جزيرة العرب ، أكثرها يوناني ، أو روماني .

وفي بعض المتاحف ودور الآثار وعند بعض هواة جمع النقود والأشياء القديمة ، قطع من نقود جاهلية ضربت في العربية الجنوبية ، بعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وبعض آخر من نحاس ، ومنها الكبير ، ومنها نقود صغيرة دوّن على بعضها

(١) خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة (ص ٥ وما بعدها ١٠٩٢ وما بعدها) .
(٢) المخصص (٨١/١٠) .

اسم الملك الذي ضربت في أيامه ، أو الحرف الأول من اسمه ، وعلى بعض آخر رموز وصور ألفَ العرب الجنوبيون ضربها على النقود ، مثل صورة « أثينة » أو « البوم » وهي من الطيور التي ألف العرب الجنوبيون إظهار صورتها على النقد ، وعلى الحجارة المكتوبة وعلى جبهات البيوت .

وقد وردت في كتابات سبئية وقتبانية اشارات الى نقود سبئية وقتبانية كانت مستعملة في تلك الأيام . ويرجع بعض العلماء تأريخ أقدمها الى حوالي سنة (٤٠٠) قبل الميلاد [١] . وقد ورد ذكر بعضها مع أسماء ملوك سبئيين وقتبانيين ، في تدوين عقود زراعية أو ضرائب في الغالب ، وقد ذكرت حين الاشارة الى دفع مبلغ أو الى تحديد غرامات . ولكن ورود أسمائها في تلك العقود وفي الأوامر الملكية لأولئك الملوك لا يدل على أنها سكت في أيامهم ، وضربت في عهدهم ، فقد يجوز أن تكون قد ضربت قبل أيامهم بأمد طويل أو قصير ، وأنها كانت مستعملة قبل أيامهم وفي أيامهم في الأسواق ، ولذلك أشير اليها في تلك الكتابات .

ونجد في أحد وجهي بعض النقد رأس رجل ظهرت ملامح وجهه الى العنق ، يحيط به غصنا شجر على هيأة دائرة ، وقد تدلى شعر الرأس الى العنق ، وظهرت عليه تموجات الشعر على هيأة خصل محفورة . وأما صورة الأوجه ، فهي جانبية اتجاهها نحو اليمين في الغالب. ولولا وجود بعض حروف المسند عليها ، لحسبتها من النقود المضروبة في أماكن أخرى خارج جزيرة العرب ، ونجد في الوجه الآخر من النقد صورة البوم في الغالب : جسمها جانبي ، أي قد امتد نحو الجانب . أما الوجه ، فقد صور وكأنه ينظر اليك ، وقد برزت عيناه بصورة واضحة ظاهرة حتى بدتا في شكل لا يتناسب أحياناً مع حجم الوجه . ومن ينظر الى هذا الوجه يخيل اليه أنه ينظر الى رأسي بومتين لا بومة واحدة [٢] .

(١) Handb der altara. Alter., S, 96.

(٢) أنظر الى الألواح المصورة للنقود الملحقة بكتاب : Hill.

وتحمـــل بعض النقود إشارات ورموزاً لها صلة بديانة العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، ومن ذلك الهلال ، إشـــارة الى الإلـــه القمر [١] . والقمر هو الإلـــه الأكبر عند العرب الجنوبيين . والهلال وفي داخله أو في مقابله كوكب ذو رؤوس تلتقي بنقطة في الوسط ، وأحياناً على هيأة قرص دون رؤوس . يمكن اعتبارهما أساس الـكوكب والهلال المستعملين في بعض الأعلام الإسلامية واللذين يشاهدان على قبب المساجد شعاراً للإسلام . وهما في الأصل من شعائر الوثنيين الجاهليين .

وللعلماء الباحثين في النقود العربية الجنوبية آراء في الحروف المقطعة المضروبـة على النقود . وفي الحروف المتصلة المربوطة بعضها ببعض في بعض الأحيـان على هيأة الطغراء ، وذهب بعضهم الى أن هذه الحروف هي الأحرف الأولى لأسماء الملوك الذين ضربت تلك النقود في أيامهم . وذهب آخرون الى أنها أسماء المواضع التي ضربت فيها تلك النقود . وذهب آخرون الى أنهـــا رموز للآلهة ، وقد ضربت على النقود تبركاً بأسمها . ومهما يكن من شيء ، فبين الباحثين في النقود العربية الجنوبية اختـلاف في هذا الموضوع ، لم يتوصلوا فيه الى حلّ متفق عليه [٢] .

ومن الملوك الذين ضربت بعض النقود في أيامهم ، ملك ذكر لقبه وحده ، وهو « ينف » « ينوف » ، دون آسمه الأول الذي يعرف به . وإذ قد تلقب جملة ملوك بهذا اللقب ، فمن الصعب البت في تعيين الملك صاحب هذا النقـــد [٣] . وملك ذكر آسمه الأول ، وهو : « شمر » ، والظاهر أنه « شمر يهرعش » ملك سـبأ وذي ريدان [٤] . و « كرب ال وتر يهنعم » ، وهو ابن الملك « ذمر على بين » و « عمـدن يهقبض » و « عمدن بين » ، وملوك آخرون [٥] .

---

(١) Handbueh, S. 35.

(٢) A catalogue of the Greek Coins of Arabia Mesopotamia and Persia, by, G. Fr. Hill, London, 1922, XIVI. fff.

(٣) Hill, P. IVII.

(٤) المصدر نفسه (ص IX) .

(٥) المصدر نفسه (ص IXVIII) .

وقد سميت تلك النقود بأسماء كما نسمي نحن اليوم نقودنا ، ومن هذه النقود قطع عرفت بـ « بلط » والجمع « بلطت » « بلطات » . وهي نقود من ذهب ، وذلك كما يفهم من هذه الجملة : « بذهبم ببلطتم » ، ومعناها : « بذهب ببلطات » أو « بالبلط الذهب » [1] .

وقد ذكر السيد نزيه مؤيد العظم أن أهل اليمن يطلقون على النقود لفظة « ظلط » [2] ، ولعل لهذه اللفظة صلة بـ « بلط » أو ببعض أسماء النقود اليمانية قبل الاسلام .

وهناك نوع آخر من النقود عرف بـ « خبصتم » « خبصت » ، أي « خبصة » . وقد أشير اليه في نص قتباني يعود الى أيام الملك شهر هلال بن ذر أكرب . ويرى « رودوكناكس » أن هذا النقد هو أقل سعراً وثمناً من سعر النقد السابق وثمنه ، أي الـ « بلط » ، وأنه لم يكن من الذهب ولا من الفضة ، بل من المعادن الأخرى [3] .

ووردت لفظة « رضيم » « رضى » بعد العدد خمسة ، في نص سبئي . ذكرت مع العدد ، في أمر يشير الى غرامة تفرض على المقصر والمتماهل في العمل ، فحمل ذلك بعض الباحثين على الذهاب الى أنها تسمية لنوع من النقد الذي كان مستعملاً آنئذٍ . ولكن هناك من يرى أن اللفظة ليست تسمية وسمة لنوع من أنواع النقود ، وإنما هي صفة لها ، بمعنى مرضية ومرض وبمعنى صحيحة غير مزيفة ولا منقوصة في الوزن ، وان

(١) Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 25, anm., 3.

(٢) نزيه مؤيد العظم (الصفحة ٨٥) .

(٣) « بعشر عشر خبصتم مصعم لطت طت يوم » ، « عن كل عشر عشر خبصات كاملة . لكل كل يوم » ، ويقصد بـ « كل يوم » ، معني يوم كامل ،
Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 6, 26.

جملة : « خمس رضيم » ، الواردة في النص ، لا تعني خمسة نقود رضى ، بل خمس قطع من النقود المرضية الصحيحة [1] .

وإذا كنا لا نستعمل اليوم في لغتنا الألفاظ والتعابير التي تدل على صحة النقود وسلامتها من الغش والتزوير كثيراً ، فان القدماء ولا سيما صيارفتهم وأصحاب المال كانوا يستعملونها في معاملاتهم اليومية وفي عقودهم التي كانوا يدوّنونها ، لأن سك العملة وضربها لم يكن يومئذ متقناً ولا مضبوطاً من حيث المادة أو الوزن . وكان من السهل تقليد العملة وغشها والتلاعب بوزنها . ولذلك كان ثمنها عرضة للتغير وللتلاعب بالسعر في بعض الأحيان ، كما كان من السهل غش الناس بإعطائهم العمل المزيفة ، حتى حفظت كتب الماضين أمثلة عديدة على ذلك ، وكتب القدماء فصولاً في كشف الغش في النقود وفي معاقبة المسؤولين عنه .

ومن الألفاظ التي استعملها أهل العربية الجنوبية للتعبير عن صحة العملة وسلامتها من الغش والتي دوّنوها في كتاباتهم ، لفظة « مصعم » « مصع » ، بمعنى : نصع وخلص ، أي خالصة من كل غش ، صحيحة لا شائبة فيها . ولفظة « رضيم » « رضى » كما ذكرت على رأي بعض الباحثين ، ومعناها نقود مرضية ، أي سالمة صحيحة خالية من كل غش وعيب . ورأي بعض العلماء أن لفظة خبصت هي من هذا النوع من الألفاظ كذلك [2] .

ومن مصطلحات الصيارفة المذكور في كتب اللغة « الشوقل » يقال : شوقل الدينار اذا عايره وصححه [3] ، واستعملوا : الشاقل أيضاً في المعايير .

وقد تعامل أهل العربية الجنوبية بالنقود الأجنبية كذلك ، مثل النقود الرومانية

---

(١) Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 26.

(٢) Rhodokanakis, Katab, Texte, II, S, 26.

(٣) التاج (٧/٣٩٢) .

واليونانية والمصرية والحبشية والفارسية . وقد عثر على نماذج من هذه النقود في مواضع متعددة من العربية الجنوبية : في اليمن ، وفي حضرموت ، وفي مواضع أخرى . وقد زاد تعامل أهل اليمن بالنقود الحبشية والساسانية في أثناء احتلال الحبش والساسانيون لليمن ، ولا شك .

ويلاحظ وجود أثر للسكة اليونانية على السكة العربية الجنوبية . وقد وجد شبه أيضاً بين بعض النقود العربية الجنوبية ونقود الساسانيين . ونظراً الى وجود صلات تجارية بين اليونان والساسانيين والعرب الجنوبيين ، فلا يستبعد تأثر العامل المتولي لشؤون ضرب النقود في اليمن وفي حضرموت بطريقة ضرب النقود عند اليونان والساسانيين [١] . ونجد صورة « البوم » رمز « أثينة » مطبوعاً على بعض النقود . وهي من الملامح المأخوذة عن اليونان [٢] .

ولا بد أن تكون في اليمن دور لضرب النقود سكت فيها عملتهم . فالنقود اليمانية الجاهلية وان ظهرت عليها ملامح التأثر بالنقد الغريب ، لكنها نقود مسكوكة في اليمن بفن يمانٍ وأيدٍ يمانية. واني لآسف اذ لم اقف على كتابات جاهلية فيها ما يفيدنا كيفية ضرب النقود عند الجاهليين وأوزانها وأنواعها ، وما شابه ذلك من أمور تتعلق بها ، وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بها غير الترقب والانتظار ، فلعل يقظة العرب تولي تأريخ العرب القديم ما يستحقه من عناية ورعاية وبحث ، فيجدوا في تتبع مواطن الآثار الغنية المطمورة لاستخراج دفائنها التاريخية الثمينة التي تظهر لنا أموراً كثيرة من تأريخ تلك الأيام .

---

(١) Carlo Conti Rossini, Monete sud-arabiche, Rendiconti della R. acad. dei Lincei 30 (1922), P. 239. ff., Rhodokanakis, Handb der eltar. alter., S. 96, 175.

(٢) Mordtmann und Mittwoch, Sab, Inschri., S. 8. ff.

ويكون البيع والشراء بالمقايضة أو بالنقد . ولما كان النقد قليلا في تلك العهود في جزيرة العرب ، وبين الأعراب خاصةً ، كانت طريقة المقايضة هي الطريقة الغالبة . وأقصد بالمقايضة مبادلة حاجة بحاجة ومادة بمادة أخرى . ومعظم معاملات الأعراب وأهل المزارع تتم بهذه الطريقة . أما الاتجار مع أسواق العراق أو بلاد الشأم ، فقد كانت تجري بالطريقتين . وكان العرب يبيعون بالنقد ، لحاجتهم اليه ، ويهتمون بالذهب منه خاصة ، ولا يعطون منه هذه الأسواق إلا في القليل عند الضرورات .

وقد عثر في بصرى وفي مواضع من المنطقة التي عرفت بـ « المقاطعة العربية » على نقود معظمها من نقود الرومان واليونان ، كما عثر على نقود نبطية . وفي باطن أرض الحجاز وباطن الأرضين الأخرى من جزيرة العرب نقود أخرى لا بد أن تظهر في يوم من الأيام .

أما أهل الحجاز ، فقد تعاملوا بالنقود الرومية والساسانية : تعاملوا بالدراهم ، وتعاملوا بالدنانير ، وتعاملوا بالدانق . ولعلهم كانوا يتعاملون بنقود أهل اليمن كذلك وبنقود أهل الحبشة . فقد كان أهل مكة خاصة تجاراً يتاجرون مع اليمن ويتاجرون مع العراق وبلاد الشأم ، وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون مختلف النقود ، خاصةً أنهم كانوا في مكان فقير لا يساعد على ضرب النقد فيه .

وأغلب اعتماد العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام قبل ضرب النقود الاسلامية بالحروف العربية على النقد الذهب المضروب عند الروم وهو الدينار ، أما النقود المضروبة من الفضة فكان جل اعتماد العرب فيها على نقود الساسانيين (١) .

أما الدنانير ، ومفردها دينار ، فهي من النقود اليونانية — اللاطينية . وقد

---

(١) Josef von Karabacek, zur Orientalischen altertumskunde, Wien, 1908, S. 61.

أخذت كلمة « دينار » من لفظة « Denarius » اليونانية اللاطينية . ونجد في كتب اليونان واللاطين أنهم كانوا يسمون دينارهم « Dinarius Aureus » و « Aureus Denarius » كما جاء ذلك في تأريخ « بلينيوس » [1] . والظاهر أن العرب استعملوا التسمية التي كانت شائعة في بلاد الشأم ، منذ عهد إصلاح « قسطنطين الأول Constantine I » « ٣٠٩ — ٣١٩ م » لنظام النقد . فأطلقوا على العملة الذهب لفظة دينار . وقد كان أهل الشأم قد اقتصروا على لفظة « Dinarius » منذ ذلك العهد [2] .

وقد ورد ذكر الدينار في آل عمران في الآية : « ومن أهل الكتابِ مَنْ إن تأمَنْهُ بقِنطار يؤدِّهِ اليك ، ومنهم من إن تأمَنْهُ بدينارٍ لا يؤدِّهِ اليك إلاّ ما دُمْتَ عليه قائماً » [3] . والقنطار وزن . وفي ذكر أهل الكتاب في هذه الآية ، دلالة على تعاملهم بالدنانير . وقد استوردت هذه الدنانير الى الحجاز بطريق التعامل مع البلاد الخاضعة لنفوذ الروم .

وقد فرض الرسول على نصراني بمكة ديناراً لكل سنة [4] ، كما فرض الجزية بالدنانير . وهذا مما يدل ، بالطبع ، على شيوع استعمال الدنانير في جزيرة العرب .

وقد بقي العرب يتعاملون بالدنانير الرومية الى أيام عبد الملك ، حيث أمر بضرب الدنانير ، فضربت بدمشق . وقد نعت الدينار الجديد بـ « احرش » اذا كانت فيه خشونة لجدته [5] .

---

(١) Pliny, Hist. Nat., Book, XXXIII, 13.

(٢) Ency. Islam., I., 975.

(٣) آل عمران الآية ٧٥ .

(٤) كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٥٣) ، « طبعة أوربة » . Karabacek, S. 72.

(٥) المخصص (١٢/٢٧) ، « أما الدنانير ، فكانت تحمل الى العرب من الروم ، وكانت العرب تسميها : الهرقلية » ، حاشية على الصفحة ٣٢١ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب : جامع الأصول من أحاديث الرسول ، لابن الأثير الجزري تحقيق محمد حامد الفقي القاهرة ١٩٤٦

وقد ذكر أهل الأخبار أن أهل المدينة كانوا يتعاملون بالدراهم عند مقدم الرسول ، يتعاملون بالعدد ، فأرشدهم الى الوزن كما كان يفعل أهل مكة . ودرهم أهل مكة ستة دوانيق . وقد عدلت الدراهم في الإسلام ، وعرفت بعض الدراهم بالدراهم المعدلة ، وهي بوزن سبعة مثاقيل لكل عشرة دراهم [1] .

وأشير الى « الدراهم » في الآية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » [2] . ويذكر المفسرون أنه كان من عادة الجاهليين التعامل بوزن الدراهم بالأواقي ان زاد عددها على وزن أوقية ، وكان وزن الأوقية أربعين درهماً . فما نقص عن هذا المقدار ، جرى التعامل عليه بالعدد ، وما زاد عليه جرى التعامل عليه بالوزن [3] .

وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة الدرهم فارسية الأصل ، وقد عربت [4] ، وقالوا في جمعها دراهم . وهو نقد من الفضة . وقد عرف بـ « درم Diram » في الفارسية وبـ « درخم Drachm » في اليونانية [5] . والظاهر أن العرب أخذوا بالتسمية الفارسية . على أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا يستعملون دراهم الروم .

ويلاحظ ان العرب قد توسعوا في استعمال لفظة الدرهم ، فأطلقوا الدراهم على النقود عموماً في بعض الأحيان ، وذلك من باب اطلاق الجزء على الكل .

---

(١) اللسان (١٤/١٢٧) .

(٢) يوسف : الآية ٢٠

(٣) تفسير الطبري (١٢/١٠٢ وما بعدها)

(٤) اللسان (١٤/١٢٧) ، (١٥/٨٩) .

(٥) Ency. Islam., I. P. 978.

وأطلق علماء اللغة على الدرهم لفظة « الوَرِق » ، وعلى الموسر المالك للدراهم المورق، وسموا الفضة وَرِقاً[1]. أما علماء المسند، فقد فسروا « ورقن» و« ورقم » أي « الوَرِق » و « ورقٍ » بمعنى ذهب . وقد وردت اللفظة في بعض نصوص المسند وكأنها نوع من أنواع العمل، أو وزن . فورد مثلا « عشر ورقم » ، أي « عشر ورقٍ » ، فكأن لفظة « ورق » هنا اسم علم لنوع معين من العملة ، أو وزن معين وعيار كان معروفاً عندهم .

وقالوا للدرهم « القرقوف » . وأطلق أهل الحجاز على الدراهم والدنانير لفظة «الناض» ، وذلك إذا تحول عيناً بعد أن كان متاعاً . وقالوا إن النض هو الدرهم الصامت. أما إذا كان الدرهم رديئاً ، فيعبرون عنه بلفظة قسيّ وبهرج ، فيقولون درهم بَهرج أي رديء ، وكل مردود عند العرب بهرج ونبهرج . وذكر بعضهم أنها فارسية من نبهرة ، ودرهم زائف هو الدرهم المزيف [2] .

وترد لفظة « نش » في معاملات النقود كذلك ، وقد اختلف الأخباريون في

---

(١) « .. الدراهم المضروبة ، كما في الصحاح . وقال أبو عبيدة الورق الفضة كانت مضروبة كدراهم أولا . وبه فسر حديث عرفجة أنه لما قطع أنفه اتخذ أنفاً من ورق فانتن عليه ، فاتخذ أنفاً من ذهب . . كالرقة كعدة والهاء عوض عن الواو . ومنه الحديث في الرقة ربع العشر . وفي حديث آخر عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق ، فهاتوا صدقة الرقة يريد الفضة والدراهم المضروبة منها . وأنشد ابن برى قول خالد بن الوليد رضي الله عنه في يوم مسيلمة .

ان السهام بالردى مفوقة | والحرب ورهاء العقال مطلقة
وخالد من دينه على ثقة | لاذهب ينجيكم ولا رقة

قال ابن سيده : وربما سميت الفضة ورقاً . يقال أعطاه الف درهم رقة لايخالطها شيء من المال غيرها . وقال أبو الهيثم : الورق والرقة الدراهم خاصة » ، شرح القاموس (٧/٨٥ وما بعدها) ، المخصص (١٢/٢٤) ، « باب بيع الورق بالذهب نسيئة » ، عمدة القارىء (١١/٢٩٦) .

(٢) المخصص (١٢/٢٧) .

ضبطها ، فقالوا النش وزن نواة من ذهب ، وقالوا : وزن عشرين درهماً ، وقالوا : بل وزن خمسة دراهم ، وقالوا ربع أوقية ، والأوقية أربعون درهماً . وتعني اللفظة معنى نصف كذلك ، فنش الشيء نصفه [١] . وقال بعض العلماء : الأربعون درهماً أوقية والعشرون نشاً والخمسة نواة [٢] .

وأما « الدانق » ، فهو من الأوزان ومن النقد . وهو « داناق » أيضاً [٣] ، من أصل فارسي هو « دانك » في الفهلوية ، ومن « Dang » و« دانك Dànak » في الفارسية، وهو « دنك Dank » في الأرمية [٤] . وهو يعادل سدس الدينار أو سدس درهم . وكان معروفاً عند أهل مكة في الجاهلية [٥] . و « الطسوج » ، حبتان من الدانق [٦] .

أما « الفلس»، فلفظة يونانية لاطينية الأصل،عربت من أصل« Follis »اللاطيني، ويراد بها نقود مسكوكة من النحاس.وقد استعملها العرب في تعاملهم،واحتفظوا بالأصل الأجنبي. وقد كان وزن الفلس في أيام القيصر« أنستاس الأول»، «أنسطاسيوس الأول» « Anastasius I » « ٤٩١–٥١٨م » زهاء ثلاثين « غراماً » ، ووسم بالحرف « M » . وظهرت بعد ذلك فلوس بأوزان تقل عن هذه . ولما ضرب المسلمون النقد ، كانت الفلوس في جملة ما ضرب من نقد [٧] . ويلاحظ أن الناس تجوزوا فأطلقوا لفظة

(١) اللسان (٨/٢٤٥) ، المخصص (١٢/٢٦٦) ، القاموس (٢/٢٩٠) .

(٢) شرح القاموس (٤/٣٥٦)، (١٠/٣٨٠) .

(٣) اللسان (١٠/٤٦٣) .

(٤) Ency. Islam, I, P 912.

(٥) المصدر نفسه ، القاموس (٣/٢٣٢) ، شرح القاموس (٦/٣٤٩) .

(٦) المخصص (١٢/٢٦٤) ، « وزيم دانق ، معرب » ، القاموس (١/١٩٨) .

(٧) Fncy. Islam, II, P. 47.

« الفلوس » على النقد عامة ، على الفلوس وعلى غيرها ، وهو من باب اطلاق الجزء على الـكل [١] .

وقد ذكر علماء اللغة نقداً دعوه « النُّمِّيّ » ، وقالوا إنه الدرهم الذي فيه رصاص أو نحاس ، وقال بعض آخر إنه الفلس بالرومية ، وإنه كان بالحيرة على عهد النعمان ابن المنذر [٢] .

فيظهر مما تقدم أن مكة بصورة خاصة كانت عند ظهور الإسلام تتعامل بمختلف أنواع العملة المضروبة في ذلك العهد ، بعملة الروم وبعملة الفرس ، ذلك لأن تجارها كانوا يقصدون مختلف الأسواق للاتجار : أسواق الأرضين الخاضعة للروم ، وأسواق البلاد الخاضعة لحكم الفرس ونفوذهم ، فاضطروا بعامل تعاملهم هذا واتصالهم ببلاد ذات عملات مختلفة الى التعامل بعملات تلك البلاد حتى في أسواقها الداخلية ، حيث كان من الصعب على أهل مكة وبقية أهل الحجاز ضرب النقود باسمهم ، وايجاد عملات خاصة بهم يُتَعامَلُ بها في الأسواق ، فكانوا يتعاملون بكل العمل من غير تفريق ، وبأسعارها الرائجة في السوق .

ولم يرد في الأخبار ما يفيد قيام الأماكن الأخرى في الحجاز بضرب النقود فيها .

---

(١) « أفلس ، أي صار ذا فلوس ، بعد أن كان ذا دراهم . وفي الحديث : من أدرك ماله عند رجل قد أفلس ، فهو أحق به أفلس الرجل ، اذا لم يبق له مال ، كأنما صارت دراهمه فلوساً » ، شرح القاموس (٤/٢١٠) ، القاموس (٢/٢٣٨) .

(٢) « ... الفلوس من الرصاص . رومية . قال أوس بن حجر :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمي سفسير

ونسب الجوهري هذا البيت الى النابغة ، يصف فرساً . وفي التهذيب : النمي الفلس بالرومية ، أو هي الدراهم التي فيها رصاص أو نحاس . قال : وكانت بالحيرة على عهد النعمان بن المنذر . الواحدة بهاء » ، شرح القاموس (٩/٨٠) ، القاموس (٤/١٨٣) ، المخصص (١٢/٢٨) .

لكنّ ذلك لا يمنع من احتمال عثور النقابين في المستقبل على نقود محليّة ضربت في مكة أو في الطائف أو في يثرب أو في مكان آخر ولو على نطاق ضيق محدود . وقد يعثر في المستقبل على قطع من نقود الروم ونقود الفرس وعلى نقود يمانية أو غير يمانية في مواضع من الحجاز أو جزيرة العرب ، فتتكشف بذلك عن أمور ما زلنا نجهلها من الأحوال المالية والاقتصادية في بلاد العرب قبل الإسلام ، وعن العلاقات التجارية التي كانت فيما بينها وبين العالم الخارجي .

هذا ، ولا بد لي هنا من رجاء السلطات في البلاد العربية ومن كل عربي له شعور قومي أو إنساني أن يحافظوا جميعاً على النقود وبقية ما يقع في أيديهم من آثار ، وأن يصونوها مما يشوه معالمها فتذهب قيمتها وينطمس تأريخها ، وأن يتشددوا في ذلك فيحولوا بين الذين لا يدركون قيم هذه الكنوز وقيم التراث القديم ، وبين التصرف بها على أي نحوٍ من الأنحاء فيصعب على الباحثين التوصل الى كنهها ، ويضيع من التأريخ العربي علم كثير .

الفصل الرابع

الزرع والمزروعات

والزراعة هي عماد ثروة اليمن وبقية جزيرة العرب ورأس مالها الأكبر في حياتها . وهي لاتزال كذلك المورد الأول الذي يتعيش عليه الناس .

ونحن وإن كنا لا نملك مراجع مكتوبة واسعة تتحدث عن الزراعة في اليمن قبل الاسلام وعن أنواعها وتفاصيلها وأساليبها وطرقها وضرائبها وعن كيفية استغلال الأرض وطرق الاستفادة منها وواجب الفلاح تجاه صاحب الأرض ، وعن الحاصلات السنوية ومقدار ما تأخذه الحكومة من المزارعين من ضرائب ، وأمثال ذلك من أمور متصلة بالزراعة ، ولكنا قد تمكنا من تكوين رأي فيها من مراجعتنا للكتابات الكثيرة التي وصلت الينا وفيها أمور متعددة لها علاقة بهذه الموضوعات ، كما أن آثار الأقنية والسدود الجاهلية المنتشرة في مختلف نواحي اليمن هي في حدّ ذاتها شاهدة على مقدار توسع اليمانين في الزراعة في ذلك العهد .

أما بخصوص الزراعة وآستغلال الأرضين وايجارها وجباية الضرائب عنها والعقود التي كان يعقدها الملوك مع كبار الإقطاعيين وتنظيم المياه وأمثال ذلك ، فقد وصلت الينا كتابات وأوامر عامة فيها ، كان يصدرها الملوك و « الكبراء » ، يعلنونها على الناس ، ليطلعوا عليها ، وليعملوا بموجبها ، تكتب على الحجارة ، وتوضع في محلات

عامة ، أو في خزانات المسؤولين وذوي الشأن ، ليرجع اليها حين الحاجة ، واليها سيكون مرجعنا في هذا الباب .

وهنالك كتابات كتبها رؤساء عشائر وأصحاب أملاك ، عن حدود أملاكهم ، أو عن تأجيرها لغيرهم ، أو عن إنشاء سدود لضبط المياه وتوزيعها ، أو عن حفر آبار ، وأمثال ذلك ، وهي كلها على صفتها الشخصية ذات قيمة بالقياس الى هذا ، لما ورد فيها من أفكار ومصطلحات فنية ، تمكننا من تكوين رأي في الزراعة والنظم الاقتصادية في العربية الجنوبية في ذلك العهد .

واذا كنّا قد حصلنا على فكرة ما عن الزراعة في اليمن وفي بعض اقسام العربية الجنوبية استناداً الى الألفاظ والمصطلحات الزراعية في الكتابات الجاهلية والى الوثائق الخاصة بالأرض وبالضرائب، وبالتأجير وبعقود البيع والشراء ، والى بعض الصور المنقوشة على هذه الكتابات ، فإننا لم نعثر ، ويالالأسف ، على كتابات جاهلية تتحدث عن هذه الأمور في الحجاز وفي أواسط جزيرة العرب وفي الأقسام الشرقية منها ، وآراؤنا عنها مستمدة في الدرجة الأولى من المراجع الاسلامية ومن مشاهدات السياح لمناطق الآثار ووصفهم آثار الزراعة في المناطق التي مروا بها .

وقد دعيت اليمن بـ « الخضراء » عند أهل الأخبار . وذلك لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وأثمارها ومراعيها ومياهها [1] . والظاهر أن هذه التسمية تسمية قديمة ولها علاقة بما ورد في كتب اليونان واللاطين من تسميتها بـ « العربية السعيدة » . وهي تسمية تؤدي هذا المعنى المذكور في مؤلفات الأخباريين .

وقد استغل أهل اليمن الجبال والمناطق المرتفعة ، فزرعوها بمختلف المزروعات

---

(١) بلوغ الأرب (١/٢٠٣) .

التي تلائم طبيعتها ففي المحلات المرتفعة التي يكون الجوّ فيها بارداً في الشتاء ولطيفاً في الربيع والصيف غرست الأشجار التي تلائم ذلك ، وزرعت في المناطق الوسط المعتدلة النباتات التي تحب اعتدال الجوّ . أما في التهائم والمناطق المنخفضة الحارة ، فقد زرعت النباتات التي تحب هذا الجوّ . وبذلك تنوعت المزروعات ، وتكاثرت ألوانها ، وصار في الامكان الحصول في موسم الشتاء على المزروعات التي تزرع في الصيف ببعض البلاد الباردة ، والحصول في موسم الصيف على المزروعات التي تزرع في الشتاء .

ولتحقيق غرس الجبال والمناطق المرتفعة ، لا بد من تمهيدها للزرع . وذلك بجعلها مدرجات عريضة ، تسند جوانبها الظاهرة بالصخور والحجارة منعاً لانهيار تربتها والمزروع فيها ، ويقال لهذه المدرجات في المسند « جروب » « جرب » جمع « جربت » « جربة » . وتحمى الجربة بحائط من الحجارة . وهي تعني الحجارة المقطوعة [1] ، على سبيل المجاز المرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء علاقة . وقد وردت لفظة « جربت » « جربة » و « جربتهمو » بمعنى « جربتهم » في المسند . أما «جربت »« جريبت» ، فقد ذهب بعض الباحثين الى أنها جمع « جربت » [2]، وأرى أنها تصغير « جربت » وليست جمعاً . فلا تجمع هذه اللفظة بالياء ، بل بالواو ، فيقال «جروبت » أو « جرب » .

وتعني « الجربة » [3] في عربيتنا المزرعة ، والقراح من الأرض ، أو الأرض

---

(١) Rhodokanakis, Stud. Lex., II, S. 43, 124, Kat. Text., II, S. 32.

(٢) Rhodokanakis, Kat. Text., II, S. 32, Mordtmann, in Himjarische Inschriften und alterthümer, Heft VII, in Mittheilungen aus den orientalischen Sammlungen, in Königlische Museen zu Berlin, Berlln 1893, S. 62

(٣) بالكسر .

المصلحة لزرع أو غرس [1] . ويراد بـ « القراح » و « القرواح » الأرض المصلحة لزرع أو غرس . ومن معانيها أيضاً : الأرض التي ليس فيها ماء ولم يختلط بها شجر [2] .

وأهل اليمن لا يزالون يتبعون هذه الطريقة ، وفي كثير من المناطق الجبلية والهضاب المهملة الآن آثار تلك المدرجات ، تتحدث عن زرع يانع في الأيام القديمة ، وهي تناجي أهل البلاد لعلهم ينتبهون اليها فيعيدون اليها الحياة . وقد كانت زراعة الكروم ولا تزال من أهم المزروعات التي تعتمد على هذه الطريقة . وهي تتحمل جوّاً بارداً بعض البرودة ومعتدلاً ، ولهذا تجود بالثمر الكثير الطيب في هذه المدّرجات .

وقد أشار « بطلميوس » ، الى اتخاذ أهل النجود والجبال في بلاد العرب المدرجات لزرعها وتشجيرها . وأطلق على الجبال المكونة للقسم الجنوبي من « السراة » اسم « Climax Mons » ومعناه الجبال المدرجة ، فترى وكأنها ذات سلالم . وهذه الطريقة شائعة في اليمن حتى اليوم ، ولا سيما في جبل حضور نبي شعيب وفي الأقسام الغربية من السراة . فجبال « القلاقس Climax Mons » التي يشير اليها بطلميوس اذن هي القسم الجنوبي من السراة الممتد في اليمن وعسير [3] .

---

(١) القاموس (١/٥٥) ، المخصص (١٠/١٤٨) .

(٢) المخصص (١٠/١٤٨).

(٣) تأريخ العرب قبل الإسلام (٣/٢٢٢ وما بعدها) ،

Glaser, Skizze, II, S. 215, D. G. Hogarth, The Penetration of Arabia, P. 20, Forster, II, P. 270. f.

وقد كانت في الحجاز ، ولا سيما ما وقع منه شمال المدينة ، عند ظهور الإسلام ، مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية ، غرست بالنخيل ، واشتغل أهلها بالزراعة . وقد كان أكثرها في أيدي يهود . ولكن هناك مواضع أخرى اشتغل بها مزارعون من العرب . عملوا في استغلال خيرات الأرض . وقد كان وادي القرى كثير المياه بصورة خاصة وعلى مواضع المياه أقيمت مستوطنات وقرى عديدة ، عاشت على النخيل والزرع وعلى القوافل التي تسلك هذا الوادي تحمل التجارات . وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان في غزوات النبي ، تقع كلها في شمال « يَثرِبَ » الى فلسطين ، مثل دومة الجندل وتبوك وخيبر وتيماء . وهي مواضع ذات مياه غزيرة وذات نخيل . أما الى الجنوب من يثرب فقد كان المشتغلون بالزراعة من العرب .

ويظهر من الألفاظ الزراعية في نصوص المسند أن اللهجات العربية الجنوبية كانت غنية بالمصطلحات الزراعية التي تعبر عن معان خاصة ، فاستعملت كلمات للتعبير عن النبات مثلاً في مختلف مراحل تطوره ، كما كانت واسعة في المفردات التي وضعتها لتسمية الآلات والمواد . ومن جملة الألفاظ الزراعية لفظة « لسسن » في معنى « لساس » [١] ويراد بها البقل ما دام صغيراً ، والنبات عند أول خروجه ، والحشائش عند أول ظهورها [٢] . ولفظة « جمست » « جمسة » ، ويراد بها الحشائش عند جفافها والنبت إذا ما ذهبت غضاضته [٣] . و « مذرا » «مذرى» ، ويراد بها المزارع المخصصة

---

(١) « مادة اللس » ، « وكغراب من البقل ما استمكنت منه الراعية وهو صغار » ، القاموس (٢٠٩/٢) .

(٢) راجع الفقرة الأولى من النص : Rep. Epi., 2861,

(٣) « والجامس من النبات ما ذهبت غضوضته » ، القاموس (٢٠٥/٢) .
Rep. Epi., Tome, v, P. 196.

بزراعة الحبوب [1] . و « اعنب » ، ويراد بها بساتين الكروم ، والمحلات التي تزرع أعناباً والأعناب بصورة عامة .

ويعبر عن الأرضين الزراعية بلفظة « ارض » « أرض » في جميع اللهجات العربية الجنوبية . وهي من أصل يرد بهذا المعنى في جميع اللهجات السامية . وإذا أريد التعبير عن أرض شخص أو أشخاص قيل « ارضهو » و « ارضهمو » ، أي « أرضه » و « أرضهم » . وهي تشير في الغالب الى الأرضين المعدّة لزراعة الخضر والحبوب . أما الأرض التي تغرس فيها الأشجار الثابتة الباسقة مثل النخيل أو الأشجار الأخرى ، فتطلق عليها ألفاظ أخرى ، وذلك كما نفعل في الزمن الحاضر ، إذ نطلق البستان مثلاً على الأرض المغروسة فيها الأشجار ، والحديقة والجنينة على الأرض الصغيرة المزروعة بأشجار مثمرة وبالورد والرياحين. ومن أمثلة ورود لفظة «ارض» «أرض» بالمعنى المذكور هذه الجملة : « وهجرهمو ومنخلهمو وارضهمو وابضعهمو » [2] ، ومعناها « ومدنهم ومزارعهم المزروعة نخلا وأرضهم وقطعهم » .

وترد في كتابات المسند لفظة « بضع » وتجمع فيها على « ابضع » « أبضع » [3]. والمراد بـ « البضع » « القطعة » ، وهي جزء من كلّ . وقد وردت في نصوص متعددة معبرة عن هذا المعنى . فوردت في الكتابات الزراعية بمعنى الإقطاع ، وهي

(١) « .. ومنه الذرية مثلثة لنسل الثقلين وفوه سقط ، والأرض بذرهـا ، وزرع ذرى » ، القاموس (١/١٥) » .. والبقل والشمس طلعا ، والأرض النبت اطلعته . . والمذرة آلة يذر بهـا الحب » القاموس (٢/٣٤) . Rep. Epi., Tome, V,P. 196.

(٢) واجع الفقرة الثانية من النص ، Glaser 1693 Kata. Texte., II, S. 41. ff.

(٣) راجع الفقرة الثانية من النص :

Glaser 1693 Rhodokanakis, Kata. Text., II, S. 41 Glaser 1000 A, B

الأرض المعطاة لجماعة لاستغلالها في الزراعة ، أو بمعنى قطعة أرض مزروعة . وقد كان الملوك وكبار الملاك يقطعون أرضهم اقطاعات لاستغلالها . ووردت معبرة عن قطع من المراعي خصصت بالرعي ، كما وردت معبرة عن جزء من مدينـة ، أو ضاحية من ضواحيها . وهي حيث جاءت في النصوص لا تؤدى معنى مفهوماً خاصاً ومصطلحاً معيناً له علاقة بتشكيل اداري أو جغرافي ، يتجاوز هذا المعنى اللغوي الذي ذكرته ، وهو الجزء والقطعة و « القطيعة » والجمع قطائع .

وقد عرفت الأرض الصالحة للزرع في كتب الحديث بـ « الأرض البيضـاء » . كما عرفت المزارع بـ « المحاقل » جمع محقل من الحقل ، وهو الزرع (١) . و « الحقل » ، قراح طيب يزرع فيه ، كالحقلة . ومنه لا ينبت البقلة الا الحقلة . والزرع قد تشعب ورقه وظهر وكثر (٢) .

والمزرعة هي الأرض التي يزرع فيها ، كما يقال مبقلة للأرض التي يزرع البقل فيها . وأما المبطخة ، وتجمع على مباطخ ، فالأرض التي يزرع فيها البطيخ (٣) . والمرج : الأرض الواسعة ذات كلأ وماء ، تمرج فيها الدواب حيث شاءت (٤) .

ويعبر في المسند عن الأرض المزروعة نخيلاً بلفظة « انخل » أي « نخيل » . ويراد بذلك الأرض المزروعة نخلاً . ويعبر عن الأرض المزروعة أشجاراً بلفظة « اثمر » ، أي أشجار مثمرة . وعلى هذا فإن العرب الجنوبيين كانوا إذا ذكروا لفظة « أرض »

---

(١) عمدة القاريء (١٢/ ١٨١) .

(٢) القاموس (٣/ ٣٥٨) ، شرح القاموس (٧/ ٢٨١) ، جامع الأصول (١١/ ٤٧٨) .

(٣) المخصص (١٠/ ١٤٩) .

(٤) عمدة القاريء (١١/ ٢١٤ وما بعدها) .

في الكتابات الزراعية ، يقصدون الأرضين الزراعية التي زرعت بمزروعات ليست مرتفعة ، بل من نوع المزروعات الواطئة كالحبوب بأنواعها والخضر وما شابه ذلك من مزروعات . ويطلقونها أيضاً على الأرضين عامة ، وإن لم تكن مزروعة ، كأن يكون لشخص ما أرض هي ملك له ، لم يزرعها ، ولا يريد زراعتها ، بل هي ملك من أملاكه ، فيعبر عنها عندئذ بأرض .

وقد وردت الجنة مفردة ومجموعة ومنكرةً ومعرفة في القرآن الكريم . وهي « كن Gan » و « كنّه Gannah ، Gehenna » في العبرانية . وهي في معنى « فردوس Pardes » الفارسية الأصل و « Paradise » [١] . ويرادبها موضع للأشجار الجميلة التي تسر الناظرين والأشجار المثمرة والورد والزهر والمياه . والحديقة ذات النخيل والشجر أو ذات النخل والعنب . وهي البستان عند بعض اللغويين [٢] . ولم ترد « الجنة » في النصوص العربية الجنوبية . وأما « الجنينة » ، فالحديقة .

ويقال للبستان إذا كانت محاطة بجدار « الحائط » ، وتجمع على « حوائط ». وقد وردت هذه اللفظة في كتب الحديث [٣] . وهناك لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى هي « الحظار » . ويراد بها الأرض التي فيها الزرع المحاط عليها . وقد ذكرت في كتب الحديث [٤] . وذكر علماء اللغة أن من معاني « الحظار » ، الحائط وكل ما حال بينك وبين شيء ، وما يعمل للإبل من شجر ليقيها البرد والريح . والجدار من الشجر يوضع بعضه على بعض ليكون ذرى للمال يرد عنه برد الشمال في الشتاء [٥] .

---

(١) Ency. of Islam., I, P. 1014. f. Hastings, P, 282, 681

(٢) القاموس (٤/٢١١) ، شرح القاموس (٩/١٦٦) .

(٣) شرح القاموس (٥/١٢٣) ، القاموس (٢/٣٥٥) ، جامع الأصول (١١/٧٧) .

(٤) جامع الأصول (١١/٢٢٩) .

(٥) شرح القاموس (٣/١٥٠) .

والحديقة من المصطلحات التي تؤدي معنى خاصاً في عربية القرآن الكريم . وقد ذكر علماء اللغة أنها البستان ، عليها الحائط . وخصها بعضهم بالجنة من نخل وعنب أو من نخل وشجر . وقال بعض آخر : الحديقة ، القطعة من النخل ، أو كل ما أحاط به البناء . وما لم يكن عليه حائط ، فليس بحديقة .

وذكرت في كتب الأخبار واللغة حديقة عرفت بـ « حديقة الرحمان » كانت لمسيلمة الكذاب بفناء اليمامة . وقد عرفت بعد مقتله ومقتل أتباعه عندها بحديقة الموت (١) .

وقد فسر بعض العلماء لفظة « موفر » « مفر » بمعنى الأرض الصالحة للزراعة بصورة عامة (٢) ، كما فسرها بعضهم بمعنى المزرعة والحديقة كما في هذه الجملة : « وجنا كل موفرتس ومحفدن » (٣) ، ومعناها « وسور كل مزرعته وحصنه » .

ويقال لكل نخل وشجر وزرع لا يسقى ، بل يشرب بعروقه من غير سقي « البعل » ، ويقال البعل أيضاً للأرض المرتفعة على غيرها ، والتي لا يصيبها سيح ولا سيل . وقد ورد في الحديث : ما شرب منه بعلاً ، ففيه العشر أي النخل النابت في أرض تقرب مادة مائها ، فهو يجتزيء بذلك عن المطر والسقي . وورد أيضاً في كتاب النبي لأكيدر : أن لنا الضاحية من البعل ، ولكم الضامنة من النخل . ويراد بالضاحية ما برز وكان خارجاً من العمارة في البرّ من النخل ، والضامنة ما يكون في جوف القرية من النخيل لتضمنها أمصارهم ، أو ما طاف به سور المدينة . ويطلق البعل أيضاً على

---

(١) شرح القاموس (٦/٣٠٩ وما بعدها) ، القاموس (٣/٢١٩) .

(٢) « والوفراء ... والأرض التي لم ينتقص من نبتها شيء » ، القاموس (٢/١٠٠) . « ويقال أرض وفراء ، إذا كان في نباتها فرة ، أي كثرة . وهذه أرض نباتها وفر ووفرة وفرة أي وفور » ، شرح القاموس (٣/٦٠٥) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58

(٣) نقوش خربة معين (ص ٢٥) ، النقش رقم ١٧ .

ما أُعطي من الإتاوة على سقي النخل (١) . وأما الزرع الذي لايسقيه إلا المطر ، فيقال له العذي (٢) .

وهم يعبرون في الغالب عن البساتين والحقول وكل المزارع التي تكون داخل حدود المدينة ، أو في ضواحيها وأطرافها ، بلفظة « اقنى » ، التي تعني الممتلكات . أما لفظة أرض والأرض التي تحدثت عنها ، فتطلق بمعنى « المزارع » والأرضين المزروعة إذا كانت خارج حدود القرى والمدن ، وتزرع عادة بالمزروعات الواطئة التي تحدثت عنها (٣) .

وتحدد الأرضون بحدود تعين معالمها وتثبتها . ويقال للحدود « وثن » أي حد ، ويجمع على « اوثنن » . وهناك لفظة أخرى تطلق على الحدّ هي « زنن » . وتعني الخط الفاصل الذي يعين الحدود (٤) . وتجمع اللفظة على « ازنن » .

وتذكر في العادة الجهات مع الحدود ، كأن يقال الحدود الأمامية مثلاً ، ويعبر عن ذلك بلفظة « قدمن » أي « القدام » ، أو الحدود الخلفية ويقال لذلك « خلفن » ، أو الحدود الشرقية بأن يقال : « شرقن » و « مشرقن » ، أو غرباً بأن يقال « ضرع » ، وتعني « ضرع » الغرب والغروب (٥) . أو « معربن » وتعني المغرب والغروب كذلك (٦) .

وقد ترد لفظة « حفذ » مع لفظة « وثن » ، ويراد بها « حدد » و « حد » ،

---

(١) شرح القاموس (٩/٢٦٦) ، القاموس (٣/٣٣٥) ، جامع الأصول (٥/٣٣٣) .

(٢) « العذي (بالكسر ويفتح) : الزرع الذى لا يسقيه إلا المطر ، وكذا النخل » ، شرح القاموس (١٠/٢٣٨) ، (٩/٢٦٦) ، القاموس (٤/٣٦١) ، المخصص (١١/٥٣) .

(٣) Rhodokanakis, stud., II, S 8, anm 3.

(٤) Rhodokanakis, Stud., II, S. 69, 72, Glasr 1061, Hofmus. 12.

(٥) « ومن المجاز ، ضرعت الشمس . غابت ، أو دنت للمغيب » ، شرح القاموس (٥/٣٢١) ، القاموس (٣/٥٦) ، Rhodokanakis, Stud., II. S. 70.

Glaser 1061, Hofmus 12, Rhodokanakis, II, 8. 72, 82, Rep. Semi., 852.

(٦) Rhodokanakis, Stud., II, S. 70. 75, 77,

و « حجز » و « حاجز » ، كما في هذه الجملة « ذن وثن حفذ » [١] بمعنى « هذا الوثن حدد » و« هذا الحدّ يحد » . وكما في هذه الجملة « وذن وثنن حفذ قني ومسفحت [٢] » ومعناها « وهذا الوثن يحـــدد مقتنيات ومسقى » ، أو « وهذا الحدّ يعين ملك ومسيل ماء ... »

ويقال في المسند لتحديد مكان ما ووضع سور حوله « كمت » . وهـــذه اللفظة قريبة من لفظة « Kimmatu » الأشورية التي تؤدي المعنى نفسه. ويكون التحديد إما بحفر قنوات وسواقي وخنادق ، وإما بوضع علامات وأعمدة تعرف بـ « وثنن » ، أي الوثن . ويراد بها النصب والجمع « اوثن » . ويقال للعمود الذي يبنى على الحـــدود « سن» و« زنن » . ومعناها اللغوي السنة والاتجاه . وتوضع هذه العلامات لتحديد الملك وتعيين معالمه ، فلا يتصرف رجل غريب بحق ملك شخص آخر . وتذكر هذه الحدود في وثائق التملك التي تدون لتثبيت هذه الحقوق [٣] .

وتحمى الأرض — ولا سيما التي تسقيها القنوات — بجدران وأسوار تمنع الغرباء من الدخول اليها والعبث بها . ويقال لهذا النوع من الأرض « محمت » و « محميت » و « محميم » ، أي الأرض « المحمية [٤] » . والحمى في المصطلح الإسلامي هو الأرض المخصصة بخيل الحكومة المعدة للقتال ترعى وحدها فيها ، ولا يسمح لأحد بادخال خيله فيها . وقد كان كبار رجال الجاهلية يحمون الأرض بأن يعينوا حدوداً لها ، فلا يجوز لأحد غير صاحب الحمى أو من يوكله الاستفادة من تلك الأرض . يفعلون

---

(١) Halevy 357.

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 86, Glaser 287, 288.

(٣) Rhodokanakis, Stud, Lexi,, I, S, 7. ff.

(٤) Rhodokanakis. Stud., II, S. 120, Mordtmann, Himj, Inschr,' S. 42, 44, nr., I Glaser 302,

ذلك في الأرضين الخصبة ذات الكلأ والعشب والماء .

ولا تزال هذه العادة متبعة حتى الآن . فـ « سجا » مثلاً وهو ماء يعد في حمى الأمير « فيصل آل سعود » خص به إبله وخيله [١] .

وحمى الجاهلية هو للأرض المعشبة . أما الأرضون المزروعة فلا تدخل في ذلك ، لأنها ملك لصاحبها ، أومستأجرة من صاحب الأرض . وقد أشير الى الحمى في الحديث النبوي ، حيث ورد النهي عنه في الاسـلام ، إلاّ أن يكون لله ولرسوله ، أي لعامة المسلمين ، حيث يكون نفعه عندئذ للمصلحة العامة . وقد ذكر الأخباريون « أن الشريف من العرب في الجاهلية كان اذا نزل بلداً في عشيرته ، استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد . وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله . فنهى ، صلى الله عليه وسلم ، أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون ، إلاّ ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد [٢] » . « ثم أطلق الجاهليون الحمى على ما يحميه ولو لم يكن كلب ولا صائح [٣] » .

لقد كان الملوك يمتلكون مساحات واسعة من الأرضين يستغلونها بأنفسهم هي ملك خاص بالتاج، بالاضافة الى الأرضين التابعة للدولة . ويستغل هذه الأرضين أجراء الملك وعبيده ، يشتغلون لحساب التاج في مقابل إعاشتهم ، فهم في ملك الملك ، وليس لهم الا ما يعطيه التاج لهم .

ولم يكن أكثر الفلاحين يملكون أرضاً ، وإنما كانوا يؤجرونها ويكترونها من الحكومة أو المعابد أو الأقيال والكبراء وسادات القبائل ، فهؤلاء كانوا ملاك الأرض

---

(١) محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (١/ ١٨) .

(٢) شرح القاموس (١٠/ ٩٩)

(٣) المصدر نفسه .

حتى القبائل اكترت الأرض من هؤلاء لتقوم مجتمعة بزراعتها واستغلالها مقابل بدل يتفق عليه . ويقال للاتفاق هذا « نحقل » في المسند [1] ، و « المحاقلة » في عربيتنا .

ولم ترد في نصوص المسند معلومات مفصلة عن المحاقلة عند العرب الجنوبيين . ولكن في استطاعتنا أن نقول إنها لم تكن تختلف في أسلوبها عن المحاقلة عند أهل الحجاز قبيل الإسلام . والمحاقلة عندهم اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شيء آخر . والمزارعة على نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر [2] ، أو على الأوسق من التمر والشعير [3] ، أو على الدينار والدرهم . وقد كانت تجري في منطقة المدينة في الغالب ، لتوفر الماء فيها . وقد عاش جماعة من سكانها على اكتراء الأرض من ملاكين يملكون أرضاً ومن مكترين لايملكون أرضاً [4] في مقابل شروط يؤدونها بحسب ما اتفق عليه .

وقد تسبب اشتطاط أصحاب الأملاك وتعسفهم بالمكترين واستغلالهم لهم واختلافهم على القسمة وتوزيع الحاصل أو الأداء الى وقوع حوادث مؤسفة ، والى حدوث نزاع بين المكترين وأصحاب الأرض . فلما كان الإسلام ، وجاء الرسول الى المدينة ورأى هذه الخصومات ، نهى عن إيجار الأرض وكرائها بقوله : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها ، فان لم يفعل فليمسك أرضه » [5] .

وقد ذكر بعض العلماء أن هذا النهي إنما وقع بسبب المنازعات التي كانت تقع فيما

---

(١) Rhodokanakis, Kata. Text,, I, S. 84.

(٢) القاموس (٣/٣٠٩) ، جامع الأصول (١١/٢٧٨) .

(٣) عمدة القاريء (١٢/١٨٠) .

(٤) عمدة القاريء (١٢/١٨٤) .

(٥) عمدة القاريء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، « باب ما كان من أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يواسي بعضهم بعضاً في الزراعة والثمرة » .

بين الطرفين ، لاتفاقهما على شيء مجهول ، وذكروا مثلاً آخر على ذلك هو كري المزارع على الأربعاء وبشيء من التبن . والربيع هو النهر الصغير . فتقع المنازعة وتبقى المزارع أو رب الأرض بلا شيء (١) . أما اذا كان الاتفاق على شيء واضح معلوم ، في مثل استئجار الأرض البيضاء من السنة الى السنة أو في آجال يتفق عليها بالذهب والفضة أي بالدنانير والدراهم ، فقد جاز ذلك كما ورد ذلك في كتب الحديث (٢) .

وكما مارس أصحاب الأملاك والمزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمزارعة ، مارسوا « المساقاة » كذلك . وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهم بتوجيه الماء الى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج الى ماء مقابل تعهد يقدمه الطرف الثاني الى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عين وما شابه ذلك ، في مقابل ذلك الماء . وذكر العلماء أن أهل المدينة كانوا يقولون للمساقاة المعاملة ، وللمزارعة المخابرة ، وللإجارة بيع ، وللمضاربة مقارضة ، وأن لهم لغات اختصوا بها (٣) .

وورد أن المخابرة ، هي المؤاكرة ، وهي المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . وفي الحديث نهى عن المؤاكرة (٤) .

وطالما وقعت الخصومات بين المزارعين بسبب اختلافهم على الماء . فالماء هو رأس مال المزارع ، فاذا انقطع عن زرعه ، تأثر زرعه ، وتعرض للهلاك ، وزرعه هو رأس ماله وحياته . ومن هذا القبيل الخصومات التي تقع بسبب اشتراك جملة مزارعين في بئر

---

(١) عمدة القاري (١٢/١٨٣) ، شرح الامام النووي على متن صحيح الامام مسلم ، (حاشية على ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري) ، (٦/١٠٠) .

(٢) عمدة القاري (١٢/١٨٤) .

(٣) اعمدة القاري (١٢/١٧٨ وما بعدها ، ١٨٨ وما بعدها) .

(٤) شرح القاموس (٣/١٧) ، جامع الأصول (١١/٤٧٢) ، شرح النووي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .

واحدة ، ومحاولة كل واحد منهم الحصول على أكبر مقدار من الماء ، أو أخذه قبل غيره . والخصومات التي تقع من سيل الماء في الشرائج ، والجداول التي تمر في عدة مزارع والينابيع والعيون التي تروى جملة أحواط ومحاقل . وقد أشير الى جملة أنواع من هذه الخصومات في كتب الحديث [1] .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن المزارعة العمل في الأرض ببعض ما يخرج منها ، والبذر من المالك . والمخابرة مثل المزارعة ، لكن البذر من العامل [2] .

وتضطر الظروف الاقتصادية المزارعين الى بيع الثمار وخضر البقول قبل بدو صلاحها ، ويقال لذلك « المخاضرة » [3] . فكان صاحب الأشجار والمزرعة يبيع ثمار زرعه لغيره ، فيبيع الثمار قبل أن تطعم ، ويبيع الزرع قبل أن يشتد ويفرك منه . وقد نشأت عن هذا البيع خصومات ومنازعات بسبب وقوع عاهات في الحاصل ، تفسد على المبتاع ربحه ، فيطلب عندئذ من البائع استرجاع ما دفعه له كله أو بعضه ، وتقع عندئذ الخصومات . وقد بقيت سنتهم على ذلك حتى مجيء الرسول الى المدينة ، فكانوا يأتونه للمقاضاة ، فوقع النهي منه على هذا النوع من البيوع ، ولم يسمح به إلا أن يبدو صلاح الثمر ، فيتبين صلاحه ونوعه . وعندئذ لا يحق لمبتاع التذمر من شرائه ، لأنه شاهد ما ينوي شراءه ورآه ، فلا غبن فيه [4] .

ومن بيع المخاضرة شراؤها مغيبة في الأرض ، كالفجل والكراث والبصل واللفت وشبهه ، وللفقهاء في ذلك جملة آراء [5] .

---

(١) عمدة القاري (١٢/١٨٨ وما بعدها) ، « كتاب المساقاة » .

(٢) ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤/١٧٧) ، القاموس (٣/٣١) .

(٣) القاموس (٢/٢١) ، شرح القاموس (٣/١٨٠) .

(٤) عمدة القاري (١٢/٢ وما بعدها) .

(٥) عمدة القاري (١٢/١٤) .

ومن أنواع البيع التي تعرض لها الفقهاء « المزابنة » . وهي بيع الثمر بالتمر كيلاً ، وبيع الزبيب بالكرم كيلا . وذكر بعض العلماء أن المراد بذلك بيع الرطب بالتمر ، وبيع العنب بالزبيب ، وبيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وذكر أيضاً أن من المزابنة بيع الثمر بكيل جزاف . وقد ورد النهي عن المزابنة ، وذلك بسبب الخصومات التي تقع بين المتبايعين والبائعين [1] .

وتعطى أرض التاج أيضاً لعشائر وقبائل تؤجرها من الحكومة بعقد يتفق عليه، تذكر شروطه في الوثائق التي تدون لهذه الغاية ، ويتم الدفع بموجبها ، فيكون إما عيناً وإما نقداً ، وذلك قبل تصرف المستأجر بالحاصل وأخذه حقه مما اتفق عليه .

وتعرف الأرضون الحكومية التي تعطى باللزمة والإجارة لمن لا يملكها بـ « مقبلة » و « مقبل » و « قبلة [2] » ، من أصل « قبل » . تعطى في مقابل تعهد يتعهد الملتزم والمؤجر بدفع مبلغ معين أوحصة معينة الى الملك أو ممثليه من الموظفين أو أصحاب الأرض ، وذلك في مقابل استغلاله للأرض [3] . وتعرف هذه الاتفاقيات بـ « وتف » . تعين فيها كل الشروط التي يتفق عليها الطرفان وتثبت ليرجع اليها اذا حدث اختلاف .

ولا يملك كل الفلاحون أرضين كافية لزراعتها والتعيش منها ، بل إن غالبيتهم لم تكن تملك شبراً من الأرض ، بل كانت تؤجر الأرض من أصحابها مقابل بدل يتفق عليه . وكثير منهم يضعون أنفسهم في خدمة الملاكين في مقابل جعل يدفع لهم ، فهم

---

(١) عمدة القارىء (١١/٢٩٠ وما بعدها) ، (١٢/١٣ وما بعدها) ، القاموس (٤/٢٣٠)، شرح القاموس (٩/٢٢٤) .

(٢) Rep. Epi., Tome, V, P. 209, Num 2876.

(٣) « والقبلة بالضم ... والكفالة ... والقبيل : الكفيل والعريف والضامن » ، القاموس (٤/٣٤) شرح القاموس (٨/٧٠) .

فلاحون أجراء . وبعضهم «ادم» «أدم» أي خدم يشتغلون لحساب صاحب الأرض، وهم في ملكه وفي ذات يمينه لا يجوز لهم ترك خدمة سيدهم ورفض العمل الذي يوكل اليهم ؛ لأنهم كما قلت ملك يمين ، ولسيدهم فرض أية عقوبة يراها على من يرفض العمل ويخلع طاعته ، وفي ذلك القتل .

ويستخدم الملاكون وسادة الأرض غيرهم ممن لا أرض لهم ولا مال لديهم يحصلون به على أرض يستغلونها ، يستخدمون هؤلاء وأمثالهم في الاشتغال بأرضهم وبمزارعهم لاصلاحها وزرعها وبنائها . ويعرف هؤلاء بـ « ملجا » في بعض نصوص المسند . واللفظة من أصل « لجا » التي هي « لجأ » في عربيتنا . وفي معجمات اللغة : لجأت الى فلان إذا آستندت اليه . فـ « ملجا » بمعنى : لاجيء وملجوء وملجأ في عربيتنا ، لأن اللاجيء يجد له ملجأ يلجأ اليه ويستند فيه الى حماية صاحب الملجأ له . ويقيم اللاجيء في ملجئه هذا ويتمتع بحماية صاحبه وسيده ما دام فيه ، يزرع ويبني لسيده في مقابل هذه الحماية التي يتمتع بها والحماية التي تحميه من أي ظلم أو اعتداء (١) .

ويعبر عن الأجراء الذين يستخدمهم الملاكون في زراعة الأرض وآستغلالها مقابل أجر يدفع اليهم بلفظة « اجرم » في المسند . أى « أجير » وأجراء . وقد كان الأجراء جماعة كبيرة ، تتنقل من ملك الى ملك ، ومن خدمة سيد الى خدمة سيد آخر ، تعرض خدمتها للمالك في مقابل أجر يتفق عليه ، وعقد يبرم بين المالك والأجير فإذا آنتهي العقد أو العمل ، أو رأى المالك انتفاء الحاجة الى خدمة الأجير ، أنهى عمله . وقد كان الأجراء طبقة بائسة لا تملك شيئاً غير عمل يدها ، ولهذا كانت مضطرة بحكم فقرها هذا الى التنقل من مكان الى مكان للحصول على عمل تقتات منه .

Kata. Texte, II, S. 36. (١)

فكانت من جملة المشكلات الاجتماعية التي تعرضت لها حكومات جزيرة العرب في ذلك العهد .

وأكثر الأساليب والطرق التي استعملتها الحكومات وكذلك أصحاب الأرضين وكبار الملاك في استحصال حقوقهم من الفلاحين ، لا تزال مستعملة في اليمن وفي أكثر أنحاء الشرق الأدنى التي تسير على الطرق القديمة في الزراعة ، والتي تمتلك الحكومات والشخصيات المتنفذة فيها معظم الأرضين . ففي مثل هذه البلاد لا يكون للفلاح رأي مسموع في حاصله وفي ناتجه الذي يعيش عليه ، بل يكون الرأى المسموع فيها لأصحاب الأرضين ولحكومات الإقطاعيين . وعلى رأسهم الملوك ، وهم من أكبر رجال الإقطاع والملاكين للأرض بالطبع .

وتستحصل الحكومة وطبقة الملاكين أصحاب الأرض حقوقهم المفروضة أو المتفق عليها من الحاصل ، ويقدر هذا الحق والمحصول بعد في مكانه وموضعه لم يجمع ولم يقطف من شجره . وفي استطاعة الحكومة الاستيلاء على الغلة كلها ، إذا ارتأت ذلك لضمان استحصال حقها من الناتج ، فتأخذ حصتها وديونها ، ثم تترك ما يفيض عن ذلك لصاحب المال ، وهو الفلاح ، ليؤدي ما عليه الى مالك آخر ، يستغله استغلالاً فظيعاً في بعض الأحيان ، هو صاحب الأرض ، أو المعبد إن كان هو المالك لتلك الأرض . ولا يسمح للفلاح باقتطاف ثمرة جهده وتعبه والتصرف فيه بانزاله الى السوق إلا بعد دفع حصة الحكومة وحصة صاحب الأرض . فإذا فعل ذلك ، جاز له التصرف بما تبقى له ، وهو كل حقه من عمله ، أي أجره الوحيد على ذلك العمل .

ويقال لتقديم الفلاح أو المالك الحصص عيناً « دعتم »[1] « دعت » ، ومعنى ذلك أن تلك الحصة تكون غلة ، تأخذها الحكومة فتضعها في مخازنها ، أو تصرفها

---

(١) Handb. der altara. alter., S. 137,

في الأسواق ، أو تصدرها في جملة ما تصدره الى الخارج من بضاعة على طريقة التجار .

وقد رأينا أن الملوك أو المشايخ رؤساء الإمارات أو المشيخات كانوا أنفسهم تجاراً ، مثل سائر التجار ، يصرفون أموالهم في الأسواق الداخلية أو الأسواق الخارجية ، ويمكن اعتبار الحكومة في هذه الحالة مؤسسة تجارية ، الملك فيها هو صاحب تلك الشركة أو المساهم الأكبر ذو الحظوة العظمى بين كبار المساهمين .

أما في حالة المصادرة ، أي مصادرة الحكومة لحاصل الفلاح أو المالك المستغل للأرض ، في مقابل أخذ حصتها أو استحصال ديون لها على الفلاح أو المالك ، فيقال لذلك « رزمم » « رزم »[1] .

وأما إذا كان الدفع نقداً ، فيقال لذلك « ورقم » « ورق » ، وأما إذا كان عيناً كما في حالات الطحين ، فيقال لذلك « طحنم » ، أي طحيناً[2] . وقد يقدم تمراً أو حبّاً أو قصيلا أو غير ذلك ، بحسب العرف والعادة والقوانين النافذة في ذلك العهد .

ويعبر في لغة القرآن الكريم عن الشخص الذي يقوم بتقدير حق الحكومة من أصحاب الزراعة ، ولا سيما أصحاب النخيل ، بـ « الخرّاص » ، من الخرص وهو الحزر والحدس والتخمين . وهو يذهب الى المكان المراد تقدير ثمره ، فيطلع عليه ويخرص مقدار ثمره ، ليؤخذ على أساسه حق الحكومة أو المشيخة . وفي الحديث : أن النبي كان « يبعث الخراص على نخيل خيبر عند إدراك ثمرها ، فيحزرونه رطباً كذا ، وتمراً كذا »[3] .

وتأخذ الحكومة ضرائب من صاحب الأرض ومن المزارع باعتبارها ضريبة دخل ، وهي غير الضرائب المتقدمة التي تأخذها عن ايجار الأرض ، لتكون مورداً

---

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه .

(٣) شرح القاموس (٤/٣٨٥) .

من موارد الدخل لها . وهي عالية في الغالب ، ولا سيما بالنسبة الى المزارعين المالكين لأرضين صغيرة وللمزارعين الذين يشتغلون بأجور ، أو يستغلون الأرض بالمحاقلة . فعلى هؤلاء دفع عوائد أخرى الى سادتهم أصحاب الملك ، وإلى رجال الدين الذين يطالبون المزارعين بدفع زكاة زرعهم لهم قسراً ، فلا يبقى لدى هؤلاء من غلتهم إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يكفيهم . فعاش الفلاح في ضنك من العيش . وهذا مما أثر على الوضع العام بالطبع .

أما كبار الملاكين ورؤساء القبائل ، فلم يكونوا يدفعون الى حكومتهم إلا جزءاً صغيراً من دخلهم الذي يحصلون عليه من الزرع . فقد كانوا يتحايلون عليها في تقدير غلاتهم ، كما كانوا يحملون المزارعين والمستأجرين لأملاكهم وأفراد قبيلتهم العبء الأكبر في دفع الضرائب . فقد كانوا هم الذين يقومون بجمع الغلة وتوزيعها وافراز حصة الحكومة وحصة المعبد والحقوق الأخرى المترتبة على المزارع . فكانوا يتناولون حصصهم كاملة وزيادة ، ويحملون مزارعيهم ومن يشتغل في خدمتهم دفع حصة الحكومة والمعبد ، فلا يقع عنهم من باقي الحصة إلا الشيء القليل. يقع ذلك والحكومة عارفة به ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، لنفوذ كبار الملاكين ورؤساء القبائل وسلطانهم على أتباعهم الموروث من العادة والعرف .

وقد وصلت الينا وثائق مهمة تتضمن أوامر ملكية في كيفية استغلال الأرضين وتنظيم الزراعة ، عرفت باسم « وتقم » « وتف » ، يصدرها الملك عادة الى رئيس أو جملة رؤساء ، يتعهدون للملك بتنفيذ ما اتفقوا عليه ، ويقوم الرئيس أو الرؤساء باستغلال الأرض وتنفيذ الاتفاقية بتكليف أتباعهم أداء الأعمال ، وذلك باستغلال الأرض بحسب الشروط التي يتفق الرئيس أو الرؤساء عليها مع وجوه القبيلة وأفرادها ، ليقوم الرئيس في النهاية بأداء ما عليه بموجب هذه الاتفاقية أي الـ « وتف » الى الملك .

ويتبين من هذه الاتفاقيات أن الرؤساء الذين يتعاقدون مع الحكومة على استغلال الأرضين ، كانوا هم المسؤولين أمام الملك أو من يعينهم عن تنفيذ الاتفاقيات . أما الفلاحون ، فيقومون بأعمال الفلاحة والزراعة وما يتعلق بذلك بحسب الاتفاقيات التي يعقدونها مع رؤسائهم الصغار ، أي الملتزمين الثانويين للأرض ، أو مع الملتزم الكبير وهو الرئيس .

ولأهمية هذه العقود بالنسبة الى خزينة الحكومة ، ولكونها المصدر الممول لها ، فقد صبغت في الغالب بصبغة دينية ، بأن تبارك بذكر أسماء الآلهة فيها ، آلهة الشعب ، أو آلهة الموضع الذي تشمله الاتفاقية ، أو آلهة القبيلة التي ينتمي الرئيس اليها ، وليكون ذلك أوثق للعهد وأقوى للوفاء .

وتشمل الـ « وتف » العقود التي تعقد بين المعبد والوجهاء وسادات القبائل أيضاً ، فكانت للمعابد أوقاف واسعة حبست على الآلهة ، ولهذا يقوم المعبد باعطائها على سبيل « اللزمة » للقبائل والفلاحين ، يلتزمون أنفسهم استغلالها في مقابل شروط تدون في هذه العقود [1].

وأكثر هذه العقود هو مما يخص « بني مرثد » ، مما يدل على أن هؤلاء لم يكونوا يمتلكون أرضاً ، أو أن الأرضين التي كانوا يقطنونها ويستغلونها لم تكن تكفيهم ، ولهذا لجئوا الى استئجار أملاك الوقف المحبوسة على الآلهة والتي تشرف المعابد على ادارتها واستغلالها باسم تلك الآلهة التي خصصت بها ، فأجروها منها مقابل شروط مناسبة وافق الطرفان المتعاقدان عليها . ولما كان من الصعب على رجال المعابد ادارة تلك الأموال واستغلالها بأنفسهم ، صار لزاماً عليهم اعطاؤها للمستأجرين لاستغلالها

(١) Handb. der altara. alter., S. 140, Osiander 4, die Bodenwirtschaft, S. 21, 23. CIH 74, 99, Glaser 131.

بموجب هذه العقود .

ولدينا جملة نصوص يفهم منها أن بعض المتعاقدين من مستأجري أملاك المعبد قد قدموا نذوراً وذبائح الى الآلهة التي أوقفت عليها الأرض المستأجرة ، لأنها أعطتهم غلة طيبة وحاصلاً وافراً طيباً بعد فقر وجوع . ويظهر من بعضها أن أولئك المستأجرين المتعاقدين كانوا قد تهاونوا في تنفيذ ما ورد في العقد ، أو أنهم أخلوا بها عمداً ، فلم ينفذوا ماجاء فيها ، واتفق أن نزلت آفات طبيعية بزروعهم ، حل بهم جفاف أتلف معظم حاصلهم ، ففشا الجوع بينهم ، ففسروا ذلك على أنه غضب حلّ بهم من آلهتهم ، وانتقام نزل بهم منها . ولهذا كفّروا عن ذنوبهم وتابوا عما ارتكبوه من آثام ، بعدم تنفيذهم تلك الاتفاقيات ، وعاهدوا آلهتهم على ترضيتها وتقديم الذبائح اليها في كل عام بانتظام ، إن هي غفرت لهم قبح أعمالهم ، وباركت في زروعهم ، وهم في مقابل ذلك سيوفون بالعهد ، ويؤدون ما فرض عليهم في « الوتف » كاملاً غير منقوص (١) .

وكأن أصحاب « الوتف » كانوا يريدون خداع الآلهة بتقديم الذبائح اليها للحصول على منافع اقتصادية وعلى مغانم من رضى الآلهة عنها بارسالها المطر اليهم ، ومنحهم غلة طيبة وثمراً كثيراً وافراً . وهم بالاضافة الى ذلك يرون في تقديم هذه الذبائح قربى اليها وتودداً لها . ولكن الجانب المادي والأرباح المأمولة من الحصاد الطيب والغلة الوافرة هي في نظر أصحاب «الوتف» أهم من الناحية الدينية ؛ فعلى كثرة الحاصل أو قلته تتوقف أحوال حياتهم ومعيشهم وأموالهم ، فهم إذا قدموا الذبائح أو حافظوا على الوفاء بشروط « الوتف » ، فانما يبتغون الغلة الوافرة والحصاد الطيب والثمر الكثير بالدرجة الأولى .

وترد لفظتا « سطر » و « صحفتن » في عقود « الوتف » . ويراد بـ « سطر »

(١) Osiander 10, Rhodokanakis, Stud., II, S. 158.

الـكتابة والتدوين ، والسـطر والسطر . وأما « صحفتن » « صحفت » ، فيراد بها « الصحيفة » كما في هذه الجملة : « هن سطر وصحفت ذن وتفن »[1]، ومعناها : بموجب هذه السطور وصحيفة هذا الوتف ، أو بموجب هذه الـكتابة وصحيفة هذا الوتف . وذلك مما يدل على أن أصحاب « الوتف » كانوا يسطرون عقود الوتف على الألواح الحجر ليقرأها الناس ويقفوا على ما فيها ، كما كانوا يكتبونها في الصحف بالطريقة المفهومة من الـكتابة ، أي بحبر وبقلم وقرطاس [1] .

وقد ورد في احـدى كتابات « الوتف » وعيد بأن ينزل الإلـه رب السماء « ذو سموي » غضبه ولعناته وكل سوء ، وأن يلحق البؤس « يبأس » بكل « نفس » إنسان لا يبالي بأوامر ذلك الإلـه ، فيسرق « ذيسرقن » محرمه ، ويسرق من أموال محرمه بقراً « بقرم » ، أو غير ذلك كما أشير الى العقوبات التي ستنزل بذلك الإنسان المتطاول المخالف لأوامر الآلهة[2] . عقوبات « عذبن » «العذاب» تنزلها الآلهة على أولئك الأشخاص وتنزلها القبيلة المخلصة لآلهتها ، ووردت في نهاية الـكتابة هـذه الجملة : « وذسموى ليزا متعن شعبهو [3] » ، أي وليمتع ذو سموى رب السماء شعبه .

ولهذا النص أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنه شاهد ناطق على أن الإنسان عند الحاجة وعند تصوره وجود منفعة وفائدة له لا يعبأ بسرقة آلهته وبالسطو على ما في معابدها من أموال وحلال ، وأنه لا يتردد من السطو على أوقاف تلك الآلهة وأخذ ما فيها . لا فرق في ذلك بين انسان قديم ، كان للدين عليه وعلى مجتمعه نفوذ وسلطان وبين مجتمع حديث تهذب فيه الإنسان وارتفعت فيه مداركه ومزاياه ، فها نحن أمام

---

(١) Rhodokanakis Stud., II, S 162.

(٢) Rep. Epi. Semi., 820,

(٣) الفقرة السادسة من النص المذكور ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 162.

جماعة سرقت معبد « محرم » إلاهها « ذو سموى » رب السماء ، ولم تكتف بسرقة ذلك المعبد ، بل سرقت البقر في الأرض المحبوسة على ذلك الإله . ولهذا أمر رجال ذلك المعبد الرجال الناطقين باسم ذلك الإله بكتابة ذلك النص ليقرأه الناس وليروا ما فيه من لعنات ستنزل على من يتجاسر على مخالفة أوامر ذلك الإله ، فيسرق معبده ويسرق بقره . ولكن هل يخاف من ذلك جميع الناس ؟

ويلاحظ أن النص قد اعتبر القبيلة وحدة اجتماعية مسؤولة أمام الإله عن كل ما اقترفه أفرادها من سرقات وآثام . فاذا سرق أحدهم من معبده أو ألحق أضراراً بأملاكه ، صارت القبيلة مسؤولة قانوناً وكلها أمامه ، وعليها أن تقوم بإنزال عقابها بالفاعل ، بالاضافة الى العقاب الذي يفرضه المعبد عليه . وبايقاع المسؤولية على القبيلة كلها ، يكون المعبد قد أمن بذلك من غدر الأفراد المجهولين ، ومن تطاول السرّاق المتسترين على أموال المعابد والآلهة ، ومتى وجدت القبيلة أنها مسؤولة عن ذلك بالتضامن ، فانها تكون حذرة وعيناً على السرّاق والمفسدين ، فتقل بذلك حوادث السرقات بالنسبة الى أموال المعابد والأوقاف .

ولدينا جملة عقود ايجار أرضين ، أي عقود « وقف » تمت بين كبار الإقطاعيين وسادات القبائل وبين رجال الدين : عقدت باسم الآلهة التي حبست باسمها تلك الأرضين . ولاقتران أسماء الآلهة في هذه العقود بأسماء المستأجرين باعتبار أن الآلهة هم طرف واحد مؤجر للأرض، والمستأجرين هم طرف ثان فيه ، نعت المستأجرون والمتعاقدون والموقعون على هذا العهد أنفسهم بـ « ادم » و « ادمهو » أي « أوادم » في اصطلاح أهل العراق اليوم ، وعبيد في اللهجة الفصحى ، وذلك على سبيل التواضع بالنسبة الى الآلهة والتعظيم لها .

وترد لفظة « ذررن [1] » بمعنى الذراري أي الذرية . ترد في النصوص الزراعية وفي نصوص التملك والإرث .

وقد كان الفلاح مغبوناً في الأكثر ، ذلك لأنه بحكم فقره ، واضطراره الى استئجار الأرض بشروط صعبة في الغالب ، مضطر الى الاستدانة في أغلب الأحيان ، لضمان معيشته في مقابل تعهده بدفع ما استدانه في آخر مواسم الحصاد وقطف الثمر ، فاذا حل الأجل ، اضطر الى دفع ديونه وما ترتب عليها من ربا فاحش ، وما عليه من حق للحكومة ولصاحب الأرض ، فلا يتبقى لديه ما يكفيه في عامه الجديد ، فيضطر الى تجديد الاستدانة ، والغالب أن أصحاب الأرض هم الذين يقومون بتقديم الديون الى الفلاحين ، لربطهم طول حياتهم بالأرض .

ويعبر عن الاستدانة بلفظة «عرت» «عرة» أي الإعارة [2] ، وهي أخذ شيء ثم اعادته الى صاحبه أو إعادة مثله . أما إذا اعيد الشيء فيعبر عنه بـ « هوفي » أو « وفى » و « أوفى » ، ويعبر بهذه اللفظة عن الوفاء بالوعد والاستجابة كذلك ، كاستجابة الآلهة لمطالب الناس .

وقد عرف الاقطاع في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، وبقي معروفاً في الإسلام . ويكون الاقطاع إما بإقطاع رجل أو أكثر أو قبيلة أرضاً معينة معروفة الحدود والجهات ، لاستغلالها والاستفادة منها ، وإما بتحديد يتفق عليه ، كأن تعين الحدود بجري فرس ، أو برمية سهم من قوس ، أو بمقدار ما يسمع منه عواء كلب ،

---

(١) راجع السطر الرابع من النص :

Rep. Epi. Semi., VII: II, P. 157, Num., 4231.

(٢) Rhdokanakis. Stud. Lexi.. I. S. 60.

وبأمثال ذلك من عرف جرى القوم عليه [١] .

ولم يقتصر الاقطاع على إقطاع الأرضين الزراعية للاستفادة منها ، بل شمل اقطاع المعادن أيضاً ، كأن يعطى شخص أو جماعة « معادن » للاستفادة منها ، فما يعثر عليه من معدن يكون ملكا لصاحب الاقطاع ، ويدخل في ذلك الملح . ويكون حد الاقطاع حدّ الموضع المذكور . وقد يخصص المعدن بأن يذكر اسمه ، وربما لا يذكر ، فيكون عامة ما يعثر عليه من معادن . وقد أبطل الإسلام اقطاع الماء ، ففي الحديث : « المسلمون شركاء في ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار » [٢] .

وقد عبر في أحد النصوص عن الأرض التي آلت الى صاحبها بطريق التملك بـ « مقبلت قنيو »[٣] ، أي الأرض التي أقبلت الى الشخص بطريق الملكية . ومعناها الأرض المقتناة أي الملك . وهي أرض ملكها صاحبها إرثاً من أهله ، وذلك تمييزاً لها عن الأرض التي يتملكها صاحبها شراء وقد عبر عنها بـ « شامتهو » [٤] ، و « شام » بمعنى اشترى ، فمعناها مشتراة ، أي الأرض المشتراة .

والأودية هي من أهم مناطق الزراعة في اليمن وفي العربية الجنوبية وفي بقية أنحاء جزيرة العرب ، ففيها الخصب والنماء والماء . ويقال للوادي « سرن » « السر » و« سرم » « سرٍّ » ، والجمع « اسرر » ، في العربيات الجنوبية وتحفر فيها الآبار للإرواء ، أو تروى بالعيون والحسى والمياه الجوفية القريبة من سطح الأرض . وقد يؤجر الوادي برمته ، وقد يباع أملاكاً لأناس متفرقين يزرعونها لحسابهم ، وتكون أرضاً حلالاً لهم .

---

(١) جامع الأصول (١١/٢٢٧ وما بعدها) « في الاقطاع » .

(٢) جامع الأصول (١١/٢٢٧ وما بعدها ، ٢٣١) ، شرح القاموس (٩/٢٢٥) .

(٣) Rep. Epi, Tome, V, P. 209, Num. 2876.

(٤) الفقرة الثالثة من النص المذكور .

وتحيا هذه الأودية ويحافظ عليها لئلا تكون في الأرض الموات ، ويعبر عن إحياء الأرض بلفظة « هحيو » أي «أحيوا » و« هحي »أي « أحيا » [١] .

أما في اللهجة الصفوية ، فيقال للوادي «نخل» ، كما في هذه الجملة: « ورعى هنخل بقل بذكر سنت كشم وهنال » [٢] ، ومعناها « ورعى البقل بوادي ذكر . سنة كشم وهنئال » ، أو « ورعى بوادي بقل بذكر . سنة كشم وهنأل » . وفي جملة : « ورعى هنخل نزع »[٣] ، ومعناها « ورعى الوادي نزع » ، وبعبارة أخرى « ورعى بوادى نزع » . وبهذا المعنى وردت هذه اللفظة في العبرانية ، وفي مواضع من العهد القديم [٤] .

وفي العبرانيه ألفاظ أخرى لها صلة بمعنى الوادي ، منها : « عيمق ‘emeq » و « شفيلة Shephelah » و « كائي gai’ » [٥] .

وقد عثر على كتابات عديدة بالمسند في مواضع متعددة من الأودية ، تتحدث عن حفر آبار وعن زرع وتملك لهذه الآبار المحفورة فيها وأسماء تلك الأودية والمواضع التي حفرت تلك الآبار بها . وورد فيها بعض الكلمات والمصطلحات التي آستعملها الناس يومئذ في حفر الآبار ، مثل لفظة « هقح » ومعناها حفر ، ولفظة « هشقر »ومعناها غطّى وكسا البئر بجدار يمنع سقوط حائطها فيها خشية أن يؤدي ذلك الى تهدم البئر، وذلك

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 160.

(٢) Cis, Ins. Sarac., Pars quinta, P. 44, Num. 269, Dunand, 1330a.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٤) Marcus Jastrow, Dictionary of Talmud Babli Yerushalmi midrashic Literature and Targumm, II, P. 894.

(٥) Hastings, P. 105, 957.

كما في هذه الجملة : « وهقح وهشقر بارهو » [1] ، ومعناها « وحفر وغطّى بئره » .

ويقال للمضايق ولضيق الأودية « ضيفت » ، وتعني التضايق كذلك ، فعندما يضيق الوادي ويكون ضيقاً يقال له « ضيفت » حينئذ ، أي المضيق بين جانبي الوادي [2] .

ويعبر في المسند عن العناية بالأرض والزرع بألفاظ عديدة ، كما هو الشأن في عربيتنا وفي سائر اللغات . فالزرع يحتاج الى عناية في جميع مراحل نموه ، والأرض تحتاج الى عناية كذلك ، ويعبر عن هذه العناية بألفاظ متعددة تعبر عن نوع تلك العناية ، مثل تمهيد الأرض للزرع ، أو إعدادها للحراثة وأمثال ذلك . ويعبر عن العناية بالأرض أو الزرع بلفظة « سعهد » في المسند . ويراد بها ما يقابل « اعتهد » و « تعهد أرضه » أو « تعهد ضيعته » [3] . ويعبر عن إعداد شيء ما والانتهاء منه بلفظة « هقح » ، وهي من الألفاظ التي ترد في مصطلحات البناء كذلك . فإذا انتهى من الزرع وتم ذلك ، قيل « هقح » . وإذا أريد التعبير عن الاعداد وما يقابل لفظة « صار » ويصير قيل « صير » . وتؤدي لفظة « هقح » معنى التسقيف ووضع غطاء على شيء كذلك ، وذلك كما في هذه الجملة « وهقح وهشقر بارهو » أي « وسقّف وحفر بئره » [4] .

ووردت لفظة « سقح » بمعنى زرع وغرس ، كما في هذه الجملة : « وسقح كل اسررس وجروبس » ، أي « وزرع كل الأودية والجروب » [5] .

---

(١) Mordtmann Und mittwoch, Altsu. Inschr,, S. 9.

(٢) Rhodokanakis, Stud., II. S. 52.

(٣) Rhodokanakis, Kat. Texte, II, S. 22. f.

(٤) Kat Texte, II S. 35. Mordtmann und Mittwoch, Altsu. Inschr, S. 9.

(٥) Rhodokanakis, Kat. Texte., II, S. 28, SE 48

وقد فسر بعض علماء العربيات الجنوبيـة لفظة « سقح » بمعنى هيأ الماء وجمعـه وأجرى السواقي والأرض وحفر القنوات ومهدها للزرع ، وبعبارة مختصرة « التمهيد » لـكل شيء ولـكل عمل [1] . وذلك كما في هذه الجملة « صير وبقر وجرب وبقل وسقح كل اسررم وجربم » [2] ومعناها « صيروحرث وعمل المدارج وزرع البقل ومهد كل الأوديـة والجرب » . ومعنى « صير » ، هنا هيأ ، أي هيأ الأرض واللوازم الضرورية للحرث والزرع .

وترد لفظة « راب » ، بمعنى قرر وجزم واصلح وجمع الشيء وشـــده . وهي « رأب » في عربيتنا [3] . وورد رأبت الأرض بمعنى خرج نبتها .

ولا بد من حرث الأرض وتنقيتهـا من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها ، وذلك قبل الشروع بالبذر أو بالغرس . وهم قد يسقون الأرض المراد حراثتها بالماء أولا ليكون من السهل على الأكّار حرث الأرض وتعزيقها . وربما لايسقونها ، بل يحرثونها مباشـرةً . وقد كان بعضهم يحرق الأعشاب والأدغال وما يجـده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوسـاخ ، وذلك للتخلص منها ، وللاستفادة منها في تقوية التربة وزيادة نمائها ، ثم يقومون بحراثتها فيندمج رمادها في التربة ويصير جزءاً منها . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع ونظمت وفقاً لنوع الزرع الذي سيكون فيها ، على هيـأة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقي والقُنِيّ ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك في الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه في العادة بحرث أرضه واصلاحها وتمهيدها للزرع . وقد يقوم بالحراثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم ،

---

(١) Rhodokanakis, Kat. Texte, II, S. 35.

(٢) Rep. Epi., 3856.

(٣) شرح القاموس (٢٥٩/١) . Kat. Texte, II, S. 36.

ويقال للواحد منهم الحرّاث . والأكّار، من أصل « الأكر » وهو الحفر، ولذلك قيل للحراث « الأكّار »[1] .

وأساليب الحراثة تكاد تكون واحدة عند جميع شعوب الشرق الأدنى. وبعض هذه الأساليب بدائي جداً، يُستعمل في حراثة الأرضين الصغيرة بصورة خاصة. فتستعمل الحجارة أو الأخشاب أو الفؤوس على اختلاف أنواعها ، وبعضها متقدم نوعاً ما يعتمد على المسحاة وعلى آلات الحراثة التي تجرها الحيوانات، وتستعمل هذه الطريقة الأخيرة في حراثة المزارع الكبيرة .

والحيوانات المستخدمة في الحراثة هي الثيران والحمير والخيل والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقلتها ، ويستعمل في الحرث حيوان واحد حيناً وحيوانان حيناً آخر . وقد وصلت الينا بعض النصوص الجاهلية محفوراً فيها صور حيوانات تحرث ، تجرّ المحراث ويسوقها الفلاح . وهي تمثل طريقة الحراثة عند أهل اليمن في ذلك العهد .

ويظهر من كتب الحديث أن اعتماد أهل الحجاز في الحراثة كان على البقر . وقد ورد في الحديث : « بينما رجل راكب على بقرة ، التفتت اليه ، فقالت : لم اخلق لهذا ، خلقت للحراثة .. »[2] . ويظهر أنهم كانوا يستعملون الكلاب في الحراثة كذلك . ففي الحديث : « كلب حرث » . وقد ورد أيضاً « كلب غنم » و « كلب ماشية » و « كلب صيد » و « كلب زراعة »[3] .

---

(١) القاموس (١/٣٦٥) ، شرح القاموس (٣/١٢) .

(٢) عمدة القاري، (١٢/١٥٩ وما بعدها) « باب استعمال البقر للحراثة » .

(٣) عمدة القاري، (١٢/١٥٧ وما بعدها) ، جامع الأصول (٢/٤٦١ وما بعدها) « في ذكر الكلاب واقتنائها » .

وقد كانت آلات الحراثة تشبه الآلات التي يستعملها الفلاحون في الزمن الحاضر، فهم يستعملون « الفدان » في الفدن ، و « الفدّان » الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقـال للواحد فدّان [1] . وذكر أن الفدان هو « الهَيْس» بلهجة أهل اليمن ، وجماعة آلة الفدان من عيدانها وحديدها في لغة أهل عُمان [2] .

ومن الآلات المستعملة في الحفر، المحفار، وهي المسحاة وغيرها مما يحفر به[3]. وأما المِخَدّة ، فحديدة تخدّ بها الأرض [4] . ويستعمل المِعْوَلُ في تكسير الحجارة والحفر . وأما المسحاة ، فانها كالمجرفة ، وهي من حديد ، وصانعها سحّاء ، وحرفته السِّحاية [5] .

واستعمل العمال الجاهليون معاول قوية غليظة لكسر الحجارة وتنقيرها . من هذه « الملطس » والجمع « ملاطيس » ، وهي من حديد [6] . وقد استعملت في نقر الحجارة التي تستعمل في البناء ، وفي نقر الرحي أيضاً . والصوقر والصاقور : الفأس العظيمة التي لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة [7] . والخنزرة . والمقراع [8] .

ومن المصطلحات المستعملة في الحراثة ، العزق ، وهو تشقيق الأرض بفـأس .

(١) فدان على وزن هداد ، القاموس (٤/٢٥٥) ، « كسحاب وشـداد » ، شرح القاموس (٩/٢٩٩) ، المخصص (١٠/١٥٢ وما بعدها) .

(٢) المخصص(١٠/١٥٢ وما بعدها) ، القاموس (٢/٢٦٠) ، شرح القاموس (٤/٢٧٦) .

(٣) « والمحفر والمحفار والمحفرة المسحاة » القاموس (٢/١٢) ، شرح القاموس(٣/١٥٦).

(٤) المخصص (١٠/١٢) .

(٥) شرح القاموس (١٠/١٧٠) .

(٦) شرح القاموس (٤/٢٤١) .

(٧) شرح القاموس (٣/٣٣٩) .

(٨) المخصص (١٠/٩٩ وما بعدها) ، القاموس (٣/٦٧) .

والأداة المعزق والمعزقة[1] . والكور الحفر، ومنها كرت الأرض كوراً أي حفرتها[2]، والجوّار الأكّار ، والأكار الحرّاث[3]. والتربيك في الحرث رفع الأعضاد بالمِجْنب[4]. والكَرَمُ من الأرض التي عدنوها بالمعدن حتى نقّوا صخرها وحجارتها ، فتركوا مزرعتها لا حجر فيها ، وهي أفضل أرضهم . والأرض الكرم يحرث فيها البرّ ، وهي سهلة لا تحتاج الى العدن[5] . والمعدن الصّاقور . ويقال عدنت الأرض أي أصلحتها[6] . وأما قولهم نخنختُ الأرض فبمعنى شققتها للحرث . والنخة البقر العوامل[7] . ويقال رضمت الأرض اذا أثرتها[8] . وأما وطدت الأرض فبمعنى ردمتها لتصلب ، والميطدة خشبة يوطد بها المكان من أساس بناء وغيره ليصلب[9] . ويقال شحبت الأرض شحباً وأشحبها . إذا قشرت وجهها بمسحاة وغيرها ، وهي

---

(١) « وكمنبر ومكنسة ، آلة كالقدوم أو اكبر لعزق الأرض ، وللمذراة يذرى بها الطعام » ، القاموس (٣/٢٦٤) ، شرح القاموس (٧/١٢) .

(٢) شرح القاموس (٣/٥٣١) .

(٣) القاموس (١/٣٦٥ ، ٣٩٤) ، شرح القاموس (٣/١٧) ، « والجوار كـكتان الأكار . وفي التهذيب : هو الذي يعمل لك في كرم أو بستان » ، شرح القاموس (٣/١١٣) .

(٤) المخصص (١٠/١٤٨ وما بعدها) ، القاموس (١/٤٩) .

(٥) المخصص (١٠/١٤٨) ، شرح القاموس (٩/٤١ وما بعدها) .

(٦) المخصص (١٠/١٤٨) ، شرح القاموس (٩/٢٤٧ وما بعدها) .

(٧) المخصص (١٠/١٤٨) ، « النخة : الحمر . وهو اسم جامع لها . قال : ويقال لها الكسعة ... وقال قوم : المربيات في البيوت . وقال أبو سعيد : كل دابة استعملت من ابل وبقر وحمر ورقيق فهي نخة . وقال قوم : النخة الرعاء . ويضم ... وقال آخرون : النخة الجالوف » ، شرح القاموس (٢/٢٨٢) .

(٨) « ورضم الأرض يرضمها رضماً : أثارها لزرع ونحوه يمانية » ، شرح القاموس (٩/٣١٣) .

(٩) القاموس (١/٣٤٥ وما بعدها) .

يمانية (١) . ويقال لكل واحد من أخاديد الأرض تَلَمٌ والجمع التِلام . وهو مشق الكراب في الأرض بلغة أهل اليمن (٢) . والخرق بمعنى شق الأرض للحرث ، وخضضت الأرض بمعنى قلبتها (٣) .

ويشتغل الفلاح بعد حراثة الأرض باصلاحها ونثر الحب فيها نثراً متساوياً منتظماً ، ويستعمل لذلك بعض الآلات ، مثل « المالَق » و « المِمْلَقَة » . وهي خشبة عريضة ، تجرها الثيران ، وقد أثقلت لتستوي آثار السِّنَّة واللؤمة فتتلمّا على الحب (٤) . و « المِجَزّ » ، وهي شَبَحة فيها أسنان وفي طرفها نَقْران يكون فيهما حبلان وفي أعلى الشبحة نقران فيهما عود معطوف ، وفي وسطها عود يقبض عليه ثم يوثق بالثورين فتغمز الأسنان في الأرض حتى تحمل ما قد أثير من التراب حتى يأتيا به المكان المنخفض (٥) . و « المِجْنب » وهي شبحة مثل المشط ، إلا أنها ليست لها أسنان ، وطرفها الأسفل مرهف يرفع بها التراب على الأعضاد والفلجان (٦) .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن طرح البذر في الأرض بلفظة «زرع» . ويقال أيضاً : زرعت الشجر كما يقال زرعت البُرّ والشعير . والزرع الإنبات . ومن هذا الأصل لفظة « الزرع » و « الزراعة » (٧) .

---

(١) المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (١/٨٥ وما بعدها) .

(٢) المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (٤/٨٣) .

(٣) المخصص (١٠/٢٤٨) .

(٤) المخصص (١٠/١٥٤) ، القاموس (٣/٢٨٤) ، « وقال النظر : هي الخشبة العريضة التي تشد بالحبال الى الثورين ، فيقوم عليها الرجل ويجرها الثوران ، فيعفي آثار اللؤمة والسن » ، شرح القاموس (٧/٧٣) .

(٥) المخصص (١٠/١٥٤) ، « والمجز : بالكسر ما يجز به » ، شرح القاموس (٤/١٦) .

(٦) المخصص (١٠/١٥٤) ، شرح القاموس (١/١٩٧) .

(٧) شرح القاموس (٥/٣٦٨) .

وتثار الأرض وتقلب على الحب بعدما قلبت مرة أخرى ، لضمان طمر الحبّ في التربة ، فلا يبقى على سطحها ، فتلتقطه الطيور، ويتعرض للعوارض الجوية التي تفسده وتتلفه . وقد ذكر علماء اللغة جملة ألفاظ يتداولها المشتغلون بالزراعة في الحراثة وقلب التربة ، تكون لنا فكرة عن كيفية الحرث واصلاح الأرض عند العرب . والحرث في اللغه عمل الأرض لزرع أو غرس . وأما الفلح والفلاحة ، فالحرث وتشقيق الأرض للزرع ، وكل شق فلح . والإكارة كالفلاحة . والاكّار كالفلاح مأخوذ من الأكرة ، وهي الحفرة . وأما الكرّاب فرادف الحرّاث ، والكِراب والكرب اثارتك الأرض [1] . ويكون الكراب على البقر ، وهو الغالب ، وقد يكون على الجمال والحمير وعلى دواب أخرى ، وفي المثل : « الكراب على البقر » [2]. وإذا شققت الأرض أول مرة على غير حبّ فهي مفتوحة ، ثم تقلب على الحبّ مرة أخرى فيقال مُثارة ومُباثة [3] .

وبعد بذر الحب تسقى الأرض ، ويقال للسقية الأولى العَفْر ، ثم تسقى بعد ذلك بحسب الحاجة حتى ينمو الزرع وينضج ويجمع ، فيقطع عندئذ السقي [4] .

والحصاد والحاصل هو « فقل » في المسند ، ويجمع على « افقل » « أفقل [5] » .

وفي المسند كلمة أخرى ، هي « خرفت » ، وردت في النص (CIS 197) فسرت

---

(١) المخصص (١٠/٠٠٤ وما بعدها) ، شرح القاموس (١/٢٠٤) .

(٢) المخصص (١٠/١٥٠) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) « العفر ، أول سقية سقيها الزرع ، ثم يترك أياماً لا يسقى فيها حتى يعطش ، ثم يسقى ، فيصلح على ذلك . وأكثر ما يفعل ذلك بخلف الصيف وخضراواته وكذلك النخل . لغة يمانية » ، شرح القاموس (٣/٤١٠) .

(٥) Mordtmann Und Mittwoch, Sab. Inschr., S, 117.

بالحصاد كذلك [١] . ولا يقصد بالحصاد هنا حصاد الحبوب وحدها ، كالحنطة والشعير كما نفهم من معنى اللفظة في الزمن الحاضر ، وانما يقصد بها هذا ومعنى آخر هو قطف الحاصل والثمر عند نضجه .

وترد لفظة « افقل » من أصل « فقل » في النصوص الزراعية [٢] ، وهي من الألفاظ اليمانية القديمة التي وعتها كتب اللغة ، فذكرت أن الفقل التذرية بلغة أهل اليمن ، وأن أهل اليمن يذرّون بالمفقلة ، وهي الحفراة ذات الأسنان ، يرفعون بها الدق ثم ينثرونه ويذرونه لاستخلاص الحبّ منه [٣] . و « افقل » في نصوص المسند هى البيادر التي تتجمع من هذه الحبوب بعد الحصاد .

وترد لفظة « خرف » في عربية القرآن الكريم بمعناها الوارد في نصوص المسند ، فذكر علماء اللغة أن « خرف » بمعنى صرم واجتنى ، وأن « الاختراف » بمعنى لقط النخل بسراً كان أو رطباً ، وأنها تعنى قطف الثمر ، كما وردت لفظة « المخرفة » بمعنى البستان والنخل والسكة بين صفين من النخل ، يخترف المخترف من أيهما شاء ، و « المخترف » هو القاطف للثمر ، وأن « المخرف » بمعنى زنبيل صغير يخترف فيه من أطايب الرطب ، أو الآلة التي تخترف فيها الثمار [٤] .

ومن الكلمات الواردة في المسند ولها صلة بالحصاد لفظة « صربن » . وقد فسرها « رودوكناكس » بالحصاد وجمع الغلة ، كما في هذه الجملة « وبعد افل

---

(١) المصدر السابق (الصفحة ١١٣) ، والسطر السادس من النص :

'Glaser 181 ,CIS 197 Rep., Epi., Semi. 3966.

(٢) Rep. Epi. Semi., VII, II, P. 285, Num. 4636, Rhodokanakis, Stud Lexi., II, S. 157,

(٣) شرح القاموس (٨/ ٦٥) .

(٤) شرح القاموس (٦/ ٨١ وما بعدها) .

صربن [١] » . وقد ذكر علماء اللغة أن « الصِراب ككتاب من الزرع ما يزرع بعد ما يرفع في الخريف [٢] » ، وهو كلام فيه غموض ، يظهر أن سببه عدم وقوف أولئك العلماء على مدلول اللفظة عند اليمانيين القدماء .

وقد ورد في النص الموسوم بـ « نص كحلان » لفظة « صروب » ، وفسرها « رودوكناكس » بـ « أرض » و « حقل » ، وذلك في هذه الجملة : « ابعل صروب عدو زدو [٣] » ، ومعناها بحسب تفسيره « ملاك الحقول الى زدو » . و « بعل » بمعنى « تملك » و « ملك » و « مالك » بحسب وقوع الكلمة في الجملة . وأما لفظة « ابعل » فجمع « بعل » ، ومعناها « ملاك » .

ووردت في نصوص قتبانية لفظة « صربت » « صربة » ، فترجمها « رودوكناكس » بـ « Feld » ولفظة « صروب » بـ « Felder » أي للجمع . ومعنى « Feld » الحقل [٤] . وقد ترجم « رودوكناكس » لفظة « صربن » بالحصاد وجمع الغلة [٥] .

وقد وردت لفظة « تحقل » ، بمعنى الناتج والمحصول و « حقل » بمعنى الحاصل أي الحاصل الزراعي المجموع من الحقل والمزرعة ، وذلك كما في هذه الجملة : « تحقل ثمنيت الفم بقلم لس [٦] » . ومعناها « الحاصل ثمانية آلاف لس من البقول » ، ويعنى صاحب النص بها أن ما جمعه من زرعه للبقل هو ثمانية آلاف « لس » وهو

---

(١) راجع الفقرة الثانية من النص :

Glaser 1396, 1610, Se 83, Rhodokanakis, Kata Textc, II, S. 5

(٢) Sab. Denkmaler, 21, CIH, 310, RHodokanakis, Stud Lexi, II S 141

(٣) شرح القاموس (١/٣٣٤) .

(٤) Rhodokanakis Kata Texte II S 5 ff

(٥) Rhodokanakis Stud Lexi II S. 141,

(٦) Rep Epi 3856

نوع من الكيل أو الوزن استعمل في تقدير كمية الحاصل من المخضرات . أو « ثمانية آلاف لساس من البقل » . واللساس : أول البقل ، أو نوع معين من البقل ، له ورق منفرش ، خشن كأنه المساحل . وعندئذ لا تكون لفظة « لس » بمعنى كيلة أو نوع معين من المكاييل والموازين ، بل مجرد تعريف للبقل ، كأن تكون بمعنى بقل صغير يانع ، أو نوع معين من البقول . وذكر العدد ، وهو ثمانية آلاف قبل جملة « بقلم لس » ، هو الذي يرشد الناس يومئذ الى نوع الكيل ، على وفق عادتهم وعرفهم في عدم ذكر المكيال ، مكتفين بانصراف ذهن القارىء الى معرفة نوع الكيل والوزن.

ومن عادات أهل اليمن في الدرس والدياس التناوب ، وذلك بأن يجتمعوا مرّة عند هذا ومرّة عند هذا ، فيتعاونوا على الدياس ، ويسمّون ذلك « القاه [1] » . وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوب قد ألزموه على أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض [2] .

وقد عبر عن الدراسة بلفظة « علص » في المسند [3] . وأما لفظة « معلصت » « معلصة » ، فقد فسرها بعض علماء المسند بمعنى المزرعة والحقل [4] . ولا استبعد كونها آلة من آلات الدراسة أيضاً .

واذا كان الحاصل قليلا ، تولى الفلاحون أنفسهم دوسه لهشم السيقان والحصول

---

(١) « القاه : الطاعة .. وسرعة الاجابة في الأكل . ومنه الحديث . أن رجلا من أهل اليمن قال للنبي صلى الله عليه وسلم : انا أهل قاه ، فاذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه ، فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر . فقال : أله نشوة . قال نعم . قال : فلا تشربوه ... وقال الدينوري: اذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على الدياس ، فان أهل اليمن يسمون ذلك القاه . ونوبة كل رجل قاهة . وذلك كالطاعة له عليهم » ، شرح القاموس (٩/٤٠٧) .

(٢) المخصص (١١/٥٥) .

(٣) Mordtmann Und Mittwoch, sab. Inschr., S. 113, Nr. 84, RW 125, CIS 197, Glaser 181.

(٤) المصدر نفسه (ص ٢١١ وما بعدها) .

على التبن والحب . يستعملون في ذلك أرجلهم وآلات الدياسة . أما اذا كان الحاصل كبيراً ، فيستعملون عندئذ الحيوان يمشي عليه ، أو يجر آلات الدياسة الثقيلة لهشم السيقان وفصل الحبّ عنها .

واذا ديس الزرع قيل لذلك العمل الدقّ والدياس والدّراس . والاكادة كالاداسة [١] . وأما الدّقوقة ، فالبقر التي تدوس الزرع لاستخراج حبه وتهشيم سيقانه [٢] . وقد تستعمل بعض الآلات لقطع سوق الزرع وتهشيمه وتهشيم السنبل ، تجرها الثيران أو الحمير ، ويجلس عليها شخص ليثقلها ، وهي مثل العجلة ، التي تقطع الجلّ يقال لها « الحيلان » ، وهي آلة من خشب لها محالتان كمحالة العجلة قد أنعلتا بحديد مضرس إذا دارتا على الجلّ قطعتاه ، فتجعلان في طرفي عارضة ضخمة ، ويقعد عليها رجل ليثقلها ، ثم يجرهـا الثور على الجلّ [٣] . وأما المقحفة ، فالخشبة المتقفعة التي يقحف بها الحبّ [٤] .

وبعد الدياسة والدراسة يذرى الطعام لفصل الحب عن التبن ، ويستعملون في ذلك آلات التذرية ، وهى آلات يدوية ما زال الفلاحون يستعملونها كما كانت تستعمل قبل آلاف السنين : تتألف من مقبض طويل وأصابع في رأسه يذرى بها الهشيم في الهواء ، ليحمل الهواء التبن ، وهو خفيف الوزن الى مكان ، والحب الى مكان آخر . وقد ذكر علماء اللغة جملة أسماء لآلة التذرية ، منها « المذرى » والمذرّة [٥] ،

---

(١) « اكد الحنطة داسها ودرسها » ، شرح القاموس (٢٩١/٢) .

(٢) « والدقوقة : الدوائس من البقر والحمر » ، شرح القاموس (٣٤٦/٦) .

(٣) المخصص (٥٥/١١) .

(٤) « والمقحفــة كمكنسة المذراة . وهي التي يقحف بها الحب أى يذرى » ، شرح القاموس (٢١٦/٦) .

(٥) المخصص (٥٥/١١) ، « والمذرة بالكسر ، آلة يـذر بها الحب » ، شرح القاموس (٢٢٤/٣) .

و « المروح » ، و« المرواح » ، و « الميثار [1] » ، و « النفية » وهى شبه طبق من خوص ينقى به الطعام [2] .

وذكر علماء اللغة أن من جملة آلات التذرية عند أهل اليمن آلةً يسمونها « الحفراة » ، وهى خشبة ذات أصابع يذرى بها الكدس المدوس وينقى بها البر من التبن . وذكر أنها « الرفش » الذي يذرى به الحنطة . وهى الخشبة المصمتة الرأس . وأما المفرج ، فهو العضم والمعزقة [3] . ويراد بالعضم آلة تتكون من خشبة ذات أصابع يذرى بها الطعام . وهى الحفراة [4] . وأما المعزقة ، فهي البيلة المعقفة ، وفأس لرأسها طرفان ، والمذراة التي يذرى بها الطعام [5] .

ويجمع الفلاحون الحاصل ثم يقسمونه بحسب الاتفاق . وبعد أخذ كل منهم نصيبه يحمله الى السوق لبيعه ، أو يخزنه في البيوت وفي المخازن ، وهى إما مخازن مبنية وإما بيادر وهى الأندر والكدس . وهناك بيدر الحرث يجدر عليه أو يحظر بشوك أو يغطى فوقه بطبقة من الطين لحفظه من العوارض الطبيعية والطيور والسرّاق ، وبهذه الطريقة يحافظ على الحبوب [6] .

---

(١) المخصص (١١/٥٥) .

(٢) « النفية كفنية ، سفرة من خوص شبه الطبق عريض مدور واسع يشر عليها الاقط . قلت: هذه اللفظة قد اختلفوا في ضبطها اختلافاً واسعاً . وقد جاء ذكرها في حديث زيد بن أسلم : أرسلني أبي الى ابن عمر . فقلت له ان أبي أرسلني اليك تكتب الى عاملك بخيبر يصنع لنا نفيتين نشرر عليهما الاقط . فأمر قيمه لنا بذلك » ، شرح القاموس (١٠/٣٧٥) .

(٣) شرح القاموس (٢/١٥٢) .

(٤) شرح القاموس (٨/١٠٤) .

(٥) شرح القاموس (٧/١٢) .

(٦) المخصص (١٠/١٥١) ، شرح القاموس (٣/٣٥) .

وذكر علماء اللغة أن الجرين للحب ، والبيدر للتمر . وذكروا أيضاً أن الجرين موضع البر ، وقد يكون للتمر والعنب . وذكر بعضهم أن الجرين موضع البيدر بلغة أهل اليمن ، وهو «الفدار» عند أهل البحرين ، وأن « الجرن » بمعني الطحن شديداً بلغة هذيل [1] .

وينقل الطعام بأوعيـة الى المخازن . ومنها نوع يقال له « العيبة » ، وهو زبيل من أدم ، ينقل فيه الزرع المحصود الى الجرن في لغة همدان [2] . ويعبر عن حمل الزرع بعدالحصاد الى البيدر بلفظة « رفع » كأن يقال « رفع الزرع » و « الرفاع » اكتناز الزرع ورفعه بعـد الحصاد [3] . وأما « الغبط » ، فالقبضات المحصودة المصرومـة من الزرع . و « الغبوط » ، هي القبضات التي اذا حصد البر وضع قبضة قبضة ، الواحد غبط [4] .

و « الحِنْوان » وهما الخشبتان اللتان عليهما الشبكة ينقل عليهما البُرّ [5] . والوشيجة ليف يُفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل بها البر المحصود [6] .

ويعبر عن خزن المحصولات في مواضع معينـة بجملة ألفاظ أخرى ، منها : « الكدس » ، ويراد بها الحب المحصود المجموع ، وهو العرمـة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك [7] . ومنهـا : « المربد » ، والمربد كل شيء حبست به الإبل

---

(١) شرح القاموس (٩/١٦٠) .

(٢) شرح القاموس (١/٤٠٢) .

(٣) شرح القاموس (٥/٣٥٨) .

(٤) شرح القاموس (٥/١٩٠) .

(٥) المخصص (١١/٥٥) .

(٦) المخصص (١١/٥٥) ، شرح القاموس (٢/١١٩) .

(٧) شرح القاموس (٤/٢٣٠) .

والغنم . ولهذا قيل مربد النعم الذي بالمدينة . وهو أيضاً الجرين الذي يوضع فيه التمر بعد الجداد لييبس ، وهو الأندر بلغة أهل الشام ، والبيدر بلغة أهل العراق [١] .

وأما « المسطح » ، فمكان مستوٍ يبسط عليه التمر ويجفف ، ويسمى أيضاً الجرين [٢] .

وأما « الصبرة » ، فما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض . و « الكدس » [٣] .

واذا أصاب الزرع الخصب والنماء ، عبر عن ذلك بلفظة « خصب » في المسند [٤] . اللفظة التي نستعملها نحن في الزراعة في المعنى نفسه .

وقد وصلت الينا نصوص يتقرب فيها أصحابها الى آلهتهم ، لتمنحهم البركة في مزروعاتهم ، ولتزيد في غلة أثمارهم وتجعل أرضهم خصبة منبتة ، وذلك كما في هذه الجملة : « ولسعدهمو اثمرم صدقم ولوفي ارضهمو » ، ومعناها « وليسعدهم بأثمار وافرة ويصون أرضهم » [٥] .

والثمر ، أي حمل الشجر ، هو « ثمر » في نصوص المسند ، ويجمع عندهم على « اثمر » « أثمر » و « اثمرم » أي « أثمار » ، وذلك كما في هذه الجملة : « اثمرم فرعم » ، أي أثمار غزيرة ، وأثمار وافرة وكثيرة [٦] . ومن معاني « الفرع » في عربيتنا الكثرة والوفرة ، أي في المعنى الوارد لهذه اللفظة في المسند . ولا يقصد بالثمر ، أثمار الأشجار حسب ، بل

---

(١) شرح القاموس (٢/٣٥٩) .

(٢) شرح القاموس (٢/١٦٣) .

(٣) القاموس (٣/٣٢٤) .

(٤) Rep. Epi. Num, 4646

(٥) خليل يحي نامي : نشر (ص ٣١ وما بعدها و (الصفحة ٢٥ وما بعدها) .

(٦) Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 101, Nr, 76, RW 130, CIS 204, Glassr 188, S. 140, Nr. 119, RW 147, S. 154, Nr 134, RW 38.

حاصل كل نبات ، وما يعطيه الزرع سواء أكان عالياً أم منخفضاً .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن قطف الثمار وجزها ، ولا سيما النخل بلفظة « الصرام » و « صرم » و « اصطرام » [١] . ويعبر عن قطف النخل بلفظة أخرى في هذا المعنى ، هي : « جرم » و « جرام » ، فيقال : جرم النخل جرماً ، أي خرصه وجزه ، والجرام صرام النخل [٢] . وتؤدي لفظة « الجداد » معنى « الصرام » كذلك ، فيقال لصرام النخل الجداد . وقيل : الجداد بمعنى الحصاد والقطاف [٣] .

واستفاد الزراع من لحاء الشجر في أغراض متعددة . ويقال للحاء الشجر «النجب»[٤]. والقرف هي لحاء الشجر وقشورها [٥]. ومنها القرفة ، قرفة الطيب . ومن القرف ما يستعمل صبغاً يصبغ به . ومنها قرف عروق السدر ، وقرف الرمان . ويستخدم لحاء الشجر في صنع الحبال . ويقال لذلك القرف ، وهو لحاء شجر يؤخذ ويدق ويفتل منه حبل [٦] .

كما نشأت من الألياف والخوص وعيدان بعض الأشجار صناعة ، فاستفيد من

---

(١) شرح القاموس (٨/٣٦٥) ، جامع الأصول (١١/٤٧٧) .

(٢) شرح القاموس (٨/٢٢٤) .

(٣) شرح القاموس (٢/٣١٣) .

(٤) « والنجب : محركة : لحاء الشجر أو قشر عروقها أو قشر ما صلب منها . ولا يقال للان من قشور الأغصان نجب . ولا يقال قشر العروق . ولكن يقال نجب العروق . والواحدة نجبة » ، شرح القاموس (١/٤٧٨) .

(٥) شرح القاموس (٦/٢١٩) ، المخصص (١١/١٤ وما بعدها) .

(٦) المخصص (١١/١٤ وما بعدها) ، « والقرن الحبل المفتول من لحاء الشجر . عن أبي حنيفة . وقال غيره : هو شيء من لحاء شجر يفتل منه حبل » ، شرح القاموس (٩/٣٠٥) .

خوص الدوم في صنع أحفاش النساء . والدوم شـجر المقل ، واحدتها دومة [١] . واستفيد من لحاء الخزم في صنع الحبال ، ويقال لصانعها الخزّام [٢] ، وسف الخوص على هيأة سفرة ، ويقـال لذلك السمهة [٣] . وصنعت الحصر من بردي وأسَل ومن الخوص [٤] . وقيـل للحصير المنسوج من سعف النخل « الفحل » . وأما الحصير المنسوج من الدوم ، فيقال له الطلّيل [٥]. والبارية الحصير . وقال بعضهم : الحصير المنسوج من القصب [٦].

وأما ثمر النخيل ، فعرف بـ « تمر » في المسند ، كما عرف في عربيتنا . أما في العبرانية ، فقد أطلقت لفظـة « تامار Tamar » على النخلة وعلى التمر [٧] . وقد عـدت الشعوب السامية القديمة النخلة من الأشجار المقدسة ، ونظرت إليها نظرة خاصة، وتبركت بأكل تمرها ، وكانت من المأكولات التي تؤكل خاصةً في الأعياد الدينية . واتخـذها العبرانيون رمزاً الى الثراء والجمال كما أشير الى ذلك في العهـد القديم . وحملت السعفة علامة للانتصار ، وزينت بها الأسـواق والمحلات العامـة والأبواب في الأعياد والاحتفالات ، كما تفعل ذلك كثير من الأقطار العربية في الزمن الحاضر . وقد نحتت

---

(١) « والدوم ، شجر معروف ثمره المقل . واحدته دومـة . قال أبو حنيفة : الدومـة تعبل وتسمو ولها خوص كخوص النخل . وتخرج أقناء كأقناء النخلة ... وقال عمـارة : الدوم العظام من السدر . وقال ابن الاعرابي : الدوم ضخام الشجر ما كان » ، شرح القاموس (٨/٢٩٧) .

(٢) المخصص (١١/١٣٦ وما بعدها) ، شرح القاموس (٨/٢٧٤) .

(٣) « والسمهة كسكرة ، خوص يسف ثم يجمع فيجعل شـبيهاً بسفرة » ، شرح القـاموس (٩/٣٩٢) .

(٤) شرح القاموس (٣/١٤٣) .

(٥) شرح القاموس (٧/٤٢٠) .

(٦) شرح القاموس (٣/٦٠ وما بعدها) .

(٧) Diction. Targ., P. 1679 (1886).

صورة السعفة ، وحفرت على الألواح ، وصبت على الجبس لتزيين المعابد والدور ، كما رسمت النخلة في النقود العبرانية المتأخرة دلالة على أهميتها ومكانتها عند العبرانيين [1] .

وقد وجدت النخيل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً . وهو شجر يصبر على العطش طويلاً ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزاً للصحراء . ولم ينفر العربي من زراعة النخيل نفوره من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع . أما الأعراب فانهم لاضطرارهم الى التنقل من مكان الى مكان ، وعدم استقرارهم في موضع واحد أمداً طويل ، لم يكن ميسوراً لهم غرسه . ومن طبيعة الحياة البدوية المتنقلة ازدراء الزرع بأي شكل من أشكاله ، مع أن التمر هو من أهم المواد التي يعتمدون عليها في أكلهم ، حيث يتأدمون به مع الخبز ، وهو عزيز عليهم لاضطرارهم الى شرائه من المزارعين ومن الأسواق .

والنخل هو « ن خ ل » في المسند كذلك [2] . وقد صورت النخلة ونحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند ، وجعلت رمزاً للشمس . وكان السومريون يجعلونها رمزاً للشمس كذلك [3] . والظاهر أن تحمل النخلة لحر الشمس ، ووجودها في مناطق دافئة حمل الناس على تصور قيام صلة لها بالشمس ، فجعلوها رمزاً لها وعلامة عليها .

وتعني لفظة « انخل » « أنخل » ، « النخيل » وبساتين النخيل ومزارعها [4] .

---

(١) Hastings, P. 675

(٢) « بنى هرتهو لسقت نخلهو » أي « وبني سافيته لإسقاء نخيله » ،
Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr , S 234 RW 155, Bu Jemen 1907, 286, C 1514, Burchard 4.

(٣) Carl Rathjens, Sabaeica, Hamburg 1953 S. 140.

(٤) Rep. Epi., VII, II, P. 278, Num. 4626.

ومن « نخل » أخذت لفظة « منخل » بمعنى مزرع النخيل ، أي الموضع المزروع نخلا ، فوردت « منخلهمو » أي مزرع نخيلهم [1] . وقد عني العرب الجنوبيون بزراعة النخيل ، فتكونت بساتين واسعة منها . وكانت « نجران » من أهم المناطق المشهورة بزراعة النخيل في اليمن [2] .

ومن أنواع التمور والنخيل : الشدن ، والهنم ، والهيرون ، والجُعْرور وهو من رديء تمر الحجاز ، والبرني ، والعجوة ، والبلعق ، والسهريز ، والتبي ، والجُذامي ، وسكّري ، والسُنّة وهو صنف من تمر المدينة ، والفَرْض وهو من أجود الرطب بعمان ، والصُّفري وهو تمر يمانٍ أصفر يجفف بُسراً ، والخُضرية تمرة خضراء تستظرف للونها ، والأطيرق أبكر نخل الحجاز تسبق نخله كله ، والمقدام أبكر نخل عمان سُميت بذلك لتقدمها النخل بالبلوغ ، والعشواء من متأخر النخل حملاً ، والباهين نخل بهجر ، والتعضوضة تمرة طحلاء كبيرة رطبة صفرة لذيذة من جيد التمر وهي تحمل بهجر حملا كبيراً ، والعدائم نوع من الرطب بالمدينة ، والعرف ضرب من النخل عند أهل البحرين [3] .

واستخرج الخل من التمر ومن الأعناب . ويراد بالخل ما حمض من العصير أو من الخمر . وقد عرف بـ حوميتس « Homts » في العبرانية [4] . ويضرب به المثل في العربية بالحموضة . وهو يستعمل في الطبخ وفي أمور أخرى . حيث يتخذ اداماً مع بعض

(١) Rhodokanakis, Katab. Texte., S 41, Glaser 1693

(٢) Wissmann-Hofner, S 9

(٣) المخصص (١١/١٣٢ وما بعدها) .

(٤) Hastings, P 959.

الخضر ، ويستعمله أهل المدر في الغالب كما هو شأنهم اليوم [١] .

ومن أشهر الحبوب زرعاً وربحاً ، الحنطة ، وهي البُرّ ، اسم للجمع ، وليس له واحد ، وجمعها حنط ، والحنّاط بائعها ، وحرفته الحناطه. وهي أنواع عديدة ، ذكرها علماء اللغة [٢] وأصحاب كتب الزراعة . والبُرّ هو اللفظ المستعمل في اللهجات العربية الجنوبية والوارد في النصوص . أما الحنطة فلفظة شمالية ، ويظهر أن العرب الشماليين استعملوها بتأثير اللهجات الشمالية ، وهي « Chittah » في التوراة [٣] .

وقد دعيت الحبوب والحنطة بـ « ميرس » في المسند ، كما في هذه الجملة « وكل ميرس بقنت » ، أي « وكل الحبوب (أو الحنطة) في القنة » . والقنة هي الحفرة والمخزن ، يخزن فيه الحب .

وكلمة « البُرّ » لا تزال مستعملة في اليمن بدل الحنطة [٤] ، وقد ورثوها من لهجتهم القديمة ، بينما نجد العرب الشماليين يستعملون لفظة « الحنطة » في الغالب .

ويؤلف الدقيق مصدراً كبيراً من مصادر الدخل في العربية الجنوبية ، وهو « دقةم » أي « دقيق » في اللهجات العربية الجنوبية [٥] . ويقال للدقيق « طحنم » كذلك ، ويراد بذلك « طحين » [٦] .

ويستورد الدقيق من الخارج أيضاً ، يستوردونه من بلاد الشأم مثلاً ومن

---

(١) « الخل ، ما حمض من عصير العنب وغيره عربي صحيح » ، القاموس (٣/٣٦٩) .

(٢) المخصص (١١/٦٠ وما بعدها) ، شرح القاموس (٥/١٢١ وما بعدها) .

(٣) Haslings P 972

(٤) نزيه مؤيد العظم (ص ٨٥) .

(٥) السطر ١٢٠ من النص ، شرح القاموس (٦/٣٤٦) .

(٦) Handb. der alta-alter., S. 137

العراق . ويرد خاصة الى الأنحاء الأخرى التي تقل فيها زراعة الحبوب من جزيرة العرب ، كما كانوا يستوردون البر أي القمح من تلك الأماكن ، ويقومون بطحنه بالرحى .

وقد ذكر « ابن المجاور » اسم موضع يقال له « بحري » ، ذكر أنه اشتهر بزرع الحنطة ، وأن سكانه يزرعون الحنطة مرتين في العام ، في كل ستة أشهر مرة (١) .

والشعير هو من أكثر الحبوب انتفاعاً به في جزيرة العرب ، ومنه يصنع خبز أكثر الأعراب والفقراء . واحدته شَعِيرة ، وبائعه شعيري . وهو مثل البرّ أنواع ، منه الشعير العربي ، وهو أبيض ، وسنبله حرفان عريض ، وحبّه كبار ، والشعير الحبشي ، وهو أسود الحب والسنبل (٢) . ويعرف الشعير بـ « سيعوراه Se'orah » في العبرانية . وهو عند العبرانيين وعند غيرهم خبز أكثر الفقراء (٣) . وقد كان يهود المدينة يتاجرون به وبدقيق الشعير : يبيعونه في مواطنهم ، وفي الأسواق ولا سيما « سوق بني قينقاع » . وقد استدان الرسول من أحد اليهود صاعين من دقيق الشعير .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن الطائف اشتهرت بزراعة نوع من الحنطة الجيدة التي تحكى اللؤلؤ فضلاً عن شهرتها بزراعة الفواكه . وذكروا أن أهلها من ثَقيف وقريش ، وأنهم على زي أهل مكة في الأكل واللبس ، وأهلها يرثون البنت عند الموت ، ولم يورث أحد بنته الدراهم . وكذلك بنو هذيل ومُضر وبجيلة وجميع أهل السراة وجميع العرب الذين هم سكان بأرض الحجاز وما حول مكة (٤) .

(١) ابن المجاور (١/٢٦) .
(٢) المخصص (١١/٦٠ وما بعدها) .
(٣) Hastings P 85
(٤) ابن المجاور (١/٢٥) .

وتزرع الذرة في جزيرة العرب كذلك ، ويستعمل منها الخبز . وقد عرف خبزها بـ « الطهف » على رأي بعض علماء اللغــة [١] . وأهل اليمن يسمون رديء الذرة الدّقْعاء . وفي اليمن حبّ يقال له الطّحف وهو يطبخ [٢] .

وقد تعود الأعراب وغيرهم استعمال حبوب أخرى بدلاً من الحنطة والشعير والذرة ، وذلك في سني الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التي تنبت بالطبيعة . ومن جملة هذه الحبوب العَلَس ، وهو حبّة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوها وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة [٣] . والبِيْقِيّة ، وهو حب أخضر يؤكل مخبوزاً أو مطبوخاً [٤] . والسلتُ ، وهو حبّ بين الشعير والبرّ ، إذا نقي انجرد من قشره ، فكان مثل البرّ [٥] .

وللمحافظة على الحبوب وغيرها من التلف ، اتخذت مخازن تحت الأرض تحفظفيها

(١) المخصص (٦٣/١١) ، « وقال ابن الأعرابي الطهف : الذرة ، وهي شجرة كأنها الطريفة لا تنبت إلا في السهل وشماب الجبال . وقال غيره : هي عشبة حجازية ذات غصنة وورق كأنه ورق القصب ، ونبتها الصحراء ومتون الأرض وثمرتها حب في اكمام » شرح القاموس (١٨٦/٦) .

(٢) المخصص (٦٤/١١) ، « الدقعاء : الذرة الرديئة ، يمانية » ، شرح القاموس (٣٣٠/٥) .

(٣) « والعلس : ضرب من البر جيد تكون حبتان منه في قشر ، وفي كتاب النبات في كمام . يكون بناحية اليمن ، وقيل هو طعام أهل صنعاء . قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، غير أنه عسر الاستنقاء . وقال ابن الاعرابي : العدس يقال له العلس » ، شرح القاموس (١٩٥/٤) ، المخصص (٦٤/١١) .

(٤) المخصص (٦٢/١١ وما بعدها) ، « نبات أطول من العدس ينبت في الحروث وقوته كقوته . والبيقة بالكسر حب أكبر من الجلبان أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً وتعلفه البقر » ، شرح القاموس (٣٠٢/٦) .

(٥) « السلت : شعير لا قشر له أجرد . زاد الجوهري ، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز ، يتبردون بسويقه في الصيف ، وفي الحديث أنه سئل عن بيع البيضاء بالسلت . هو شعير أبيض لا قشر له . وقيل هو نوع من الحنطة . والأول أصح . لأن البيضاء الحنطة » ، شرح القاموس (٥٥٤/١) .

سميت «مدفن» «مدافن» في المسند ، وواحدها « مدفن »[1] . ولا تزال هذه الطريقة معروفة في مواضع من جزيرة العرب حيث يخزنون القمح وسائر الحبوب في حفر في الأرض .

وقد استعملت الرحى لطحن الحبوب ، ولطحن الصخور لاستخراج الذهب منها كما استخدمت في الحصول على الزيت من الزيتون والسمسم وبعض البذور الأخرى التي تحتوي على مادة دهنية . وقد عثر على نماذج منها ، قطر بعضها أربع أقدام وتسع بوصات ، وسمكه (١٧) بوصة . استعمل لهذه الأغراض [2] .

ويخبز الخبز في « التنور » بعد تسخينه بالنار . وقد يخبز على بعض الأواني أو الحجارة ، وذلك بأن يبسط العجين عليها بعد تسخينها ، فيكون خبزاً . ويكون التنور عند أهل المدر لاستقرارهم . أما أهل الوبر ، وهم متنقلون في الغالب فيخبزون الخبز على الحجارة أو المعادن ، لبساطتها وسهولتها ونقلها معهم حيث ذهبوا ، وهي لا تحتاج إلا الى إيقاد نار تحتها لإحمائها ، ليخبز العجين عليها [3] .

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, 73, f.

(٢) ك . س . تويتشل : المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية ، ترجمة شكيب الأموي : القاهرة ١٩٥٥ (الصفحة ٩٠ وما بعدها) .

(٣) « التنور : نوع من الكوانين . وفي الصحاح التنور : الكانون الذي يخبز فيه . يقال هو في جميع اللغات كذلك . وقال الليث : التنور عمت بكل لسان . قال أبو منصور هذا يدل على أن الاسم في الاصل أعجمي ، فعربتها العرب فصار عربياً ، على بناء فعول . والدليل على ذلك أن أصل بنائه تنر . قال : ولا نعرفه في كلام العرب ، لأنه مهمل وهو نظير ما دخل في كلام العرب من كلام العجم ، مثل الديباج والدينار والسندس والاستبرق وما أشبهها . ولما تكلمت بها العرب صارت عربية . وفي الحديث : قال لرجل عليه ثوب معصفر ، لو أن ثوبك في تنور أهلك . أو تحت قدرهم كان خيراً ، فذهب وأحرقه . قال ابن الأثير : وانما أراد أنك لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً لك . كأنه كره الثوب للمعصفر . وصانه تنار » ، شرح القاموس (٣/٦٩) .

وفي مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وفي الأماكن التي تتوفر فيها المياه والجو الطيب المناسب كاليمن والطائف اشتهرت بزراعة أنواع متعددة من الكروم فيها ، وصارت لأعنابها شهرة فائقة . وصُيّر الفائض منها زبيباً ، وصنع منه النبيذ . ويعرف النبيذ أي ما يقال له شراب بـ « سقيم » أي «سقى»[1] . وقد كان الجاهليون يقبلون إقبالا شديداً كبيراً على شرب النبيذ والخمور ، وفي جملة ذلك النبيذ والخمور المصنوعة من التمور .

وكان في جملة ما قدّمه « أبرهة » الى العمال والمشتركين في بناء سدّ مأرب ، أنواعاً من النبيذ ، قدمها اليهم مع الدقيق والتمر واللحوم ، مما يدل على أنها كانت في نظر القوم في منزلة المواد الغذائية والمواد الضرورية لذلك العهد .

أما أنواع النبيذ التي قدمها أبرهة في تلك المناسبة ، فكانت نوعاً من الشراب المصنوع من الـ « غربب » أي « الغربيب[2] » . و « الغربيب » بالكسر ، هو ضرب من العنب شديد السواد . وقد ذكر الأخباريون أنه كان من الأنواع المشهورة بالطائف ، وهو في نظرهم من أجود العنب وأرقه ومن أشده سواداً[3] . وقدم اليهم كذلك النبيذ المصنوع من التمر[4] .

ويعرف الزبيب بـ « فصمم » ، أي « فصيم » في اللهجة الحميرية . وقد وردت هذه اللفظة في نص أبرهة ، بمناسبة توزيع أبرهة الزبيب على العمال الذين ساهموا في بناء

---

(١) راجع السطر ١٢٨ وما بعد من نص أبرهة .

(٢) السطر ١٢٨ من النص .

(٣) تاج العروس (١/٤١٠) ، مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الأول من المجلد الرابع (ص ٢١٨) .

(٤) السطر ١٣٠ من النص .

سد مأرب [1] .

والعنب هو « عنبم » « عنب » في اللهجات العربية الجنوبية كذلك . وأما لفظة « اعنب» ، فإنها أعناب في عربية القرآن الكريم [2] .

والعنب أجناس عديدة في جزيرة العرب ، طيبة المذاق يتخذ من بعضها الزبيب والنبيذ . وقد نسب بعضها الى أماكن اشتهرت به وعرفت بغرسه وتصديره . منها العنب « الُجرَشي » ، وهو عنب طيب ، يقول علماء اللغة : هو أطيب العنب كله ، وهو منسوب الى « جُرش » في اليمن . والعنب التّبُوكي نسبة الى تَبُوك . والعنب الكلافي نسبة الى« كلاف» ، وهو بلد في شق اليمن . والعنب التُّربي نسبة الى تُربة . وأما الحَمْنان ، فضرب من عنب الطائف ومنه الكشمش . و « الرمادي » ضرب من العنب بالطائف أسود أغبر [3] .

وقد كان أهل اليمن كما يظهر من نصوص المسند يكثرون من زراعة الأعناب ويربحون من زراعتها كثيراً ، بدليل ورود كثير من النصوص الزراعية ، وفيها : أن أصحابها قد غرسوا أعناباً في المناطق الفلانية والفلانية ، أو ورثوا المزرعة الفلانية وفيها أعناب كثيرة . وبدليل حفر صور أغصان العنب وعناقيد العنب في الأحجار وابرازها على الألواح المصنوعة من الجبس أو حفرها على الأخشاب للزينة والزخرفة ، وتفننهم في ذلك . وما كانوا يفعلون ذلك لو لم يكن للأعناب وجود في اليمن ، ولو لم تكن منتشرة كثيراً في تلك البلاد ، ويظهر من كثرة أسماء الأعناب والزبيب أن الأعناب كانت عديدة الأنواع في اليمن ، وأنها كانت ذوات الوان وأحجام متنوعة .

وهناك معاصر استخدمت لعصر الأعناب وقد عرفت بـ « موهتن » . وتعني

---

(١) السطر ١٢٨ من النص .

(٢) راجع الجملة الثانية من النص : Halevy 360, 362

(٣) المخصص (٧٢/١١) .

لفظة « موهت » «موهة» معصرة من فعل « وهت » بمعنى عصر. وتتألف المعاصر من حجارة قطعت من الصخر ، في الحجر الأعلى ثقب وموضع لإدخال الأعناب أو المواد الأخرى المراد عصرها منها . والحجر الأسفل مثبت يحيط به منخفض يشبه الساقية ليجري منه العصير أو الزيت الى الموضع الذي يسيل منه الى وعاء أو مكان آخر يودع فيه العصير أو الزيت [1] .

والرمان من الفواكه المعروفة في الحجاز وفي اليمن، وقد ذكر في القرآن الكريم [2] . ومنه نوع بري ، ويعرف بـ « مظّاً » . ورُمّان شحم ذو شحمة ، والُجشب قشور الرمان عند أهل اليمن [3] .

ومن الأماكن التي اشتهرت بزراعة الأشجار والفواكه ، « الوهط » ، قرية من قرى الطائف . وقد كانت تمون الطائف ومكة بالفاكهة ، وبها بساتين لرؤساء مكة والطائف غنية بالكروم ، ثم تدهورت حتى لم يبق من أشجارها في القرن السابع للهجرة الا شجرة توت [4] .

والتين هو من الأشجار المعروفة في الحجاز وفي اليمن كذلك ، وقد أشير اليه في القرآن الكريم [5] . وذكر بعض علماء اللغة أنه البَلَس ، وقال آخرون إن البَلَس هو الثمر ، والشجر التين . ومنها الِجلْداسي، وهو أسود ليس بالحالك . والقلاّري، هو أبيض متوسط ويابسه أصفر كأنه يدهن لصفائه . والطبّار ، وهو أكبر تين . والفيلحاني ، وهو أسود يلي الطبّار في الكبر . وأنواع أخرى . وهناك تين وحشي

(١) Rhodokanakis, Stud., S. 139, Glaser, Altjem. nachri., S. 89, Deutsche Aksumexpedition. II. 74.

(٢) سورة الأنعام (الآية ٩٩ ، ١٤١) .

(٣) المخصص (١١/١٤٠) .

(٤) ابن المجاور (١/٢١ وما بعدها) .

(٥) سورة التين .

وهو مما ينبت في الجبال وشواطيء الأودية ، ويكون من كل لون ، وهو أصغر التين . واذا أكل جنيا أحرق الفم . صادق الحلاوة وزبب . وهناك أشجار تنتج ثمراً يذكره علماء اللغة في باب التين ، مثل الأزغب والجُمَّيز [1] .

والبطيخ من المزروعات المعروفة في بلاد العرب [2] . ويعرف أيضاً بالخربز [3] . ويرى بعض علماء اللغة أن اللفظة عربية أصيلة ، ويرى بعضهم أنها معربة من أصل فارسي . وقد وردت لفظة « الخربز » في الحديث مما يدل على أنها كانت معروفة في الجاهلية . والظاهر أنها وردت من العراق بواسطة التجار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مع العراق ، أو بواسطة الرقيق المستورد من هناك .

وقد أشير في سورة البقرة الى البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل [4] ، كما أشير في سورة الصافات الى « شجرة من يقطين » [5] . واذا استثنينا البقل ، فإن بقية هذه الأسماء غير واردة في نصوص المسند . فلا ندري أكان العرب الجنوبيون يسمونها بها ، أم يسمونها بأسماء أخرى بحسب لهجاتهم . وقد كانت هذه النباتات من مأكولات العبرانيين المحببة اليهم ، ولهذا نجد لها ذكراً في العهد القديم .

ولفظة « بقلن » و « بقلت » هي « البقل » في عربيتنا [6] ، وهي من الألفاظ

---

(١) المخصص (١١/١٣٢ وما بعدها) .

(٢) القاموس (١/٢٠٧) ، شرح القاموس (٢/٢٥٣) .

(٣) القاموس (٢/١٧٥) .

(٤) الآية ٦١ .

(٥) الآية ١٤٦ .

(٦) Rep. Epi. Semi., VII, II, P. 285, Num. 4636, Mordtmann, 'Himjarische Inschriften und alterthümer, in Mittheilungen aus den Orientalischen Sammlungen, Heft, VII, Koniglische Museen zu Berlin, 1893

الواردة في القرآن الكريم [١] ، ويراد بها البقول . وأما لفظة « تبقلت » ، فتقابل لفظة « تبقيل » ، ويراد بها زرع الأرض بالبقول [٢] .

وقد وردت في كثير من النصوص بالمعنى الذي نفهمه من لفظة «خضر» و« خضرة » ومخضرات في العراق .

وعبر في المسند عن معنى زرع البقول بلفظة « بقل » « ب ق ل » [٣] . ولما كان المسند خلواً من علامة لتشديد الحرف ، فإننا نستطيع أن نقول إن حرف القاف في هذه الكلمة مشدد ، وأنها « بقّل » بوزن « فعّل » بتشديد عين الكلمة ، ويراد بذلك تبقيل الأرض أعني زرعها بالبقول ، كما أن « شجّر » معناها تشجير الأرض وغرسها بالأشجار . ونجد في المسند أمثلة عديدة من هذا القبيل مثل « بقر » بتشديد حرف القاف ، ويراد بها حرث الأرض . و « جرب » بتشديد الحرف الثاني ويراد بها العمل في سفوح التلال والهضاب والجبال لجعلها على هيـأة مدرجات تبنى جوانبها الظاهرة بحجارة تحميها من التداعي والانهيار ، لزرعها ، وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ومن الأمثلة على « بقل » ما ورد في هذه الجملة : « بقل تبقلت ارضهمو » ، وفي هذه الجملة : « ودا متوفيو تبقلتو » . ومعنى الجملة الأولى « والبقل الذي بقلت به ارضه » ، أو « والبقول التي زرعت بها الأرض» ، ومعنى الجملة الثانية : « ولما انتهوا من التبقل » ، و «التبقل » عندهم زراعة البقل أي : لما انتهوا من موسم زراعة البقول

---

(١) البقرة : الآية ٦١ .

(٢) Rep. Epi. Semi., VII, II, P. 285. Num. 4636

(٣) راجع النص الموسوم بـ : Rhodokanakis, Kata. Texte. II, S. 28, SE 48

والخضر [1] .

و « بقل الشيء » بمعنى ظهر في عربية القرآن الكريم ، وبقلت الأرض : أنبتت ، وبقل الرِمْثُ : اخضَرَّ . وقد فسر بعض علماء اللغة الفرق بين « البقل » و « الشجر » بأن البقل إذا رعي لم يبق له ساق ، أما الشجر فتبقى له سوق وان دقت . وقال بعض آخر : البقل ما لا يثبت أصله وفرعه في الشتاء . ويستعمل البقل لرعي الماشية . ومن البقل الباقلاء [2] . وهناك نوع من البقلة يقال لها البقلة اليمانية [3] .

و « الجنبة » عامة الشجر التي تتربل في زمان الصيف . وقال بعض علماء اللغة : الجنبة اسم لنبوت كثيرة ، وهي كلها عروق سميت جنبة ، لأنها صغرت عن الشجر الكبار ، وارتفعت عن التي لا أرومة لها في الأرض . ومن الجنبة : النصيّ ، والصلّيان ، والحماط ، صغرت عن الشجر ، ونبلت عن البقول . وقيل : هي ما كان بين البقل والشجر ، أو كل نبت مورق في الصيف من غير مطر [4] .

والسلق من البقل ، وهو نبت ، له ورق طوال ، وأصل ذاهب في الأرض ، يطبخ ورقه . وقد ذكر أن أهل المدينة كانوا يأخذون ورق السلق ، فيجعلون فيه حبات من شعير ، ويطبخونه ، فيكون من ذلك أكل لذيذ [5] . ويضع أهل العراق الأرز مع اللحم والودك وغير ذلك بحسب ذوق الطاهي في داخل الورق ، ويطبخونه ، ويسمونه

---

(١) راجع النص : Rep. Epi., 4636

(٢) شرح القاموس (٧/٢٣١) ، القاموس (٣/٣٣٦) .

(٣) القاموس (٣/٣٣٦) .

(٤) شرح القاموس (١/١٨٩) .

(٥) عمدة القاري (١٢/١٨٧) ، صحيح البخاري (٢/١٠٩) .

« الدّوْلمْـة » . (بدال معجمة تنطق مفخمةً أشبه بالطاء ، وتُحرك بمثل حرف O في الانكليزية ، بعدها واو ولام ساكنان) . فالفـارق هنا هو في استـعمال أهل العراق الأرز في موضع الشعير . وقد كان أهل المدينـة يزرعون السلق على « الأربعـاء » ، جمع ربيع ، وهو النهر الصغير [١] .

والقثاء [٢] هو الخيار ، ويقال انه اسم جنس لما يقول له الناس الخيـار والعجور والفقوس . وبعض الناس يطلقه على نوع يشبه الخيار . ويقال هو أخف من الخيـار . وأقثأ المـكان اذا كثر به القثّـاء . والمقثأة ، الموضع يزرع القثاء فيه [٣] .

وقد اختلف علماء التفسـير واللغة في معنى « الفوم » ، فذهب بعضهم الى أنه الثوم وقال بعض آخر الحنطة ، وهو لغة قديمة فيها . وذهب بعض آخر الى أنه الحنطة وسائر الحبوب التي تخبز ، كما ذهب جماعـة الى أن الفومة هي كل عقـدة من بصلة أو ثومة أو لقمة عظيمة [٤] .

والبصل معروف وواحدته بصلة [٥] ، ويضرب به المثل فيقال : أكسى من البصل [٦] !

والعدس حبّ ، وواحدته عدسة [٧] . وذكر علماء اللغة أنه يعرف بالعلس والبلس كذلك [٨] .

---

(١) عمدة القاريء (١٢/١٨٧) .

(٢) بالكسر والضم . والكسر أكثر .

(٣) شرح القاموس (١/١٠٠) ، القاموس (١/٢٤) ، المخصص (١٢/٦) .

(٤) شرح القاموس (٩/١٥) .

(٥) القاموس (٣/٣٣٥) .

(٦) شرح القاموس (٧/٢٢٨) .

(٧) القاموس (٢/٢٢٩) .

(٨) شرح القاموس (٤/١٨٦) .

واليقطين ، — عند بعض علماء اللغة — ما لا ساق له من النبات ونحوه ، نحو القرع والدباء والبطيخ والشريان والحنظل . وهو شجر القرع عند بعض آخر ، أو كل شيء ذهب بسطاً في الأرض [1] .

والكمأ نبات معروف في جزيرة العرب ، يخرج من غير زرع كما يخرج الفطر . والعرب تسميه جُدَرِي الأرض ، ويقال لبائعه الكمّاء . وقد استعمل العرب ماءه لشفاء العين . وقد أشير اليه في الحديث . وهو بالطبع من النبات الذي يقتات به في أوقات ظهوره [2] . وأما الفطر ، فهو ضرب من الكمأة . وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال [3] . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه ، الا أن بينه ما هو غير سام .

وذكر علماء اللغة أسماء أنواع عديدة لنباتات تشاكل الكمأة ، منها : العرجون ، والطرثوث ، والطرنوث ، والضغبوس ، وغير ذلك من أنواع [4] .

وعرف القطن عند الجاهليين كذلك ، وقد صنعوا منه الثياب . وذكر علماء اللغة أنه يعيش طويلاً ، ويعظم شجره حتى يكون مثل شجر المشمش ، ويبقى عشرين سنة [5] . وعرف بـ « الكُرْسف » كذلك [6] . وبـ « القبيل » عند بعض علماء اللغة . وذكروا أن الكتان هو « الدبير » [7] .

---

(١) شرح القاموس (٩/٣١١) . المخصص (١٢/٥ وما بعدها) .

(٢) المصدر نفسه (١/١٢١) ، المخصص (١٢/٢ وما بعدها) .

(٣) المصدر نفسه (٣/٤٧٠) .

(٤) المخصص (٢/٦٢ وما بعدها) .

(٥) شرح القاموس (٩/٣١١) .

(٦) شرح القاموس (٦/٢٣١) ، جامع الأصول (١١/٤٨٣) .

(٧) شرح القاموس (٨/٧٢) .

ولإعاشة الدواب ، استعملوا أنواعاً من العلف ، منها اليابس مثل التبن ، ومنها الأخضر مثل الحشيش و « القت » . ويقال إن القت علف يابس ورطب [1] . ويقال للعلف الأخضر الذي يقصل من الزرع الأخضر القصيل [2] . وقد كان أهل المزارع يبيعون الفائض منه في الأسواق ، لاستخدامه علفاً للحيوانات .

ويطلق علماء اللغة على حبوب الأرض التي تدخر كالحمص والعدس والباقلاء والترمس والدخن والأرز والجلبان : « القطنية » ، وأطلقها بعض آخر على ما سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر ، أو على الحبوب التي تطبخ . وجعلها بعضهم العدس والماش والفول والدجر ، وهو اللوبياء والحمص وما شاكلها . وقد ذكروا أن الخليفة عمر كان يأخذ من القطنية العشر [3] .

والحبة واحدة الحب . ويقال : حبة من بر وحبة من شعير ، ويقولون أيضاً حبة من عنب والجمع حبّات وحب وحبوب وحبان وهي من النادر . وأما الحِبة (بالكسر) فبزور البقول ، وقيل بزور الصحراء مما ليس بقوت . وخصص بعض العلماء الحبّ بالحنطة والشعير . وأطلقوا الحِبة على البقل اليابس والعشب اليابس أيضاً ، وذلك اذا هاجت الأرض في آخر الصيف ويبس البقل والعشب وتناثرت بزورها وورقها [4] .

ومع وفرة النصوص ذات العلاقة بالزراعة ، لم نجد فيها إلاّ أسماء عدد قليل من الأثمار . وقد اكتفت أكثرها بذكر لفظة « ثمرم » التي تعني الأثمار دون أن تكلف نفسها عناء الاشارة الى أسماء الفواكه والأثمار المقصودة . وقد حرمنا بذلك من

---

(١) المصدر نفسه (٥٧١/١) .

(٢) المصدر نفسه (٨٠/٨) .

(٣) شرح القاموس (٢١١/٩ وما بعدها) .

(٤) المصدر نفسه (١٩٨/١) .

تـكوين رأي في الفواكه والأثمار التي كان يزرعها العرب الجنوبيون ، ومعرفة أسمائها في ذلك الحين .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار والنباتات نبتت ونمت نمواً طبيعياً ، مثل : الشوحط ، والقَـرظ ، والرنف ، والضهياء (وهو شجر يشبه العنّاب تأكله الإبل والغنم) [١] ، والعرعر ، والظّيان ، والأيدع ، والبَشام والعشرق ،والدّلب ، والسدر ، والتنضب ، والشبهان . وللتنضب ثمر يقال له الهُمقع يشبه المشمش يؤكل طيباً . وللسرح ثمر يقال له الآء يشبه الموز ، وأطيب منه ، كثير الحمل جداً . وقدكان الناس يسرفون في اقتطاع أغصان بعض هذه الأشجار ويمعنون في قطع الأشـجار للاحتطاب ، وللاستفادة من أخشابها في حاجات مختلفة . وقد لاحظ الرسول الأضرار التي نجمت عن ذلك ، فنهى عن كسر شيء من أغصانها ، لأن هؤلاء جميعاً ذوات ظل يسكن الناس فيها من البرد والحر [٢] .

وذكر « عرام » السّماقَ في جملة الشجر الذي ينبت في جزيرة العرب ، وذكر أنه يسمى « الضمخ » في الحجاز ، و « العرتن » في نجد . وأما « الخزم » ، فشجر يشبه ورقه ورقَ البرديّ ، وله سـاق كساق النخلة يتخذ منه الأرشية الجياد [٣] . وأما « الشقب » ، فهو شجر له أساريع كأنها الشطب التي في السيف ، يتخذ منها القِسِي [٤] . و « الإثرار » ، وله ورق يشبه ورق الصّعتر وشوك نحو شوك الرّمان ، ويقدح

---

(١) عرام بن الأصبغ السلمي : كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥٦ « سلسلة نوادر المخطوطات رقم ٨) من الصفحة ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤١١) .

(٢) عرام (ص ٤٠) .

(٣) عرام (ص ٤٠٢ وحاشية رقم ٢) .

(٤) عرام (ص ٤٠٣) .

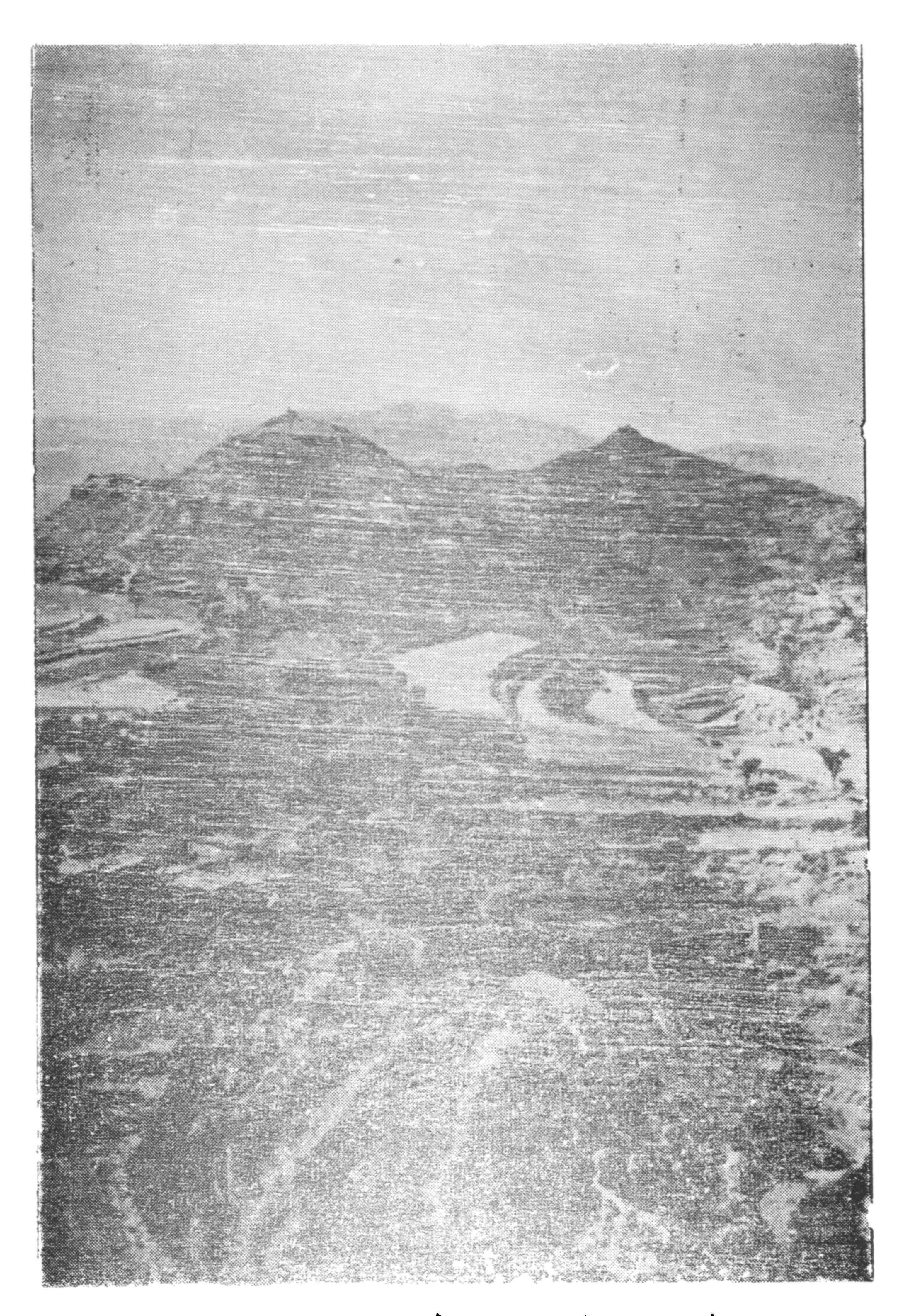
ناره إذا كان يابساً فيقتدح سريعاً ، وقد يتخذ من « الإِثْرار » القطران ، كما يتخذ من العرعر [١] .

ومن النباتات الأخرى : المَرْخُ ، والأَراك ، والثُّمام [٢] ، والعفار ، والطَّلْح ، والنَّشَمُ ، والتألب . وينبت التألب بجبال اليمن ، وله عناقيد كعناقيد البطم ، فاذا أدرك وجف ، اعتصر للمصابيح ، وهو أجود لها من الزيت . وتقع السرفة في التألبة فتعريها من ورقها . ويتخذ من عيدان التألب القسي [٣] ، كما يعمل من النشم القسى والسهام . والنبع ، والحماط (وهو شجر التين الجبلي) ، والشقاح (وهو نبت ينبت في حرود الجبال وأسافلها) [٤] ، والأرطى (وهو نبت قد يدبغ به أسقية اللبن خاصة ، ويتخذ منه حطب) [٥] ، والعشر [٦] ، والجميز [٧] ، والغرب ، وقصب السكر ، والعرفط ، والسلم [٨] .

وتنتج جبال جزيرة العرب بعض الأشجار ، مثل العَرْعَر . وذكر بعض العلماء أنه الأرز . والظّيان ، وهو ياسمين البرّ ، والنبع ، والنَّشم ، والشوحط ، والتألب والحماط ، والحثيل ، والجليل ، والثمام ، والغرف وهو شجر يدبغ به ، والشّث ، والمظّ ، والرتف ، والشوع ، والضبر ، والطباق ، والسراء ، والصوم ، والغِرْيَف ، والخزم ، والعُتُم ، والضرو ، والرتم ، والصاب ، والأثأب ، والأشكل ، وغير ذلك

---

(١) عرام (ص ٤٠٣ ، ٤٠٨) .
(٢) عرام (٤٠٤) .
(٣) عرام (ص ٤٠٧ ، رقم ١٠) ، المخصص (١١/١٤٢) .
(٤) عرام (ص ٤٠٩) .
(٥) عرام (ص ٤١١) .
(٦) عرام (ص ٤١٣) .
(٧) عرام (ص ٤١٥) .
(٨) عرام (ص ٤٣٤) .



المدرجات المقامة على الجبال والتلول لزراعتها

من كتاب : Jemen, das Verbotene Land

لمؤلفه Günther Pawelke (الصفحة ٥٦)

من أشجار ذكرها علماء اللغة [1] .

وتمتاز المناطق المرتفعة والجبلية من جزيرة العرب بقابلية الانبات وتربية الأشجار . وفي أعالي الجبال جوّ بارد في الشتاء ، معتدل في الصيف ، وفي أسفلها جوّ حار في الصيف ، وبين الأعالي والأسافل جو لطيف متوسط . وتمكن زراعة الأشجار المثمرة في المرتفعات وفي أعالي الجبال ، للطافة جوها وملاءمته لها . وقد عرفت هذه المناطق في الجاهلية بوجود هذه الأشجار فيها ، وقسم منها أشجار وحشية أنبتتها الطبيعة ، ولم تزرعها يد الإنسان . ولا تزال الأشجار الوحشية تنبت وتنمو في مثل هذه المناطق ، مستمدة غذاءها مما يتساقط من الأمطار ، بالرغم من اعتداء الانسان عليها وعدم عنايته بها . ومن هذه الأشجار التين الوحشي والزيتون الوحشي « العتم » ، ويستخرج الأهلون اليوم منه دهناً قاتم السواد يسمى « القطران » ، لطلاء الأبواب والنوافذ في أرض « شمران » المحاذية للسراة في المملكة العربية السعودية [2] .

و « السدر » من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب ، ورد ذكره في القرآن الكريم . واستعمل ورقه في مقام الصابون ، كما استفيد من ثمره ومن أغصانه وأخشابه . وهو يتحمل الصبر على العطش لعمق جذوره في باطن الأرض . وبذلك لاءم جوّ جزيرة العرب هذا النوع من الشجر ، وما زال الناس يزرعونه في كثير من المواضع . وقد استعمل مظلة يجلسون تحتها في أيام الحر الشديد ، ومجلساً يجلسون فيه لتمضية الوقت والتسلّي والترويح عن النفس .

ونجد في كتب الأخبار واللغة ألفاظاً تعبر عن قدم الأشجار وضخامتها ، فاستعملوا

---

(١) المخصص (١١/١٤٠ وما بعدها) .

(٢) جريدة البلاد السعودية (العدد ١٦٤ السنة الأولى ١٧ أغسطس ١٩٥٩ ، « الزراعة ومشاكلها في بلاد شمران » .

العاديّ والعُـدْمل والعُـدْملة والعُـدْملي للقديم من الشجر . وقد رأينا أنهم استعملوا العاديّ بمعنى القديم الجاهلي ، أطلقوه على الآبار خاصة ، وعلى كل أثر جاهلي . ويؤدي معنى القديم الدّوسـر . وأما الصامل ، فتطلق على القديم من الشجر [1] . ويراد بـ « الرّبوض » الشجرة العظيمـة الواسعة ، والدوحة هي الشجرة العظيمة كذلك ، والرداح مثل الدوحـة ، والهيكلة هي الشجرة العظيمة كذلك . أما الشجرة الطويلة ، فيقال لها « سَـهوق » . وإذا أحيطت الشجرة بشربة لتستقى فيها ، فيقال لذلك « المحوض » [2] .

وفي جزيرة العرب أشجار تنبت غالباً في الجبال استفيد من أحطابها وأخشابها ، وهي لا تزال تنبت على الطبيعة ، منها السلم والسمر والطلح والوهط والسرح .

وفي دواوين اللغة ألفاظ كثيرة أطلقت على جماعة الشجر من حيث كثافتها في أرض تنبت بها ، وهي تعطينا فكرة بالطبع عن مدى وقوف الجاهليين على تنظيم الأشجار وزرعها . وأصولهم في ذلك بعد أن عجزنا من الوقوف على نصوص جاهلية ، ترينا صور ذلك وأسماء المزارع التي تزرع فيها الأشجار أوالمواطن التي تنبت فيها بصورة طبيعية. ومن هذه الألفاظ « الدغل » ، ويراد بها الشجر الكثير الملتف ، و « الشَجْراء » وتقال للشجر المجتمع ، و « الشّعار » ويراد بها جماعة الشجر ، وكذلك « الغَيْضة » و « الأجمة » الشجر الكثير الملتف . وأما « الغَيْطلة » ، فهي بمعنى الغَيْضة ، وهي تقال في الشجر والعشب وكل ملتفٍ مختلط . وقيل الغيطلة من الطرفاء . وبهذا المعنى « الغَيْطل » ، أي الشـجر الكثير الملتف . و « الحرجة » جماعة الشجر . وقال

---

(١) المخصص (١١/١٢) ، القاموس (٤/٢) ، شرح القاموس (٣/٤٠٧) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٤) ، القاموس (٢/٣٢٩) ، شرح القاموس (٥/٢٤) .

بعضهم : تكون من السمر والطلح والعوسج والسلم والسدر . وأما العيص ، فجماعة الشجر ذي الشوك ، والجمع أعياص . وقيل : العيص من السدر والعوسج والنبع والسلم ، وهو من العضاه كلها . وأما المعيص ، فمنبت خيار الشجر ، و « الأيك » الشجر المجتمع . وأما « الرمخ » فالشجر المجتمع كذلك . و « الأيكة » جماعة الأراك . وقيل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من كريم الشجر . وأما « العيكة » ، فبمعنى الأيكة ، وهي لغة فيها في رأيي. ويذكر علماء اللغة أن« الغيل» بمعنى جماعة القصب ، وأنها الأجمة من البردي . وقال بعض العلماء : الغيل كل شجر ملتف ، وأكثر ما يقال لما ليس بذي شوك ، وقيل : كل شجر ملتف غيل . وأما « الغريف » ، فجماعة الشجر ، وقيل : من السلم والضال ، وهما من العضاه وعظام الشجر . وقيل الغريف : القصباء والحلفاء ، وهو الغيضة ، وهي من البردى والحلفاء والقصب . وقيل : من أسماء الأجمة ، وهي الأباءة . وقيل الأباءة هي من الحلفاء خاصة . وأما « الزأرة » ، فالأجمة ذات الحلفاء والماء والقصب . والخيسة : الشيء الملتف من الأشاء والقصب والنخل. والخيس الشجر الملتف ليس له شوك ، وقيل : اسم لما التف من جميع الشجر . ومن جماعات الشجر ، الربظ والوهط [1] .

ووردت « الغابة » ، وهي الأجمة ، وهي التي طالت وارتفعت أطرافها ، ويراد بها اليوم في اصطلاحنا الآجام الطبيعية ، أي المواضع الكثيفة الأشجار والتي نبتت أشجارها وأعشابها بصورة طبيعية ، والغابات الاصطناعية أي التي عملها الإنسان بغرسه الأشجار واروائها ، الى أن تتكاثف وتنمو أشجارها ، للاستفادة منها في مختلف الفوائد .

وذكر علماء اللغة جملة أسماء للآجام والغياض التي تلجأ اليها الأسود فتتخذ منها

---

(١) المخصص (٤٣/١١ وما بعدها) .

لمانع ، مثل « الخَفِيّة » (١) .

وقد كان بين آلهة اللحيانيين إله اسمه « ذوغابت » « ذوغابة » ، أي صاحب الغابة ، له معبد في مدينة « ددان » « ديدان » عاصمة مملكة لحيان . وهو من آلهتهم الكبرى ، وربما كان أكبر آلهتهم . وقد اكتشف المنقبون خرائبه وآثاره ، وعثروا ، في جملة ما عثروا عليه في هذا المعبد ، على آثار حوض كبير ، بُني من حجارة ضخام ، يظهر أنهم أقاموه للاغتسال به على وفق شعائرهم الدينية . وفي إقامة هذا المعبد لهذا الإله ، واتخاذ اللحيانيين إلهاً خاصاً بهذا الاسم ، دلالة على أهمية الغابات عند اللحيانيين . وفائدتها لهم وحصولهم على منافع كثيرة منها ، دفعتهم الى تصور إله خاص بالغابات ، يرعاها ويبارك فيها كما يبارك في الأشخاص (٢) .

وهناك مصطلحات أخرى تطلق في الغالب على مزارع النخيل ، وعلى مواضع الشجر التي يغرسها الإنسان بنفسه ، مثل « الصور » بمعنى جمّاع النخل ، وقيل النخل المجتمع الصغار ، و« الحائش» جمّاع النخل ، و« الحَشُّ» البستان أياً كان ، والحائط ، والحديقة ، والحظيرة . و « العقدة » الجماعة من النخل ، و « الشرب » الجماعة من النخل ، و « الصريمة » القطعة من النخل ، و « المنقبة » الحائط من النخل ، و«الجنة» جماعة النخل . وقال بعضهم : لا تكون جنّة في كلام العرب إلا وفيها أعناب . فإذا كانت أشجاراً لا نخل فيها ولا أعناب ، فهي الحدائق ، وسائر النبات رياض (٣) .

واستعمل الجاهليون أدوات في الاحتطاب والقطع ، منها الحِدَأة ، وهي الفأس ذات الرأسين . أما الفأس ذات الرأس الواحد فتسمى الفأس . وأما الأداة التي ينقر بها

---

(١) المخصص (١١/٧، وما بعدها) .

(٢) Werner Caskel, Das altarabische Königreich Lihyan, S. 12. f.

(٣) المخصص (١١/١١٥ وما بعدها) .

الخشب ، فيقال لها : المنقار . والكرزن من أسماء الفأس أيضاً . وأما الصاقور ، فالفأس العظيمة لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة ، وهي الصوقر ، والخصين الفأس الصغيرة وهي يمانية . وأما القدوم ، ففأس ذات حدّ واحد مثل فأس النجار ، والحدثان فأس كذلك ، والمِنْجل الآلة التي يقطع بها العود والحشائش وما شابه ذلك. وأما المنجل الذي لا أسنان له ، فهو المِخْلب . والمِقْلد المنجل كذلك . والمِعْضَدُ ، أداة شبيهة بالمنجل ، إلا أنها ثقيلة يعضد بها الشجر . والبْرَت ، الفأس بلغة أهل اليمن . والمُقْبلة الفأس كذلك [1] .

ويعرف الخشب بـ « عضم » في المسند [2]. وقد استعمل في أعمال البناء في اليمن ، في التسقيف والشبابيك والسلالم والجدران وغيرها كما ورد ذلك في جملة من الكتابات .

وقد صنع البدو وسكنة الجبال من النباتات البّرية والأشجار الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هذه المواد ، وذلك باشعالها أولاً ثم إطفاء جرها ، للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك في أغراض شتّى . ويحمله أصحابه الى أهل المدر ، لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون اليها . وقد أدّى الإسراف في ذلك وفي قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها في مكانها ، الى تحوّل مناطق واسعة من جزيرة العرب كانت شجراء منبتة الى أرض جرداء قاحلة ، وهذا مما أضر بها ضرراً كبيراً .

وتشاهد في كثير من المناطق الجبلية والنجود في جزيرة العرب بقايا أشجار قديمة

---

(١) المخصص (١١/٧٥ وما بعدها) .

(٢) راجع الفقرة الثانية من النقش الموسوم بـ « نقش رقم ٥ » ، في نقوش خربة معين (ص ٥) .

وأصول أشجار ممتدة بين الصخور [١] تدل على أن هـذه المناطق الجرد كانت ذات أشجار باسقة ، ولـكنها أصابها الجدب فيبست وبادت ، حتى استحالت تلك البقاع النضرة قفاراً جرداً ، لا تفيدها أهليها شيئاً .

ونجد في كتاب « صفة بلاد اليمن » لابن المجاور أمثلة عديدة من أذى الإنسـان بالحضارة وبالعمارة بسبب الحروب والغزوات والنزاع على الملك . فنجد الأمير عز الدين أبا عزيز قتـادة بن ادريس يأمر بحرق نخيـل موضع يسمى « عين النبي » ، وهي عين جارية عليها نخيل كثير ، وذلك سنة (٦١٥) للهجرة [٢] ، وبهدم « حصن المجوم » ، وهو حصن جاهلي قديم ، نسب الأخباريون بناءه الى الروم والى الأنباط ، لضخامته ولضخامة الحجارة المستعملة في بنائه ، وبتخريب ما فيـه ، وقد كانت به بئر عظيمة عميقة ، ماؤها عذب فرات ، بسبب خوفه مـن الأعراب ونكاية بأعـدائه ، فتخرب الحصن ، وعرف من ذلك الحين بحصن الغراب [٣] .

ولا يزال أكثر الناس يزرعون في جزيرة العرب على الطريقة القديمة التي ورثوها من أجدادهم . يزرعون بالآلات القديمة التي تعتمد على الأيدي وعلى الحيوان . ولا يزال بعضها يحتفظ بأسمائه الجاهلية . وأما الارواء فإنهم يعتمـدون فيه على المطر أو الآبار أو العيون والنهيرات . وتزرع الحبوب مثل الحنطة ، وهي أنواع كثيرة ، والذرة والدخن و « السيلان » في بعض مناطق جزيرة العرب اليوم بعد الأمطار ، ولا تسقى بعد ذلك أبداً حتى الحصـاد . وقليل من هذه المحاصيل يسقى بماء الآبار ، كما في

---

(١) تزيه مؤيد العظم (الصفحة ٦٩) .

(٢) ابن المجاور (١/١٦) .

(٣) ابن المجاور (١/٢٠ وما بعدها) .

« شمران » [١] .

وقد استخرج أهل اليمن وغيرهم من سكان جزيرة العرب الأصباغ من بعض النباتات ، لاستعمالها في الصناعة أو في البناء وفي صبغ الثياب . فكانوا يعصفرون الثياب من القُرطم ، وهو بزر يستخرج من نبات يسمى العصفر [٢] . ولا يزال أهل نجد واليمن يستخرجون نوعاً من الأصباغ ذا لون أزرق من الحوار ، يستعملونه في صبغ الثياب وغيرها . ويستخرج أهل عسير صبغة خضراء من البرسيم لتزيين البيوت من الداخل [٣] .

وقد استعمل المزارعون المعاصر لعصر الأعناب أو لاستخراج الزيوت من البذور. وتسمى المعصرة « موهت » [٤] في المسند ، من أصل « وهت » [٥] . ومن معاني هذه اللفظة الضغط وشدة الدوس ، وهي تستعمل في الحقول كما تستعمل في البيوت وفي محلات الاتجار بالزيوت .

وقد جابهت حكومات العربية الجنوبية المشكلة التي تجابه كل الحكومات . وهي هرب المزارعين من الأرض والالتجاء الى المدن . ففي بعض نصوص المسند الخاصة بالزراعة نجد تهديداً للزارعين الذين يفرون من المزارع ويجلون عنها ، فيلحقون بذلك

---

(١) البلاد السعودية عدد (١٧) أغسطس ١٩٥٩ .

(٢) بالضم ، القاموس (٢/٩١) ، « القرطم : كزبرج وعصفر ، حب العصفر » ، « والقرضم بالكسر ، قشر الرمان وهو يدبغ به » ، شرح القاموس (٩/٢٤) .

(٣) تويتشل : المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية ، ترجمة شكيب الأموي (القاهرة ١٩٥٥) ، (الصفحة ٣٠) .

(٤) Rep. Epi., Tome, V, P. 209, Num. 2876.

(٥) « وهته كوعده ضغطه » ، القاموس (١/١٦٠) ، « وهته كوعده وهتا ، داسه دوساً شديداً ، ووهته وهتا اذا ضغطه فهو موهوت » ، شرح القاموس (١/٥٩٥) .

الأذى بالزراعة وبالحاصل . والواقع أن حياة الفلاح في المزرعة كانت حياة صعبة قاسية ، فلا يكاد دخل الفلاح يكفيه مؤونته ومؤونة عياله ، ولا سيما أيام الشدة حين يقل الزرع أو يتعرض للتلف لعوامل عديدة ليس في طاقة الفلاح مكافحتها ، فضلاً عن الضرائب الباهضة التي عليه أن يدفعها الى صاحب الأرض والحكومة والمعبد . فلاذ بأذيال الهرب من الأرض الى المدن للاشتغال فيها ، بالرغم من تشديد الحكومة في منع الهجرة وترك المزارع من غير موافقة أصحاب الأرض . وقد عرف الهارب من الأرض والمجلي عنها بـ « مهجلت [١] » في نصوص المسند .

وفي جزيرة العرب مراعي ، منها الخاص ، ومنها العام . والمراعي الخاصة ما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى . أما المراعي العامة ، فهي التي لا تدخل في ملك أحد ، وإنما يرعى فيها مختلف القبائل والناس . وقد تفرض قبيلة حمايتها عليها لرعي أفرادها في هذه المنطقة . وتكون بذلك « حمى » لتلك القبيلة مدةً موقتة أو طويلة ، ويقال للمرعى في المسند [٢] « مرعى » كذلك .

ولا حاجة بي الى الاشارة الى أثر المراعي في حياة جزيرة العرب ، وفي حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهي من أهم المشكلات العويصة بالنسبة اليهم والى الحكومات حتى الآن . والأعرابي ومعه ماشيته وراء المراعي يفتش عنها في كل مكان ، ويتنقل اليها ليجد فيها الكلأ لماشيته . ولفظة « رعى » من الألفاظ التي يكثر ورودها في الكتابات الصفوية وهي كتابات أصحابها رعاة ، كانوا يتنقلون مع ماشيتهم من مكان الى آخر في طلب المرعى ، فكانوا يكتبون خواطرهم على الحجارة والصخور ، تخليداً لنزولهم هاتيك

---

(١) السطر التاسع والعاشر من النص : Rep. Epi., Num. 4646

(٢) Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 57., Halevy 147

المواضع ، كما يفعل بعض الناس اليوم في كتابة أسمائهم مع كلمات مناسبة عند زيارتهم لأماكن أثرية أو مواضع نائية في الصحراء .

وسبب هـذه المشكلة هو قلة وجود المـاء في جزيرة العرب ، وقلة الأمطار وانحصارها في مواسم ضيقة لا تمتد طويلاً ، وانحباسها في بعض السنين ، مما يسبب قصر زمن الرعي والتأثير في حياة الماشية حيث تتعرض للهلاك والموت . وهـذا مما يحمل القبائل على ان تتنقل من مكان الى مكان وتتزاحم وتتطاحن للاستيلاء على المراعي . وقد ضرب المثل في العهد القديم « The Old Testament » بقصر حياة الحشيش في المرعي . ضرب ذلك للتمثيل بقصر حياة الانسان في هـذا العالم . ويقال للحشيش « Chatsir » في العبرانية ، وتقابل لفظه الخضرة في العربية الشمالية [١] .

والعشب[٢] هو الـكلأ الرطب ، وأرض عاشبة وعشبة وعشيبة بينة العشابة كثيرة العشب [٣] . وقد عرّف بعض علماء اللغة العشب بأنه سرعان الـكلأ في الربيع يهيج ولا يبقى . وعرفوا الـكلأ بأنه يقع على العشب وغيره . وقالوا أيضاً إن العشب الرطب من البقول البرّية ينبت في الربيع . ويدخل في العشب أحرار البقول وذكورها . فأحرارها ما رق منها وكان ناعماً ، وذكورها ما صلب وغلظ منها . وقال بعض العلماء : العشب كل ما أباده الشتاء ، وكان نباته ثانية من أرومة أو بذر [٤] . ويعرف بهذه التسمية في العبرانية كذلك . وتطلق اللفظة على كل عشب مهما كان منبته سواء أكان في السهل أو الحزن أو الجبل [٥] . وقد استعملت لفظة « أعشاب » المقابلة لـكلمة « Herbage » في الانكليزية للأعشاب المستعملة في التداوي بين المسلمين . ولما كانت

---

(١) Hastings, P. 314. f.

(٢) بالضم .

(٣) القاموس (١/ ١٠٤) .

(٤) شرح القاموس (١/ ٣٨٢) .

(٥) Jastraw, Dictionany, II, P. 1124.

الأعراب تتداوى بالأعشاب فلست استبعد استعمالها لهذه اللفظة بهذا المعنى قبل الإسلام.

وقد حدث في الجاهلية ما يحدث اليوم : يتنقل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من جزيرة العرب في الجفاف ، فيتجهون نحو الشمال ، نحو بلاد الشأم والعراق للرعي والاكتيال . ينزلون هنالك جماعات حيث يجدون الماء والكلأ ، في مواضع مختلفة قد تكون بعيدة عن القرى والمدن ممعنة في البادية ، وقد تكون في أطراف القرى وبين الحضر ، وقد يدخلون بين الحضر للاكتيال والامتيار وللري في مواضع العشب والكلأ المحيطة بهم . وهم على هذه الحالة ما دامت بهم حاجة الى كل أولئك ، فاذا انتهت أو شح ما قصدوه انتقلوا الى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنة البدوي في الحياة .

ولما كان في مجيء الأعراب على هذه الصورة محاذير وأخطار على الحضر وعلى الحكومات ، اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشأم الى اتخاذ وسائل الحماية المختلفة ، فبنت « المسالح » ووضعت الحرس في مواضع قوية لمراقبة القادم والخارج ولابلاغ رجال الأمن بدنو الخطر ، وحذرت من الأعراب ، فأشرفت على حركاتهم وسكناتهم خشية انتهازها فرص الضعف ، فتعبث على عادتها بالأمن . وقد أنشأ الرومان واليونان بركاً واتخذوا صهاريج تخزن مياه الأمطار ليستفيد منها الأعراب وليجدوا فيها ما يحتاجون اليه ، فلا يتوغلوا عميقاً في بلاد الشأم .

وهكذا أمن حكام الشأم من خطر الأعراب ، بعد أن اتبعوا معهم سياسة الترضية والإسكان للاستفادة منهم في حفظ الحدود . وأقام قسم من الأعراب في المواضع التي تتوافر فيها المياه ، وزرعوا ، واشتغلوا ببعض الحرف مثل غزل الأصواف ونسجها ، والتوسط في التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية من بلاد الشأم ، وزرع الحبوب وأشجار الزيتون والكروم . واستفادوا من هذا الحاصل الزراعي ببيعه للأعراب المحتاجين اليه . وقد اشتهرت بعض القرى والمستوطنات التي

تغلبت عليها الصبغة العربية ببيع الخمور المستحصلة من الكروم وصارت لها شهرة بين الأعراب [1] .

وقد كان شعور الأعرابي بالحرمان من أرض له يتوطنها يدفعه الى عدم الارتباط بموضع معين لاستغلاله والإقامة فيه ، كما يدفعه أيضاً الى تدمير كل شيء يجده أمامه أو عدم المبالاة به ، لأنه ليس بملكه ، ولكن لجماعة غريبة لا صلة له بها . اما اذا شعر أن هذه الأرض ستكون له وستعود اليه ، اليه وحده ، فعندئذ يشتغل فيها ، ويربط مستقبله بها ، ويتحول تدريجاً من رجل قلق متنقل متجول الى حضري مستقر مقيم ، لا يأنف من الزرع ولا من احتراف الحرف التي يرى الأعرابي أنها تجلب الضعة والحطة للانسان . يفلح ويزرع ويبيع حاصله من ناتج زراعي وحيواني كأي انسان آخر من الحضر المستقرين .

ونجد اليوم في منطقة الصفا وفي مواضع من حوران والبادية الشرقية من بلاد الشأم آثار مزارع ومواضع كانت مأهولة بمستوطنين مزارعين ، تدل دلالة قاطعة على أن اصحابها كانوا من العرب المستوطنين في هذه الأماكن قبل الاسلام . جاؤوا اليها مهاجرين بالطبع ، ثم استقروا فيها فاستفادوا وأفادوا ، ولو ادرك القابضون على أزمّة الحكم في البلاد العربية هذه الحقيقة ، فمنحوا الأعرابي أرضاً وهيأوا له ماءً ، وجعلوه يشعر أن هذه الأرض هي ملكه يتصرف بها لخيره ولخير أهله وعائلته ، فانه سيكون بالطبع شخصاً آخر لا يختلف عن الحضري في شعوره نحو نفسه ونحو المجموع ، ولاستغل أرضه وطوّر نفسه . وتكون نتيجة هذا التطور فائدة مباشرة له وللوطن الذي يعيش فيه . وعندئذ يشعر بحقوق المواطنة وبالاخلاص لغيره ولحكومته ،

---

(١) رينيه ديسو : العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩ (ص ٤ وما بعدها) .

وكيف نريد منه الاخلاص في خدمة حكومته إذا كانت حكومته لا تشعره بوجودها ، ولا تظهر له إلا يوم مطالبته بضريبة أو حق تشعر باستحقاقه عليه .

وتثبت النصوص الصفوية أن أصحابها كانوا جماعة من الرعاة ، يتنقلون من مكان الى مكان بدليل الإشارة الى المرعى « همرعى » والى الماء والى البقر والإبل والشياه « شاهي » والأودية « هنخل » وغير ذلك من الألفاظ التي ترد على ألسنة الأعراب ويكثر استعمالها في حياتهم اليومية . فكان هؤلاء الصفويين يتنقلون مع الكلأ والماء لرعي ماشيتهم [1] . على أن منهم من آثر كما ذكرت حياة الاستقرار والاستيطان ، فأقام في المواضع التي تتوفر فيها المياه دائماً ، أو التي أمكن اصلاحها بحفر الآبار فيها ، فاشتغلوا بالزراعة وعاشوا عليها ، واشتغل قوم منهم بالتجارة بين مدن الشأم وقراها .

ويفهم من بعض النصوص أن الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضي على المزروعات في بعض الأحيان . ولذلك طالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وانزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقد يكون من بين هذه الآفات الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحماية في نظرهم تسمية الآلهة التي يوضع الزرع في حمايتها ، وشكرها بعد الانتهاء من الزرع والحصول على محصول وافر غزير . وفي مقابل ذلك تقسم لها حصة أو يقدم الى المعبد نذر .

وترد في أمثال هذه النصوص ألفاظ تناسب المقام ، مثل « لسـعدهمو » أي « ليسعدهم » و « لسعدهم » ، وليبارك فيه أو ليبارك فيهم . ولفظة « متوفى » أو « ووفيهم » ، بمعنى ليوفيهم . و « افقلن » بمعنى « الفقل » أي الحاصل ، كما في هذه الجملة : « ولسعدهمو اثمرم وافقلم [2] » ، بمعنى « وليسعدهم في اثمارهم وغلاتهم » ،

---

(١) ديسو : العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٩٤ وما بعدها) .

(٢) Rep. Epi., Num. 4636, Glaser 425.

وبعبارة أخرى « وليبارك لهم في ثمرهم وفي حاصلهم » وغير ذلك من ألفاظ .

وطالما وجدنا في النصوص الزراعية أن أصحابها وضعوا زرعهم في حماية الآلهة ، ويذكرون أسماءها ، وهم إذ يفعلون ذلك ، فانما يفعلونه بغية الحصول على البركة في الزرع ونمائه وكثرة محصوله . وذلك لأنهم تيمنوا بأسماء تلك الآلهة التي سمى الزرع باسمها ، ووضعوه تحت حمايتها لحفظ الزرع من الآفات كذلك . وطالما قدموا في مقابل ذلك نذراً وحصصاً من الحاصل يخصصونها بالآلهة ، تدفع الى رجال الدين بالطبع باعتبار أنهم السلطة التي تمثل الآلهة على وجه الأرض .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة في معاني الآفات التي تصيب الزروع ، مثل : البَشَق وهو داء يصيب الزرع ، والغمل ، والخناس ، والشفران ، واليرقان ، والأرقان ، والرصع ، والوصم وهو العيب في العود ، والقادح وهو الصدع ، والسوس ، والنخر [١] .

ومن الآفات التي تصاب بها الأشجار بفعل الحشرات « الأَرَضُ » ، وهو تسلط الأَرَضة على الشجرة ، فتعبث بها أكلا حتى تجوّفها وتسوسها . وهناك دوابٌّ صغار أخرى تعبث بالأشجار وبالزرع فتتلفه ، منها القادحة ، وهي دودة تأكل الشجر [٢] .

ومن الأمراض والآفات التي تصيب النخيل ، الدمان [٣] ، ويقع على التمر ، فيفسد ، وتصيبه العفونة قبل إدراكه حتى يَسْوَدّ . والمراض [٤] وهو داء يصيب النخل .

---

(١) المخصص (١١/٥٦) .

(٢) « العيب في العود من القادح والخرز والسوس » ، المخصص (١١/١٢ وما بعدها) .

(٣) بضم الدال وتخفيف الميم ، « .. وعفن النخلة وسوادها كالدمن » ، القاموس (٤/٢٢٣) ، شرح القاموس (٩/٢٠٣) ، « الدمان : بفتح الدال المهملة وتخفيف الميم ، ضبطه أبو عبيد ، وضبطه الخطابي بضم أوله . وقال عياض : هما صحيحان ... »

(٤) بضم الميم .

والقشام (١) وهو أن ينتفض تمر النخل قبل أن يصير بلحاً (٢) . وذكر بعض العلماء أن الدمان فساد النخل قبل إدراكه ، وإنما يقع ذلك في الطلع يخرج قلب النخلة أسود معفونا . وذهب آخرون الى أنه فساد الطلع وتعفنه وسواده . وقال بعضهم : الدمال التمر المتعفن ، وأنه فساد التمر وعفنه قبل إدراكه حتى يسود من الدمن . وأما المراض ، فذكر بعض العلماء أنه اسم لجميع الأمراض . وأما القشام ، فهو أن ينتفض النخل قبل أن يصير بلحاً ، وقيل : هو أكال يقع في التمر (٣) .

ولا بد لأصحاب الزرع أو الأرض ولموظفي الحكومة المسؤولين عن جمع حصة الحكومة من تقدير الحاصل وحزر مقدار ما تحمله الأشجار من ثمر لأخذ الحصص المعينة كنصيب الحكومة أو المعبد منها (٤) ، ويقال لذلك « الخرص » . وبهذا المعنى وردت اللفظة في عربية القرآن الكريم كذلك (٥) .

وقد عينت الحكومة جماعة من الموظفين لجباية ضرائب الزراعة وضرائب المعاملات مثل التجارة . فعلى الضرائب تعيش الحكومات في الماضي خاصة . ولكل طبقة من الموظفين الموكل اليهم أمر هذه الضرائب تسمية خاصة . وقد عرف الذين كانوا يجبون ضرائب الزراعة بـ « حزرو » . وواحدهم « حزر » (٦) .

ويرد « الحزر » بمعنى التقدير والخرص في عربية القرآن الكريم ، والحازر هو

---

(١) بضم الأول ، « وكغراب : أن ينتفض النخل قبل استواء بسره » ، القاموس (٤/١٦٦).

(٢) جامع الأصول (١/٣٩٢) شرح القاموس (٩/٢٨) .

(٣) عمدة القاريء (١٢/٣) .

(٤) Rhodokanakis, Kata. Texi., I, S. 99ff,

(٥) الخرص : الحزر ، والاسم بالكسر . كم خرص أرضك .. » القاموس (٢/٣٠٠) .

(٦) « الحزر : التقدير والخرص » ، القاموس (٢/٨) .

Rhodokanakis, Kat. Texte., II, S. 75.

الخارص ، والحزرة من المال خياره [١] ، أي بالمعنى الوارد في المسند .

وكما يفعل بعض الناس في الزمن الحاضر من التهرب من دفع الضرائب بمختلف الطرق ، كذلك تهرب الناس في الجاهلية من دفع الضرائب الى الحكومات . بالرغم من العقوبات الصارمة التي فرضت على المتهربين والمخالفين . وفي ضمن ذلك الاستيلاء على الحاصل الزراعي كله ، وتهديم المذاخر التي قد يخفى فيها الحاصل وتهديم أملاك صاحبه . ونجد في أحد النصوص أن من يخفي حاصله ولا يدفع ما عليه ويخفيه في القنن جمع قنة « قنت » ، أي المخازن ، ويتستر عليه ، فإنه يصادر عليه ويؤخذ منه ، بل يستولى على كل ما يعثر عليه في المزرعة ويخرب ويتلف ، ويعاقب بالقتل أيضاً [٢] .

واذا كنا نجهل أسماء الورد والزهر وأنواعها عند العرب الجنوبيين، فإننا لانستطيع أن ننكر عناية أهل العربية الجنوبية بها ، واعتناءهم بزراعتها ولا سيما أنواعها الزكية ذوات الرائحة الطيبة العطرة والألوان الجذابة . وقد وجدت بعض الأزهار مجسمة ومحفورة على الصخور والأخشاب للزينة . واذا كانوا يحفرون أشكالاً لها على الأحجار، والأخشاب للزينة والزخرفة ، فهل يعقل اهمالهم زراعتها في حدائقهم اذن ؟

وتستعمل الرياحين في البيوت ، وتعطى للقادمين على سبيل التقدير والتكريم ، وتزرع في الحدائق . وفي اللغة لفظة « عُشُق » ، وتفسيرها « المصلحون غروس الرياحين ومسوّوها » [٣] ، ووردت لفظة « ريحان » في القرآن الكريم .

واستفاد الجاهليون من الزهر والورد في استخراج الروائح والعطور منها ، ومن

---

(١) شرح القاموس (٣/١٣٨) .

(٢) Rep. Epi., Tome V, P. 192. f. Num. 2860.

(٣) والعشق (بضمتين) : المصلحون غروس الرياحين ومسووها » ، القاموس (٣/٢٦٠) ، Rhodokanakis, Kata. Texte., I, S. III

ذلك « ماء الورد » . وقد عرف عند أهل المدينة بـ « الجلاب »[1] . وهي تسمية فارسية بمعنى « ماء الورد » . وقد وردت في كتب الحديث[2] . ووردت ألفاظ أخرى أعجمية الأصل ، استعملها أهل المدينة في الجاهلية ، مثل الخربز بمعنى البطيخ ، والبيل « البيلة » ، بمعنى المسحاة .

ولتقوية الأرض وإعادة الحيوية اليها ، استخدم الجاهليون التسميد . وبالسماد تعاد الى الأرض بعض قوتها ، وينمو بها الزرع . وقد استعملوا في ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون في الزمن الحاضر الذين لا يزالون يسيرون على طريقة القدماء في التسميد ، فاستعملوا فضلات الانسان والحيوانات ، كما استعملوا الزبل أيضاً . وفي كتب اللغة جملة ألفاظ استعملها المزارعون في التسميد .

ويربي الزرّاع الحيوانات للاستفادة منها في الخدمات الزراعية وفي معاشهم ، كالجمال للنقل والحراثة ومَتْح الماء من الآبار العميقة ، والبقر للانتفاع بألبانها ولحومها وللحراثة ومتح الماء ، والضأن والمعز والدجاج وغير ذلك من الحيوانات الأخرى الأليفة التي تربى في البساتين والحقول .

وقد حفظت الأيام بعض الحجارة المكتوبة بالمسند ، وعليها صور ، افادتنا كثيراً في تكوين فكرة عن ملامح الحياة الاجتماعية للعرب الجنوبيين قبل الاسلام بأمد ، وفي تبين طراز معيشتهم ، والوقوف على اشكال بعض ملابسهم ، وما شابه ذلك ؛ وافادتنا من الناحية الفنية حيث أرتنا فن العرب الجنوبيين في الحفر والتصوير وفي إبراز الأفكار التي دارت بخاطره وكيف حاول جاهداً ابرازها بصورة مجسمة محفورة على الصخور .

---

(١) كنزنار .

(٢) شرح القاموس (١/١٨٦) .

وبين الحجارة المصورة المكتوبة التي لها علاقة بموضوعنا ، وهو الزراعة ، حجر حفرت عليه صورة حرّاث حافي القدمين وقد ارتدى ثوباً بلغ ركبتيه وشد وسطه بحزام وأمسك بيده اليسرى الحبل أو النطاق المتصل بالمحراث ، وباليمنى آلة على هيأة فأس من خشب ، ربما استعملها في ضرب ثوري المحراث ، أو استعملها في حفر الأرض أيضاً وتفتيت التراب المحفور . وقد رُبط الثوران بالمحراث ، وأخذا يحرثان الأرض ، والفلاح يوجهها . ورسمت تحت الصورة صورة ثلاثة رجال ، يظهر من ملامحهم ومن شكل ملابسهم أنهم كانوا من أصحاب الأرض .

ونظرة العربي الحرّ الى الفلاحة نظرة ازدراء وقلة تقدير ، ولذلك لم يقم بها في الغالب إلا الفقراء من الحضر والعبيد والأجراء ، ولم يكن لهؤلاء في المجتمع مكانة ، وهي نظرة لا تزال باقية حتى الآن . أما منزلة صاحب الأرض ، فتختلف بالطبع عن منزلة الأكار والمزارع . ومنزلة المزارع الذي يشتغل بزراعة البقول ، هي أدنى من منزلة المزارع الذي يشتغل بغرس النخيل . ومن أمثلة ما ورد من ازدراء المزارع ما ذكر على لسان أبي جهل في حديث قتله : « فلو غير أكار قتلني » أراد به احتقاره وانتقاصه ، كيف مثله يقتل مثله [1] .

وبعد ، فإننا وان كنا وجدنا الأرض أهم مصدر للمعيشة في جزيرة العرب ، وهي لا تزال كذلك ، وهي عماد ثروة الأسر الكبيرة ، وعماد حياة الطبقات الفقيرة ، نلاحظ أن الاشتغال الفعلي بالزراعة وبفلاحة الأرض واستغلالها ينظر اليه بصورة عامة نظرة ازدراء وعدم تقدير . ولا تزال هذه النظرة باقية حتى الآن . نعم ، إن صاحب الأرض يفتخر بأرضه ، ويتيه عجباً بماله المتجمع لديه من الزراعة ، ولا سيما اذا كانت أرضه ذات مياه غزيرة . ولكنه نفسه وأهل بيته لاينظرون الى الفلاح ، المشتغل الفعلي

---

(١) شرح القاموس (٣/١٢) .

بالأرض ، نظرة تقدير وتشجيع . كانوا يرونه رجلاً ضعيفاً ، والضعيف مزدري ، ومكانته وان كانت أرفع شأناً من مكانة القين والنجّار والبناء والعامل ، هي غير مقدرة ولا محترمة على كل حال . فلم يكن يشتغل بالفلاحة العملية إلا المستضعفون من الموالي والرقيق والنبط . ولعلّ هذا هو الذي جعل يهود المدينة يستغلون الزراعة ويحتكرونها ويستولون على خير الأرض في الحجاز ، ويطلبون من الرسول إبقاءهم في أرضهم ، يزرعونها على النصف من الحاصل ، لأنهم أصحاب علم بالأرض ولهم خبرة بالزرع [1] .

وقد حث الرسول المسلمين على الاشتغال بالزراعة ، وجعلها من الأعمال الطيبة التي يثيب الله المشتغل بها عليها ، لحاجة المسلمين الى الطعام . ولكنها بقيت مع ذلك حرفة لا تليق بالرجل الحر . ولعل في جواب الأعرابي للرسول حين تحدث الرسول اليه عن الزرع : « والله لانجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فانهم أصحاب زرع . وأما نحن فلسنا أصحاب زرع » ، ما يفيدنا في هذا الباب . ويذكر رواة هذا الحديث أن الرسول ضحك حينما سمع جواب هذا الأعرابي [2] . أما وقد رأينا موقف المهاجرين والأنصار من الزراعة العملية والفلاحة فلك أن تقدر اذن موقف هذا الأعرابي منها .

---

(١) عمدة القاري (١٢/١٧٨ وما بعدها) .

(٢) عمدة القاري (١٢/١٨٥ وما بعدها) .

الفصل الخامس

الارواء

تعطى الديانات السامية الماء أهمية كبيرة . وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون الى آلهتهم بتقديم الماء الى العطاشى ، وفرضت عليهم تقديم المـاء الى العطشان لإغاثته وانقاذه من الهلاك . وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك ، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة .

ولا بد أن تكون للوثنية العربية النظرة ذاتها التي نراها في الأديان الأخرى بالنسبة الى الماء ، بأن أعطته شيئاً من التقديس والأهمية ، وجعلت له مكانة في عقائدها ، وذلك قياساً على ما قلته من تقديس الأديان الأخرى له . وان كنّا نجهل ذلك لعدم ورود شيء عن ذلك في المسند . ولـكن عدم ورود شيء من ذلك في المسند لا يكون دليلا على عدم تقديس العرب الجاهليين له ، لأن نصوص المسند لم تختتم بعد ، وما وصل الينا ليس إلا شيئاً قليلاً بالنسبة الى ما قد يعثر عليه في المستقبل ولا شك .

وفي الأخبار المروية عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون والجداول ، والتبرك بشرب الماء منها ، دليـل على نظرة التقديس التي نظرتهـا الشعوب السـامية وغيرها الى الماء . فالماء هو الحياة . وفي القرآن الـكريم : « وجعلنا من الماء كل شيء

حي »[1] . ولا بد أن تكون هـذه النظرة التقديسيّة هي التي حملت الجاهليين على تقديس بئر زمزم . ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قطّان هذا البلد الكائن في واد غير ذي زرع وماء ، ولو لا زمزم لهلك أهله ، أو هجروه . ولا يدرك المرء قيمة الماء إلا اذا كان في صحراء قفرة لاماء فيها ثم نفد ماؤه . ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب ، يغيثهم بعد أن يتعرضوا للجدب والهلاك .

وما تلك النظرة التي نظرها أهل مكة الى « السقاية » إلا صفحة من صفحات ذلك التقديس الجاهلي للماء ، فقد كانت للسقاية منزلة محترمة في مجتمع مكة ، وهي مثل السدانة من المنازل الاجتماعية التي يتفاخر أصحابها بها ، وقد كانت وراثيـة تنتقل في الأسرة من الآباء الى الأبناء . وإذا عدت وظائف الشرف في قريش في الجاهلية ، عدّت السقاية في جملتها .

وقد كان من سنن القدماء غسل يدي الضيف وقدميه عند قدومه ، كما كان من عادتهم غسل اليدين والوجه في بعض الأحيان قبل الشروع في تناول الطعام . ولا تزال عادة غسل اليدين قبل تناول الطعام متبعة عند كثير من الناس . وليست هـذه العادة لمجرد تنظيف اليد وتنقيتها مما قد يكون علق بها من أوساخ وادران ، بل لسنن دينية قديمة كانت عند الأقدمين ، تتعلق بقدسية الماء ، واعتباره مطهراً من الشوائب والادران التي تنفر منهـا الآلهة ، ولهذا وجب إبعادها عن الانسان . وهناك سنن الغسل الجزئي أو الكلّي للبدن عند العبرانيين وعند العرب الجاهليين وغيرهم ، لهـا كلها علاقة بهذا الموضوع .

وتعدّ بقاع جزيرة العرب من الأرضين الجافة . فالأمطار فيها ، ولا سيما أقسامها

---

(1) الأنبياء ، الآية ٣٠ .

البعيدة عن البحر، شحيحة، والأنهار الكبيرة معدومة فيها، والعيون قليلة أيضاً، وجوّها جاف لا نكاد نستثني منها الا سواحلها، وهذا الجفاف صير القسم الأكبر من أرضها صحارى قاحلة تكسوها طبقة غليظة من الرمال في بعض الأماكن مثل الربع الخالي، كما جعلها غير قابلة للزرع. على أن من الممكن أن تبعث الحياة في مناطق واسعة شاسعة من هذه الأرضين، فتجعل أرضين منتجة مخصبة نافعة، إذا اتبعت الأساليب العلمية في معالجة الأرض، وفي استنباط الماء، وفي السيطرة على الأمطار والسيول التي تنشأ في بعض الأحيان وتغور في الرمال دون أن يستفاد منها باقامة السدود والحياض الصناعية التي تخزن فيها الى وقت الحاجة، وذلك كما فعل الجاهليون في بعض الأماكن، وخاصة في اليمن، من اقامة سدود تحجز السيول وتحبسها، فإذا انقطعت الأمطار وحلّ الجفاف استفيد منها في الارواء.

ونجد في بطون الكتب أسماء مواضع عديدة كبيرة كانت ذات عيون ومياه وآبار ونخيل وأناس عند ظهور الاسلام (١)، وهي اليوم صحاري خالية أو مواضع صغيرة لا أهمية لها، وذلك بسبب اهمال الانسان لها واعتدائه عليها، وتحول الطرق التجارية عنها. ويظهر أن لاشتراك القبائل في الفتوح، ونزولها في العراق وفي بلاد الشأم والأماكن الغنية الأخرى بعد دخول هذه الأماكن في الاسلام اثراً في هجرة الناس عن مواضع العيون والآبار في الحجاز وفي بقية جزيرة العرب، لقلة خيراتها وحاصلاتها وعدم تعلق الفلاح بالأرض في تلك الأماكن. أما في الوطن الجديد الذي حمله الفتح اليه، فقد وجد فيه خيراً كثيراً وأرضاً وماء وجواً ألطف وأرق من الجوّ الذي كان يعيش فيه، وبذلك خسرت جزيرة العرب عدداً كبيراً من سكانها، ممن فضل الهجرة على القعود.

---

(١) ابن المجاور (١/٩، ١٦ وما بعدها ١٣٢).

ومن يقرأ كتاب « صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز » وكتباً أخرى من هذا القبيل ، يعجب من التدهور الذي أصاب الزراعة في جزيرة العرب بعد الاسلام ، إذ يجد أسماء مواضع عديدة كانت تكفي نفسها ، أو تصـدر الحاصل الزراعي الى الاسواق المجاورة ، ثم قلّ حاصلها كثيراً بإهمال الزراعة . وإعراض الناس عنها ، حتى بعض النواحي القريبة من مكة والمجاورة لها ، كانت مشهورة بالخضر والفواكه والأزهار والرياحين ، ثم فقدت شهرتها من بعد . وذكر « ابن المجاور » أن موضع « الزهران » كان معروفاً بزراعة « الزعفران » ، وكان الموظفون يجبون جباية لا بأس بها منه ومن الزرع والضرع وسقي الأنهار . « فلما دار الدهر ، نقص جميع ما ذكرناه ، لاختلاف النيات مع قلة الامانات »[1] . وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذا التدهور المؤسف الذي حلّ بالزرع وبالماء وبالأيدي العاملة المشتغلة باصلاح الأرض ، والذي كان من جملة أسبابه ما قلته من هجرة المتمولين والمثرين والسادة الكبار من الحجاز وبقيـة جزيرة العرب الى العراق والشأم ، لوجود مجال واسع للأثراء ، لا مثيل له في جزيرة العرب .

واليمن مثل سائر أقسام جزيرة العرب ، خالية من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات والنيل ، وخلوّها من أمثال هذه الأنهار أثر كثيراً — ولا شك — في وضع الزراعة فيها . ولكن الطبيعة عوّضتها بعض التعويض عن هذه الخسارة ، فصار حالها أحسن كثيراً من حال الأقسام الشرقية أو الوسطى من الجزيرة . فجعلت لها رياحاً تحمل اليها الأمطار في مواسم معروفة ، وجعلت لها أمكنة ملائمة لخزن هذه الأمطار الهاطلة ، استبدت بها أيدي الانسان ، وتحكمت فيها بأن جعلت لها أبواباً ومنافذ ،

(١) ابن المجاور (١/٩) .

وسدوداً في بعض المواضع ، وتمكنت بذلك من خزن هذه الأمطار للاستفادة منها في أيام الحاجة . ثم جعلت لها تربة حسنة طيبة أريضة تنبت كل ما يبذر فيها ، وتنبت ما يتساقط عليها من بذور متطايرة مع الهواء ، حتى شاع صيتها وانتشر خبرها بين الناس ، فعرفت باليمن الخضراء .

وقد ساعدت هذه الأمطار أهل اليمن كثيراً في تطوير أحوالهم من النواحي الاجتماعية ، فمال كثير منهم الى الاستقرار والى الاشتغال بالزراعة والتعيش منها . وساعد ذلك على سكناهم في المدر وفي القرى والمدن ، على عكس ما يحدث في الأرضين التي غلبت عليها الطبيعة الصحراوية لانحباس المطر عنها ، وهي حالة اضطرت أصحابها الى التنقل فيها من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، وجعلت من أصحابها أناساً فقراء ، يعيشون عيشة شظف وضنك وفقر ، مع ما وهبتهم من ذكاء مفرط واستعداد للتطور إن تهيأت لهم الظروف الملائمة وساعدتهم الأحوال .

والأمطار قليلة بصورة عامة في جزيرة العرب ، فلم تعتمد الزراعة فيها على الأمطار كما تعتمد في البلاد الأوربية ، وإنما تعتمد على النهيرات والعيون والآبار . ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها النهيرات والعيون والآبار . ويختلف عمق الآبار باختلاف المواقع ، وباختلاف ارتفاع سطوح المياه الجوفية عن سطح الأرض . ولما كانت بعض الآبار عميقة جداً بسبب بعد سطح مائها عن سطح الأرض ، لم يستفد منها في الزراعة كثيراً ، وانما استفيد منها في شرب الانسان والحيوان فقط .

إن قلة الأمطار أو شحها وانحباسها في بعض السنين وعدم وجود الماء في أكثر أنحاء جزيرة العرب ، أثر أثراً كبيراً في حياة أهلها الاجتماعية ، فحوّل قسماً كبيراً منهم الى بدو رحل ، يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، هدفهم في هذه الحياة الحصول على الكلأ والماء . والكلأ والماء هما العزّ والجاه والثراء وأغلى شيء في الدنيا ،

فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها ، وقطعوا مسافات شاسعة بحثاً عنها . ولم يتمكن الروم والرومان من منعهما من دخول بلاد الشأم بحثاً عن الكلأ والماء ، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم من الوصول الى هذه الثروة العظيمة كذلك.. هذه الثروة التي سببت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها .

ويؤدي انحباس المطر الى كوارث ومصائب تترك أثراً كبيراً في أحوال السكان . ولهذا عمد الناس في جزيرة العرب ، كما عمد غيرهم الى استرضاء آلهتهم بالتقرب اليها بتقديم الهدايا والقرابين ، وبالتوسل اليها لإنزال المطر ، وبالصلاة لها صلاة خاصة يقال لها صلاة الاستسقاء ، وهي صلاة أقرتها الأديان السماوية أيضاً . لكن هذه الصلاة لم ترد في نصوص المسند وياللأسف اشارة اليها ، غير اننا نملك نصاً جاء فيه أن شخصاً قدم قرابين الى الإله « عثتر » والى معابده كلها ، لأنه منّ على سبأ وأتباعهم ، فأرسل عليهم « سقى خرف ودثا »[1] ، أي « مطر الخريف ومطر الربيع » . ومعنى ذلك أن القوم كانوا قد توسلوا الى هذا الإله ليرسل عليهم الغيث الذي انحبس عنهم في موسميه المعروفين في اليمن ، ونذروا له نذراً إن استجاب لهم فأرسله عليهم . وقد استجاب لدعوتهم فارسله عليهم ، فقدمت اليه تلك الذبائح والقرابين .

وذكر أهل الأخبار أن بعض الجاهليين كانوا إذا أرادوا الاستمطار ، جمعوا البقر ، فيعقدون في أذنابها وعراقيبها السلع والعُشَر ، ويصعدون بها في الجبل الوعر ، ويشعلون فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر . ويسمون هذه النار نار الاستمطار . ويذكرون أن الجاهليين كانوا يسوقون البقر نحو المغرب من دون الجهات . وقد وردت الاشارات الى ذلك في الشعر . والاستمطار بالنار من العادات

---

(١) راجع النص Glaser 1752 وكذلك : Rhodokanakis, Kata. Texte., II, S. 53.

التي أبطلها الاسلام [١] .

وقد تهطل الأمطار أحياناً هطولاً شديداً مؤذياً ، فتكون سيولاً عارمة تجرف الزروع والبيوت وتنكب الناس بعيشهم الضيق الذي هم فيه . ونجد في كتب أهل الأخبار إشارات الى سيول عديدة حدثت في الجاهلية والإسلام ، في الحجاز واليمن وفي أمكنة أخرى ، فأصابت الناس بأضرار كبيرة ، حيث تنحـــدر بشكل سريع وشديد وبقوة كبيرة من الجبال والهضاب والمرتفعات الى الأودية والسهول فتغمرها بالمياه ، وفي كتب الأخبار أن السيول قد أصابت مكة مراراً في الجاهلية وفي الإسلام .

وقد اضطر سكان جزيرة العرب أن يلجؤوا الى الوسائل الصناعية للاستفادة من المياه ، وذلك لقلتها وشحها ، سواء أكانت مياه امطار أم مياه أرض ، متدفقة من أجواف الأرض على هيأة أنهـار . وفي جملة ما اتخذوه إقامة السدود في الأرضين التي تساعد طبيعتها على إقامة السدود ، وحفر الآبار للاستفادة منهـا في السقي وفي الزراعة بمقياس يتناسب بالطبع مع كميات مياه الآبار .

ولفظة « سقى » معروفة في اللهجات العربية الجنوبية كذلك . وقد وردت في النصوص المتعلقة بالإرواء . ومن هذا الأصل لفظة « تسقينهو » ، ومعناها «تسقيتها»، و « التسـقية » معناها الإسـقاء [٢] . ولفظة « مسقت » و « مسقيت » بمعنى

---

(١) بلوغ الأرب (٢/١٦٤ ، ٣٠٢) ، شرح القاموس (٥/٣٨٥) ،

ألا در در رجال خاب سعيهم — يستمطرون لدى الازمات بالعشر

أجاعل أنت بيقوراً مسـلعة — ذريعـة لك بين الله والمطر

وانما قال ذلك ، لأن العرب كانت في الجاهلية اذا استسقوا جعلوا السلمة والعشر في أذناب البقر وأشعلوا فيه ، فتضج البقر من ذلك ويمطرون . وأهل اليمن يسمون البقرة باقورة . وكتب النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الصدقة : لأهل اليمن في ثلاثين باقورة بقرة » ، شرح القاموس (٣/٥٤) .

(٢) Rhodokanakis, Stud., 11, S. 115, 119.

« مسقى » و « مسقية » [1] . ووردت لفظة الإرواء في النصوص العربية الجنوبية كذلك : وردت في نص معيني على هذه الصورة « رويم » « روي » بمعنى ارواء [2] ، وذلك كما في هذه الجملة : « رويم لانخلهمى » ، أي « لارواء نخيلهم » [3] ، وفي هذا المعنى جملة : « رويم وسقيتم لنخلهمو » [4] ، أي « ارواء واسقاء نخيلهم » .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة استعملها المزارع في السقي ، منها ما أطلق على السقي قبل البذر ، ومنها ما أطلق على السقي بعد البذر وبعد بدوّ الزرع الى وقت جفافه ، ومنها ما استعمل لاسقي بالنسبة الى الزمان في النهار أو في الليل ، وللسقي بالمشاركة ، وغير ذلك [5] . وهي تعطينا بالطبع فكرة عن الإرواء في ذلك الزمن .

ويقال للمطر منكّراً « ذ ن م م » « ذنم » . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص . فاذا عرّف قيل : « ذنمن » [6] . وهناك لفظة أخرى ترادف المطر ، هي « دثان » « الدث » . وقد وردت في النص الموسوم بـ « CIS 540 » [7] . وهي الدثّ في عربية القرآن الكريم ، يقال دثت السماء اذا نزل منها الدث ، والدث هو المطر الضعيف [8] . ويراد بـ « دثان » « دثا » في المسند ، المطر الذي يتساقط بعد الحر

---

(١) المصدر نفسه (ص ١٢٠) .

(٢) راجع النص Halevy 174 .

(٣) Rhodokanakis, Stud, II, S. 129.

(٤) Glaser 423, Rep. Epi. Semi., 852.

(٥) المخصص (٩/١٠١ وما بعدها) .

(٦) Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 101, Num. 76. S. 238, Num. 171.

(٧) راجع السطر التاسع والخمسين من هذا النص الذي يعود الى الملك : « شرحبال يعفر ملك سبا وذريدن وحضرموت ويمنت » ، أي « شرحبيل يعفر ملك سبأ وذوريدان وحضرموت واليمن » .

(٨) شرح القاموس (١/٦٢١) ، القاموس (١/١٦٦) .

الشديد وفي نهاية القيظ .

وقد ذكر « بلينيوس Plinius » ، أن الطيب الذي يجمع في الخريف يسمّى « Illud Carfiathum » . أما الطيب الذي يجمع في الربيع فيسمى « hoc dathiatum » . وفي التسميتين تحريف ، يمكن ادراكه بغير صعوبة . فإن لفظة « Carfiathum » هي « خرف » أي « خريف » . وأما « dathiathum » ، فانها من « دثا » أي الربيع . وذكر « كلاسر » أن لفظة « دثا » ، تعني عند أبناء القبائل موسم الحصاد . ويقع من نهاية نيْسان الى نهاية حزيران [١] .

ويقال للمطر الغيث كذلك . وذكر بعض علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع ، ومن المجاز : الغيث بمعنى الكلأ ينبت بماء السماء ، وكذا السحاب [٢] . ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله . وأما السبل ، فالمطرَ أيضاً ، أو المطر بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل الى الأرض ومثله العثانين . وأما الودق ، فالمطر أيضاً . ومنه النزل والرجع في كلام هُذَيل . وكذلك الخرج والقطر والخدر . وقيل : النصر ، الغيث . والذهاب اسم المطر كله ضعيفه وشديده [٢] .

واذا بكر الغيث في أول الوسمي ، قيل له « باكور » [٣] . أما آخر أمطار السنة الذي يأتي في وقت الخراف ، أي أواخر الخريف [٤] ، فإنه « خرفن » في نصوص المسند . أي « الخراف » .

---

(١) Mordtmann, mith., S. 62.

(٢) شرح القاموس (١/٦٣٢) ، (١٢٠/٩ وما بعدها) ، المخصص (٥/١١) .

(٣) « ومن المجاز غيث باكر وباكور . الباكور والباكر من المطر ، ما جاء في أول الوسمي كالمبكر » ، شرح القاموس (٥٧/٣) ، المخصص (٨/١١) .

(٤) المخصص (٥/١١) .

ويقال للمطر الذي ينزل في فصل الخريف : « الخريف » ، ويقال له : « الخرفي » كذلك ، أو هو أول المطر في أول الشتاء ، وهو الذي يأتي عند صرام النخل ، ثم الذي يليه الوسمي . وهو عند دخول الشتاء ، ثم يليه الربيع ، ثم يليه الصيف ، ثم الحميم . وقال بعض علماء اللغة : أول المطر الوسمي ، ثم الشتوي ، ثم الدفيء ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، ثم الخريف ، ولذلك جعلت السنة ستة أزمنة . وقال أبو حنيفة : ليس الخريف في الأصل باسم للفصل ، وإنما هو اسم مطر القيظ ، ثم سمي الزمن بـه . والحجاز كله يمطر بالخريف ، ونجد لا تمطر فيه (١) .

والمزن السحاب . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . ويقول علماء اللغة إن المزن جمع مزنة ، وهي السحاب الأبيض . وقد كان جلّ اعتماد أهل جزيرة العرب في الشرب . وفي الإرواء على ماء المطر . كما نجد ذلك في الآية : « أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن ، أم نحن المنزلون » (٢) .

وللعرب علامات اذا ظهرت دلت عندهم على أنها أمارات الغيث وعلاماته ، منها الهالة التي تكون حول القمر ، إن كانت كثيفة مظلمة ، كانت من دلائل المطر ، ولا سيما ان كانت مضاعفة . ومنها « النداأة » ، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث . والمبشرات ، وهي عدة علامات تتوالى ، تدل عندهم على نزول الغيث . ومنها الرعد والبرق ، ومنها أن ترى القمر أو الكواكب في الصحو يحيط بها لون يخالف لون السماء ، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم وان كان قزعاً كأنه تحيط به خطوط كخطوط قوس المزن . وهي القسطانية . وبعض الرواة يجعل قوس الغيم أيضاً

---

(١) شرح القاموس (٨٢/٦) .

(٢) « والمزن بالضم : السحاب عامة ، أو أبيضه ، أو السحاب ذو الماء . وقيل : هو المضيء : القطعة مزنة » ، شرح القاموس (٣٤٥/٩) .

بدأة [1] .

وقد اتخذ أهل المواضع المرتفعة مثل الأماكن الجبلية التي يصعب نقل الماء اليها كل الوسائل الممكنة المحافظة على ماء المطر والسيطرة عليه وجمعه لئلا يذهب سدى ، لحفروا الصهاريج العميقة في البيوت وفي أماكن أخرى ليسيل اليها ، وسلطوا مياه الميازيب على أماكن تسيل منها الى هذه الصهاريج . ولا يزال بعض الميازيب الجاهلية في حالة جيدة يستعمل في الأغراض التي صنع من أجلها . وهي مصنوعة من الصخور ، وبعضها من المرمر الأبيض الجميل. وفي مسجد « حصن غيمان » ، صهريج جاهلي قديم ، يستعمل لخزن المياه . وهناك صهاريج عديدة في هذا الموضع ، كلها من أيام الجاهلية . وبعضها مفتوح على هيأة حوض ، وأكثره من النوع المغطي والمنقور في الصخر . وقد تساقطت سقوف بعض هذه الصهاريج أو أصيبت بتلف في بعض أقسامها وظهرت هيآتها للعيان ، فعرفت أشكالها وأعماقها ، ولبعضها ممرات توصل بعضها ببعض ، فتجعلها كأنها شبكة تربط مساحة واحدة تملأ بالماء تحت سطح الأرض . ولهذه الصهاريج فتحات تستخرج منها الماء للارواء [2] .

ولهذه الصهاريج أهمية خاصة في أيام الحروب ، إذ تمنع العدو من قطع الماء عن المحاصرين ، وبذلك يستطيعون البقاء مدة طويلة يدافعون عن أماكنهم خلف الأسوار .

وقد استخدمت الصهاريج لخزن الماء ، حتى البيوت استخدمتها لذلك ، فكان إذا

---

(١) المخصص ٩/١٠٢ وما بعدها ، « والقطان والقطاني والقطانية بضمهن الأولى عن أبي عمرو والثانية عن أبي سعيد : قوس الله . ويقال أيضاً قوس المزن . وهي خيوط تخيط بالقمر ، وهي من علامة المطر » ، شرح القاموس (٥/٢٠٦) ، القاموس ٢/٢٧٩) .

(٢) شرح القاموس (٢/٦٧) ، Sabaeica, I, S. 76.

وقع الغيث سال الى هذه الصهاريج نخزنته . وقد اتّخذ أهل المدن الصهاريج الكبيرة لتموين الناس بالماء، وبنوا الصهاريج في المساجد ليستفيد من مائها المصلون . وذكر بعض الأخباريين أنه كان في جُدّة مثلاً زهاء خمس مئة صهريج ، وبظاهر البلد مثلها ، فإذا امتلأت التي بظاهرها تنقل العبيد ماءها على الدواب فتقلبه في الصهاريج التي عندهم في الدور [1] . وقد تعلم هؤلاء هذا الأسلوب من الجاهليين الذين توسعوا في استخدام الصهاريج .

وقد عثر على صهاريج عديدة في حضرموت وفي اليمن ، عرفت عند الحضرميين بـ « نقب » . وهي عبارة عن حفر نقر في الصخور وفي المواضع الحجرية وفي مواضع أخرى ، يبلغ قطر أفواهها وفتحاتها زهاء المتر في الغالب . أما أعماقها فهي مختلفة ، وكذلك أقطارها السفلى أي من جهة قواعدها ، فقد عثر على بعضها ، وأعماقها تتراوح من ثلاثة أمتار الى أربعة ، وأقطارها السفلى تتراوح من خمسة أمتار الى ستة . ويقال لعملية الحفر « نقب » كما في هذه الجملة : « نقبو نقب » أي « نقبوا نقبا » [2]، ومعناها « حفروا نقبا » و « حفروا صهريجاً » .

ويقال لموضع تجمع مياه الأمطار ومسيلها «ذهبن» ، أي « الذهب » . ويستخدم هذا الماء المتجمع لإسقاء الزرع ، قال الهَمْداني : « والذهب .. يمتلىء من السيل ، فإذا امتلأ نف فيه الطهف والدخن ، فنضب الماء ، ثار نبته » [3] . وقد كانوا يستفيدون من أمثال هذه « الذُهب » بتسويرها وحصر الماء فيها ثم توجيهها الى الأحواض الكبرى للإستفادة منها عند انحباس الأمطار .

---

(١) ابن المجاور (١/ ١٣) ، المخصص (١٠/ ٥٣) .

(٢) Ry 63, Wissmann und Hofner, Beiträge. S. 56.

(٣) الهمداني : (١٩٩) . Rhodokanakis, Stud., II, S. 113.

وهناك حفر تتجمع فيها المياه فيستفاد منها في الشرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بالحفر على اختلاف أنواعها ، وفي جملتها الحفر التي تتجمع فيها المياه . ومن هذه الألفاظ الأُوقَة ، وهي حفرة يجتمع فيها الماء ، وجمعها أوق [١] . والوَجِيل والمَوْجِل ، حفرة يستنقع فيها الماء يمانية [٢] . والمُرْهَة ، حفيرة يجتمع فيها ماء السماء [٣] . والهَوْقة ، وهي حفرة كبيرة ، يجتمع فيها الماء ، وتألفها الطير [٤] .

وقد ترك الجاهليون حياضاً واسعة كانوا أنشؤوها في مواضع كثيرة من اليمن وبقية العربية الجنوبية لخزن الماء فيها للاستفادة منه أيامَ الجفاف . فاذا ما تساقطت الأمطار ، سالت الى هذه الحياض ، وبعضها عميق واسع لا تنضب منها مياهها طوال السنة . وقد أحيطت هذه الحياض بجدران متينة من الصخور صفت ورتبت على هيأة مدرجات ، حتى اذا انخفض الماء أمكن لمن يريد الاستقاء منها أن ينزل على هذه الدرجات حتى يبلغ الماء ولا يزال بعض هذه الحياض موجوداً يستعمله الناس . وقد وصف السواح الذين زاروا اليمن بعضها وقالوا إنها من آثار الجاهليين [٥] .

ولمنع تسرب الماء من الحوض ، يسدّ ما بين الحجارة من منافذ بالمدرة المعجونة ، وتطلى أوجه الجدر بمادة تغطيها مثل الصهريج لمنع تسرب الماء وخروجه الى الخارج ،

---

(١) « الاوقة بالضم : الركية مثل البالوعة في الأرض ، خليقة في بطون الأودية ، وتكون في الرياض أحياناً . تسمى اذا كانت قامتين أوقة . فما زاد وما كان أقل من قامتين ، فليست بأوقة . وفمها مثل فم الركية وأوسع أحياناً . وهي الهوة » ، شرح القاموس (٦/٢٨٢) .

(٢) « والوجيل والموجل كامير وموعد حفرة يستنقع فيها الماء يمانية » ، شرح القاموس (٨/١٥٣) .

(٣) شرح القاموس (٩/٤١١) .

(٤) المخصص (١٠/٤٧ وما بعدها) ، شرح القاموس (٧/٩٣) .

(٥) Carl Rathjens, Sabaeica, I Teil, Hamburg, 1953, 113.

كما يبلط قاع الحوض ويطلى كذلك . وتوضع حجارة تنصب حول الحوض، ويسدّ مابينها بالمدرة ، ويقال لذلك النصيبة . ويمدر الحوض اذا طين وسُدّ خصاص ما بين حجارته، كما يعبر عن ذلك بلفظة الاوط . ويوضع الإياد حول الحوض ، أي التراب ، لدعمه وتقويته . وقد ترفع جدر الحوض فوق الأرض ، وتعمل فيه صنابير لخروج الماء منها ، وقد تنشأ فيها حنفيات لأخذ الماء منها ، تعمل من المعدن أو الحجارة [1] .

وقد عثر على ميازيب ومثاعب حجر نحتت نحتاً جميلاً ، وضعت في جدران الأحواض ، ليسيل منها الماء [2] . وقد صنعت مواضع مسايل بعضها على هيأة رؤوس حيوانات فتحت أفواهها ، ومن هذه الأفواه المفتوحة يتساقط الماء . ولا يزال بعضها في هيأة حسنة ومستعملة حتى الآن . واستعملت بعضها في السطوح لسيلان الأمطار منها ، كما عثر على صخور منحوتة نحتاً جميلاً جداً كانت تكوّن الواجهة الظاهرة من جدران الحياض . وقد نحت بعضها على شكل صور حيوانات بارزة ، أو أوجه حيوانات ، ونحت بعضها على صور أوراق نبات وأغصان أعناب أو عناقيد أعناب وما شابه ذلك من أجزاء النبات .

وقد زينت أحواض دور الملوك والأمراء والأغنياء بنافورات ، ترتفع منها المياه الى أعلى فتكون منظراً جميلاً . وتأتي هذه المياه من مواضع مرتفعة ملئت بالماء لينساب منها الى النافورة ، أو من عيون ونهيرات جارية مرتفعة تعمل منها سواق تحمل الماء الى النافورة أو الى الحوض . وهناك سواقٍ صغيرة ومجار ، يموّنها الحوض

(١) المخصص (١٠/ ٩ ، وما بعدها) .

(٢) « المئزاب : أي المرزاب ، وهو المثعب الذي يبول الماء . وفي الترشيح : هو ما يسيل منه الماء من موضع عال ، ومنه ميزاب الكعبة . وهو مصب ماء المطر . أو هو فارسي معرب . قاله الجواليقي وجمعه المآزيب والميازيب . ويقال للمرزاب ، بتقديم الراء على الزاي » شرح القاموس (١/ ١٤٧) .

بالماء الزائد ليجري الى الحدائق أو محلات تصريف الماء . ليحفظ ماء الحوض من الفساد والتأسن .

وتعمل الأحواض لشرب الإبل وغيرها . ويوضع في وسطها حجر ، يكون مقياساً للماء ، يقال له « القداس » اذا غمره الماء رويت الإبل ، أو هو حجر يطرح في حوض الإبل يقدّر عليه الماء ، يقتسمونه بينهم . وقيل : هو حصاة ، توضع في الماء قدر الري للابل ، أو يقسم بها الماء في المفاوز [1] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على الحوض ، بحسب شكله واتساعه وعمقه منها الحوض المركو، ويراد به الحوض الكبير ، أو الحوض الصغير على رأي بعض علماء اللغـــة . والركو الحوض المستطيل . أما المقراة ، فالحوض العظيم . وأما الجرموز ، فالحوض الصغير ، وقيل هو حوض مرتفع الأعضاد . والنضيح الحوض ، وخصه بعضهم بالحوض الصغير . والجابية الحوض كذلك . وأما الشَّرَبة فالحوض يجعل حول النخلة يملأ ماء ، فيكون ري النخلة . والِحضْج الحوضُ [2] .

ويقال لموضع تجمع الماء ، والمكان الذي يخزن فيه فيكون على هيأة بحيرة صغيرة أو حوض « بحرت » ، « البحرة » [3] . ولا يزال أهل الشأم يطلقون لفظة « بحرة » على حوض الماء الذي يقيمونه في أفناء دورهم ، للتمتع بمنظره وبمنظر الماء الذي يتدفق منه . وقد يضعون الأسماك فيه . وقد وردت اللفظة في هذه الجملة : « وصرح ثبرن وبحرت بموثب احلين » [4] ، ومعناها : « وأعلى حصن ثبر . والبحرة الكائنة في

---

(١) شرح القاموس (٤/٢١٣) .

(٢) المخصص (١٠/٤٩) .

(٣) راجع الفقرة الثالثة من النص :

Glaser 1144, Halevy 353, Rep. Epi., II, P. 75, Num. 647.

(٤) راجع نهاية الفقرة الثالثة من النص :

Glaser II44, Halevy 353.

أسفل السلالم » . ويظهر أن أصحاب الحصن كانوا قد أقاموا « بحرة » عند قاعدة السلالم التي ترتقي الى الحصن ، وذلك من أجل نقل الماء منها الى أعلى للاستفادة منه ، ولاحمائه وسكبه على المحاصرين في أثناء الحصار [١] .

ويقال لموضع تجمع المياه في خزانات صغيرة لخزنها فيها وتوزيعها على السواقي « مزف » . تأتي المياه اليها من خزانات أخرى اكبر منها ، فتخزن فيها لاعادة توزيعها . والفعل هو « زف » من « زفف » . وتطلق لفظة « زف » على مواد عمل ما . وأما العمل نفسه فيقال له « فعل » [٢] .

وقد أشير في نصٍ الى وجود « هور » أمام « محفد » أي حصن : « بقنو هور محفدهمو ذ معينن » [٣] ، ومعناها : « أمام هور محفدهم « حصنهم » ذي المعين » . و « هور » في هذه الجملة هو « الهور » في عربيتنا . وهو « بحيرة تغيض فيها مياه . فتتسع ويكثر ماؤها » ، ويجمع على أهوار . أما في النص ، فلا يراد به هذا المتسع الواسع من الماء ، بل يراد به حوض أو متجمع من الماء أوسع من البحرة ، كان أمام الحصن [٤] .

وقد وردت لفظة « بركتن » أي البركة في اللهجات العربية الجنوبية كذلك ، ووردت لفظة أخرى هي « عسن » ، يظهر أنها تعني بركة كبيرة ، أو صهريج ماء تحت

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II. S. 73

، « والبحرة مستنقع الماء » ، شرح القاموس (٣/٢٨ وما بعدها) .

(٢) Bhodlokanans, Stud,, II, S. 100.

(٣) « الهور : بالفتح، البحيرة تغيض بها . وفي بعض الأصول فيها مياه غياض وآجام فتتسع ويكثر مؤها . ج أهوار » ، شرح القاموس (٣/٦٢١) ،

Langer I, Rhodokanakis, Stud,, II, 37.

(٤) Rhodokanakis, Stud., II, S. 37.

الأرض ، أو جملة برك تتصل بمأخذ أو مآخذ ، تتجمع فيها المياه [1] .

وقد طليت جدران البرك الجاهلية بمادة متماسكة قوية ، ترى اليوم وكأنها قد فرغ منها من عهد قريب . فلم تتشقق ولم يصبها بتلف إلا قليلا . فيها فتحات عملت لمرور الماء منها الى السواقي . وقد استعمل مثل هـذه البرك لخزن الماء وللارواء في الوقت نفسه . وتمكن الاستفادة منها اذا ما نظفت من المواد الزائدة التي تراكمت فيها وأدخلت عليها بعض الإصلاحات [2] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على النهيرات والسواقي المتفرعة منها . ومنها الشراج ، جمع شرج ، وهي مسايل الماء من الحَزْن الى السهل . والاربعاء ، وهي مسايل وسواقي يسقى منها النخيل والبساتين ، ويزرع على جانبيها [3] .

ومن الأنهار الصغيرة التي كانت تسقي مساحات واسعة في اليمن نهر الخارد ، وكان السهل الذي عاش فيه المعينيون ، وبنوا فيه عاصمتهم يسقى بهذا النهر ، وتنبت فيه مختلف النباتات والزروع ، وكان يصل الى مقربة من العاصمة وربما تجاوزها الى مواضع أخرى . ولا تزال هذه المنطقة تعد من المناطق الزراعية الجيدة ، وقد تحول قسم منها بسبب الجفاف الذي حلّ بها الى مناطق تعلوها كثبان رملية ، ومناطق قاحلة ،

---

(١) « والبركة مثل الحوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض . قال الأزهري : ورأيت العرب يسمون الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركا ، واحدتها بركة . قال ورب بركة تكون الف ذراع وأقل واكثر . وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ولا تطوى بالآجر ، فهي الأصناع واحدها صنع » ، شرح القاموس (٧/١٠٦) ،

Rhodokanakis, Stud., II, S. 114.

(٢) Sabaeica, I, S. 84.

(٣) عمدة القاري، (١٢/٢٠٠ وما بعدها)

بعد ما كانت من أجود الأرضين لأهل معين (١) .

وهناك نهيرات أخرى صغيرة منها : مور ، ورزان ، وسردد ، ورماع ، وشوابه ، وسهام ، ورسيان ، وزبيد . ويطلق أهل اليمن عليها لفظة وادي . وتجري فيها المياه طوال أيام السنة . وهناك أودية لا تجري فيها المياه إلا في مواسم معينة ، وذلك بعد هطول الأمطار (٢) .

ويقال للجدول « الربيع » في عربية القرآن الكريم ، ويجمع « أربعاء » (٣) . وأهل المدينة يغرسون الشجر على جانبيه . ويقال له أيضاً « السعيد » . ويراد به النهير الذي يسقي المزرعة . وقد ورد في الحديث : « كنّا نزارع على السعيد » (٤) . ويقال لأوائل الجداول « أقبال الجداول » (٥) . وأما السواقي بين الزروع ، فتسمى « دبار » (٦) .

ويطلق أهل اليمن اليوم على ساقية الماء والجدول الصغير « الغيلّ » ، وهي من الألفاظ القديمة المستعملة في الري . وفي اليمن جملة أغيال ، يقل ماؤها عند انحباس المطر ، ويزداد عند هطوله في مراسمه . ويشرب أهل صنعاء من مياه الغيل المسمى « الغيل الأسود » ، ويزرعون عليه (٧) .

---

(١) محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن (ص ٤ وما بعدها) . من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

(٢) الدكتور أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها (ص ٥) .

(٣) شرح القاموس (٥/٣٤٢) ، جامع الأصول (١١/٣٧٠ وما بعدها) .

(٤) شرح القاموس (٢/٣٧٨) .

(٥) جامع الأصول (١١/٤٧٨) .

(٦) شرح القاموس (٣/٢٠٠) .

(٧) « الغيل : الماء الجاري على وجه الأرض ... وقال بعضهم : الغيل ما جرى من المياه في الأنهار والسواقي ، وأما الذي يجري بين الشجر ، فهو الغلل ، وفي الحديث : ما سقي بالغلل ، ففيه العشر ، وما سقي بالدلو ففيه نصف العشر » ، شرح القاموس (٨/٥٣) ، المظم (١/٨٥ ، ١٠٣) .

والأودية هي من أهم مناطق الماء والخصب في جزيرة العرب ، وذلك لوجود الماء بها قريباً من سطح الأرض في الغالب ، وقد يخرج الى وجه الأرض . ولهذا نجد فيها مواضع عديدة خصبة ذات مزارع ونخيل منتشرة كأنها الجزر في البحار . ومن هذه الأودية وادي بيشة يصب من الحجاز متجهاً نحو الشرق . وقد اشتهر في الجاهلية وفي الإسلام . ووادي تَبالة ورنية وتربة ، وهي من الأودية الكبيرة الواقعة بين الحجاز واليمن [1] . ويقال للوادي « س ر » « سر » في السبئية ، وذلك كما في هذه الجملة « بسرهو ضفاح » ، ومعناها « بواديه ضفاح » [2] ، وكما في هذه الجملة : « بسرن مضيق » ، أي « بوادي مضيق » [3] .

وذكر علماء اللغة ، إن السر بطن الوادي وأطيبه وأفضل موضع فيه ، وكذلك سرارة الوادي [4] ، أي بالمعنى الوارد من اللفظة في المسند ، أو قريب منه .

ومن الأمكنة التي اشتهرت بكثرة مياهها « برك » من أودية عارض اليمامة . وهناك موضع آخر اسمه « بريك » ، وفيه قسم من قرى « الحوطة » حوطة بني تميم . وفي المكانين آبار كثيرة ، حتى قيل إن فيها أربعة آلاف بئر ، تسقي مزارع بني تميم ونخيلهم . وعلى كل بئر أربعة نفر من الموالي للأعمال ، ليسوا من بني تميم [5] .

وينتفع من الأحساء والرحاب في الزراعة ، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتي قد تظهر على سطح الأرض وتسيل. وتكون تربة الرحبة خصبة ، ولهذا صارت مواطن صالحة للزراعة لو استنبطت

---

(١) صحيح الأخبار (١/١٢٦ وما بعدها) .

(٢) Mordtmann und Mittwoch, Alt. Inschr., S. 9.

(٣) المصدر نفسه (ص ١٠) .

(٤) شرح القاموس (٣/٢٦٣) .

(٥) صحيح الأخبار (١/٢٩) .

مياهها التي في جوف الأرض القريبة من سطح الأرض ، لأفادت في توطين الأعراب[1] . وقد وجدت كتابات عربية جاهلية و نبطية في الرحاب ، تشير الى سكنى أناس فيها و نزولهم هناك قبل الاسلام .

وفي بلاد العرب أحساء كثيرة ، استفيد منها ، وسكن عندها . ومن أشهرها « الأحساء » في المملكة العربية السعودية ، وهي من الأحساء القديمة المعروفة . ومواضع أخرى ذكرها أهل الأخبار [2] .

وفي الأماكن التي تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض، ويكون من السهولة حفر الآبار فيها ، يحفر الناس آباراً في بيوتهم وفي أملاكهم للشرب والزرع ان كانت عذبة وللتنظيف والاستعمال . ويستعان في الغالب بالخدم وبالسقائين في جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات . كما حفروا الآبار في الحصون وأنشأوا مخازن يخزن فيها الماء لاستعماله وقت الحاجة اليه عند محاصرة عدوّ لها ، فلا يكون في استطاعة المحاصرين الخروج ، ولهذا يستفاد من الآبار ومن الماء المخزون والصهاريج المنقورة المعدة لاستيعاب الأمطار والاحتفاظ بها . وقد كانت في حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء . وقد بنى الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع في عرض ثلاثة أذرع ، وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج . وقد فتح في أيام الرسول [3] .

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ، عمد العرب الجنوبيون الى الوسائل الصناعية الفنية في التحكم فيها ، فأنشؤوا المجاري الصناعية لتجري فيها المياه وتسيل

---

(١) شرح القاموس (١/٢٩٨) .

(٢) شرح القاموس (١٠/٨٩) .

(٣) ابن المجاور (١/٢١) .

فلا تذهب عبثاً ولا تجري في القنوات إلاّ بقدر . وقد أطلقوا على هذه المجاري جملة مصطلحات ، منها : « ماخذ » « مأخذ » ويجمعونها على « ماخذت » ، « مأخذات » أي « مآخذ » . ويراد بالمأخذ المجرى المحفور المعمق لمرور المياه الى الحقول والبساتين أو المعابد . وقد وردت قبل هذه اللفظة كلمة في أكثر النصوص تعبر عن معنى اصطلاحي ، هي : « معسى » و « هعسا » ، كما في هذه الجملة : « هعسا ماخذهمو »[1]. بمعنى « مدد » ، و « اقام » وأنشأ ، ويكون معنى الجملة : و « مدد مأخذهم » ، أي « ومدد مجراهم » أو « ومدد مسلك مائهم » .

ويقال للموضع الذي يجتمع فيه ماء كثير ، أو للماء الجاري الدائم الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر ، « العدّ » [2] . وقد وردت اللفظة في كتب الحديث . وقد نهى الرسول عن اقطاع « الأعداد » [3] . وقد ذكر علماء اللغة أن من معاني العدّ : الماء القديم الذي لا ينتزح ، وأنه الماء الكثير بلغة تميم ، والماء القليل بلغة بكر بن وائل ، والركي في لهجة بني كلاب . ومن الماء العدّ : كاظمة ، جاهلي إسلامي ، لم ينزح قط [4] .

ويضطر أهل القرى والمدن والأعراب الى نقل الماء وحفظه واختزانه الى وقت الحاجة اليه ، بوضعه في قرب من الجلد . وهي أحجام كبيرة وصغيرة من جلود الماعز

---

(١) RW 59, Bu. San 'a 1909, Jemen II, 341, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr. S.17.

(٢) بالكسر .

(٣) جامع الأصول (١١/٢٢٨) « أنه وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقطعه الملح الذي بمأرب ، فقطعه له . فلما ان ولى قال رجل من المجلس : أتدري ما قطعت له يا رسول الله ؟ إنما قطعت له الماء العد فانتزعه منه » .

(٤) شرح القاموس (٢/٤١٦) .

أو الضأن في الغالب . وقد يستعمل الجلد مدبوغاً وقد يستعمل بغير دباغة . ويحفظ الماء أياماً وأسابيع في بعض الأحيان في الصحاري حيث تتباعد مواطن الماء ، ويضطر الإنسان الى الاعتماد على هذه القرب في الشرب .

أما في بيوت أهل المدر ، فيصب الماء في أواني من الفخار أو غيره لتبريده والشرب كما سأتحدث عن ذلك في موضع آخر من الكتاب .

وتكتب لفظة « بئر » على هذه الصورة : « بار » في كتابات المسند . أما الجمع فـ « ابار » أي « آبار » . وهي ثروة ورأس مال كبير في جزيرة العرب ، تحيي الأرض وتميتها ، وتفني الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا اذا حفروا بئراً أو اذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة ، يقدمون الى آلهتهم الشكر والحمد والنذور . وقد أقامت الآبار الكبيرة العميقة العذبة مدناً ، وأماتت مدناً بسبب نضوب مياهها وجفافها ، وهي على هذه الأهمية الخطيرة الى الآن .

ويعبر عن البئر بألفاظ أخرى ، منها الركية ، وتجمع على ركي وركايا . وقد وردت اللفظة في حديث الرسول . وقد كان الناس يتبردون أحياناً في الركايا من شدة حرّ الصيف [1] . وعرفت البئر المبنية بالحجارة بالطوى والطوية . وذكر الأخباريون أن عبد شمس بن عبد مناف بنى بئراً بأعلى مكة عرفت بطوى [2] . أما الجب فهو البئر ، وذكر بعض علماء اللغة أنه البئر الكثير الماء البعيدة القعر [3] .

وقد تكون الآبار ذات مياه غزيرة كبيرة ، تخص المدينة بأسرها ، أو القبيلة بأسرها ، وقد تكون ملك أسرة تستغلها الأسرة لحسابها ، أو ملك فرد بأن تستفيد

---

(١) شرح القاموس (١٠/١٥٥) ، جامع الأصول (٩/٣٢١) .

(٢) على وزن غنى ، شرح القاموس (١٠/٢٢٩) .

(٣) شرح القاموس (١/١٧٣) .

منها مباشرة أو بيع مياهها للناس ، لاسقاء الأرضين أو الماشية . وقد تباع لأشخاص آخرين ، وقد تؤجر لأمد . على كل حال ، إن هذه الآبار هي ثروة مهمة جداً ورأس مال ثمين . ومن يملك الماء ، يملك مالاً يقدر بقدر سعة تلك البئر ومقدار ناتجها من الماء . وطالما كانت الآبار مصدر نزاع خطير بين القبائل وسبباً في إثارة الحروب .

وقد حفظت وثائق حفر الآبار أو ترميمها واصلاحها مصطلحات عديدة استخدمها الناس في تلك المناسبات . وهذه الوثائق شهادات تثبت تملك كاتبيها لتلك الآبار ، فهي « حجج تملك » في اصطلاحنا اليوم . قد تؤرخ بأيام ملك ، أو رجل عظيم ، أو حادث ذي بال . وقد لا تؤرخ بأي حادث كان، فتكون غفلاً من التأريخ ، وقد يذكر اسم البئر ، وقد لا يذكر ، بحسب مقتضيات الأحوال .

وتستخرج المياه من الآبار بالدلاء ، تربط بالحبال الى الأعمدة المثبتة فوق البئر . ويقال للعمود « عمد » « عامود » والجمع « عُمُد » و« اعمد » . وقد ورد « عمود البئر عمودان »[1] . وأما « الدلو » ، وهو الوعاء أو القربة المصنوعة من الجلد في الغالب ، فيقال له « عُلبت » « علسم »[2] . و « العلب » هو « علبت » « عُلبة » أيضاً[3] . والجمع « اعلب » ، تمتلىء بالماء حين دخولها في ماء البئر ، فتسحب وهي مملوءة به . فإذا بلغت موضع سكب الماء سحبت الى ذلك المكان لتفريغ مائها فيه ، فينساب الى « مسقيت » أي الى الساقية لإرواء المزرعة .

وأما الآلة التي تعلق عليها الدلاء والمتصلة بالأعمدة فتعرف بـ «اعرز[4] » في المسند .

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 115, 152

(٢) المصدر نفسه ، شرح القاموس (١٠/١٢٩) ، (١٠/٢٩٨) .

(٣) Rhodokanakis, Stud., II, 132.

(٤) CIH 303, Rhodokanakis, Stud., II, S. 132.

ويقال لتفريغ الركية وأخذ ما فيها من ماء « حبض » . وهي بهذا المعنى أيضاً في عربية القرآن الكريم . والاحباض أن يذهب ماء الركية فلا يعود [١] .

ولا بد للدلاء من حبال قوية متينة تتحمل الاحتكاك بينها وبين البكرة وتساعدها في حمل الدلو . وهذه الحبال تتخذ من مواد مختلفة ، تفتل وتبرم ، والعادة أن يقوى الحبل بجملة حبال تبرم بعضها فوق بعض وتشد شداً قوياً لئلا تتهرأ بسرعة فينقطع . وقد يتكون الحبل الواحد من مجموع عشرة حبال . أما مادة الحبل فالليف والخوص والجلود ولا سيما جلود الإبل والابق والمصاص ، وهو نبات ، ولحاء الشجر والقنب ، ومشاقة « السلْب » ، وهو ضرب من الشجر ينبت متسلقاً فيطول . ويؤخذ فيحل ثم يشقق فتخرج منه مشاقة بيضاء كالليف يتخذ منها أجود ما يكون من الحبال . وقد تصنع من القطن ومن ليف جوز الهند [٢] .

ولفتل الحبال تستعمل المغازل والمبارم ، لغزل الألياف وبرمها بعضها فوق بعض ، كما تستعمل بعض المواد القوية للألياف مثل الزيوت لتحافظ على قوة الخيط وعلى تماسكه فتبقيه طريّاً ، فلا ينقطع بسهولة. وقد تخصص أشخاص بصناعة الحبال وعاشوا عليها ، وقد كانت ذات أهمية بالنسبة لذلك الزمن .

وقد تحمى البئر من الأدران ومن الأتربة ومن أخذ الماء منها ، باقامة بناء فوقها على هيأة غرفة ، فإذا أقيم ذلك على البئر عرف بـ « منشا » « منشأ » . وقد تؤدي هذه اللفظة معنى أخذ الماء وتوجيهه الى الجهة المراد ارسال الماء اليها بمجرى يأخذ ماءه من « فنوت » . وأما لفظة « مشترعن » فتعني المشرعة [٣] .

---

(١) شرح القاموس (٥/١٨) .
(٢) المخصص (٩/١٧٠ وما بعدها) .
(٣) Rhodokanakis, Stud., I, S. 113.

وفي جملة الألفاظ الواردة في الكتابات العربية الجنوبية والمستعملة في حفر الآبار وتوسيعها وتعميقها، لفظة « حفر »، وهي بالمعنى المفهوم منها في عربيتنا. ولفظة « سنبط »، ويقصد بها معنى « استنبط »، من « نبط » ويراد بها ظهور الماء واستخراجه من باطن الأرض. وأما لفظة « وسبحر »، فتعني و « استبحر »، من أصل « بحر »، بمعنى التعميق. ولا يزال حفارو الآبار في العراق يستعملون لفظة تبحير البئر بمعنى تعميقها [١]. وفسرت لفظة « ضفر »، بمعنى الدعم بالحجارة [٢]، أي كسوة جدار البئر بالحجارة.

وقد تنقر آبار صغيرة ضيقة الرؤوس في نجفة صلبة، لئلا تهشم، ويقال لمثل هذه الآبار المناقر. وأما المنقر، فيراد بها البئر التي يكثر فيها الماء [٣]. وفي بعض المناطق الصخرية والجبلية آبار منقورة تتجمع فيها مياه جوفية تنحدر اليها من المواضع المرتفعة أو من مياه الأمطار التي تتساقط على المواضع المرتفعة فتسيل الى أفواه تلك الآبار وتدخل اليها وتتجمع فيها، فيستفيد منها الناس.

ويعبر عن خروج الماء وسيلانه ونزوله بلفظة « فجر ». وقد وردت معها لفظة « شرج »، كما في هذه الجملة: « ففجر شرجهمو بدثان وخرفن » [٤]. ومعناها « ففجر الشروج في الربيع وفي الخريف ». ويراد بذلك فجر الماء الذي ملاء شروج

---

(١) « يوم حفر وسنبط وسبحر »، بمعنى « يوم حفر واستنبط وعمق ». النقش رقم ١٦ المنشور في الصفحة ٢٣ من كتاب « نقوش خربة معين ».

(٢) نقوش خربة معين (ص ٢٣).

(٣) المخصص (١٠/٤٦)، شرح القاموس (٣/٥٨١).

(٤) « والشرج، منفسح الوادي ... والشرج الشقاق ... والشرج مسيل ماء من الحرة الى السهل »، شرح القاموس (٢/٦٣)، راجع السطرين الثامن والتاسع من النص: Halevy 149.

الأرض ، أي أوديتها ، في الربيع وفي الخريف . وقـد يراد بذلك سقوط الأمطار وظهور السيول التي ملأت الأودية ، وذلك في موسمى الخريف والربيع[١] . ولاتؤدي لفظة « فجر » ، الشدة والكثرة ، بل مجرد الخروج والظهور سواء أكان الماء شديداً أم ضعيفاً . وبهذا المعنى وردت لفظة سفح « في المسند » [٢].

ولا تزال بعض الآبار القديمة مستعملة ينتفع بمائها وهناك آبار طمرت ، أو جفت مياهها ، وقد عثر عند أفواهها على كتابات تشير اليها والى أسماء أصحابها . وهناك آبار أخرى عديدة عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وبعضها عميقة جداً ، وهى كلها « عادية » من أيام الجاهلية .

وقد استغلت بعض الآبار الجاهلية المندثرة ، بتنظيفها وتطهيرها واستغلالها . وذكر « فؤاد حمزة » أن آباراً عديدة جاهلية نظفت وأصلحت ، فعادت اليها الحياة ، واستغل مياهها في احياء الأرضين التي كانت خصبة مثمرة ثم تحولت الى موات[٣] . ولايزال الناس يستغلون في اليمن وفي غير اليمن بعض الآبار القديمة للشرب ، وذلك لصعوبة استخراج مياهها للزراعة لعمقها ، واقتصار الناس هناك في استخراج الماء منها على الدلاء[٤] .

وقـد فسرت لفظة « ثقول » بمعنى تعليق . وتعليق شيء فوق بئر ، أو انشاء سقف فوقها لحماية البئر ولتعليق الأدوات التي يمتح بها الماء من البئر عليها ، وذلك كما في هذه الجملة : « وكل ابارسم وثقولسم » ، ومعناها « وكل آبارهم وسقوفها أو الأعمدة المقامة فوقها للاستقاء بها » [٥] .

---

(١) Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59. ff.

(٢) Alt. Sab. Inschr,, S. 77.

(٣) فؤاد حمزة : (ص ١٩٠) .

(٤) نزيه مؤيد العظم ، رحلة في بلاد العربية السعيدة : (ص ٤٥) .

(٥) Kat. Texte, II, S. 28.

وقد يتغير طعم مياه الآبار وألوانها لعوامل عديدة . وهناك مصطلحات ذكرها علماء اللغة للدلالة على فساد ماء البئر ونتنه ، مثل : المسيط والضّغيط ، وتطلقان على الركيّة تكون الى جنبها ركيّة أخرى ، فتندفن احداها ، فتحمأ ، فيصير ماؤها منتناً ، فيسيل في ماء العذبة فيفسده ، فلا يشرب . والجيئة والجَيْأة : البئر المنتنة [1] .

وتنظف الآبار بالجُبجُبة ، تملأ بالأتربة وبالطين وبالأوساخ المتراكمة في قاع البئر وترفع ، وتصنع من جلود وأدم ، وهي نوع من الزبيل . ويستعمل في التنظيف « الثوج » كذلك ، وهو زبيل ، يعمل من خوص ، يحمل فيه التراب وغير ذلك . ويستعمل القفير كذلك ، وهو الزبيل بلغة أهل اليمن . ومن أسماء الزبيل أيضاً « الصن » وهو زبيل كبير ، والحفص وهو زبيل صغير من أدم ، والعرق نوع من أنواع الزبيل. ويقال للخشبتين اللتين تدخلان في عروتي الزبيل اذا أخرج به التراب من البئر « المِسْمعان » . وقيل : المسمع العروة التي تكون في وسط المزادة [2] . وتسحب الزبل بحبال الى أعلى لاستخلاص ما فيها من تراب ووسخ حتى تنظف .

ومن الألفاظ المعبرة عن تنقية البئر ونزولها وتنظيفها من الأوساخ والأتربة قولهم : نُثِلَتْ البئر ، أي أخرج ترابها ، واسم ذلك التراب النثيلة والنثالة والثلة والنبيثة . ويقال نبيثة النهر كذلك . وأما خمامة البئر ، فيراد بها ما كنس منها . ويقال جَهَرْتُ البئر ، بمعنى أخرجت ما فيها من الحمأة . وأما الشأو ، فما يخرج من ترابها ، وقد شأوتُ البئر نقيتها ، ويقال للذي يُخرج به المشآة ، ويقال أخرجت من البئر شأواً أو شأوين ، وهو ملء الزبيل من التراب . وجششت البئر أجشها جشاً ، أي

---

(١) المخصص (١٠/٤٧) .

(٢) المخصص (١٠/٤٥ وما بعدها

كنستها . وأما جملة نكشت الركي نكشاً ، فيراد بها اخراج ما فيها من الحمأة . ونجيت البئر ، ما أخرج من ترابها ، وكوزتُ البئر أي جمعته كالكثبة ، وهي لهجة يمانية . والثُملة ما أخرج من أسفل الركيّة من الطين . وحمأت الركية أخرجت حمأتها [1] .

ويعبر عن انهيار البئر وسقوطها بألفاظ ، مثل : صقعت ، وانقاصت ، وانقاضت ، وانهارت ، وتنقضت ، وتجوخت ، وانقارت . والهدم ما تهدم من نواحي البئر في جوفها ، وانخسفت البئر ، وانفضفت تهدمت [2] .

وتنظف الآبار بنزول الرجال فيها فيشد الرجل وسطه بالحبل ، ويترك طرفه في يد رجل . ويقال لهذا الحبل « الجعار » [3] . وتعمل في جدر الآبار في العادة مواضع للأقدام متقابلة يضع النازل في البئر رجليه عليها ، تمكنه من النزول لمتح البئر ، واستخراج ما قد يتساقط فيها من أتربة ورمال ، أو لحفر قاعها لزيادة الماء فيها .

وللمحافظة على البئر من الانهيار بسبب رخاوة جدرانها وتساقط المياه المتوحة منها ، عمدوا الى زبرها بالحجارة ، ويقال لمثل هذه البئر « المزبورة » أي المطوية بالزبر . وأما المعروشة ، فالتي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ، ثم يطوى سائرها بالخشب وحده ، وذلك الخشب هو العرش . فان كانت كلها بالحجارة ، فهي مطوية ، وليست معروشة . وهناك تعابير أخرى تشير الى تبطين البئر وكساء جدرانها بموادّ مقوية تمنعها أن تنهار . فاذا بنيت البئر بالحجارة ، قيل بئر مضروسة وضريس ، وهو أن يسدّ ما بين خصاص طيّها بحجر ، وكذلك سائر البناء . ويقال الأعقاب للخزف

---

(١) المخصص (١٠/٤٥) .

(٢) المخصص (١٠/٤٤) .

(٣) المخصص (٩/١٧١) .

الذي يُدْخل بين الآجر في الطيّ لكي يشتد . والوَسْب خشب يُطوى به أسفل البئر إذا خافوا أن تنهال ، والجمع الوسوب . والحامية الحجارة تطوى بها البئر [1] .

ويختبر المهندسون البئر أولاً ، فاذا قربوا من الماء احتفروا بئراً صغيرة في وسطها بقدر مايجدون طعم الماء ، فان كان عذباً حفروا بقيتها ، ويقال لذلك «الاعتقام»[2] . فالاعتقام إذن عملية تجريبية لاختبار طعم ماء البئر وتجربته من حيث العذوبة والملوحة وعليها تتوقف عملية الحفر .

ومتى حفرت البئر ووصل الى الماء ، قيل : أمهت البئر ، وأموهت ، وأمهيت . ويقال : ابتأرتُ بئراً ، أي حفرتها . ويقال أيضاً : حفرتُ البئر حتى نهرت ، أي بلغت الماء . وإذا بلغ الحفارون الأرض الغليظة ، قيل : بلغت الكدية . وإذا وصلوا موضعاً صعباً فصعب الحفر ، قيل : بلغ مسكة البئر . ويقال أجبلتُ ، أي انتهيت الى جبل . ويقال الصلود ، وهي الأرض التي تحفر فيغلب جبلها الحافر . فيصلد الحفر على الحافر لصعوبة الأرض . واذا حفر الحفارون حتى يبلغوا الطين ، فيقال عندئذ : أثلجت ، فاذا بلغ الماء ، قيل : أنبط ونبط . والنبط أول ما يظهر من ماء البئر إذا حفرتها ، والنبطة الماء المستخرج ، والقريحة أول ما يخرج من البئر حين تحفر . وإن بلغ الرمل، قيل : أسهب ، وان انتهى الى سبخة ، قيل : أسبخت ويقال : تأثل البئر إذا حفرت

(١) المخصص (١٠/٤٢ وما بعدها) .

(٢) « التعاقب والاعتقام ، أن تحفر البئر ، فاذا قربت من الماء احتفرت بئراً صغيرة في وسطها بقدر ما تجد طعم الماء ، فان كان عذباً حفرت بقيتها ووسعتها والا تركتها ... والفرق بين التلجيف والاعتقام . أن التلجيف هو التعرج في الحفر ، يمنة ويسرة والاعتقام الذي فيه سفلا » ، شرح القاموس (٨/٤٠٣) ، المخصص (١٠/٤١) .

البئر ، وهزمت البئر حفرتها [1] .

ولم يكن من السهل في ذلك الزمن حفر الآبار ، لعدم توفر الآلات والأدوات الفنّية . فان حفر البئر الى عمق بعيد الغور كما تتطلبه بعض الأماكن المرتفعة يحتاج الى آلات كثيرة والى علم وتدبير في محافظة جدران البئر من الانهيار على الحفارين ، وعلى الماء بعد الانتهاء من الحفر ، فتندثر ويذهب المجهود في حفرها عبثاً . هذا ولا بد لمهندس الآبار من معرفة بطبيعة الأرض ومظنة وجود الماء فيها أوعدمه ومدى عمقه ، فلا يعقل اقدام شخص على حفر بئر في أرض لا يعرف من أمرها شيئاً . وحفر البئر في النجاد عمل مكلف باهض ، فلا بد إذن من تخصص أناس بهندسة الآبار ، ليقوموا بهذا العمل الذى لا يمكن القيام به ما لم يسنده علم وفهم .

وتتعرض الآبار لسقوط الأتربة والرمال فيها ، وقد تنهار جدرانها فينضب ماؤها ، ولا تمكن الاستفادة منها إلاّ بنزحها . ويقال لنزح البئر جهرت البئر واجتهرت ، أي نزحت . وقيل المجهورة المعمورة منها عذبة كانت أوملحة [2] ولا بد من نزح هذه الآبار دائماً ، اذا أريد بقاءالماء فيها ، وإلاّ ذهب ماؤها وانتفت فائدتها ، فتترك وتهمل.

وكتابات المسند ضنينة جداً بذكر أسماء الأدوات التي كان العرب الجنوبيون يستخرجون بها الماء من الآبار أو النهيرات والعيون . ولهذا لا نعرف عنها شيئاً وياللأسف . ولكنا نستطيع أن نقول إنها لا تختلف عن الأدوات المذكورة في كتب اللغة والأدب ، أو الأدوات التي يستعملها أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية اليوم .

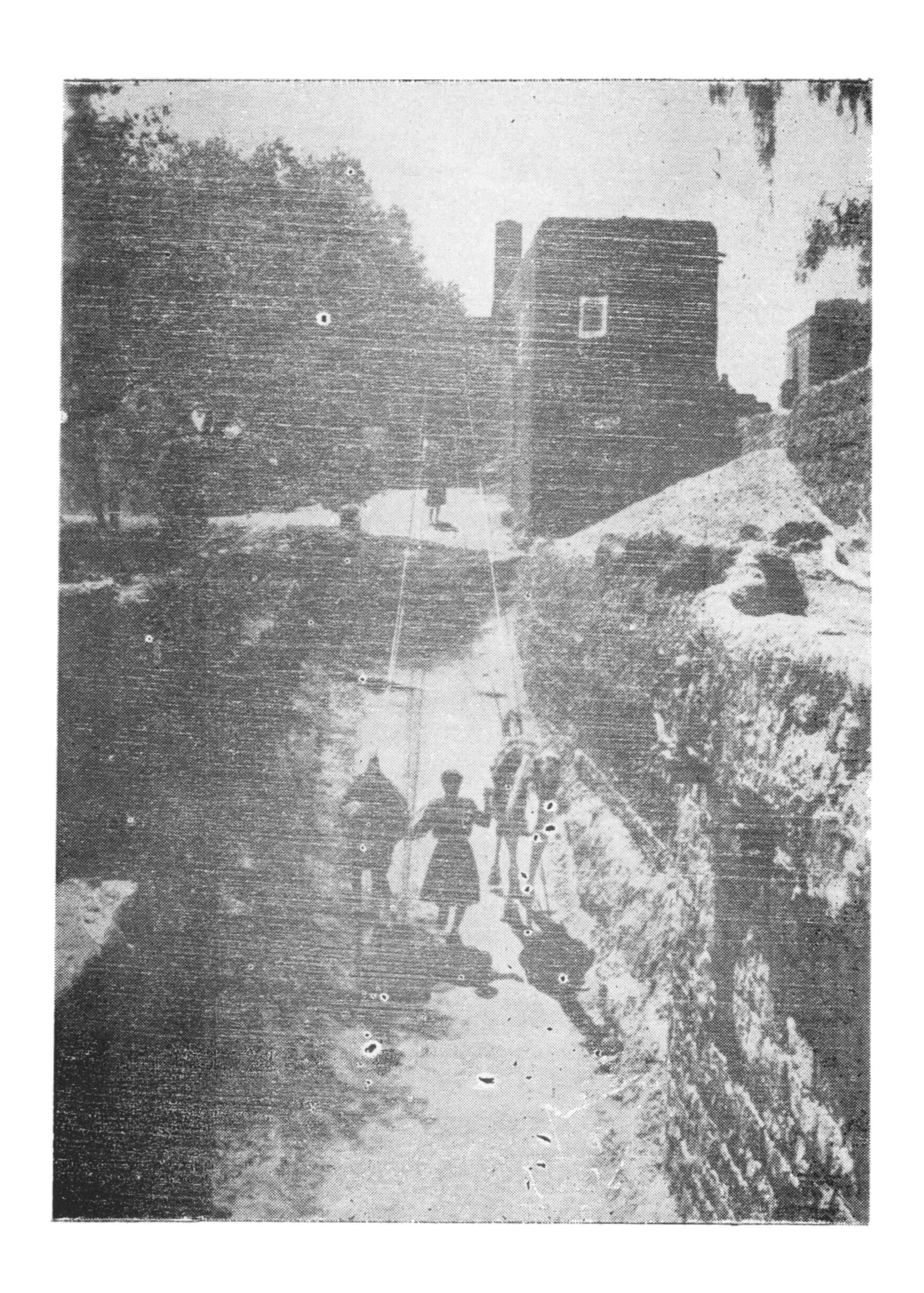
ويستعمل أهل اليمن اليوم النواعير [3] ، ولعلهم ورثوها عن أجدادهم الجاهليين .

---

(١) المخصص (١٠/٠ : وما بعدها) .

(٢) المخصص (١٠/ ٣٩ وما بعدها) .

(٣) نزيه مؤيد العظم (١/ ٩٧) .



بئر في صنعاء

من كتاب : Jemen, das Verbotene Land

لمؤلفه : Günther Pawelke

(الصفحة ١٤٤)

وهناك ألفاظ عديدة ذكرها علماء اللغة للآبار التي تقل مياهها ، وفي هذه الكثرة دلالة على مقدار تعمق علم القوم بالآبار . فقيل حبض ماء الركيّة وماء البئر وذلك إذا انحدر ونقص ، ونكزت البئر أي قل ماؤها ، وبئر نَزَحٌ لاماء فيها ، وبئر مكول وهي التي يقل ماؤها فيستجم حتى يجتمع الماء في أسفلها ، واسم ذلك الماء الْمَكْلَةُ ، وَقَطَعَ ماء الركيّة قُطوعاً قل وذهب ، وبئر قُطْعة وبئر ذمة قليلة الماء ، وبئر ضهول قليلة الماء ، وركي وقباء غائرة الماء ، وأوجأت الركيّة قل ماؤها ، والصّماخ من الركايا القليل الذميم ، والممقر القليلة الماء ، والخليقة البئر التي لاماء فيها ، وقيل هي الحفيرة في الأرض المخلوقة ، والركيّة الغامد التي فني ماؤها ، والضّغيط بئر تحفر الى جنبها بئر أخرى فيقل ماؤها ، وبئر قَرُوع قليلة الماء وهي كالضنون سميت بذلك لأنها تقرع قرعاً كلما فنى ماؤها ، وبلحت الركيّة ذهب ماؤها ، وبئر رشوح وبروض وبضوض قليلة الماء [1] .

وأما كثرة ماء البئر وقلته ، فقد ورد في ذلك تعابير واصطلاحات عديدة كذلك ، فقيل : بئر غزيرة بمعنى كثيرة الماء ، وورد بئر ميهة وماهة إذا كثر ماؤها ، والعيلم البئر الكثيرة الماء . والخَسِيف التي تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة ، وهي التي خسفت الى الماء الواتن تحت الأرض ، ويقال بئر سجر ومسجورة بمعنى مملوءة ، وبئر ذات غيث أي مادة ، وركي سَعْبر غزيرة ، والسعبر الماء الكثير ، والقَيلذم ، البئر الكثيرة الماء ، وبئر مقيضة كثيرة الماء قد قيضت عن الجبل ، والقَلوص التي إذا وضعت الدّلو جمعت فكثر ماؤها وهي القلائص ، وقلص الماء ارتفع في البئر ، وقَلَصة البئر الماء الذي يجم فيها ويرتفع . يقال جَمّ الماء يجم جموماً اذا كثر في البئر واجتمع بعد ما استقى ما فيها ، والجمّ الكثير من كلّ شيء ، والبئر الماكدة التي يثبت ماؤها

---

(١) المخصص (٣٩/١٠ وما بعدها) .

على قرن واحد لايتغير وإن كثر منها وإن وضع عليها قرنان أو أكثر ، غير أن ذلك إنما يكون على قدر ما يوضع عليها من القرون بقدر مائها ، وبئر مكود وماكدة لا تنقطع مادتها ، وبئر نيّط ، إذا كان ماؤها يخرج من ناحية من أجوالها متعلقاً ، والهزائم الآبار الكثيرة الماء ، وبئر زغربة كثيرة الماء وبئر ذَمّة وذميم وذَميمة كثيرة الماء كذلك ، والنَقيع البئر الكثيرة الماء [١] .

ونجد في كتب اللغة ألفاظاً عديدة تشير الى أبعاد البئر ، ومقدار ما فيها من ماء . وهذه الألفاظ هي دليل على أهمية الآبار في حياة سكان جزيرة العرب ، وعلى علمهم وشدة عنايتهم بها . فورد بئر أنشاط للبئر التي تخرج منها الدلو بجذبة واحدة ، وبئر نشوط وهي التي لا تخرج منها الدلو حتى تنشط كثيراً ، والشطون من الآبار التي تنزع الدلو بحبلين من جانبيها ، وقيل : الشَّطُون البئر التي يتسع أعلاها ويضيق أسفلها ، فإن نزعت بحبل واحد جرّها على الطيّ فتخرقت فتنزع بحبلين حتى تخرج سالمة ، وبئر جَرُور هي التي يستقى منها على بعير ، وقيل لاتكون بئر جروراً حتى ينجرّ حبلها على الأرض إذا مدّتها السواني فلا يتوتر ، وقيل : هي المستوية التي يسنّى عليها بالمحال. ويقال بئر مَتُوح وبئر نزوع ونزيع ، والجمع نُزُع ، إذا نزع منها باليد . والنزوع البعير الذي ينزع عليه الماء . وبئر مسهبة لايدرك ماؤها ، وبئر سهبة أي بعيدة القعر وعميقة ، وبئر قَعُور أي عميقة ، وبئر قعيرة بعيدة القعر ، وقعر كل شيء أقصاه ، وبئر عَضُوض بعيدة القعر ، وقيل : هي الصعبة الشاقة على الساقي ، ويقال لها جِهِنّام كذلك . وبئر بيون عميقة ، وكذلك بئر زاهق وزهوق ، وورد البغبغ بمعنى الركي الغريبة المنزع . وركي قَدُوح وغَروف التي يغترف منها باليد ، وبئر فوهاء واسعة

---

(١) المخصص (١٠/ ٢٧ وما بعدها) .

الفم ، وبئر رَهو واسعة الجراب ، وبئر واسعة الشحوة وضيقتها أي الفم ، وركي فيهق واسعة . والحفر البئر الموسعة فوق قدرها ، وركية زلوج،لمساء يزلق فيها من قام عليها ، وبئر سك وسكوك ضيقة الخرق ، وبئر مُقعدة حفرت قدر قعدة رجل ، وبئر عيلم الواسعة ، وقيل إنها الملحة ، وقالوا بئر ليس لها معين أي مفيض من ضيقها [1] .

وتستخدم الثيران والجمال والحمير والبغال في مَتْح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقي المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيد أو الفلاحون . أما الآبار الصغيرة الخاصة بشرب الناس ، فيستخدم في متح الماء منها الإنسان ، وتصب الدلاء المياه في أحواض أعدت لذلك ، لها منفذ يسيل منه الماء الى السواقي .

ومن أنواع الآبار التي ذكرها علماء اللغة : الشبكة ، ويراد بالشبكة الآبار المتقاربة والأرض الكثيرة الآبار . وأما الفُقُر فهي ركايا تحفر ثم ينفذ بعضها الى بعض حتى يجتمع ماؤها في ركي . وإذا اجتمعت ركايا ثلاث فما زاد الى ما بلغ من العدة قيل له فَقير ، ولا يقال ذلك لأقل من ثلاث . وورد أن الفقير فم القناة . وأما الكظامة ، فإنها بئر الى جنبها بئر وبينهما مجرى في بطن الأرض . وقيل : كل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق ، فهو كظم ، والذي يسدّ به الكظامة . وقيل : هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى الى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيح على وجه الأرض .

---

(١) المخصص (١٠/٣٦ وما بعدها) .

وقد كظموا الكظامة جدروها بجُدْرين (١) . والجُدْرُ طين حافتيها . والجبّ ، البئر التي لم تطوَ ، وقيل : هي الكثيرة الماء البعيدة القعر ، ولا يكون جبّاً في رواية بعض علماء اللغة حتى يكون مما وجد محفوراً لا مما حفره الناس . والجفر البئر التي ليست بمطوية ، وتجمع على جفار . وأما الجُد ، فالبئر الجيدة الموضع من الكلأ ، والجمع أجداد ، والملك البئر ينفرد بها الرجل ، والبود البئر كذلك ، والسهبرة من أسماء الركايا ، والرسم الركية تدفنها الأرض والجمع رسام .

وتبطن الآبار بالجُدُر لوقاية جوانبها من السقوط وانهيارها في الماء فتسد . تبطن بجدار يبنى من الحجارة من قعرها الى أعلاها . ويعبر عن هذا الجدار بلفظة « كولم » ، « كول » في المسند . وقد ورد في كتب اللغة « الجول . جدار البئر » (٢) .

وقد اتخذ النبط وغيرهم من القبائل آباراً ، لشربهم ولشرب مواشيهم ، لها فتحات تسد بالحجارة ، فلا يمكن لأحد غريب الوقوف عليها ، فإذا داهمهم عدوّ ، أو أرادوا

---

(١) المخصص (١٠/ ٣٤ وما بعدها) ، « بئر بجنب بئر . وفي الصحاح الى جنبها بئر وبينهما مجرى في بطن الأرض أينما كانت . كذا في المحكم وفي الصحاح في باطن الوادي و ... وقيل : الكظامة القناة تكون في حوائط الأعناب . وقيل ركايا الكرم . وقد أفضى بعضها الى بعض وتناسقت كأنها نهر . وقيل : قناة في باطن الأرض يجري فيها الماء . قال أبو عبيدة : سألت الأصمعي عنها وأهل العلم من أهل الحجاز . فقالوا : هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ثم يخرق ما بين كل نهرين بقناة تؤدي الماء من الأولى الى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها . فتسبح على وجه الأرض . وفي التهذيب : حتى يجتمع الماء الى آخرهن . وانما ذلك من غور الماء ليبقى في كل بئر ما يحتاج اليه أهلها للشرب وسقى الأرض ، ثم يخرج فضلها الى التي تليها . فهذا معروف عند أهل الحجاز » ، شرح القاموس (٩/ ٤٧) .

(٢) « الجول : جدار البئر . وقال أبو عبيد : هو كل ناحية من نواحي البئر الى أعلاها من أسفلها » ، شرح القاموس (٧/ ٢٦٢) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, 28.

النقلة الى أماكن أخرى ، سدّوا بها فتحاتها ، ووضعوا فوقها من التراب ما يخفي معالمها . وقد أشار اليها بعض الكتبة اليونان واللاتين .

وقد بقيت في الاسلام آبار جاهلية قديمة عميقة لم يعرف الاسلاميون أصحابها ، وجدت ، وبعضها في البراري . وقد عرفت مثل هذه الآبار بآبار عادية ، وقيل لها « القَليب » كذلك . وقيل : القليب ، البئر قبل أن تطوى . وقد عرفت بالرسّ وبالطَّويّ كذلك (١) . ولا تزال بعض هذه الآبار موجودة يستقى منها . وهي عميقة . ويظهر من وجود بعضها في البراري أن تلك المواضع كانت على طرق القوافل أو في محلات كانت مأهولة ، ثم تركها أهلها فعميت ، ولم يبق منها إلا ما نال بعض العناية من الناس .

وقد كانت الآبار مصدراً من مصادر الثروة لمالكيها . اذا كانت في المحلات المسكونة بصورة خاصة . فقد كان أصحابها يبيعون الماء للناس ، يبيعونه قِرباً لاستعمالها في الشرب . فقد كان صاحب « بئر رومة » ، وهو يهودي يبيع الماء منها للناس . فإذا غاب ، قفل عليها بقفل ، فلا يستطيع أحد أخذ الماء منها . فشكا المسلمون ذلك الى الرسول ، فقال : « ومن يشتريها ويمنحها للمسلمين ويكون نصيبه كنصيب أحدهم ، فله الجنة » . فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم ، فوقفها . وذكر أن اليهودي كان يبيع كل قربة من الماء بدرهم (٢) .

وقد تخصص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبار ، كما تخصص آخرون بالسيطرة عليها وحصرها بالسدود . وسمى علماء اللغة المقدر لمجاري المياه « القُناقِن »

---

(١) المخصص (١٠/٣٤) .

(٢) عمدة القاريء (١١/١٩٠ وما بعدها) .

وهو مثل المهندس في هذا الفن [١] .

وفي الحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب مياه جوفية تمكن الاستفادة منها في تكوين مواطن سكنى واسقاء الماشية والزرع . ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء آبار عديدة حفرها رجال ذكروا أسماءهم ، مثل بئر خمّ التي حفرها عبد شمس بن عبد مناف أو مرة بن كعب بن لؤي ، وبئر رم ، والغمر وهي بئر أخرى لبني سهم وبثار ، والطوى ، وبذر ، وسجلة ، والحفر ، وآبار أخرى كانت خارج مكة ، وقد ذكر أهل الأخبار أسماءها [٢] . ولولا الاهمال الذي أصابها ، لبقيت هي وأمثالها تسقي مساحات من الأرض تكفي سكانها ، ولأفادت في إعمار الأرضين وفي اسكان الناس . وقد عمي أكثر تلك الآبار ، ولم يبق منها غير الاسم ، أفلا يدل ذلك على امكانية الاستفادة من خيرات الطبيعة ومواردها الكثيرة لو تهيأت للناس حكومات رشيدة صالحة تسعى في خدمة شعبها لا خدمة الأشخاص ؟

وفي جزيرة العرب عيون معدنية ، بعضها بارد ، وبعضها حار يستشفى فيه . ويقال لهذا النوع من العيون الحارة الحمّة [٣] .

---

(١) « والقناقن بالضم : البصير بالماء في حفر القنى . وقيل هو البصير بالماء تحت الأرض . ج . قناقن . وقال ابن الاعرابي : القناقن : البصير بحفر المياه واستخراجها . قال الطرماح :

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى ... وينصتن للسمع استماع القناقن

القناقن : المهندس الذي يعرف موضع الماء تحت الأرض . وأصله بالفارسية ، وهو معرب مشتق من الحفر ، من قولهم بالفارسية كن كن ، أي احفر احفر . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما . لم تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : لأنه كان قناقنا ، يعرف مواضع الماء تحت الأرض . وقيل القناقن : هو الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً » ، شرح القاموس (٩/٣١٠) ، المخصص (١٠/٣٣) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/١٥٩ وما بعدها) .

(٣) المخصص (١٠/٣٣) .

ويقال لينبوع الماء « العين » . وعيون الماء معروفة مشهورة في مواضع كثيرة عديدة من جزيرة العرب ، وهى مواضع الخصب والنماء والزرع . ويستفاد منها في سقي المزارع وإرواء الأشجار المغروزة في هذه الأماكن ، على أن كثرة مياه بعض العيون قد صار سبباً في انتشار الأوبئة مثل « الملاريا » كما في واحة « خيبر » ذات العيون العديدة . ويقال لجاري الماء من العيون القَصَب ، وقيل قصبة كل مخرج ماء . ويقال للعين التي لا ينقطع ماؤها عَيْن حشد . اما إذا كانت العين كثيرة الماء فيقال لها عين غزيرة ، وعين زَغْربة ، وعين غَدِقة، وعين ثَرّة ، وكذلك ثرثارة [1] .

ولم يكن من السهل على حكومات ذلك الزمن السيطرة على مياه السيول والاستفادة منها ، فكانت تذهب سدى ، بعد أن كانت تصيب الأرض والناس بالأضرار وحين تتحدّر هذه السيول من النجاد والأمكنة المرتفعة ، تتحول الأودية فجأة وبسرعة أنهاراً عريضة كبيرة ، تسيل مياهها مندفعة هدارة ، لكنها لا تلبث طويلاً ، بل تزول وتذهب وتجف الأودية ولا يبقي فيها من الماء شيء ، اذ يسيل الى البحر أو يغور في التربة . وقد اجتهد الجاهليون أن يستفيدوا من هذه السيول فأقاموا السدود على قدر إمكانهم كما فعلوا في سدّ مأرب وفي سدود أخرى كما يظهر من الآثار ، ولكن قدرتهم الفنية والمالية لم تكن من الاتساع والقوة بحيث تساعدهم على السيطرة على السيول .

وفي كتب أهل اللغة والأخبار تعابير عديدة عن سيل السيول ، وأثرها في الأرض وجرفها التربة وما عليها ، وتفتيتها أشفار الأودية والأماكن التي تنحدر منها وكيفية قلعها الأشجار والصخور [2] . يظهر منها كلها أن أثر السيول كان شديداً مؤذياً ،

---

(١) المخصص (١٠/٣٣) .

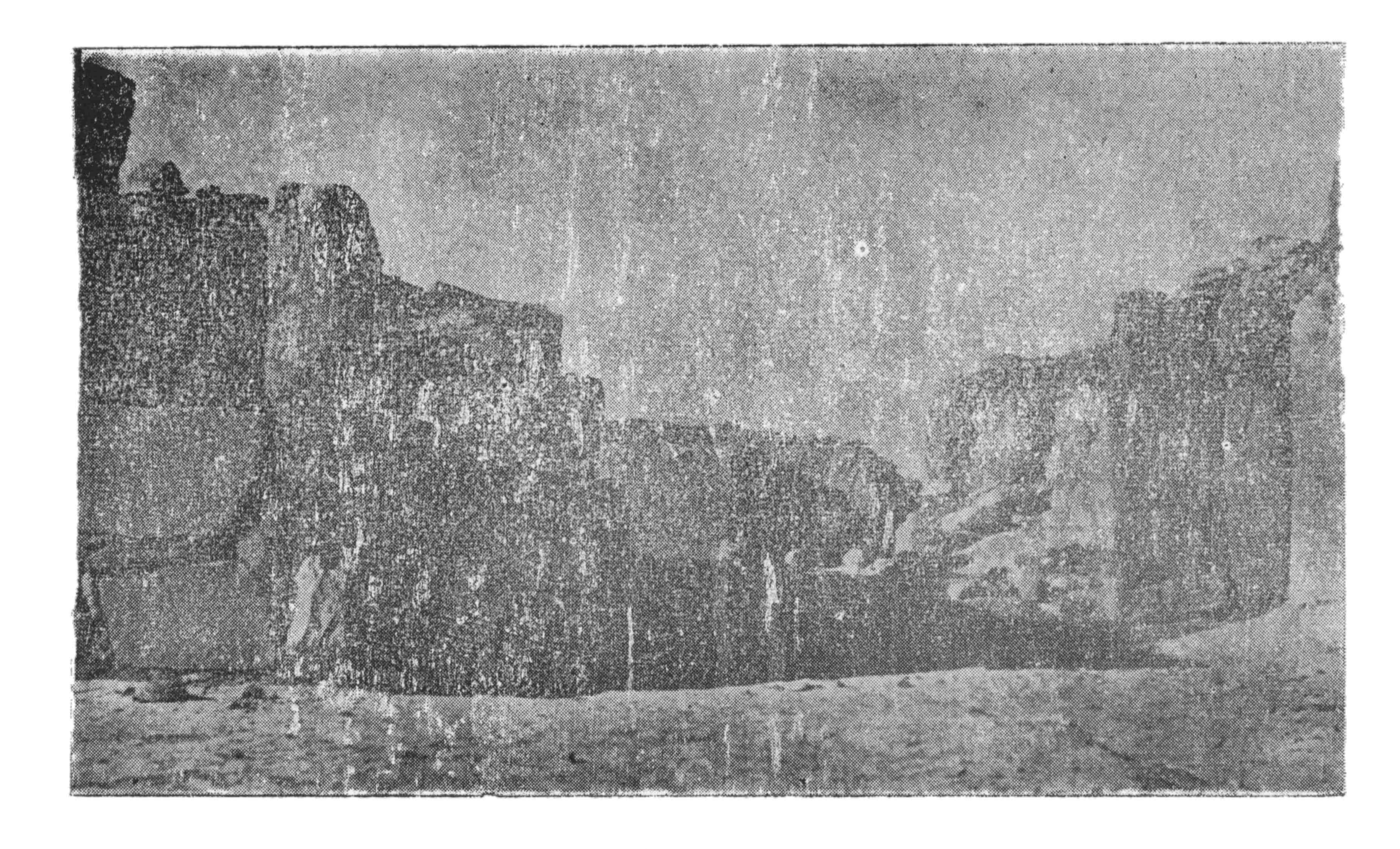
(٢) المخصص (٩/١٢٦ وما بعدها) .

وهو ما زال على أذاه الى هذا اليوم .

وتتولى الحكومات انشاء السدود وحفر القنوات والسواقي ، وتنفق على الأعمال من أموالها ، وتقدّم المواد الغذائية وبعض الأجور الى العمال . والغالب أنها تطلب من رؤساء القبائل والقرى تقديم الرجال للعمل وتقوم هي باعاشتهم طوال أيام عملهم ، كالذي ورد في نص « ابرهة » عامل الحبشة على اليمن ، فقد كان يقدم الطعام الى العمال لقاء اشتغالهم ببناء السدّ . وقد ذكر مقدار ما قدمه وما صرفه عليهم من طحين وبرّ وتمر ولحم . وقد يشغل العمال سخرة ، فلا تدفع الحكومة أوالشيخ اليهم شيئاً . وقد كانت السخرة شائعة في ذلك العهد ، لا في اليمن حسب ، بل في العالم القديم كله ، فيسخّر العمال بتكسيرالحجارةواقتلاعها من المحاجر و نقلها الى الأماكن التي يراد اقامة السدود أو منشئآت البناء فيها أو غير ذلك ، ثم باصلاحها وببقية أعمال البناء اللازمة، الى أن تنجز ، وعندئذ يسمح لهم بالانصراف الى حيث يشاؤون .

وقد تتولى المعابد هذه الأعمال ، فتصرف عليها من واردها ، تعدّ ذلك هبة أو ديناً تتقاضاه من أصحاب الأرض ومن المستأجرين في المدن والقرى ، كما يتولاها أيضاً رؤساء القبائل، بأن يكلفوا القبيلة القيامَ بذلك العمل ، مقابل تعهدهم بتقديم الطعام للمشتغلين به ، وقد يكلفونهم ذلك سخرة مستخدمين حق القوة التي يتمتعون بها إن كانوا رؤساء أقوياء .

وفي الحالات الاضطرارية يحشر الناس حشراً ، كما في الفيضانات المفاجئة التي تنشأ عن السيول . فتحشر الحكومة ورؤساء المدن والعشائر كل من يجدونه أمامهم للعمل على انشاء الحواجز والسدود وفتح المجاري لمرور المياه لانقاذ الأرواح والأموال من الكوارث والأضرار .



من بقايا سدّ مأرب

وأظهر العرب الجنوبيون عبقرية عظيمة في الاستفادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والنهيرات لاستعمالها في الإرواء والشرب . وما سد مأرب الشهير ذو القصص الخالدة المشهورة إلا مثال من أمثلة هذه العبقرية العربية القديمة . تضاف اليه خزانات المياه في منطقة عدن ، وقد أنشأها الجاهليون لخزن مياه الأمطار في هذه المنطقة المهمة التي لم يخصها الله بأنهار كبيرة تسد حاجة الأهلين (١) . ومن العرب الجنوبيين تعلم الحبش فن إقامة السدود . وسدّ « كوهيتو Kohaito » بالحبشة مثال من أمثلة هذا النقل (٢) .

تحكم مهندس الإرواء في الماء وسيطر عليه ، لكيلا يذهب هباء ، فيضيع على المزارع أثمن ما يملكه في حياته لاصلاح أرضه ، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب ، ونوّع في المجاري وفي مسايل المياه ، ليستفيد من الماء قدرامكانه فلا يفلت منه شيء . والعربية الجنوبية فقيرة به ، واعتمادها الأكبر على مياه الأمطار ، ولهذا تفنن العربي الجنوبي وتحايل في حبسه وحصره وحفظه الى أيام الحاجة والشدة في أيام انحباس الأمطار .

وقد عثر على آثار سدود في أنحاء أخرى من جزيرة العرب . وقد أنشئت في المواضع التي يزورها الغيث وتنهمل عليها الأمطار . وقد تقام لضبط مياه النهيرات والينابيع ، لجمعها ، ثم اعادة توزيعها . وأكثر هذه السدود هي اليوم في مناطق صحراوية لا ماء فيها ولا بشر ، مما يشير الى الفرق العظيم الذي حدث بين اليوم والأمس .

---

(١) Glaser, Reise nach marib, S. 58, 173, 177, Handb. der altar. alter., I, S. 190.

(٢) Deutsche Aksum expedition, II, S. 148, ff.

وهنالك — عدا هذه السدود والخزانات — صهاريج مربعة الشكل ودائرية ، عثر على آثارها في مواضع عديدة من البلاد العربية الجنوبية . وقد أنشئت لخزن مياه الأمطار ، للاستفادة منها أيام انحباس المطر وانقطاعه .

ويقال للسد « عرمن » في العربيات الجنوبية ، أي « العَرم » . فلفظة « العرم » تعني السد عند اليمانين القدماء ، ولم تكن علماً على سدّ معين . أعني سدّ مأرب . وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم سيل العرم » [1]. وفي هذه الآية إشارة الى حادث انفجار سدّ مأرب كما يذهب الى ذلك المفسرون .

ويعبر عن احداث فتحة أو ثغرة في جدار أو جبل أو في صخرة لإسالة الماء منها أو فتح شيء ما ، بلفظة «بلق» . وأما «بلقم» التي ترد في النصوص المعينية ، فتعني الحجارة . وتؤدي لفظة « مخض» معنى «بلق» أيضاً ، فهي أيضاً بمعنى احداث ثغرة أو فتحة ، غير أنها تستعمل للتعبير عن معان أخرى مثل فتح الطرق وشقها في الجبال في الغالب ، أو احداث طريق فوق « منقلن » . ويراد بـ « المنقل » معنى « نقيل » أي ممر .

ويكون فتح الطرق في الأرض المرتفعة أو الجبال ، بازالة الموانع « حجزت » ، ورفع الصخور وتحطيمها وتمهيد الطريق حتى يكون صالحاً للمرور [2] .

وتؤدي لفظة « قلح » معنى سال وجرى وصب ، ولها معان أخرى ذات صلة بالحركة . وتستعمل في العبرية بمعنى رمى وشمر [3]. وبمعنى قلح أي سال وجرى ترد لفظة « سفح » في المسند .

وأما لفظة « منفخت » « منفخة » و « منفخ » ، من أصل « نفخ » ، فانها تعني فتح الماء واسالته . وذلك بفتح الفتحات الماسكة له ليسيل منها الى المجاري المخصصة

---

(١) سورة سبأ الآية ١٦ .

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 90 ff..

(٣) Rhodokanakis, Stud., II, S. 62.

بمسيله . وهي في معنى لفظة « منفس » التي هي من أصل « نفس » . ويراد بهـا خروج الماء وجريانه من الفتحات الحابسة له وارتفاعه نتيجة لفتح الماء وهي من ألفاظ الإرواء الواردة في الكتابات العربية الجنوبية كذلك [1] . ويستعمل العراقيون جملة « تنفس الشط » ، بمعنى ارتفع ماء النهر وزاد ، وذلك في أيام الفيضان . و « تنفس الموج » و « تنفس دجلة » . فالمنفخ والمنفس اذن في معنى واحد ، ويطلقان على عملية رفع مستوى الماء بزيادة كمياته من الفتحات التي تضبطه وتسيطر عليه ، لأجل رفع مستواه في الأنهار أو في المجاري والسواقي لإرواء الأرضين في يسر وسهولة ، ولا سيما الأرضين المرتفعة بعض الارتفاع .

وقد عرفت الحواجز والموانع التي يقيمها مهندس الماء في السواقي وفي المجاري ، لحبس الماء عن المرور والسيطرة عليه ، بـ « ماخذ » . وتعمل في جوانبها أحياناً أبواب لتسيل منها المياه بمقدار ، ويقال لها « رحاب » ، وللباب الواحد « رحبم » « رحب » أي « رحبة » [2] .

ويقال للقناة أي الممر الذي تمر منه المياه « عبرن » في اللهجات العربية الجنوبية [3] ، أي المعبر . ذلك لأن المياه تعبرها وتجري فيها وتسيل منها الى الأماكن التي كان يقصد وصولها اليها . وترد بكثرة في النصوص المتعلقة بتنظيم الإرواء وفي النصوص المتعلقة بشؤون الزراعة . وأما لفظة « امررن » فتعني « المرور » ، والامرار و « الممرات » ، وقد وردت في النصوص الزراعية بمعنى الممرات المائية التي تجري فيها المياه ، فهي بمعنى سواق لإسقاء الأرض . وذلك كما في هذه الجملة : « عبرن ختن ذي وسعن

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 82.

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 97.

(٣) Rep. Epi. Semi., VII. II, P. 210, Num. 4351.

أمرن هجرن »[1] ، ومعناها « القناة ختن ذات السعة في امرار الماء الى المدينه» . وأما الممر الواحد أو الوادي ، فيقال له « سرن »[2] وكما في هذه الجملة : « عبرن دتن ذي وسعن اسررن »[3] ، ومعناها « المعابر هـــذه توسّع الماء الى الأودية » . وتعني « وسعن » ، الوسع ، وهي من أصل « وسع » . فهي في المعنى اللغوي المفهوم من اللفظة في عربيتنا . وقــد ورد في كتب اللغة أن « عبر الوادي شاطئه وناحيته ، وعبره عبراً وعبوراً : قطعه من عبره الى عبره »[4] .

وترد كثيراً في النصوص المتعلقة بشؤون الإرواء لفظة « حرت » . وورودها فيها يدل على وجود علاقة لها بالإسقاء والإرواء . ويظهر أن لهــذه اللفظة صلة بلفظة « خرّ » العربية الشمالية التي تعني «شق» . وهي بهذا المعنى وبمعنى ثقب وفتحة في لغة بني ارم وفي العبرانيــة المتأخرة ، وتؤدي لفظة « خرّ و Harru » معنى « قناة » في الأشورية . وهذا يدل على أن للفظة « حرت » معنى قناة أو فتحة تفتح في السدّ ، لإسالة الماء من الفتحة الى القناة أو المجرى المخصص بجري الماء[5] .

ويقال لمجرى الماء الصغير المتفرع من مجرى أوسع منه « مسبا » . وقد وردت بعد هذه الكلمة لفظة أخرى هي « مون» في بعض الكتابات . وذهب بعض الباحثين

---

(١) Rep. Epi. Semi., VII, II, P. 209 f., Num. 4351.

(٢) Rep. Epi, Semi., VII, P. 291., Num. 4696.

(٣) Rep Epi., Num. 4351.

(٤) يكسر ويفتح ، القاموس (٢/٨٣) ، « ووسعه توسيعاً ضد ضيقه ، فاتسع واستوسع » ، القاموس (٣/٩٤) .

(٥) Rhodokanakis, Stud., II, S. 81, 85, 115.

الى أن المراد بها الصهريج . وقد عرف علماء اللغة المسبا بأنه الطريق في الجبل [1] .

أما السواقي ومجاري الماء الصغيرة التي تستعمل في إسقاء المزارع والحدائق ، فيقال لها « مسقيت » ، أي « مسقية » [2] و « ساقية » [3] .

وقد ذهب رودوكناكس الى أن هناك لفظة أخرى للساقية ، هي « مسفحت » « المسفحة » [4] . من أصل « سفح » ، وفي « سفح » معنى الإسالة والجريان .

وترد لفظة « كرفن » ، أي « الكرف » و « الكريف » ، في النصوص المتعلقة بالإرواء والإسقاء والزراعة . وقد فسرها بعض العلماء بـ « صهريج » . وفسر « الهمداني » لفظة « كريف » بقوله : « كريف جوبة عظيمة في صفا يكون فيها الماء السنة واكثر » [5] .

وقد عثر المستشرقون الذين زاروا خرائب اليمن ودرسوا آثار السدود على « حرّات » كثيرة تتخلل جانبي السدّ . وهي عبارة عن فتحات مستديرة ، تختلف أقطار فتحاتها بحسب كميات المياه المراد امرارها منها الى « القنوات » . وهذه

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 112, ff, Hommel, Aufs. Und abhand., 126.

(٢) راجع الفقرة الخامسة من النص المعيني الموسوم بـ :

Glaser 1150 Halevy 193 199

(٣) Rhodokanakis, Stud., II. S 70.

(٤) شرح القاموس (٢/١٦٤) ،

Müller in WZKK, II, 189, Rhodokanakis, Stud II S 89

(٥) الاكليل (ص ٨٠) ،

Rhodokanakis, Stud., II. S. 95 Hartmann Arab. Frage S. 400

الفتحات هي « الحرات » « حررتن » . والفتحة الواحدة هي « حرت » حرة [1] .
وذلك كما في هذه الجملة : « عسـاوبنى حرتهو لمسقت نخلهو » [2] ، ومعناها « وحفر وبنى قناته لسقى نخيله » . فالحرة هنا بمعنى مجرى ماء يتخذ لمرور الماء فيه الى الحقول والبساتين .

وذكر « كلاسر » أن لفظة « محرت » « محرة » تعني السور العالي المقام من الحجارة ، وأن اللفظة تعنى التسوير والإحاطة . وهذا معنى آخر بالطبع للكلمة [3] .

وتفيد لفظة « ع س اى » « عساى » من أصل « عسى » استخدام الحجر ، أي بناء شيء ما مثل سدّ بالحجارة [4] ، ولهذا ترد في الغالب في النصوص المتعلقة ببناء السدود . وأما لفظة « موثرم » ، فتعني قاع الشيء وأساسه [5] . وأما « شقرن » [6] ، فتعني أعلى الشيء وقمته ، كما في هذه الجملة : « عساى ما خذهمى يسرن بن موثرم عدى شقرن » [7] ، أي واستخدم الحجارة في مأخذ مائهم يسرن من الأساس الى القمة .

وقد سار الاسلاميون على نهج المهندسين الجاهليين في بناء بعض السدود . وهي قليلة جداً بالقياس الى السدود التي بناها العرب قبل الاسلام . ومن جملة السدود الإسلامية سدّ أقيم في موضع يبعد عن الطائف زهاء ستة أميال ، يقال له « سد

---

(١) Rhodokanakis, Stud., II, S. 118, f.

(٢) Mordtmann und Mittwoch, Saba. Inschr., S. 224, Num. 165, RW 155.

(٣) Rhoodokanakis, Sutd., II, S. 81, Glaser, Mitteilungen, S. 70.

(٤) Rep. Epi. Semi., tome, VII, II, P. 278, Num. 4626.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) كذلك .

(٧) كذلك : السطر الأول .

العياد » ، كتب عليه بالخط الكوفي المحفور على الحجر : « هذا سد عبدالله بن معاوية أمير المؤمنين . بناه عبد الله ابراهيم » . وكان ذلك سنة « ٥٨ » للهجرة . وقد أقيم بالحجارة وحدها ، فلم يضع مهندسه ، عبد الله ابراهيم ، مادةً ما من مواد البناء مثل الملاط أو الطين وما شـابه ذلك بين الحجارة لتثبيتها وضمها بعضها الى بعض حتى تماسك ، فتكون كأنها قطعة واحدة . وهي طريقة معروفة في اليمن ، استعملها المهندسون الجاهليون كما يظهر ذلك من فحص الخرائب العتيقة الباقية من الأبنية والسدود الجاهلية . ولا يزال هذا السد في حالة ممتازة يتحدث عن نفسه وعن عبقرية المهندس الذي أقامه في ذلك الزمن .

وقد شاهد « تويتشل » الذي كلفته الحكومة العربية السعودية دراسة السدود القديمة وأماكن المياه ، كما شاهد غيره هذا السد وجملة سدود جاهلية أخرى ، ووصفوها . فذكروا في تقاريرهم عن مشاريع المستقبل في الاستفادة من مياه الأمطار والنهيرات والعيون : أن من الممكن الاستفادة من بعض تلك السدود ، بعد اجراء بعض الاصلاحات والترميمات فيها . وأشادوا بمقدرة من شيدها وأقامها وبقابلياته الهندسية وبنبوغه الفنّي في اقامة تلك السدود بالرغم من ضعف القدرة الفنية وبدائية الأساليب التي استعملت في ذلك الزمن [١] .

وقد لاحظوا آثارَ مزارع وأشجار عند سفوح الأودية وفي أماكن أخرى ، كلها جاهلية ، يدل وجودها هنا على أنها كانت معمورة آهلة . ويظهر أن عناية سكان جزيرة العرب قد اتجهت في الاسلام بالفتوح نحو العالم الخارجي ، وأقصد به الأرضين المفتوحة التي دخلت في الاسلام ، ولاسيما بعد انتقال مركز الخلافة من الحجاز ، ونزوح القبائل

---

(١) تويتشل : المملكة العربية السعودية (ص ٥٠) .

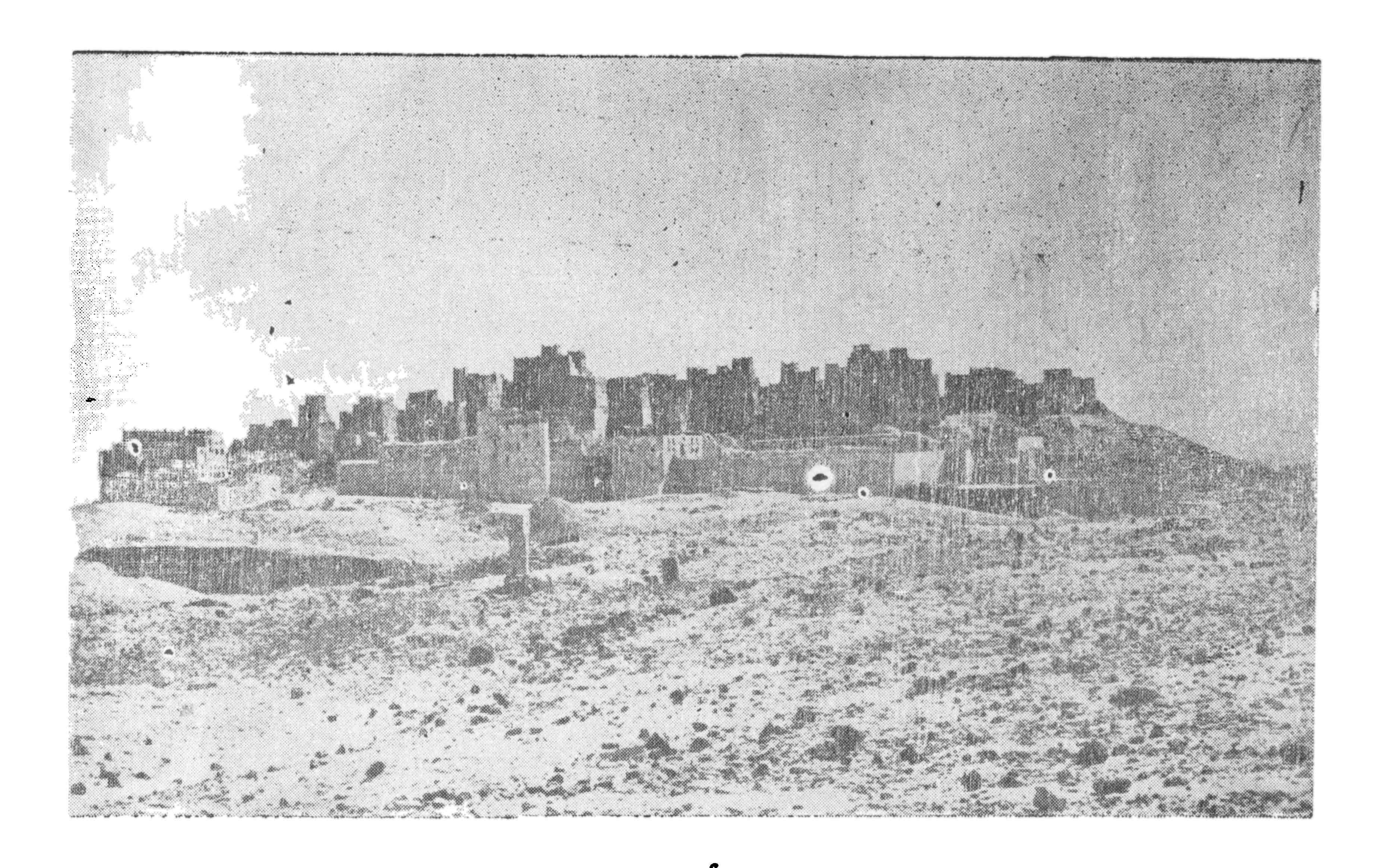
الى تلك الأرضين الخصبة ذات المياه الغزيرة والخيرات الكثيرة والربح الوافر ، فقلت العناية بجزيرة العرب ، حتى الحكومة التي يرجع أصل حكامها اليها لم تعد تفكر كثيراً فيها ، فأهملت السدود ، وقلت لديها الأيدي العاملة ، ولم تصرف الحكومة عليها شيئاً يمكن به اصلاح حالها ، لقلة غلتها وضعف واردها ، فأهملت أرضها وجف ما كان عليها ، واحتطبت أكثر غاباتها ولم يعد أحد يهتم بشأنها ، وتقلصت مساحات الأرض المزروعة حتى وصلت الى الحالة التي نراها عليها في هذا اليوم .

ويعد سدّ مأرب من أهم السدود التي اكتسبت شهرة عظيمة جداً في تاريخ اليمن وفي تأريخ جزيرة العرب حتى اليوم . وقد يكون لورود اسمه في القرآن الكريم دخل في ذلك . وقد بني هذا السد من أجل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التي تتدفق منها لوقاية المزارع والقرى منها ، وللاحتفاظ بهذه السيول للاستفادة منها إذا انقطعت الأمطار . وارواء مناطق واسعة من الأرضين ، جيدة التربة ، خصبة مثمرة . لكنّ بها حاجة شديدة الى الماء ، وما كان في الامكان انباتها لو لا السيطرة على السيول وإنشاء هذا السدّ .

ويرجع تأريخ إنشائه الى ما قبل الميلاد ، ففي تلك العصور فكر أهل اليمن في الاستفادة من مياه السيول بالسيطرة عليها لإرواء هذه الأرضين . وجدّ مهندسوهم في اختيار المكان الملائم والموضع المناسب ووضع تصاميم السدّ ، فاختاروا هذا الوادي المسمي بوادي « ذنة » ، وهو وادٍ تنحدر اليه السيول من الجبال والمرتفعات ، ومن الممكن إنشاء سدّ فيه ، يحجز السيل ويسيطر عليه ، ويحصره بين جدر صناعية وجدر طبيعية أوجدتها الطبيعة هي السفوح العالية لجبل « بلق » . ونجحوا في ذلك ، وظل السدّ قائماً الى أن تهدم قبيل الإسلام .

ويرى « كلاسر » أن عهده يتراوح ما بين السنة السبع مئة قبل الميلاد [١] .

(١) Ency of Islam III P 290



مأرب

من كتاب : Qataban and Sheba

(الصفحة ٢١٢)



جدار معبد المقه

ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدرانه بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها ، وآخرها هو اصلاح « أبرهة » له .

وتعود أقدم الكتابات الباقية الى أيام « المكربين » حكّام سبأ القدماء الذين كانوا يجمعون بين السلطتين الدينية والدنيوية ، وتأتي كتابة « سمه على ينف» مكرب سبأ على الرأس . ويظهر منها أن هذا المكرّب قد أقام « سد رحاب » ، وقد اشتغل به أبنه « يثع أمر بين » وقوّاه ، كما بنى سدّاً آخر عند « حبابض » ، ويقع في المنطقة الشمالية من سدّ مأرب [1] .

وكذلك أصلح الملك « شمر يهرعش » هذا السد إصلاحات أخرى . ورممه الملك « شرحبيل يعفر » في سنة (٤٤٩) للميلاد . ولكن المياه جرفت أقساماً منه في (سنة ٤٥٠) ، أي بعد سنة من الترميمات ، فاضطر الى اعادة إصلاحه وتقويته [2] . وكان آخر اصلاحاته التي ورد خبرها في كتابات المسند ، إصلاح « أبرهة » له سنة (٥٤٢ م) . ويظهر أن تصدعاً خطيراً أصابه بعد ذلك ، سبب انهياره ، فأغرق الماء الأرضين المنخفضة التي كانت ترتوي منه ، فكانت كارثة كبيرة على اليمن ، ردّد صداها القرآن الكريم [3] .

وأساس فكرة السدّ ، هو الاستفادة من مياه الأمطار في اليمن الغربية ، التي

---

(١) المصدر نفسه ، نزيه مؤيد العظم ، رحلة (٢/ ٩٠) .

(٢) Glaser 554, Ency. of Islam, III, P. 290.

(٣) Glaser Zwei Inschriften über den Dammbruch von marib, S. 13, ff, Reise nach marib, S. 16, 64 144.

تسيل من بلاد ذمار ويريم وجهران والحدي وخولان وبلاد مراد وقيفة وغيرها ، والتي تسيل في « ذنة » مع السيل المعروف بـ «القطوطة »، وهو سيل يأتي من الناحية الشمالية ، والسيل المسمي بـ « سيل الجوبة » ويأتي من الجنوب ، وذلك بالسيطرة عليها وحصرها في مكان منخفض تتجمع فيه السيول ، فتحاط بسدّ قوى في الجهات المفتوحة لحصر المياه [1] . وبذلك تستفيد الأرضون التي في جواره فائدتين : فترتوي أولاً من السيول إبّان انحباس المطر ، وذلك بفتح فتحات تجري منها المياه الى الأماكن المحتاجة اليه فترويها ، وتتخلص ثانياً من أخطار السيول الجارفة التي تكتسح كل ما يعترضها وتلحق الأذى بالأنفس والأموال والثمرات .

وقد أقام المهندسون في الجهة الضيقة التي يسيل منها الماء الى الجاري سداً قوياً له فتحات وأبواب تفتح وتغلق بحسب الحاجة ، لمرور الماء منها الى المسايل المتصلة بها لإرواء المزارع . وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور ، بلغ طولها مترين وربع المتر . وقد رصف بعضها فوق بعض رصفاً دقيقاً وربطت بينها مادة مسكت تلك الصخور حتى صارت كالسمنت ، ونحت بعض هذه الصخور ، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض ، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها ، فتكون كالمفتاح في القفل ، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط إرتباطاً وثيقاً ، وتكون كأنها صخرة واحدة [2] .

وقد أقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجها ، كما أنشؤوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على الجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن الى

---

(١) العظم (٢/ ٨٨) .

(٢) العظم (٢/ ٩٢) .



من بقايا سدّ مأرب

من كتاب : Qataban and Sheba

(الصفحة ٢٢١)

الماء . ولا يزال بعض جدر السدّ قائماً ، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية ، وهى تدل على مهارة مهندسي الرى في ذلك العهد وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان .

وقد استخدم مهندسو السد حجارةً اقتطعوها من الجبال ، ووصلوا بعضها ببعض بقضبان من الرصاص والنحاس ، ووضعوا بينها مادة من الملاط لتتماسك ، فتتحمل ضغط الماء عليها ، فلا تنهار أو يتسرب الماء من خلالها فتهوى بعد مدة . ولا تزال بعض هذه الحجارة متناثرة في مواضع متباعدة بانجرافها بالسيول . وقد استعمل الناس تلك الحجارة للبناء ولأغراض أخرى ، فأتوا على معظم معالم ذلك الأثر الهندسي العظيم ، الذي هو مفخرة من مفاخر تلك العهود (١) .

ويشاهَدُ اليوم في السقي الذي كان يروّيه سدّ مأرب مناطق رمل قاحلة لا نبت فيها ، والغرين الذي كان يحمله الماء ، كما تشاهد آثار مدن وقرى كثيرة منتشرة بين الرمال ، كانت مأهولة ، ثم خربت وبادت ، بانحسار الماء عنها ، وبعوامل أخرى . وقد كست بعض هذا الخرائب طبقات سميكة من الرمال . وفي باطن هذه الخرائب المطمورة آثار قيمة ولا شك ، قد يظفر فيها بوثائق مهمة توضح صفحات مجهولة من تأريخ الجاهليين .

ولم ينفرد أهل اليمن وحدهم بصنع السدود وإقامة الأحباس للاستفادة من المياه . ففي كتب اللغة ألفاظ عديدة أوردوها للدلالة على السدود والأحباس ، كالذي ذكروه من معنى « المصنعة » أنه الموضع يتخذ ويحتفر فيه بركة يحتبس فيها الماء . وذكروا أيضاً أنها بناء أي محل يحتمي به كما ورد ذلك في المسند . و « الصهاريج » وهى كالحياض

(١) أحمد فخري : اليمن (١٣١ وما بعدها) .

يجتمع فيها الماء ومفردها « الصهريج » ، و « الصهري » في لغة بني تميم .

و « الصاروج » مادة يطلى بها مثل جدران البرك والجدران عامة وغير ذلك . و « المسطح » الصفاة يحاط عليها بالحجارة فيجتمع فيها الماء ، وهى « الحوية » . و « المزالف » كالمصانع. وكذلك « الحبس » وجمعه « المحابس » ، وهو الماء المستنقع ، أو حجارة تبنى على مجرى الماء ليحتبس الماء ، فيشرب منه القوم ، ويسقوا مواشيهم. و « العرمة » سدّ يعترض به الوادي ليحتبس به الماء . و « النحيزة » المسناة في الأرض ، وهي سهلة . و « الرجيع » محبس الماء . و « الخرنق » مصنعة الماء . و « القرو » شبه الحوض [1] . و « الردم » السدّ . وأما الصناعة والصنع ، فخشبة يحبس بها الماء . والرصف ، السدّ المبني للماء[2] .

ويعبر في لهجة أهل الحجاز بلفظة « سكر » و « سكر الأنهار » عن سدّ الماء وحبسه ، وذلك لضبط الماء ، فلا يتسرب الى المزرعة أو الى مكان ما فيغرقه ، أو لحبس الماء للاستفادة منه في الإسقاء [3] . وقد يكون السكر ثابتاً دائماً ، مبنياً ، له فتحات تغلق وتفتح وقت الحاجة اليه ، وقد تكون مؤقتة تزال وتسد بحسب الحاجة ، وتكون هذه في السواقي والنهيرات . وتؤدي لفظة « حبس الماء » معنى سدّه ومنعه من السيلان والجري ، وذلك بواسطة السكر والحاجز المقام .

ونرى من هذه الألفاظ أن العرب الشماليين كانوا يستعملون السدود والأحباس ، أي الوسائل الفنية ، للاستفادة من مياه الأمطار والعيون والمجاري ، وللسيطرة عليها ، وأنهم كانوا يقيمونها بطرق مختلفة بحسب حاجتهم وظروف المكان الذي فيه الماء . وقد

---

(١) المخصص (١٠/ ٥٢ وما بعدها) .

(٢) المخصص (٩/ ١٥٣) .

(٣) عمدة القارى (١١/ ٢٠٠ وما بعدها) ، « باب سكر الأنهار » ، شرح القاموس (٣/ ٢٧٤) .

عثر السياح على آثار سدود قديمة من أزمان ما قبل الإسلام ، في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وآثار صهاريج ومحابس للماء تشير كلها الى عمارة المكان الذي توجد فيه والى وجود الماء فيه قبل الإسلام .

ويعبر عن تفجير المياه وكسر بثقها بألفاظ خاصة ذكرها علماء اللغة ، منها : فجر الماء ، ودعقه دعقا ، ومنها البعثقة وهي خروج الماء من غائل حوض أو خابية ، وقد تبعثق منه اذا انكسرت منه ناحية ففاض . ومنها البثق كسر شط النهر ، لينبعث ماؤه ، واسم ذلك الموضع البثق . ومنها الحوالة وهي تحويل ماء من نهر الى نهر[1].

وقد كان نضوب الماء من الآبار والغدران ومواضع الماء الأخرى من المشكلات التي جابهت الجاهليين . ومن المشكلات التي ما برح سكان جزيرة العرب يواجهونها اليوم أن بعض الآبار يغور ماؤها ، فيضطر الناس الى ترك أماكنهم ، أو قد يتبدل طعم الماء ، فلا يكون مستساغاً للشرب ولا مجدياً في الزراعة . وحفر الآبار في مواضع متقاربة يؤدي الى انخفاض مستوى الماء أو نضوبه في كثير من الأحيان . وقد أدى اهمال الناس للآبار الى تراكم الأتربة فيها ، وانهيار جدرانها ، ونضوب الماء منها ، وارتحال الناس عنها . وفي مواضع من جزيرة العرب آثار آبار جاهلية مهملة ، سبب اهمال الناس لها امتلاءها بالأتربة ونضوب الماء منها . وهي آبار بعضها عميق جداً ، يتعجب الانسان من كيفية تمكن الناس في ذلك العهد من حفر هذه الآبار ونزولهم الى تلك الأعماق التي يبلغ عشرات الأمتار في بعض الأحيان .

ويوزع الماء في الحجاز وفي اليمن بالنصيب ، بأن تعين أوقات تفتح فيها المياه على مزرعة ما ، فاذا انتهى الوقت سدّ الماء ، وحُوّل الى مزرعة أخرى ، ويكون ذلك

---

(١) المخصص (٩/١٥٣ وما بعدها) .

في توزيع مياه العيون والشرائج والاربعاء والنهيرات ، وذلك لقلة الماء وعدم كفايته في اسقاء المزارع كلها دفعة واحدة ، فيوزع بالحصص ، في أوقات تثبت وتعين . وقد تقع الخصومات من جراء التجاوز وعدم التقيد بضبط الأوقات ، كما يحدث مثله في أيامنا في كثير من الأماكن الزراعية . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة هذا النزاع . ويقال للنصيب من السقي « سِقْيٌ » ، وللارض التي تسقى سِقْي لكونهما مفعولين (١) .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني (٢٣٥) ، (طبع المطبعة الميمنية) .

الفصل السادس

التوقيت والمطاييل والموازين

وقد اهتم الجاهليون بأمر التوقيت ، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة ، لعوامل عديدة . فالزراعة خاضعة لتقلبات الجوّ وتبدل المواسم ، والأعياد وكثير من الشعائر الدينية وأمور العبادة لها علاقة بالتوقيت كذلك ، كما أن للتجارة وللسير في البرّ وفي البحر صلة كبيرة بمعرفة الأنواء . ولهذا ، عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وظواهر الطبيعة التي لها علاقة بالرياح والأمطار وبأمثال ذلك للاستفادة منها في الحياة العملية .

ويحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن حاجة الأعرابي الى معرفة حال السماء وتقلبات الجو فيقول : « عرفوا الآثار في الأرض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة ، مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤدّيه . ولحاجته الى الغيث ، وفراره من الجدب وضنه بالحياة ، اضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً »[1] .

---

(١) مقدمة كتاب الانواء في مواسم العرب ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، سنة ١٩٥٦ (ص١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : كتاب الأنواء .

وفي هذا ، وفي غيره تفسير لسبب اهتمام الجاهليين بالتوقيت ودراسة الأنواء .

وقد اعتبر القدماء أمر التوقيت من واجبات رجال الدين ، فكان رجال المعابد والكهان هم الذين يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة . ظلوا على ذلك أمداً طويلاً ، ولا تزال آثار ذلك باقيـة حتى اليوم . وكان هؤلاء الرجال قد احتكروا المعرفة والعلم لاعتقاد الناس أنهم أقرب البشر الى الآلهة ، وأن ما يتكلمون به إنما هو وحي منها ، يوحي الى هؤلاء ، فعلمهم اذن نابع من مصدر صادق لايتطرق اليه الشك .

وإذا كانت كتابات المسند لم تتحدث عن الموقتين ضباط الزمن في العربية الجنوبية ، فإننا لا نعتقد بشذوذ العرب الجنوبيين عن غيرهم في هذا الباب ، خاصة وأننا نرى أن الكهان وسدنة الكعبة ومن لهم صلة بالأصنام ، كانوا هم الذين يقومون في الحجاز بضبط المواقيت والنسيء ، فليس بمستبعد أن يختص رجال الدين في اليمن بالتوقيت .

فقد ذكر أهل الأخبار أن هناك أشخاصاً اختصوا بالنسيء . وللنسيء علاقة كبيرة عند الجاهليين بالأشهر الحرم وبالحج ، ومعنى هذا أن الموقتين المثبتين للنسيء كانوا هم الذين يعينون المواسم الدينية ، أي أن لهم صلة بالدين ، ولعلهم كانوا من الكهان ، ومن المشرفين على البيت الحرام .

ومعارفنا بالأنواء والتوقيت عند الجاهليين قليلة ضحلة . وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب (١) . ولم يصل الينا شيء منها في نصوص المسند . غير أن ما نجده في بعض المؤلفات الاسلامية على قلته وضآلته يدل على أن الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودراية بالأنواء وبالتوقيت ، وأنهم كانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق أو أهل بلاد الشأم . ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم

---

(١) المخصص (٩/ ١٢ وما بعدها) .

اليونان واللاتين بالأنواء .

وعدم وصول شيء — في كتابات المسند — من علم النجوم والأنواء وما يتعلق بعلم الفلك ، لايمكن أن يكون دليلاً بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوبية الجاهليين بالفلك ، ولا يعقل ألاّ يكون لهم علم به . فقد كان العرب الجنوبيون أصحاب زراعة وتجارة ، وكانوا يركبون البحر ، وكان لهم حكم قبل الاسلام بأمد طويل في مملكة « اكسوم » كما سبق أن تحدثت عن ذلك ، كما كان لهم اتصال مستمر بافريقية . وركوب البحر يحتاج الى علم بالنجوم وبتقلبات الجوّ كما كانت ديانتهم تقوم على أساس تقديس النجوم . ولهذه الملاحظات لابد أن يكون لأهل اليمن وغيرهم من أهل العربية الجنوبية علم بالأنواء . وقد يعثر في يوم ما على نصوص مدونة بلهجاتهم فيها شيء ما من أمر هذا العلم .

وفي القرآن الكريم آيات تدل دلالة صريحة واضحة على علم الجاهليين بالأنواء . ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأخبار والتواريخ ما يفيد ذلك ، كالمروي عنهم من تثبيت أسماء للنجوم وللبروج ومن تقسيم السنة الى شهور وأسابيع وأيام ، وتفريقهم بين السنين الشمسية والسنين القمرية ، واستعمالهم الكبس لتثبيت الوقت وغير ذلك مما لا يمكن وقوعه عند قوم ليس لهم علم ومعرفة بعلم الأنواء .

ويتبين من كتب الحديث أن الجاهليين كانوا يعتقدون بتأثير الكواكب والنجوم على حياة الانسان ، فاعتقدوا أن الكواكب هي التي تنشىء السحاب وترسل المطر ، وأن لها أثراً كبيراً في الانتاج ، في الزرع ، وفي نتاج الحيوان وغير ذلك . والظاهر أن تطرفهم في هذا القول ، ونسبتهم هذه الأمور الى الكواكب ، مما يتعارض والتوحيد ، هو الذي حمل الرسول على ابطال ذلك . فورد ابطال الأنواء في كتب الحديث وفي كتب التفسير . وقد نص على ابطال الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء ،

وهي ثلاث من أمور الجاهلية [١] .

واعتقاد راسخ مثل هذا في الكواكب والنجوم ، لا بد أن يحمل الجاهليين على تتبع ما ورد عند الأمم الأخرى من علم الأنواء ، للاستفادة منه في حياتهم العملية ، وقد عاش بينهم عدد كبير من اليهود ، ولهؤلاء علم أيضاً بالأنواء ولهم اهتمام بهذا العلم ، لما له من علاقة بشؤونهم الدينية . ثم كان بينهم نصارى وقفوا على هذا العلم أيضاً ، وكان هؤلاء قد هضموا علم الشرقيين به وطعموا علمهم وعلم الشرقيين بما ورد في كتب اليونان واللاتين من علم به . وقد دخل بعض الجاهليين في النصرانية بتأثير المبشرين فيهم وبهجرة بعض النصارى الى بلادهم وباحتكاكهم بنصارى العراق وبلاد الشأم .

ولعلماء اللغة والفلك آراء في معنى « النوء » ، وفي مراد الجاهليين من اللفظة [٢] . وهي تفاسير طويلة ، يخرجنا ايرادها هنا عن الموضوع . ومهما يكن من شيء ، فإن فيها دلالة واحدة مهمة بالنسبة الى بحثنا هذا ، هي أن الجاهليين كانوا قد استعملوها في معنى خاص بالأجرام السماوية في ذلك العهد . وقد ألفت في الاسلام جملة كتب سميت « بالأنواء » .

وقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البرّ والبحر . وقد أشير الى ذلك في سورة الأنعام (٩٧) : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » . ولا بد للاهتداء بها من الوقوف عليها ، ووضع أسماء لها ، وتعيين البارز منها ، ووضع معالم لها ، ليكون في الامكان معرفتها ومعرفة اتجاهات السير بها ، والاستعانة بها وبالجهات الأربع في معرفة الاتجاه المؤدي الى المكان المراد .

---

(١) كتاب الأنواء ، (ص ١٣ وما بعدها) .

(٢) المخصص (٩/١٣ وما بعدها) ، شرح القاموس (١/١٢٩) .

وسماء صافية واضحة تتلألأ الكواكب والنجوم فيها تلألؤاً مستمراً ، تناجي الناس ، وتتحدث اليهم عن جمال هذا الكون وعظمته وسحره ، لا بد أن تكون مرشدة هادية ، تهدي الناس في جزيرة العرب وفي غيرها الى الطرق والاتجاهات ، والى الأماكن التي يقصدونها برصد الكواكب ومراقبة مواضع النجوم وأماكنها لمعرفة الاتجاهات والوصول من ثم الى الأماكن المقصودة .

وفي الشعر الجاهلي أبيات تشير الى أهتداء الناس في سيرهم بالنجوم ، فورد في شعر لسلامة بن جندل في المسير ليلاً :

ونحن نعشو لكم تحت المصابيح

ويقصد بالمصابيح الكواكب [1] .

وقد سار العرب أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء الى « بروج » . وقد أشير الى البروج في القرآن الكريم ، في سورة الحجر (١٦) : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً » وفي سورة البروج : « والسماء ذات البروج » . وقد قسم اليونان واللاتين السماء الى « بروج » . وعرف كل برج منها عندهم بلفظة « Burgus » . ومن هذا الأصل أخذت لفظة « البرج » و « البروج » على رأي المستشرقين . أخذت إما من اللاتينية مباشرة ، وإما من « السريانية » بالواسطة [2] ، وذلك قبل الإسلام بامد ، فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل ، مثل الفاظ أخرى دخلت العربية من أصل يوناني ولاتيني قبل الإسلام بسنين .

---

(١) كتاب الأنواء (ص ١٨٦) .

(٢) كتاب صور الكواكب الثمانيه والاربعين ، تأليف عبد الرحمان بن عمر الرازي المعروف بالصوفي (٣٧٦ هـ) ، المطبعة العثمانية ١٩٥٤ ، كتاب الأنواء (الصفحة ط) ، المخصص (٩/١٢) ، Ency. Islam, P. 796, Fränkel, Die Aramaischen Fremdwörter in Arab. S. 235

ويرى « نالينو » ، أن ما ورد في القرآن الكريم عن « البروج » ، وكذلك ما ورد في الخطبة المنسوبة الى قسّ بن ساعدة الإيادي من قوله : « وسماء ذات أبراج » لا يعني بالضرورة وقوف الجاهليين على « البروج الاثني عشر » ، وأخذهم بهذه النظرية الفلكية ، وذلك لأمور ذكرها ، وحجج أوردها . وفي جملتها أن أسماء كل البروج ، ما عدا الجوزاء ، مترجمة من أسمائها اليونانية والسريانية . ثم ان هذه البروج، لم تكن ذات فائدة عملية للجاهليين ، ولهذا لا يحتمل اهتمامهم بها ، وأخذهم بها ، ولا سيما أن معارفهم الفلكية لم تكن واسعة عميقة . ولهذا ذهب الى أن ما ورد في القرآن عن البروج ، لا يراد به الصور المعروفة الموجودة عند اليونانيين والتي وقف عليها العرب في عصور الترجمة ، وإنما هي مجرد نجوم . وقد استشهد ببعض مقتطفات من كتب التفسير ، في تفسير لفظة « البروج » [١] .

ولكن عدم ورود لفظة « البروج » في الشعر الجاهلي وفي أخبار الجاهليين ، وشك « نالينو » في صحة خطبة قس بن ساعدة ، وأخذه بما ذكره بعض المفسرين عن لفظة البروج ، لا يمكن أن يكون دليلاً مقنعاً على عدم معرفة الجاهليين بالبروج الاثني عشر وبالنظريات الفلكية الأخرى . فقد ذهب هو وغيره الى أن لفظة البروج هي من الألفاظ المعربة عن اليونانية كما ذكرت ، وقد عربت واستخدمها الجاهليون . وتعريب هذه اللفظة هو في حدّ ذاته دليل على معرفة الجاهليين بالبروج عند اليونان . وقد وقفوا عليها مباشرة وبالواسطة عن طريق السريان . وعند قولنا الجاهليين ، لا نقصد بالطبع الجاهليين عموماً ، جهلة ومثقفين ، أعراباً وعرباً ، فمثل هذا لا يمكن أن يقع في أي مكان من الأرض في هذا اليوم وحتى بعد هذا اليوم ، فالمعرفة العلمية لا يقبل عليها ولا يقف عليها الا الدارسون والمتتبعون والاختصاصيون . وهم أقلية

(١) نالينو (ص ١٠٨ وما بعدها) .

في كل زمان ومكان . فلا مانع من أن يكون بين الجاهليين نفر وقفوا على علم الفلك عند اليونان وعند غير اليونان ، كان لهم علم بما كان لديهم من آراء في هذا العلم ، خاصة وقد كان في الحجاز وفي اليمن نفر من أهل الكتاب يقرأون كتباً عبرانية وسريانية ورومية . وكان للنصارى رجال دين ومبشرون سكنوا في نواحي متعددة من جزيرة العرب منهم عرب ومنهم من ورد من العراق ومن بلاد الشأم ومنهم من كان من أصل غير عربي . وقد وقفوا على مختلف نواحي الثقافة المعروفة في ذلك العهد. وقد كانت بهم حاجة الى علم الفلك ، لأمور تختص بالكنيسة وبالديانة ولحاجتهم وحاجة الناس اليه . فلا يعقل اذن ، ألا يكون في جزيرة العرب في أيام الجاهلية أناس قد تعاطوا هذا العلم وخبروه ومارسوه . ثم ان خلو الشعر الجاهلي من الاشارة الى البروج ومن أمور أخرى تتعلق بالفلك والأنواء لا يكون دليلاً على عدم معرفة الجاهليين بالفلك ، فلم يكن الشعراء علماء فلك ، وأصحاب علم ، حتى يتعرضوا للبحوث العلمية في أشعارهم ، ولم يكن يخطر على بالهم أن شعرهم هذا سيكون مرجعاً للعلماء يستخرجون منه مادتهم في الوقوف على العلم عند الجاهليين . وحتى انهم لو علموه ، لما ذكروه حتماً ، لأن الشاعر لا يذكر في شعره إلا الأمور التي تثير فيه حساً ، وأي حس يثيره فيه الفلك أو غيره من العلوم .

وذهب بعض العلماء الى أن العرب قد اقتبسوا نظريتهم في منازل القمر ، من الهند ، من اتصالهم بالفرس . وقد كان ذلك قبل الاسلام أيضاً [١] . وقد أشير الى هذه المنازل في القرآن الكريم ، في سورة يونس (٥) : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً . وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب » . وفي سورة يس(٣٩) :

---

(١) كتاب الأنواء : المقدمة (الصفحة ط وما بعدها) .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . وفي هاتين الآيتين دلالة على علم الجاهليين بالمنازل ، وعلى استفادتهم منها في حسابهم عدد السنين وفي حساباتهم الأخرى [1]. وعدة منازل القمر ثمان وعشرون منزلاً . ويلاحظ أن اليونان كانوا قد وضعوا منازل أيضاً للقمر وللشمس وللكواكب الخمسة ، ووضعوا لها حدوداً تعرف عندهم بـ « Termini, fines » ، ومنازل أو بيوتاً وتسمى عندهم بـ « domus, domicilia » [2].

وقد تصور الجاهليون وجود « ساهور » للقمر ، اذا دخل فيه خسف . وهو كالغلاف للقمر ، وهو الغاسق اذا وقب . وقد أشير اليه في شعر أمية بن أبي الصلت . ويراد بالغسق السواد . وقد ورد في الحديث أن الرسول قال لعائشة : « تعوّذي بالله من هذا ، فإنه الغاسق اذا وقب » ، يريد أنه يسودّ اذا خسف [3] .

وتشاهد حول القمر دارة ، عرفت بـ « الهالة » . ويقال : القمر الليلة في الهالة . ويقال للقمر : الزبرقان والأزهر والشهر والساهور أيضاً [4] . وهنالك ألفاظ عديدة مدونة في كتب اللغة ، لها علاقة بالقمر ، به وبضيائه وبطلوعه وغيابه وغير ذلك . يظهر من دراستها أن الجاهليين كانوا ينظرون الى القمر نظرتهم الى كائن حي . وهي نظرة لم ينفرد بها الجاهليون وحدهم ، بل شاركهم فيها كثير من الشعوب الأخرى سامية وغير سامية ، وهي التي أوحت الى بعض الجاهليين وغيرهم من غير العرب بعبادة القمر واتخاذه إلـٰهاً يتقرب اليه .

---

(١) المخصص (٩/٩ وما بعدها) .

(٢) Ency. of Islam, , P. 495

(٣) الأنواء (ص ١٣٥) .

(٤) بلوغ الأرب (٢/٢٢٧) .

وللعرب أسجاع في مقدار طلوع القمر من أول الشهر الى عشر ليال تخلو منه ، ويسمونه هلالا الى الليلة الثالثة ، ثم يسمونه قمراً . فاذا كانت الليلة الرابعة عشرة دعوه بدراً ، وفيها يكون تاماً ، ويكون في آخر الشهر في المحاق ، لانمحاق القمر فيه [1] .

وقد كان قدماء العبرانيين يعبدون القمر ، وورد النهي عن هـذه العبادة في التوراة [2] . وقد كان اليهود يوقدون له ويعبدونه [3] ، والنساء يصنعن كعكاً له [4] ، ويسمونه ملكة السماوات [5] . كما كانوا يعبدون الشمس وبقية الأجرام السماوية ، كما يتضح ذلك من المواضع المشار اليها في التوراة .

وقد تعبد بعض الجاهليين للشمس ، وسجدوا لها . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن » . وقد دعوها « إلاهة » . ولهذا نُهي عن الصلاة اذا تضيّفت الشمس للغروب [6] ، وذلك جبّاً لعمل الجاهليين الذين كانوا يسجدون لها عند الغروب ، وعند الشروق .

وفي كتب اللغة جملة ألفاظ ، قيل إن العرب أطلقتها على الشمس ، منها : ذُكاء ، والضح ، والجُونة ، والغزالة ، والجارية ، والسراج ، والبيضاء ، وبوح ، وبراح ، ومهاة ، والشّرق . ولكنهم لا يقولون : غاب الشرق وطلع الشرق ، وغابت الغزالة وطلعت الغزالة . وعرفت الشمس أيضاً بـ « إلاهة » [7] ، وفي هذه اللفظة دلالة

---

(١) الأنواء (ص ١٢١ وما بعدها) .

(٢) التثنية : الاصحاح الرابع ، الآية ١٩ ، والاصحاح ١٧ ، الآية ٣ .

(٣) الملوك الثاني : الاصحاح ٢٣ ، الآية ٥ ، وارمياء : الاصحاح الثامن ، الآية ٢ .

(٤) إرمياء : الاصحاح السابع ، الآية ١٨ ، و ٤٤ ، الآية ١٧ وما بعدها .

(٥) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٢) .

(٦) المخصص (٩/ ٢٣ وما بعدها) .

(٧) بلوغ الأرب (٣/ ٢٢٤) .

على التأليه .

وفي القرآن آية تشير الى وجود مشرقين ومغربين : « ربّ المشرقين وربّ المغربين»[١]، وآية تشير الى وجود مشارق ومغارب : « ربّ المشارق والمغارب»[٢]. فأما المشرقان : فمشرقا الصيف والشتاء . فمشرق الشتاء مطلع الشمس في أقصر يوم من السنة ، ومشرق الصيف مطلع الشمس في أطول يوم في السنة . وأما المغربان : فمغربا الشتاء والصيف ، وأما المشارق والمغارب ، فمشارق الأيام ومغاربها في جميع السنة بين هذين المشرقين والمغربين[٣] .

وقد تصور الجاهليون وجود أفلاك للأجرام السماوية تسبح فيها فيسير كل جرم في حدود فلكه المرسوم له ، لا يسبق جرم جرماً آخر ، ولا يتدخل في فلكه . ونجد هذا الرأي مذكوراً في سورتين من القرآن الكريم[٤] . وفكرة وجود فلك للكوكب ، فكرة قديمة وجدت عند البابليين وعند غيرهم مثل اليونان . ويرى المستشرقون أن لفظة « الفلك » نفسها هي من أصل بابلي ، هو « Pulukku »[٥] . ونظرية وجود أفلاك للأجرام السماوية تسير فيها بصور منتظمة مرسومة ، فلا يسبق بعضها بعضاً ، ولا تتزاحم على المدارات ، نظرية مهمة جداً ، تشير الى أن الجاهليين كانوا يتصورون أن للكون نظاماً محكم الترتيب ، وأن الأجرام السماوية ليست أجراماً هائمة بغير نظام ولا ترتيب ، بل هي تسير بحركات منتظمة في أفلاك خاصة

(١) الرحمن الآية ١٧ .
(٢) المعارج ، الآية ٤٠ .
(٣) الأنواء (ص ١٤١) ، بلوغ لأرب (٣/٢٢٥) .
(٤) سورة يس الآية ٤٠ ، وسورة الأنبياء الآية ٣٣ .
(٥) نلينو : علم الفلك عند العرب (ص ١٠٥ وما بعدها) .

مرسومة .

ويرى نلينو أن الجاهليين كانوا يسمون سماء كل كوكب فلكه ، وأنهم كانوا كغيرهم من الشعوب القديمة ، مثل البابليين واليونان والسريان ، يعتقدون وجود سبع سماوات ، وهي عبارة عن طبقات سبع . وقد أشير الى هذا النظام في القرآن الكريم . « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا » [1]، و « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » [2] وقد كان البابليون يطلقون على الطبقات هذه لفظة « تُبُقاتِ » « Tupugati » . أي طبقات ، وهي من أصل واحد يرجع اليه الاصطلاح العربي [3] .

وقد ميز الجاهليون بين الأجرام السماوية فقسموها الى نجوم وكواكب . وقد وردت لفظة « النجم » ولفظة «النجوم» في القرآن الكريم . فورد مثلاً : « والنجم إذا هوى » ، و « والقمر والنجوم » و « النجم الثاقب » ، و « فلا أقسم بمواقع النجوم » . و « فنظر نظرة في النجوم » ، وفي مواضع أخرى منه ، كما وردت فيه لفظة « كوكب » و « الكواكب » في هذه الآيات : « كأنها كوكب دري » و « رأيت أحد عشر كوكباً » و « إذا الكواكب انتثرت» و « بزينة الكواكب » . وفي هذه الآيات دلالة على أن الجاهليين كانوا يفرقون بين النجوم والكواكب ، ويميزون بين هذين النوعين من الأجرام السماوية .

وقد وردت في الآثار الإسلامية أسماء عدد كبير من النجوم ، ترجع تسميتها الى أصل جاهلي ، مثل العيوق والثريا والفرقدين والدبران والسماكين والشعرى وسهيل

---

(١) سورة نوح الآية ١٤ ، تفسير روح المعاني ، للألوسي ، (١/٢١٢) .

(٢) المؤمنون الآية ١٧ وآيات أخرى .

(٣) نالينو (الصفحة ١٠٥ وما بعدها) .

وغير ذلك ، وكلها نجوم ثابتة لا تتحرك ، تمكن الاستفادة منها في تعيين الاتجهات والاهتداء بها في تعيين الجهات [١] . وتسهل معرفة عددها عند الجاهليين بالرجوع الى الشعر الجاهلي والى كتب الحديث واللغة والأدب وغيرها . ومن المستحسن مقارنة هذه الأسماء بالأسماء المماثلة عند الشعوب السامية ، لمعرفة أصول ومقدار الصلات في علم الفلك عند الساميين ودرجة تأثرهم بعضهم ببعض .

ومن الكواكب التي ورد اسمها في القرآن الكريم « الشِعْرَى » . وورود اسمها فيه ، دليل على معرفة الجاهليين بهذا الكوكب ، أو الكوكبين على بعض روايات أهل الأخبار . وقد كانت « خزاعة » تتعبد للشعرى . وأول من سنّ ذلك لهم ، أبو كبشة ، وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف [٢] .

ولم يرد في نص جاهلي اسم الكواكب الخمسة ، كذلك لم نعثر على أسمائها في الشعر الجاهلي . غير أن نالينو يرى أن الأسماء المذكورة لها والمعروفة عند الاسلاميين ، تشير الى أنها كانت معروفة عند الجاهليين، وأن عُطارِدَ مثلاً ، وهو أحد الكواكب الخمسة الثابتة ، كان معبوداً معروفاً عند تميم [٣] .

وقد وردت لفظة « الخُنَّس » في القرآن الكريم [٤] ، وذهب العلماء الى أنها الكواكب الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمرّيخ ، وعُطارد ، والزُّهَرَةُ [٥] .

وفي كتب اللغة والأدب والأنواء أسجاع كثيرة وأمثال رويت على ألسنة العرب ،

---

(١) الأنواء (ص ١٢٦ وما بعده) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٢٢٢) .

(٣) نالينو (ص ١٠٦) .

(٤) سورة التكوير (٨١/١٥ وما بعدها) .

(٥) الأنواء (ص ١٢٦ وما بعدها) .

لها علاقة بالمطر وبالنوء وبتبدل الهواء والمواسم والشهور. وقد وردت فيها أسماء كواكب ونجوم، لا شك في أصلها العربي. يظهر من دراستها وفحصها أنها نتائج تجارب وملاحظات ومشاهدات، وأنها مأخوذة من ظهور وغياب الكواكب والنجوم ومن أنوائها في فصول السنة المعروفة في جزيرة العرب. وهي تمثل لنا علم الجاهليين الخالص في الفلك ونتائج ملاحظاتهم وتجاربهم فيه. وأكثر ما ورد هو مما يخص الحياة العملية للأعراب، مثل نزول الغيث وظهور الكلأ، وحلول البرد والجفاف، وتأثير هذه العوارض في الزرع والحيوان.

وقد عرف الجاهليون الشهب، وواحدها شهاب، وأشير اليها في القرآن الكريم[1].

وقد كان بعض الجاهليين يستدلون من تساقط النجوم على توقع حدوث شيء عظيم مثل موت رجل كبير، أو حدوث حادث خطير، مثل وقوع حرب أو حدوث فتنة أو ولادة رجل عظيم. وهو اعتقاد كان معروفاً عند غيرهم أيضاً. وقد كانت النجوم الساقطة مادة مهمة عند الكهان يستدلون بها في كهانتهم. وممن كان يعتقد بتساقط النجوم من العرب « جنب » من بني مَذْحِج من اليمن وأهل مكة والمدينة[2].

ومن أسماء السماء الجرباء والخلقاء. وكانوا يسمون السماء الدنيا الرقيع، والسماء الثالثة الصاقورة والحاقورة، والسماء الرابعة الخضراء، ويقولون لما ولينا منها: بطن السماء، وظهر السماء لما يخلفه. والهواء الفتق بين السماء والأرض، وهو السُكاك والسُكاكة واللوح. وعنان السماء ما عنّ منها اذا نظر اليها، ولونها العوهق، ومجرة

---

(١) الحجر، الآية ١٨ ومواضع أخرى.

(٢) « كنا نقول اذا رأيناه: يموت عظيم، أو يولد عظيم »، « عن نفر من الأنصار: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به؟ قالوا: يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها: مات ملك، ملك ملك، ولد مولود، مات مولود »، الروض الأنف (١/١٣٦).

السماء كأثر المجر فيها يسمونها أم النجوم [1] .

وكان بعض الجاهليين يثبتون العرش والكرسي للسماء [2] ، حملهم على ذلك الاعتقاد الشائع عند أكثر الناس يومئذ من أن الآلهة كلها أو بعضها في السماء . وإذ كانت كلها أو بعضها هناك ، فلا بد لها من عرش وكرسي ، فتصوروا وجودهما في السماء .

والجهات الأربع معروفة لدى الجاهليين ، وعلى هديها يسيرون في الليل والنهار . ولهذه الجهات نسبوا أمهات الرياح وهي معاظمها ، وهي أربع : الشمأل ، والجنوب ، والصبا ، والدبور . فالشمأل تأتي من ناحية القطب الأعلى أي الشمال ، والجنوب تأتي من ناحية القطب الأسفل ، والصَّبا تأتي من وسط المشرقين ، والدبور تأتي من وسط المغربين . وقد ذكر الأصمعي أن الشمأل تأتي من قِبَلَ الحجر ، والجنوب تقابلها ، والصبا تأتي من تلقاء الكعبة ، يريد أنها تستقبلها اذا هبت ، ويقال لها أيضاً القبول . والدبور تأتي من دبر الكعبة . وكل ريح من هذه انحرفت فوقعت بين ريحين ، فهي نكباء . والعرب تسمي الشمأل شامية ، لأنها تأتي من ناحية الشام ، والجنوب يمانية ، لأنها تأتي من اليمن ، والصبا شرقية لأنها تأتي من مطلع الشمس [3] .

وتلقح الرياح السحاب ، فيجود بالمطر ، وقد ذهب بعض العرب الى أن السحاب نفسه هو لقاح للرياح ، لأنها تنشيء السحاب وتقلبه وتصرفه وتحله . وفي القرآن الكريم : « وأرسلنا الرياح لواقح » [4] .

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٢٢٤) ، والسماء كل ما علاك من سقف ونحوه » ، تفسير روح المعاني ، (١/١٧٠ وما بعدها) ، كتاب الازمنة والامكنة ، للمرزوقي ٢/٢ وما بعدها) . وسيكون رمزه : المرزوقي .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٢٢٤) .

(٣) الأنواء (١٥٨ وما بعدها) ، المرزوقي (٢/٧٤) .

(٤) الحجر (١٥/٢٢) .

وقد دعوا الجنوب لاقحاً ، لأنها تلقح السحاب ، ويطلقون على الشمأل الحائل ، لأنها لا تنشيء سحاباً ، وسمّوها عقيماً ، لأنها لا تنتج مطراً . وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشيء السحاب ، وتستدرّه ، وتصف بواقي الرياح بقلة المطر وبالهبوب في سني الجدب . وقد ذكروا أن الشمأل تقشع السحاب ، وتسميها « هذيل » لذلك « محوة » لأنها تمحو السحاب [1] .

وقد بنى العرب حكمهم هذا في الرياح من حيث وجود المطر فيه وعدمه على موقع بلادهم من البحر . فالرياح المتجهة اليهم من الشمال تأتيهم باردة جافة لا تحمل مطراً ، ولذلك فهي غير مفيدة لأهل الحجاز ، بخيلة عليهم شحيحة ، ولذلك جعلوها علامة للشح والبرد فتشاءموا منها . وأما الرياح القادمة اليهم من الجنوب ، فانها تكون محملة بالسحب الآتية من المحيط وتتساقط عليهم مطراً يغيثهم وينفعهم ، فتيمنوا بها ، وجعلوها علامة للخير وللعيش السعيد .

أما الشمأل ، فتجلب المطر لأهل العراق على عكس الجنوب التي تهب عليهم حارة جافة ، فلا تنفعهم شيئاً . وقد وردت اشارة الى ذلك في شعر عَدِي بن زيد العبادي [2] .

وفي كتب اللغة والأخبار أسجاع في طلوع النجوم ، تفيدنا كثيراً في تكوين رأي في معارف الجاهليين والعرب عموماً بالفلك [3] . وفي هـذه الأسجاع ما يخص نزول المطر ، وفيها ما يتعلق بالحر والبرد ووقت نضج الثمر ، وفيها ما له علاقة بالأسفار وأوقاتها ، الى غير ذلك مما له علاقة بالأنواء والفلك عند العرب .

ولفظة سنة لفظة عربية شمالية ، ترد في عربية القرآن الكريم ، كما ترد في النصوص

---

(١) الأنواء (ص ١٦٣ وما بعدها) .

(٢) الأنواء (ص ١٦٦) .

(٣) « ذكر أسجاع العرب في طلوع هذه النجوم » ، المخصص (٩/ ١٠٥ وما بعدها) .

العربية الشمالية الجاهلية ، مثل نص النماره الذي يعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، ونص حرّان الذي يعود تأريخه الى سنة (٥٦٨) للميلاد ، أي الى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول . وقد كتبت لفظة « سنة » على هذه الصورة « سنت » . أي بالتاء المبسوطة . وقد ذكرت أن المسند لم يستخدم التاء المقبوضة (أي الهاء) في قلمه . وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصفوية أيضاً . وردت بالتاء المبسوطة كذلك[1] .

ولدينا لفظة أخرى مرادفة للسنة هي العام ، فيقال لعامنا هذا ، أي لسنتنا وذكر علماء اللغة أن العام أخص مطلقاً من السنة ، فتقول كل عام سنة ، وليس كل سنة عاماً. وذكر بعض العلماء أن العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدّة ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء والخصب . وقال بعض آخر : السنة أطول من العام ، وهو دورة من دورات الشمس، والعام يطلق على الشهور العربية بخلاف السنة . وذكر بعضهم أن العام لا يكون إلا شتاء وصيفاً ، وانك اذا عددت اليوم الى مثله فهو سنة [2] .

أما العرب الجنوبيون ، فقد استعملوا لفظة « خرف » « خريف » مرادفة للسنة و « الحول » . و « الحول » السـنة اعتباراً بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها . وقد وردت في القرآن الكريم . ويظهر أنها من الألفاظ الجاهلية القديمة . والحولي : ما أتى عليه حول من ذي حافر وغيره ، ويقال جمل حولي ونبات حولي [3] . وذكر علماء اللغة أن « الخريف » السنة والعام ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في

---

(١) « سنت حرب نبط » ، تأريخ اللغات السامية (ص ١٨٥) .

(٢) شرح القاموس (٨/١٩٢) .

(٣) شرح القاموس (٧/٢٩٣) .

كتابات المسند . وذهب بعض العلماء الى أن الخريف هو الفصل المعروف . وأما ورود اللفظة بمعنى السنة والعام في أحاديث الرسول ، فلأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة ، ولذلك قصد باللفظة المسافة تقطع من الخريف الى الخريف ، وهو السنة [1] .

وقد وردت لفظة « عوم » في النص : « CiS 575 » [2] ، بمعنى سنة ، أي في مقابل لفظة « عام » في لساننا . ولكن الغالب أن يعبر عن السنة بلفظة « خرف » « خريف » .

وتؤدي لفظة « الحِقْبة » معنى السنة عند بعض علماء اللغة ، وتجمع على حقب ، وذكر أن الحقب ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، والجمع أحقاب . وتؤدي لفظة « الحجة » معنى السنة كذلك [3] .

وهناك نوعان من السنين : سنون بنيت على أساس الشهور القمرية بمراقبة القمر ، والسنة هي سنة قمرية « Lunar year » . والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري . وسنون بنيت على أساس شمسي « Solar year » . والتقويم المبني على أساس السنين الشمسية ، تقويم شمسي . وقد عرف النوعان من السنين عند الشعوب القديمة قبل الميلاد . وهما تقويمان أساسهما الظواهر الجوية للقمر والشمس .

ويظهر من المسند أن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة الى فصول كذلك ، وأنهم كانوا مثل غيرهم يقسمونها الى فصول أربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف. ولا يعني هذا التقسيم الرباعي أن الجو في العربية الجنوبية أو في أي مكان آخر في جزيرة

---

(١) شرح القاموس (٦/٨٣) .

(٢) راجع السطر الثامن من النص ، Le Musèon, 66, P. 119. Beeston, P. 20, 44

(٣) المخصص (٩/٦٦ وما بعدها) .

العرب كان يختلف اختلافاً واضحاً بيناً من حيث التطرف أو الاعتدال باختلاف هذه الفصول الأربعة ، وأن شهور الفصول هي متساوية بالفعل ، وأن عدة كل فصل ثلاثة أشهر ، بل هو في الواقع تقسيم علمي نظري . أما من الناحية العملية ، فان فصلي الصيف والشتاء هما أبرز الفصول وأوضحها في جزيرة العرب كلها . ولا سيما فصل الصيف الذي يعدّ أطول الفصول وأوضحها فيها . وهذا هو الذي دفع العرب ولا شك الى تقسيم السنة الى نصفين ، شتاء وصيف . يبتدؤون بالشتاء ويجعلونه النصف الأول ، ويبتدأ عندهم بابتداء النهار في القصر وابتـــدائه في الزيادة . وأما الصيف ، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالنقصان [١] .

والشتاء هو « صربن » في المسند على بعض الآراء . أما الربيع ، فهو « دثا » . وأما الصيف ، فـ « قيضن » ، وأما الخريف ، فـ « خرفن » [٢] . ويذكر علماء اللغة أن القيظ هو أشــد الحرّ ، وأن الخريف ليس في الأصل باسم للفصل ، إنما هو اسم لمطر القيظ ، ثم سمي الزمان به مجرى [٣] .

ووردت لفظتا « صرب » و « قيض » « قيظ » مجتمعتين في النص : « Rep. Epi , 4230 » ، وفي هـــذه الجملة : « واهلهو وارضهمو صربم وقيضم » [٤] ، أي « وأهله وأرضه شـــتاء وصيفاً » . وقد ترجمت لفظة « صربم » في الـكتاب : « Rep Epi. » بـ « Ernte » بالحاصل والغلة . وأرى أن الترجمة هذه وفي هذا المـكان خطأ ، صوابه : الشتاء ، ويرجو صاحب الـكتابة من آلهته أن تبارك فيه وفي أهله وأرضه شـــتاء

(١) المخصص (٩/٧٩) ، الأنواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .

(٢) Mitt,, S. 62, 65, 71

(٣) المخصص (٩/٨٠) .

(٤) Rep. Epi., 4230, B. 4.

وصيفاً . ولا يقصد هنا الفصلين المعلومين ، وإنما يريد غلتي الفصلين ومزروعاتهما ، فهما كل أمله من الفصلين .

وفي الربيع والخريف تتساقط الأمطار الفصلية في اليمن وفي العربية الجنوبية ، تتساقط الأمطار الربيعية في شهر آذار ونيسان . وأما أمطار الخريف القوية الثقيلة ، فتهطل في تموز « جولاي » وآب « اغسطس » وأيلول « سبتمبر » . وتعرف أمطار الربيع بـ « دثا » في المسند . أما أمطار الخريف فتسمى بـ « خرف » « خريف » . وقد دعيا بذلك لنزولها في هذين الموسمين . والى هذين الفصلين أشار « بلينيوس » « Pliny » حين قال إن العرب الجنوبيين يسمون غلة البخور التي يجمعونها في فصل الخريف بـ « Carfiathum » ، ويسمون الغلة التي تجمع من هذه المادة في فصل الصيف بـ « Dathiathum » . والكلمة الأولى هي تحريف لفظة « خريف » . وأما الثانية ، فتحريف للفظة « دثا » ، أي الربيع [١] .

وفي جملة النصوص التي وردت فيها لفظتا « دثا » و « خرف » بمعنى الأمطار الهاطلة في الربيع وفي الخريف ، ما جاء في النص الموسوم بـ « Cis 547 » [٢] . وفي النص « Cis 540 » [٣] .

ويعبر عن الحاصل الذي يجمع من الحصاد في الموسم أو من الأشجار بلفظة « فرع » ، وذلك كما في هذه الجملة : « ول سعدهمو تالب فرع دثا وخرف عدى ارضمهو » [٤] ، ومعناها « وليباركهم تالب ، وليبارك في حاصلهم الربيعي وفي حاصلهم

---

(١) Pliny, Hist., Nat., XII. 60, Beesten P. 19

(٢) راجع الأسطر من ٨ — ١٠ .

(٣) راجع الأسطر من ٥٤ — ٥٩ .

(٤) Cis, 2, Pars. IV, I, I, P 7.

الخريفي ، وليبارك ارضهم » . فعبر في هذا النص عن الحاصل بلفظة فرع .

وقد قسم العرب الشماليون السنة الى فصول كذلك . ونجد في كتب الأنواء ابتداء كل فصل بظهور نوئه وكذلك منتهاه ، والكواكب والنجوم التي تتميز فيه . غير أننا لا نستطيع الاعتماد كلية على ما ورد في هذه الكتب وفي الموارد الأخرى ، وذلك لأنها تحدثت بصورة عامة شاملة ، فلم تشر الى ما هو جاهلي صرف ، والى ما هو إسلامي ، واستشهدت بشعر هو من شعر الاسلاميين . وجاءت بأمور لا يمكن أن تكون معروفة عند الجاهليين ، ولهذا صعب علينا الحكم عليها ، والاستشهاد بها في أثناء كلامنا على علم الأنواء والفلك عند العرب قبل الاسلام .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم ، ولا شك ، يقسمون السنة الى فصول بحسب الحاصل والزرع ، وبحسب البرد والحر ، وهذه هي أهم أمور يلاحظها المزارع . فقسم السنة الى موسمين : موسم زرع يبذر فيه ويزرع ، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجني ثمره . وهو موسم يبدأ فيه الزرع بالأفول وبالذبول ، حتى إذا ما جاء البرد ، تساقط فيه الورق ، وتعرت الأشجار من الخضرة ويقابل هذا البرد الحرّ ، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول . وقد كانوا يسمون الفصول لذلك بهذه الأسماء . ويطلق أهل العراق اليوم على الخريف « جوريد » ؛ لأنه يجرد الأشجار ، فلا يترك لها ورقاً . و « وقت الزرع على موسم الربيع ، لأن البذر والزرع يكونان فيه في الغالب» . وقد كان العبرانيون يفعلون هذا الشيء نفسه ، فورد في سفر التكوين : « مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر » [1]. وفي ذلك إشارة الى هذه الفصول الأربعة .

(١) التكوين : الاصحاح الأول ، الآية ١٤ ، والاصحاح الثامن ، الآية ٢٢ . وقاموس الكتاب المقدس (٢/ ٤٧٨) .

وذكر أهل الأخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدىء بفصل الخريف وتسميه الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه ، ثم يكون بعده فصل الشتاء ، ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ، وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني ، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف (١) .

وأول وقت الربيع عندهم ، وهو الخريف ، ثلاثة أيام تخلو من أيلول . وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول . وأول الصيف عندهم ، وهو الربيع الثاني ، خمسة أيام تخلو من آذار . وأول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران. والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان (٢) .

وبعض العرب يقسم السنة نصفين : شتاءا وصيفاً ، ويقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله ، والربيع آخره . ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله ، والقيظ آخره (٣) .

وتقسيم السنة الى نصفين أو موسمين ، تقسيم طبيعي معقول في جزيرة العرب ، يستند الى طبيعة الجو في هذه الأرض . فإن عمر الخريف والربيع قصير في جزيرة العرب ، لا يكاد يدرك ، ولا يدرك فيها إلا الحرّ ، وحياته طويلة مملة ، لتأثيره في الناس والزرع . وأما الشتاء ، فهو بارز معروف ، وهو عكس الصيف من حيث برود أيامه ، لذلك ، أدرك وعرف . وهو أقصر حياة فيها من الصيف . ولهذا قسم الانسان القديم السنة على هذا الأساس . ونجد هذا التقسيم عند العبرانيين كذلك ، إذ قسموا السنة الى صيف وشتاء ، « مدة كل أيام الأرض : زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء

---

(١) الأنواء (ص ١٠٤ وما بعدها) ، المخصص (٩/٧٩ وما بعدها) .

(٢) الأنواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .

(٣) الأنواء (ص ١٠٤) ، بلوغ الأرب (٣/٢٤٤) .

ونهار وليل لا تزال » [١] .

وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً قديم . فقد قسم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً . وكانت سنتهم في بادئ الأمر سنة قمرية ، ثم عدلوا عنها الى السنين الشمسية . وقسموا الشهر الى أقسام ثلاثة . فصارت السنة ستة وثلاثين قسماً ، أضافوا اليها خمسة أيام أعياداً [٢] . وقسم البابليون سنتهم الى اثني عشر شهراً أيضاً ، لكنها أشهر قمرية ، لاستنادهم في تقويمهم الى القمر . وقد اعتبروا بعض الأشهر تسعة وعشرين يوماً ، وبعضها ثلاثين يوماً . وهي متعاقبة ، ولهذا صار معدل مدة الاثني عشر شهراً قمرياً (٣٥٤) يوماً . وهو أقل من السنة الشمسية . ولأجل حدوث توافق بين السنة القمرية ودورة الشمس في فلكها ، أي السنة الشمسية ، أضافوا شهراً آخر على السنة ، فصار مجموع أيام السنة المؤلفة من ثلاثة عشر شهراً (٣٨٤) يوماً ، يضيفونه عند الضرورة ووفق الحساب الفلكي للتوافق بين السنتين . وذلك كل ثماني سنوات [٣] .

وتتألف السنة عند العرب الشماليين من اثني عشر شهراً . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم [٤] . وهو التقسيم الشائع المعروف عند بقية الساميين واليونان وغيرهم ، والمعمول به حتى اليوم . ولم ترد الى هذا التقسيم اشارة في نصوص المسند ، ولكن ورود ذكر السنين والشهور في كتابات المسند ، واستعمال العرب الشماليين وغيرهم التقسيم الاثني عشري للسنة ، يحملنا على القول إن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة الى اثني عشر شهراً أيضاً .

---

(١) التكوين : الاصحاح الأول ، الآية ١٤ ، والاصحاح الثامن ، الآية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٨) .

(٢) سارتن : تأريخ العلم (١/٨٨) « الترجمة العربية » .

(٣) سارتن (١/١٧٥ وما بعدها) .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

والى هذا التقسيم البابلي ، استند التقويم اليوناني والعبراني والروماني ، وذلك قبل وضع التقويم اليولياني سنة (٤٥ ق. م) . فقد تأثر التقويم العبراني بالتقويم البابلي [١] ، ونهج نهجه في تقسيم السنة وفي اضافة شهر واحد الى الشهور الاثني عشر ، ليوازن بين السنة الشمسية والسنة القمرية على نحو ما ذكرت .

واعتبر العبرانيون الإهلال على أساس الرؤية . وتكون الرؤية بشهادة شهود ، يشهدون أمام رجال الدين برؤيتهم الهلال ، ويعدون ذلك من الواجبات الدينية ، ويفرحون للأهلة ، لما لها من علاقة بالأعياد الدينية . ولكنهم كانوا يأخذون بالحساب الفلكي كذلك ، وبالتقاويم ، لصعوبة رؤية الهلال أحياناً ، ولعدم تمكن المشاهدين ورجال الدين من التثبت من سماع شهود الرؤية وأخبار الأماكن البعيدة بسبب الفتن والحروب مثلا ، فيكتفون عندئذ بإصدار أوامر الاهلال المبنية على الحسابات الفلكية [٢] .

وورد في القرآن الكريم : « يسألونك عن الأهلة ، قل : هي مواقيت للناس وللحج » [٣] ، وورد فيه : « فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه » [٤] ، مما يدل على أن الجاهليين كانوا يعتبرون الأهلة مواقيت لتعيين الوقت . وقد اعتبر الإسلام الرؤية هي شهادة ابتداء الشهر الجديد ، وبها يحكم بحلول الشهر .

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون أيضاً في تعيين أوائل الشهور . فإذا اختفى القمر في آخر الشهر ولم يظهر ، خرجوا لمراقبة الهلال وتثبيت مبدأ الشهر.

---

(١) The Jewish Encyclopedia, Vol., III, P. 498. ff.

(٢) The Jewish Ency., III, P. 502. f

(٣) البقرة الآية ١٨٩ .

(٤) البقرة الآية ١٨٥ .

وقد كانوا يعدّون الرؤية من الحوادث المؤثرة في حياة الشخص، من حيث جلب النحس والسعادة للمستهل. ولهذا كانوا ينظرون الى المناظر الجميلة حين الاستهلال، لاعتقادهم ان ذلك يجلب لهم البركة والخير.

أما الشهر، فله اسم خاص به، هو «ورخ» في العربيات الجنوبية. والجمع «اورخم» «اورخ»[1]. ولفظة «ورخ» تعني القمر في عربية القرآن الكريم. وهي من الألفاظ الساميّة القديمة، وهي «ارخ» في بعض لغات الساميين[2]. فكان العرب الجنوبيون إذا أرادوا التأريخ بالأشهر، قالوا «ورخ كذا ...»، أي «شهر كذا ...». والتوريخ بالشهور لا يعني أن العرب الجنوبيين أو غيرهم من العرب وبقية الساميين، كانوا لا يؤرخون إلاّ بالتقويم القمري، وأنهم لم يكونوا يستعملون غير هذا التقويم. فقد كان غيرهم يؤرخون بالشهور القمرية كذلك، وكانوا مع ذلك يؤرخون بالتقويم الشمسي، أو بالتقويمين.

ولا يختلف العرب الجنوبيين في طريقة التوريخ بالأشهر عن العرب الشماليين فيها، فهم يذكرون لفظة الشهر أولاً ثم يذكرون اسم الشهر المقصود من بعدها، فيقولون «ورخن ذ حضر» و «ورخ ذ طنفت» و «ورخن ذ برم»، وهكذا. ومعناها «شهر ذي حضر» و «شهر ذي طنفت» و «شهر ذي برم». و «ذوحضر» اسم شهر، وكذلك «ذو طنفت» و «ذو برم»، وذلك كما في هذه الجملة: «بورخ دثا ذ خرف سعد عثتر بن هو نعثت»[3]، ومعناها «بشهر دثا من سنة سعد عثتر بن

---

(١) نص ابنة Rhodokanakis, stud., II, S. 48,

(٢) Bruno Meissner Supplement Zu den Assyrischen Wörterbüchern, Leiden, 1891, S, 16.

(٣) Cor. Ins. Sem., Pars Quarta, Tomus, I, 405, Nu. 343.

هوفعثت » . و « سعد عثتر بن هوفعثت » اسم رجل أرخ النص به .

وقد يفصل بين لفظة « الشهر » واسم الشهر بفاصل كما في هذه الجملة : « ورخ فتحن ومثبتن ذ نور »[١] ، أي « وكان شهر هذا الأمر والاثبات ذي نور » . وقد تؤدي لفظة « فتحن » معنى « الفتح » ، أي الإعلان . وأما لفظة : « مثبتن » ، أي « المثبت » ، فتعني الاثبات ، أي اثبات ما ورد في النص واقراره .

وقد يكتفى في المسند بذكر اسم الشهر مجرداً من لفظة « ورخ » ، أي شهر . أما في العصور الإسلامية ، فان العرب لا تذكر كلمة الشهر إلاّ مع اسم الشهر الذي أوله راء ، مثل ربيع الأول وربيع الآخر ورجب ورمضان ، فتقول : شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وشهر رجب وشهر رمضان[٢] . أما في الشهور الأخرى ، فيمنع عندهم ذكر « شهر » معها ، فلا يقال في شهر المحرّم ، بل في المحرم .

وقد وردت في كتابات المسند أسماء عدد من الأشهر ، يتبين من دراستها أن بعضها وارد في نصوص لهجتين مثل لهجة معين وسبأ ، ولهجة سبأ وقتبان ، مما يدل على أنها كانت مشتركة ومستعملة عند المعينين والسبئيين ، أو عند السبئيين والقتبانيين . ولكن الأغلب انفراد كل لهجة بتسمية شهر ، بدليل ما نجده في كتابات كل لهجة من اللهجات التي نعرفها من أسماء أشهر لا ترد في الكتابات الأخرى . ومن الأشهر المشتركة التي ورد اسمها في كتابات سبئية ومعينية ، شهر « ذ دثا » وشهر « ذ سحر » وقد ورد اسمه في كتابات سبئية وقتبانية ، و « ذ ابهى » « ذ ابهو » وقد ورد في كتابات سبئية وقتبانية كذلك[٣] .

---

(١) Beeston P 3

(٢) وعلى هذا قول ابن مالك في الألفية :

ولا تضف شهراً الى اسم شهر — الا لما أوله « الرا » ، فادر .

بلوغ الأرب (٣/٧٩) .

(٣) Rhodokanakis, Kataba., I, S. 133, Beeston, P. 10, Rhodokankis, studi., II, S. 141, Sab. Denkma., 21, Cis 380.

ومن أشهر المعينيين الشهور : « ورخ ذ حضر » و « ورخ ذ طنفت » و « ورخ ذ نور » . وهناك أسماء أشهر أخرى لم تكتب قبلها لفظة « ورخ »، مثل « ذ ابهى » و « دثا » ، ولكنها كما مرّ من الشهور على كل حال [1] .

ومن الشهور الواردة في كتابات السبئيين المتقدمة : « ورخ ذ ابهي » ، أي شهر ذو أبهى ، و « ورخ ذ دونم[2] » و « ورخ دثا » و« ورخ ذ نيلم » و « ورخ ذ نسور » و « ورخ ذ سحر » و « ورخ ذ فلسم» و « ورخ ذ قيضن » و « ورخ صربن » [3] .

أما الشهور : « ورخن ذ الالت » و « ورخ ذ داون » و« ورخو ذ حجتن » و « ورخ ذ خرف » و « ورخو ذو مذران » و « ورخن ذ مهلتن » و « ورخن ذ محجتن» و « ورخ ذ معن » و« ورخ ذ صربن » و« ورخو ذ قيضن » و « ورخ ذ ثبتن » ، فانها من الشهور الواردة في الكتابات السبئية المتأخرة [4] .

أما الشهور القتبانية التي وردت أسماؤها في كتاباتهم ، فهي « ورخس ذ ابهو » و« ورخس ذبرم » و« ورخس ذ بشم » و « ورخس ذمسلعت » و « ورخس ذسحر» و « ورخس ذ عم » و « ورخس ذ تمنع » [5] . ، و « ورخ ذ فرعم » ، و « ورخ ذ فقهو » [6] .

وذكر « بيستن Beesten » أن الكتابات الحضرمية لم تذكر من أسماء الشهور

---

1) Beeston, P. 10. f.

(٢) « بورخ ذ دونم » ، Rhodokanakis, stud., II, S. 75, ZDMG. 29.

(٣) Beeton, P. 12, f.

(٤) Beeston, P. 13, f.

(٥) Rhodokanakis, Katab., I S. 96, 59, Beeston, P. 11.

(٦) Rhodokanakis Katab Texte II S 5 f Glaser 1396—1610. Die Inschr. an der Mauer Von Kohlan—Timna', 1924, S. 15, ff , SE 80.

إلاّ اسم شهر واحد، هو « ورخس ذصيد »[١] .

ويلاحظ ورود لفظتي « قدمن » و « اخرن » مع أسماء بعض الأشهر كما في هذه الجمل: « ورخ ذ نسور قدمن » و « ورخ ذ نسور اخرن» و « ورخس ذبرم قدمن» و« ذ برم اخرن »[٢] ومعناها : « شهر ذو نسور الأول » و « شهر ذو نسورالثاني » و « ذو نسـور الآخر » ، و « شهر ذو برم الأول » و « شهر ذو برم الآخر » و « شهر ذو برم الثاني » ، كما نقول « شهر ربيع الأول » و « شهر ربيع الآخر » و « جمادى الأولى » و « جمـادى الآخرة » في التقويم الهجري ، و « كانون الأول » و « كانون الثاني » في التقويم السرياني الأصل . وذلك أن لفظة : « قدمن » تعني «الأقدم» و « الأول » . وأما « اخرن » ، فتعني « المتأخر » والثاني والآخر .

ويتبين من استعمال اللفظتين المذكورتين أن بعض العرب الجنوبيين ، ويجوز أن يكونوا كلهم ، كانوا كالعرب الشماليين ومثل بعض الساميين ، قد استعملوا اسماً واحداً لشهرين ، وللتفريق بينهما أطلقوا لفظة « قدمن » بعد اسم الشهر الأول ، لتمييزه عن سميّه الشهر التالي له ، ولفظة « اخرن » بعد اسم الشهر الثاني لتمييزه عن الأول المتقدم عليه .

ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن لبعضها معاني ذات علاقة بالجو ، ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو بالناحية الزراعية . ومن النوع الأول : « ذدثا » ، « ذودثا » وله معنى الربيع ، وهو مثل شهر « ربيع الأول » أو « ربيع الآخر » في التأريخ الهجري . وأما شهر « ذخرف » ، فان له صلة بموسم الخريف ، وقد يكون من شهور

---

(١) Beeston, P. 15

(٢) Rhodokanakis, Die Inschr. an der Mauer Von Kohlan—Timnn', 1924, S, 52, ff., Glaser 1609, Beeston, 11, 13.

هذا الموسم . وأما شهر « ذقيضن » ، فانه من أشهر القيظ ، والقيظ هو الحر ، فهو شهر من أشهر الصيف .

ومن الشهور التي لها علاقة بالزراعة ، شهر « ذمذران » « ذومذران » ، ومعناه شهر البذر ، ولعله دعي بذلك لأن الزراع كانوا يبذرون بذورهم للزرع فيه . وشهر « ذصربن » ، « ذوصربن » . وهو من أشهر الخريف ، قد يكون في أوله وقد يكون في أواخره ، أي في ابتداء الشتاء ، وهو يقابل شهر « صراب » من الأشهر المستعملة في العربية الجنوبية في القرن العشرين .

ويرى بعض الباحثين أن لشهر : « ذ ثبتن » علاقة بالزراعة كذلك ، وأنه يعني الشهر الذي تتهاطل فيه الأمطار ، وتجمع فيه السيول لخزنها في السدود ، وأن لشهر « ذ مهلتن » علاقة بالزراعة كذلك ، وأن في معناه « المهلة » ، أي التأخير في عمليات الزرع أو جمع الحاصل [١] .

ويظن أن للشهرين « ذ دونم » و « ذ نيلم » علاقة بالزراعة كذلك . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن معنى « دونم » « دينم » الدين ، وأن المراد بها الشهر الذي تجمع فيه ديون المعبد . أي ضرائب المعبد . وذهب بعض آخر الى أن اللفظة من أصل « دون » ، ومعناها الإرواء والاسقاء ، وأن لهذا الشهر علاقة اذن بشؤون الري . وأما « ذنيلم » فانه شهر حصاد الغلات وجمع الحبوب [٢] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالحياة الدينية ، « ذ عثتر » و « ذ الالت » و « ذحجتن » و « ذ محجتن » و « ذشمسى » وغيرها . وقد يكون شهر « ذوعثتر » نسبة الى الإلـه « عثتر » . وأما « ذ الالت » ، فبيّن الدلالة على المعنى الديني كذلك . وأما « ذحجتن »

(١) Beeston, P, 17

(٢) المصدر كذلك .

و « ذمحجتن » ، فهو مثل شهر « ذي الحجة » في التقويم الهجري وفي معناه . وأما « ذ شمسى » « ذوشمس » ، فيجوز أن يكون نسبة الى الإلهة الشمس من الناحية الدينية ، ويجوز أن يكون نسبة الى الشمس من ناحية تأثيرها في الجو ، أي من ناحية تأثير حرارة أشعتها في الناس وفي المزروعات . وذلك بكونه من أشد الشهور حراً ، فيكون هذا الشهر بذلك من أشهر الصيف .

وليس في امكاننا في الزمن الحاضر وضع تقاويم ثابتة كاملة للشهور في العربية الجنوبية . نعم ، يمكننا تثبيت بعضها استناداً الى معاني أسمائها كما رأينا ذلك فيما تقدم، وذلك بأن نجعل الشهر الفلاني في الفصل الفلاني من فصول السنة مثلاً . ولكننا عاجزون عن ترتيب كل الشهور الاثنى عشر ترتيباً زمنياً صحيحاً لنقص في علمنا بالشهور. ومن أجل الوصول الى ذلك ، لابد من أن نتريث حتى تتهيأ لنا نصوص كثيرة جديدة ، قد تكون من بينها نصوص فلكية ، أو نصوص أخرى ترد فيها أسماء شهور جديدة ، وأسماء شهور مرتبة ترتيباً زمنياً يساعدنا على ترتيبها وتنظيمها في تقاويم منتظمة لمختلف القبائل العربية الجنوبية ودويلاتها . ولا بد لي هنا من الاشارة الى وجوب الاستعانة بالتقاويم المستعملة عند بقية الساميين وعند القبائل العربية الشمالية وعند القبائل الافريقية التي كانت لها صلات بالعرب الجنوبيين ، لمطابقة شهورها على شهور التقاويم العربية الجنوبية ، وتثبيتها عندئذ على هذا الأساس .

ولم ترد في كتابات المسند أسماء الشهور المستعملة عند الشعوب السامية الشمالية ، وهي : نيسان ومايس وحزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار . ولعدم ورود اسماء هذه الشهور في المسند أهمية كبيرة بالقياس الى من تعنيهم معرفة الصلات الثقافية والعلمية بين العرب الجنوبيين واخوانهم العرب الشماليين والأسرة المكونة للشعوب السامية . فان عدم

ورودها في المسند معناه بعد العرب الجنوبيين عن التيارات الثقافية التي كانت تصل بين الساميين والعرب الشماليين ، وعدم تأثرهم تأثراً كبيراً بالثقافة السامية الشمالية . والحقيقة أن الثقافة العربيـــة الجنوبية هي وحدة خاصة قائمة بنفسها صلاتها قليلة بحضارات الشعوب السامية الشمالية ، ولها مميزات واضحة وفروق بارزة تميزها عن تلك الحضارات .

ولكنني لا أريد هنا الجزم بعدم وقوف أهل العربية الجنوبية على تلك الشهور ، ولا سيما قبيل الاسلام ، حيث تسربت الثقافة الشمالية الى جزيرة العرب ، ووجدت سبيلها الى الحجاز واليمن ، بتأثير النصرانية والمبشرين ، الذين تغلغلوا في كل مكان ، وعاشوا حتى في البوادي بين الأعراب . وقد سبق أن قلت مراراً إن ما وصل الينا من المســـند هو شيء قليل ، وان هناك في باطن الأرض كنوزاً من نصوص الجاهليين مطمورة في أعماق مختلفة تحت الأتربة ، تنتظر ازاحتها عنها ، وقد يكون من بينها ما هو مؤرخ بهذه الشهور .

أما النصوص العربية الشمالية ، فهي بخيلة كل البخل في ايراد أسماء الشهور ، فلم يرد في النصوص العربيـــة الخمسة المدونة بعربية قريبة من عربية القرآن الكريم من أسماء الشهور، الا اسم شهر واحد ، هو «كسلول » . وقد ورد اسمه في « نص النمارة»، أي شاهد القبر الذي وجد على قبر « امرئ القيس » ، ويعود تأريخه الى سنة « ٣٢٨ » بعد الميلاد . ويقابل هذا الشهر « الول » ، كانون الأول [1] .

وأما عرب الحجاز ، فلم يصل الينا من كتاباتهم شيء ، فاقتصر علمنا بطريقة التوقيت عندهم على ما ورد في القرآن الكريم وفي التفاسير وكتب الحديث والتأريخ والأخبار . وقد ورد في سورة التوبة : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله

---

(١) تأريخ اللغات السامية (ص ١٨٩ وما بعدها) .

يوم خلقَ السماوات والأرض ، منها أربعةٌ حُرُم ، ذلك الدين القيِّمُ ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافةً ، واعلموا أن الله مع المتقين . إنما النَّسيء زيادةٌ في الكفر ، يضلُ به الذين كفروا ، يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ... » [1] . ووردت في كتب التفسير والحديث روايات في تفسير ما أجمل في هذه الآيات ، كما وردت في كتب الأخبار والتأريخ روايات عن الأشهر الحرم والنسيء عند الجاهليين .

فلم يترك القرآن الكريم لنا شكّاً في تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً عند أهل الحجاز ، وفي تقسيمهم الشهور الى قسمين من الناحية الدينية : أشهر أربعة حُرُم مقدسة خصت بآلهتهم ، لايجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاك لحرمات ، وشهور ثمانية هي بقية الشهور . وكانوا يقاتلون فيها فيغزو بعضهم بعضاً ، كما تعرض القرآن الكريم لموضوع النسيء ، وقد حرمه الإسلام .

والأشهرالحرم أربعة : ثلاث متواليات سرد ، وهي: ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم، وشهر منفرد هو شهر « رجب » ويقع بين جمادى الآخرة وشعبان [2] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سمّى الشهور المحرم وما بعده بأسمائها هذه هو كِلاب بن مُرّة [3] . ويذكر بعض أهل الأخبار إن « عمرو بن لحى الخزاعي » ، أول من نسأ الشهور [4] .

---

(١) التوبة : الآية ٣٦ وما بعدها ، تفسير روح المعاني ، للألوسي (١٠/٩٠ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٨٢) ، روح المعاني (١٠/٩٠) ، كتاب الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقي ، (طبع حيدر آباد الدكن ١٣٣٢) (١/٢٢١ وما بعدها) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٧٨) .

(٤) بلوغ الأرب (٣/٧١) .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن العرب كانت تطلق لفظة المحرم على شهر « رجب الأصم » ، وذكر بعض آخر أن المحرم لم يكن يعرف بهذا الاسم إلاّ في الاسلام ، فقد كان الجاهليون يسمونه صفراً . ولذلك كان في تقويمهم صفران ، كما كان عندهم شهران باسم ربيع الأول وربيع الآخر ، وشهران باسم جمادى الأولى وجمادى الآخرة . وصفر الأول هو المحرم في عرفنا ، وصفر الآخر هو صفر في اصطلاحنا اليوم . وقد كان الجاهليون يؤخرون المحرم الى صفر في تحريمه ، فيكون شهراً حراماً [1] .

وقد ورد في كتب الحديث أن يهود يثرب كانوا يصومون في يوم عاشوراء ، وكان يوماً تعظمه يهود ، وأن الرسول حين قدم المدينة وجدهم يصومونه ، كما كانت قريش تصومه في الجاهلية ، وتستر فيه الكعبة . وذكر أن الرسول كان يصومه في الجاهلية أيضاً . ولما قدم المدينة ، كان يصومه ، وأمر بصيامه . فلما فرض رمضان ، ترك عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه [2] . ويوم عاشوراء ، هو اليوم العاشر من المحرم [3] .

ويظن أن لدخول (ال) أداة التعريف على « المحرم » أهميةً في تثبيت هذا الشهر ، فان للفظة « محرم » دلالةً دينية ، يراد بها كل شهر من الأشهر الحرم . فكل شهر من هذه الشهور الحرم هي محرم وحرام ، ومن ضمنها « المحرم » . وقد دخلت « ال » على هذه اللفظة لتخصيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر . وإلاّ دخلت على الشهور الأخرى العلمية ، مثل رجب وشعبان ورمضان وصفر ، فلا يقال فيها الرجب والشعبان

---

(١) شرح القاموس (٣/٢٣٦) ، (٨/٢٤٠ وما بعدها) .

(٢) جامع الأصول (٧/١٩٩ وما بعدها) .

(٣) شرح القاموس (٣/٤٠٠) ، الأزمنة والأمكنة ، للمروزقي ، (١/٢٢٦ وما بعدها) .

والرمضان والصفر ، بل يقال قدم شهر رجب ، وقدم شعبان وشهر رمضان وصفر .

وقد نسب أهل الأخبار شهر رجب الى مضر ، فقالوا رجب مضر ، وقد أشير الى ذلك في الحديث أيضاً ، مما يدل على ان هذا الشهر هو من شهور مضر بصورة خاصة . وقد ذكر العلماء أنه إنما عرف بذلك لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به [1] . وذكروا أيضاً أن هذا الشهر من الشهور الحرم عند الجاهليين ، وكانوا يرجبون فيه ، فيقدمون الرجبية ، وتعرف عندهم بالعتيرة ، وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر . ويقال عن أيامه هذه أيام ترجيب وتعتير [2] .

ويذكر علماء الأخبار أن تأكيد الرسول على « رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » في خطبته هذه ، خطبة حجة الوداع ، هو أن بعض العرب مثل ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان ، وكان منهم من يجعل في رجب وشعبان ما ذكر في المحرم وصفر ، فيحلون رجباً ويحرمون شعبان ، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيداً [3] .

وذكر أن العرب كانت تصوم في شهر رجب في الجاهلية ، وتمير أهلها ، وكان يأمن بعضهم بعضاً فيه ، ويخرجون الى الأسفار ولا يخافون [4] .

وبين العرب من كان يحرم أشهراً أخرى ، كالذي ذكر من أن ربيعة كانوا يحرمون رمضان بدلاً من رجب ، وأن قوماً كانوا يصومون فيه . وذكر أن من العرب من

---

(١) « رجب مضر : انما أضيف رجب الى هذه القبيلة ، لانهم كانوا يحافظون على تحريمه ، أشد من سائر العرب . وانما قال : بين جمادى وشعبان تأكيداً وازاحة للريب الحادث فيه بسبب النسيء » ، عمدة القارىء (١٨/٤٢) ، شرح القاموس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩٠) .

(٢) شرح القاموس (١/٢٦٦) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٧٢) .

(٤) بلوغ الأرب (٣/٧٢) .

كان يحل رجباً ويحرم شعبان [1] . ونجد مظاهر حرمة هذين الشهرين في الأخبار ، وكلها تشير الى أن شعبان ورمضان كانا من الشهور المقدسة المعظمة عند بعض الجاهليين . وفي الأخبار المروية عن شعبان ما لا نجد له مثيلا في المروي عن شهر ذي القعدة ، مع أنه شهر من الأشهر الحرم كما ذكرت .

وأما الشهور الثمانية الأخرى ، غير الحرم ، فهي : صفر ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوال . وقد استحل فيها الغزو والقتال . أما الأشهر الحرم ، فالقتال فيها فسق وفجور ، فلا قتال فيها ولا غزو ولا اعتداء ، حتى ان الرجل منهم لو لقي قاتل أبيه أو قاتل أخيه ، لم يكلمه . وهم يعظمون أول يوم من رجب أوفر تعظيم ، ومن سنتهم فيه أن يصالح بين من كان بينه وبين غيره موجدة [2] .

وقد عرفت الشهور المذكورة بشهور معدّ [3] . وكان أهل مكة يستعملونها عند ظهور الإسلام . والظاهر أن القبائل المجاورة لمكة كانت تستعملها أيضاً . وبهذه الأشهر أرخت رسائل الرسول وأوامره ، وصارت باستعمال الرسول لها الشهور الرسمية في الاسلام وشهور العرب كلها ، وأهملت القبائل التي كانت تستعمل شهورها الخاصة بها ، والتي تسميها بمسميات خاصة شهورها الجاهلية ، ولم يبق منها في الذاكرة شيء .

ولا نجد بين الأخباريين اتفاقاً في تعيين الشهر الذي كان الجاهليون يفتتحون به

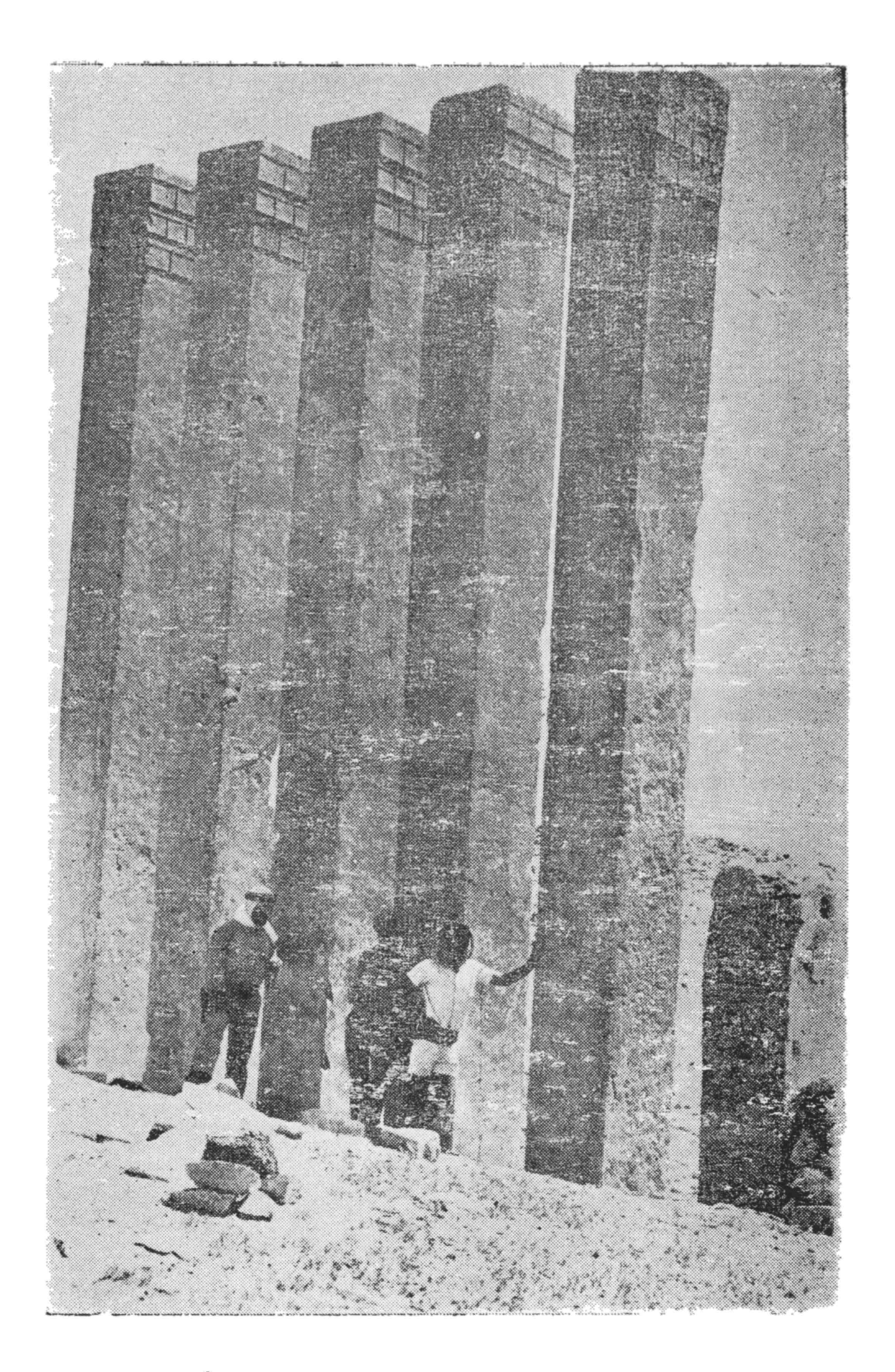
(١) بلوغ الأرب (٣/٢٢) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٧٩) المرزوقي (١/١٧٦ وما بعدها) .

(٣) قال قائل من بني كنانة :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

شرح القاموس (٤/٢ ٢) .



اعمدة من بقايا معبد « المقه » بمدينة مأرب
ويبلغ ارتفاع العمود حوالي ثلاثين قدماً
من كتاب : Qataban and Sheba
(الصفحة ٢٢٥)

سنتهم . والظاهر أن أهل مكة كانوا يفتتحون سنتهم بالمحرم . وقد رأينا أنهم كانوا ينسئون هذا الشهر ، فيجعلونه في صفر ، ويبدؤون بذلك سنتهم . ولعل هذا هو الذي جعل المسلمين يعدونه الشهر الأول من السنة الهجرية . وهو في الأصل شهر من شهور الشتاء [١] .

وقد كان عرب العراق وبادية الشأم يتجنبون أيضاً مثل عرب الحجاز القتال في الأشهر الحرم ، كما يفهم ذلك من مؤلفات المؤرخين الروم والسريان . وقد أشار المؤرخ « افيفانيوس » « Epiphanius » الى وجود شهر عند العرب ، قال إن العرب تحتفل فيه ، وهو عندهم شهر مقدس . ويريد به شهر « ذي الحجة » على ما يظن . وقد دعي بـ « حجت » في بعض الموارد اليهودية [٢] . كما ذكر « بروكبيوس Prokopius » أن عرب المناذرة لم يكونوا ليحاربوا في شهورهم المقدسة [٣] .

ويرى « ولهوسن » ، استناداً الى بعض الموارد اليونانية وغيرها أن العرب كانوا يحرمون شهراً واحداً منفرداً ، هو « رجب الفرد » ، وهو من شهور الربيع ، وشهرين آخرين متصلين يقعان في القيظ ، أي في أوج الصيف . أما الشهر الثالث الذي ألحق بالشهرين ، فصارت به ثلاثة أشهر حرم متسلسلة متداخلة ، فقد حرم في عهد متأخر لا يبعد كثيراً عن الاسلام [٤] .

ويذكر أهل الأخبار أن هناك شهوراً أهملت وتركت ، استعملتها العرب العاربة . وقد أوردوا أسماءها مع بعض الاختلاف في اسم الشهر الواحد وفي ترتيب هذه الشهور

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٧٨ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩٠ وما بعدها) ، الأيام والليالي والشهور ، للفراء ، تحقيق الأبياري ، القاهرة ، ١٩٥٦ (ص ٩ وما بعدها) ، « وكانوا يبدءون من السنة برمضان » ، للمرزوقي (١/٢٨٣) .

Wellhausen, Reste, S. 97. f.

(٢) Aboda Zara, llb., Epiphanius, Haer., 51, S. 24.

(٣) Reste, S. 100 f., Prokopius, De Bello Pers., 11, 16, Photius, Bibl. Cod., 3.

(٤) Reste, S. 100 f.

في بعض الأحيان . ويظهر من ضبطهم لها ومن رواياتهم لأسمائها أنها لم تكن مهجورة ميتة عند ظهور الاسلام ، بل كانت مستعملة معروفة . والظاهر أنها لم تكن مستعملة في منطقة مكة ، بل عند قبائل أخرى ، ولهذا لم يعبأ بها . ولما أقر الاسلام الشهور التي كان يستعملها أهل مكة عند ظهور الاسلام ، وهي المحرم وما بعده ، ماتت أسماء تلك الشهور ، كما مات غيرها ، ونسيها الناس فلم يستعملوها .

والحقيقة أن العرب لم يكونوا متفقين في أسماء الشهور ، بل كانوا يختلفون فيها اختلافهم في لهجاتهم ، وذلك قبل الميلاد وبعده . وقد رأينا أن العرب الجنوبيين كانوا قد انفردوا بشهورهم وبطريقة تورېخهم ، كما أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم أيضاً في أسماء الشهور .

ومن الشهور التي أهملت وترك استعمالها شهور نسبها أهل الأخبار الى العرب العاربة . وقد رتبوها على هذا النحو : المؤتمر وقد زعموا أنه في مقابل المحرم ، وناجر وهو في موضع صفر ، وحوّان « وروي خوّان » ويقابل ربيعاً الأول ، وبصان « ويقال صوان وبصان » وهو في مقابل ربيع الآخر ، والحنين أو شيبان وهو جمادى الأولى ، وملحان وهو جمادى الآخرة ، والأصم وهو شهر رجب ، وعاذل وهو شعبان ، وناتق وهو شهر رمضان ، ووعل وهو شوّال ، ورنة وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة . وذكر بعضهم أن خواناً اسم يوم من أيام الأسبوع ، وأن شيبان اسم كانون الأول ، وأن ملحانا هو كانون الثاني . وهذا الترتيب المذكور هو كما جاء في رواية ابن سيدة (١) .

وذكر الفراء أن من العرب من سمى المحرم المؤتمر ، وصفر ناجراً ، وربيع الأول

---

(١) المخصص (٩/٤٣) ، الأيام والليالي والشهور ، للفراء ، القاهرة ١٩٥٦ (ص ١٨) .

خوانًا ، وربيع الآخر بصان أو وبصان أو بوصان ، وجمادى الأولى الحنين [1] ، وجمادى الآخرة ورنة « ورنى ورنة » ، ورجب الأصم ، وشعبان وعلا ، ورمضان ناتقاً ، وشوال عاذلاً ، وذو القعدة هُواعاً ، وذا الحجة بِركا [2] .

ورتب المسعودي أسماء الشهور الجاهلية على هذا النحو : ناتق ، وثقيل ، وطليق ، وناجر ، وسماح ، وأمنح ، وأحلك ، وكسع ، وزاهر ، وبرط وحرف ، ونعس [3] .

ورتبها البيروني على هذا النحو : المؤتمر ، وناجر ، وخوّان « حوان » ، وصوان ، وحنتم أو حنين ، وزبّاء ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع أو رنة ، وبُرّك [4] .

ورتبها آخرون على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) ، وصوان ويقال فيه وبصان ، ورُبى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل ، وواغل ، وورنة ، وبرك . أو على هذا النحو : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، واسنح ، وانخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويغش . وذكر بعضهم أن ثموداً كانت تسميها موجب ، وموجر ، ومور ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذيمر ، ودابل ، وحيقل ، ومسل « مسيل » [5] . وضبطها بعض آخر على هذا النحو : موجب ، وموجز ، ومورد ، وملزج ، ومصدر ، وهوبر ، ومويل ، وموهب ، وذيمر ، وجيقل ، ومحلس ، ومسبل [6] .

ولم يشر الأخباريون الى أسماء من كان يستعمل تلك الشهور من العرب العاربة ، ومتى كان ذلك ، كما أنهم لم يشيروا أيضاً الى الأماكن التي استعملت فيها . ولعلّ الأيام

---

(١) بالفتح وبالضم ، المرزوقي (١/٢٧٩ وما بعدها) .

(٢) الأيام والليالي والشهور ، للفراء ، القاهرة ١٩٥٦ (ص ١٧ وما بعدها) .

(٣) مروج الذهب (٢/١١٠) .

(٤) الآثار الباقية من القرون الخالية : (١/٦٠) ، طبعة سخاو ، لايبزك ١٨٧٦ ، التقاويم (ص ١٦٧) .

(٥) بلوغ الأرب (٣/٧٦ وما بعدها) ، الآثار الباقية (١/٦٢) ، صبح الأعشى (٢/٣٦٨) .

(٦) المرزوقي (١/٢٨٣) .

ستكشف عن هوية أصحابها بأن تأتي بنصوص من الأيام التي سبقت الإسلام، مؤرخة بهذه الشهور، فيتمكن العلماء يومئذ من الوقوف على حقيقتها وعلى هوية المؤرخين بها قبل الإسلام.

وذكر علماء اللغة أن الخالص من الشتاء عند العرب شهران، يطلقون عليهما «قماحاً»، ويقال للشهرين: ملحان وشيبان [١].

ويسمون شهري القيظ الذي يخلص فيهما حرّه، شهري ناجر، وذكر أنهما وقدة وعكان. وهذان الشهران هما بيضة الصيف [٢].

واذا درسنا أسماء هذه الشهور الجاهلية، وجدنا أنها لا تشبه أسماء الشهور البابلية ولا الشهور العبرانية. فان الشهور العبرانية هي على هذا الترتيب: ابيب وهو يقابل شهر «ابريل» أي نيسان، ثم شهر «زيف» «زيو» «Ziv» وقد دعي بـ «ايار» فيما بعد، ثم «سيوان Sivan»، ثم «تموز»، ثم «آب»، ثم أيلول، ثم «ايشانيم» «Ethanim» الذي عرف بـ «تشرى Tishri»، أي تشرين فيما بعد، ثم «بول Bul» ثم عرف فيما بعد بـ «Marcheshvan»، ثم «كسليف «كيسلو Chislev» ثم «تبت «طيبت Tebeth»، ثم «شبات «شباط Shebat»، ثم «ادار Adar» وهو «آذار» [٣].

ويلاحظ أن قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون هذه الأسماء، بل كانوا يعرفون الشهور بعددها، فكانوا يقولون: الشهر الأول والشهر الثاني الى آخر شهر من شهور السنة، ثم تعلموا التسمية [٤]. ويظهر أنهم أخذوها من الشعوب التي اختلطوا بها فيما

---

(١) الأنواء (ص ١٠٥ وما بعدها)، المرزوقي (١/٢٧٩).

(٢) الأنواء (ص ١٠٦ وما بعدها).

(٣) قاموس الكتاب المقدس (١/٦٣٩ وما بعدها)، Hastings, P. 936

(٤) المصدر نفسه.

بعد ، ولا سيا البابليين وبنى إرم ، فقد أخذ العبرانيون نصيباً كبيراً من حضارتهم ، ومن بينها المعارف الفلكية .

وهي لا تشبه كذلك أسماء الشهور الواردة في المسند . فليس في الذي بين أيدينا من أسماء للشهور العربية الجنوبية على اختلافها ما يشبه هذه الشهور المتقدمة . وهذا مما يحملنا على أعتبارها مجموعة مستقلة خاصة بعيدة عن التقويم العربي الجنوبي وعن تقويم العبرانيين .

وقد أورد العلماء شروحاً وتفسيرات لمعاني الشهور المتقدمة الجاهلية ، والشهور التي استعملت في الاسلام وأقترنت بالتقويم الهجري . فذكروا مثلاً أن المؤتمر معناه أن يأتمر بكل شيء مما يأتي به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر ، وهو شدة الحر، وخوان من الخيانة ، وصوان من الصيانة ، والزباء بمعني الداهية العظيمة المتكاثفة سمي بذلك لكثرة القتال فيه وتكاثفه ، والبائد سمي لأنه كان يبيد فيه كثير من الناس ، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ ماكان لهم من الثأر والغارات قبل دخول شهر رجب وهو شهر حرام ، والأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شراب ولم يدعوه ، وذلك لهجومه على شهر رمضان ، وكان يكثر في شهر رمضان شربهم للخمر ، لأن ما يتلوه شهور الحج ، وناطل مكيال للخمر ، سمي لإفراطهم في الشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل من العدل ، لأنه من أشهر الحج ، وكانوا يشتغلون فيه عن الناطل ، والرنة كانت الأنعام ترن فيه لقرب النحر ، وبرك سمي لبروك الإبل اذا أحضرت المنحر [1] .

---

(١) الآثار الباقية (١/٦١) ، المرزوقي (١/٢٧٥ وما بعدها) .

وعللوا تسمية المحرم بهذا الاسم ، لكونه من جملة الحرم ، وصفر لامتيارهم في فرقة تسمى صفرية ، وشهري الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والامطار ، وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن الخريف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جُمادى لجمود الماء فيها ، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه ، لا من جهة القتال ، وشعبان لتشعب القبائل فيه ، ورمضان لاحجارة ترمض فيه من شدة الحر ، وشوّال لارتفاع الحر وادباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لحجهم فيه [١] .

ويظهر من تفسير أسماء بعض الأشهر وتعليلها أن لتسمياتها علاقة بالمواسم وبالعوارض الطبيعية الجوّية مثل البرد والحر والاعتدال في الجو ، وأن مسمياتها ، أي الشهور المسماة بها ، كانت شهوراً ثابتة في الأصل ، وإلاّ فلا يعقل تفسيرها بغير هذا التفسير . فكيف يسمى رمضان رمضان مثلاً لرمض الحجارة فيه من شدة الحرّ فيه ، إن لم يكن ثابتاً وشهراً من أشهر الصيف الحارة ؟ وكيف يسمى جمادى بجُمادى لجمود الماء فيه ، إن لم يكن هو والشهر التالي له والمسمى بجمادى الآخرة ثابتين ، من أشهر الشتاء ؟ وهكذا يجب أن يقال عن بقية الشهور ، وإلا لم يصح ما قيل فيها من التفاسير [٢] .

ولكن أهل الأخبار يؤكدون أن شهور الجاهليين لم تكن ثابتة ، بل كانت على نحو ما نراه في الإسلام ، وأنهم كانوا يحجون في الأزمنة الأربعة ، « ثم أرادوا أن يحجوا في وقت إدراك سلعهم من الأدم والجلود والثمار وغير ذلك ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة وفي أطيب الأزمنة وأخصبها ، فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم ، وذلك قبل الهجرة بقريب من مئتي ستة ، فأخذوا يعملون بها

(١) الآثار الباقية (١/٦٠) ، بلوغ الأرب (٣/٧٨) ، الفراء (ص ٩ وما بعدها) .
(٢) الآثار الباقية (١/٦٢) .

ما يشنا كل فعل اليهود »[1] .

ولكن رأيهم هذا لا ينسجم كما قلت مع تفاسيرهم وتعليلهم لمعاني أسماء الشهور ، ولا يكون له أي معنى اذا أخذنا بقولهم في عـــدم ثبات شهور الجاهليين ، وهم يناقضون بذلك أنفسهم في روايتهم هذه الأخبار .

ويطلق أهل الأخبار على الطريقة التي تعلمها العرب من اليهود في تثبيت سنتهم « النسيء » . ويذكر بعضهم أن ذلك كان قبل الهجرة بقريب من مئتي سنة ، وأنهم كانوا يلحقون فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس شهراً بشهورها اذا تمّ ، « ويتولى القلامس من بني كنانة ذلك . يقومون بعد انقضاء الحج ويخطبون في الموسم وينسئون الشهر ، ويسمون التالي له باسمه ، فيتفق العرب على ذلك ، ويقبلون قوله ، ويسمون هذا من فعلهم النسيء ؛ لأنهم كانوا ينسؤون أول السنة في كل سنتين أو ثلاث شهراً على حساب ما يستحقه التقدم »[2] .

« وكان النسيء الأول للمحرم ، فسمى صفر به . وشهر ربيع الأول باسم صفر ، ثم والوا بين أسماء الشهور . وكان النسيء الثاني لصفر ، فسـمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً . وكذلك حتى دار النســيء في الشهور الاثنى عشر ، وعاد الى المحرم ، فأعادوا بها فعلهم الأول . وكانوا يعدّون أدوار النسيء ، ويحدّون بها الأزمنة ، فيقولون : قد دارت السنون من زمان كذا الى زمان كذا دورة . فان ظهر لهم مع تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس وبقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذى ألحقوه بها ، كبسوها كبساً ثانياً . وكان يبين لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي عليه السلام ، وكانت نوبة النسيء كما

(١) الآثار الباقية (١/٦٢) .

(٢) الآثار الباقية (١/٦٢) ، روح المعاني (١٠/٩١ وما بعدها) .

ذكرت بلغت شعبان ، فسمى محرماً ، وشهر رمضان صفراً ، فانتظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حينئذ حجة الوداع ، وخطب بالناس . وقال فيها : « ألا ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذوالحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مضر الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون »[1] . ومنذ ذلك الحين ترك النسيء . « عني بذلك أن الشهور قد عادت الى مواضعها ، وزال عنها فعل العرب بها . ولذلك سميت حجة الوداع الحج الأقوم . ثم حرم ذلك ، وأهمل أصلاً »[2] .

وقد ذكر بعض الأخباريين أن نسيء العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر ، لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات ، والآخر تأخير الحج عن وقته ، تحرياً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود الى وقته[3] . وهذا القول يلخص ما أورده أهل الأخبار في النسيء . ويتلخص في شيئين : النسيء تأخير الشهور ، وذلك بإحلال شهر في مكان شهر آخر ، للاستفادة من ذلك في التحليل والتحريم ، والنسيء بمعنى الكبس ، وهو اضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين ، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير ، تكون في مواسمها المعينة ، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء ،

---

(١) امتاع الأسماع (١/٥٢١) ، ويختلف هذا النص في مختلف الموارد ، راجع عمدة القارىء ، (١٨/٤١) .

(٢) الآثار الباقية (١/٦٢ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩١ وما بعدها) .

(٣) بلوغ الأرب (٣/٢٤) .

ثم يتحـول بمرور السنين ، فيقع بعـد أمد في الصيف أو في الربيع ، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرفة المستعملة في الإسلام .

وتسمى الطريقة الثانية ، وهي اضافة فرق الأيام بين السنتين الشمسية والقمرية الى السنة القمرية ، « الـكبس » في اصطلاح العلماء . وقد كانت شهور اليهود ، وهي شهور قمرية ، تساوي (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فهي لذلك أنقص بأحد عشر يوماً عن السنة الرومانية ، ولذلك أدخل اليهود شهراً ثالث عشر في كل ثلاث سنوات، سموه « فيادار » أو « اذار الثـاني » ، وبهذه الطريقة جعلوا السنة القمريـة مساوية للسنة الشمسية [1] .

واذا صحت رواية هذا النفر من الأخباريين عن اضافة الجاهليين أو بعضهم المدة المذكورة ، وهي أحد عشر يوماً ، الى السنة القمرية ، ليضمنوا بذلك ثبات الأشهر ، وعدم تغير أوقاتها . فان ذلك يكون كبساً صحيحاً بالمعنى المفهوم من الـكبس ، مؤدياً للغاية المتوخاة منه . وعندئذ تـكون سنة أولئك الجاهليين المستعملين للـكبس سنة قمرية شمسية . وأنا لا أستبعد شيوعها عند أهل المدينة ، بسبب اختلاطهم باليهود، ولا أستبعد كذلك اتفاقهم مع يهود يثرب في استعمال السنة المستعملة عند اليهود نفسها ، وابتدائهم بالشهر الذي كان يبدأ به أولئك اليهود .

ويؤيد هـذه الرواية ما ذكره أهل الأخبار كلهم من أن الغاية التي حملت العاملين بالنسيء على استعمالهم له « أنهم كانوا يحبّون أن يـكون يوم صَدَرهم عن الحج في وقت واحد من السنة » [2] . ولا تتحقق هذه الغاية إلا بالـكبس، ولا يمكن أن يكون الحج في وقت واحد من السنة إلا بهذا الـكبس .

---

(١) قاموس الـكتاب المقدس (١/٦٣٩ وما بعدها) .

(٢) شرح القاموس (١/١٢٥) .

أما التفسير الأول للنسيء ، وهو تفسيره بمعنى تحليل شهر محرم ، وتحريم شهر حلال ، وتأخير شهر وتقديم شهر ، فانه لايحقق ما ذكر من رغبة الناس يومئذ في حجهم في وقت ثابت لايتغير ولا يتبدل ، لأن الحج يتغير فيه ، فيكون أحياناً في الصيف ، وأحياناً في الشتاء ، وأحياناً في الربيع ، وأحياناً في الخريف . وهذا لا يتفق مع زعم أهل الأخبار في السبب الذي دعا الى الأخذ بالنسيء .

والنسيء بهذا التفسير ، لايفيد إلا من ناحية التحايل والتلاعب في ايجاد حيل مشروعة في تجويز القتال في بعض الأشهر الحرم ، وذلك كأن تكون قبيلة قوية متنفذة تريد القتال في شهر محرم ، لاستعدادها له فيه فتعمد الى هذا الحل ، والتحايل على العرف بالتوسل الى « القلمس » لتغيير الشهور ، فيصير الشهر الحرام حلالاً ، وبذلك يتاح لها القتال فيه .

واني أرى في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، وهو يعارض مع ما ذكر من الغاية من النسيء . وإذا جاز إحداثه في سنة ما للغايات المذكورة ، فلا يعقل إحداثه في كل سنة بانتظام . وإلا لم يبق له معنى ما ولا فائدة ترجى عندئذ منه .

فالتوفيق بين السنين القمرية والسنين الشمسية ، جرى على الطريقة المتقدمة على على ما يذكره أهل الأخبار ، على سنة يهود الحجاز . ويكون ذلك بالكبس في كل سنتين أو ثلاث سنين على الرواية المتقدمة .

والنسيء كما رأينا هو من الأمور الجاهلية التي أبطلها الاسلام . ويذكر معظم العلماء أن النسيء تأخير في الوقت . وكانت العرب تؤخر بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر ، فتتداخل الأشهر بعضها في بعض ، وتكون الأشهر التي ليست أشهراً حرماً في الأصل ، أشهراً حرماً ، وتتداخل الأشهر الحرم بعضها في بعض ، ولذلك حرمه

الاسلام ، لأن ذلك تحريم لما أحل الله ، وتحليل لما حرم الله [1] . وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم [2] ، كما ذكر في خطبة حجة الوداع [3] .

ويذكر بعض العلماء أن السبب في ورود النص في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي على عدد شهور السنة ، هو بسبب زيادة بعض العرب في عدد شهور السنة ، بأن جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً ، فقيدها الإسلام بأن جعلها اثني عشر شهراً لا غير [4] .

ويؤخذ من آراء بعض العلماء في النسيء أنه كان كبساً في الواقع ، وذلك أن الجاهليين كانوا يضيفون الى السنة شهراً في كل ثلاث سنوات ، تلافياً لنقص السنة القمرية عن السنة الشمسية ، ويجعلون أول السنة الرابعة من صفر ويسمونه المحرم ، فكان يقع حجهم في تلك السنة في المحرم ، ثم بعد سنتين في صفر ، وهكذا ، وغرضهم من ذلك التشبه باليهود في تطبيق الشهور على الفصول [5] .

وهو تفسير متأخر قال به المفسرون والعلماء المتأخرون ، ولكنه مبني على آراء المتقدمين وأقوالهم في النسيء . وهو يرينا أن النسيء كبس حقيقي ، قصد به المحافظة على الحج وعلى الأشهر الحرم الأخرى بجعلها في أوقات ثابتة من السنة ، فلا تتبدل ولا تتغير ، ولكن الحج كان يتبدل فيها ويتغير بالنسبة الى الشهور القمرية ، فلا يقع

---

(١) مفردات الراغب الاصفهاني (ص ٥١١) ، الروض الأنف (٢ / ٣٥٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٤ / ٢٤٣ وما بعدها) « تحقيق محمود محمد شاكر » .

Ency. of Islam, III, PP. 856.

(٢) التوبة : الآية ٣٧ .

(٣) امتاع الأسماع (١ / ٥٢١) .

(٤) بلوغ الأرب (٣ / ٧١) ، روح المعاني (١٠ / ٩٣ وما بعدها) .

(٥) تفسير الطبرسي (٥ / ٢٩) ، « طبعة المطبعة الاسلامية بطهران » .

فيها في شهر واحد هو ذو الحجة ، بل صار يقع في مختلف الشهور ، الحرم وغير الحرم، لتغير مواسم الشهور القمرية بالنسبة الى الشهور الشمسية ، فصار لأولئك الجاهليين نوعان من الشهور : شهور ثابتة هي شهور النسيء المكبوسة ، الحج فيها ثابت ، يعينه ويثبته « القلامسة » ، وشهور قمرية حرة تسير على وفق مطالع الأهلة ، لا يأخذ الحج فيها وقته المعين له عند الجاهليين ، وهو شهر ذي الحجة ، إلاّ بعد أمد ، عندئذ يلتقي شهر ذي الحجة القمري بشهر ذي الحجة الشمسي ، الثابت بتبيت « إلقلمس » له ، ويكون الحج يومئذٍ على وفق العرف الجاهلي القديم .

وقد سار المسلمون في حجهم على النسيء ، الى أن كانت السنة التاسعة من الهجرة ، التي حج فيها الرسول الحجة المعروفة بحجة الوداع ، وكان فيها الحج في ذي الحجة المطابق لذي الحجة في شهور النسيء ، فنزل الوحي عندئذ بتحريم النسيء ، وبالرجوع الى التقويم القمري الصرف والى السنة القمرية الخالصة ، فصار الحج ثابتاً في شهره القمري المسمى به ، ولكنه فقد ثبوته بالنسبة الى الموسم الذى كان يقع فيه ، فصار يقع في مختلف فصول السنة ، مرة في الشتاء ومرة في الربيع وتارة في الصيف وتارة الخريف .

أما ما ذكره أهل الأخبار عن مبدأ أخذ العرب بالنسيء ، فليس لذلك قيمة ، لأنه حدس وظن وخبر لا يقوم على سند ودليل . والفضل في بقاء خبر النسيء في ذاكرة أهل الأخبار يرجع ، ولا شك ، الى القرآن الكريم . فقد اضطر أهل التفسير والأخبار الى البحث عنه ، فكان هذا الذي ذكروه من أمره ، وهو كله صورة مبهمة أو تكاد تكون مبهمة ، لا تعطينا كل ما ينبغي أن نعرفه عنه . ومهما يكن من شيء ، فانه يظهر من كل ما رواه المفسرون وذكروه عنه أنه لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأن جماعة من بني كنانة كانت قد تخصصت به واحتكرته ، الى أن جاء الاسلام ، فلم يبق مكان للقلامسة فيه .

وما يذكره أهل الأخبار عن الشهور الحرم وعن غيرها ، لا يمكن أن يكون كلاماً عاماً ينطبق على كل العرب ، بل هو شيء خاص ، أخذ عن محيط أهل مكة في الغالب ، وعن بعض القبائل أيضاً ، فعممه أهل الأخبار ، بحيث صار وكأنه يشمل كل الجاهليين . فقد كان من بين العرب من لا يحرم الأشهر الحرم ، فكان يغير فيها ويقاتل ، مثل خثعم وطيء [1] ، وكان منهم من لا يعرف الحج ولا يأتي الى مكة . وهكذا كان لكل قبيلة عادة ربما لا نجدها عند قبيلة أخرى . ولم تتقارب هذه القبائل في العادات والأحكام إلاّ في الإسلام .

كان الجاهليون يعملون بالنسيء ، لتكون أوقات الحج في أوقات ملائمة ، وكذلك الأسواق المتصلة بها . ولما كان من الصعب على الأعراب معرفة ذلك وحفظه ، وكذلك سائر الناس الذين يقصدون مكة للحج ، صار لزاماً اعلان النسيء في الحج . وقد اختص بهذا الاعلان قوم من كنانة ، يظهر أنهم كانوا أصحاب حظ من العلم بالتوقيت وبحفظ الأشهر ، فقاموا به . وكان صاحبهم الذي يتولى هذه المهمة ، يقوم ، في آخر الحج ، بإعلان ذلك للناس ، وبتثبيت الشهور وتسميتها ، ليعرفها الناس ، ويأتوا الى الحج في الأجل المعين الموسوم [2] .

وقد ورد في بعض الروايات أن القلامسة ، كانوا يقولون حين ينسئون : « انى لا أحاب ولا أعاب ، ولا يرد ما قضيت ، وإني قدأحللت دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم » [3] . وذلك لما مرّ من عدم تحريم طيء

---

(١) شرح القاموس (١٢٥/١) .

(٢) Ency. of Islam, III, P, 856

(٣) شرح القاموس (١٢٥/١) .

وخثعم للشهور الحرم ، فكانوا يغيرون ويقاتلون فيها ، ولذلك استثناهم القلامسة من عدم مقاتلتهم في تلك الشهور ، وذلك لضرورات الدفاع عن النفس .

وكانت النَّسَأةُ القلامسة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم القَلَمَّس حذيفة بن عبد ، وانتقلت الى ابنه عباد من بعده ، وورد الاسلام ، وآخرهم أبو ثمامة [1] .

وذكر بعض أهل الأخبار أنه حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث بن مالك بن خزيمة[2] .

وذكر آخرون أن قلع بن حذيفة بن عبد بن فقيم كان أول من نسأ : نسأ سبع سنين ، ونسأ عوف ابنه من بعده ، ثم أمية بن عوف وقد نسأ إحدى عشرة سنة ، ثم ابنه من بعده وهو أبو ثمامة القلمس جنادة بن أمية وهو الذي أدرك الاسلام [3] .

وذكر بعض آخر أن أول القلامسة حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم ابنه قلع بن حذيفة ثم عباد بن قلع ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن أمية بن عوف بن قلع [4] .

وقد نسب الى بعض القلامسة شعر ، قيل إنهم قالوه يفتخرون فيه باحتكارهم النسيء ، وبارشادهم الناس الى مناسك دينهم ، وقيادتهم الحجاج ، يسيرون تحت لوائهم ، يبينون لهم شهور الحل والأشهر الحرم ، كما ورد شعر منسوب الى بعض كنانة يفتخر فيه بأن قومه ينسئون الشهور على معد ، فيجعلون شهور الحل حراماً ، والشهور الحرم حلالاً [5] .

---

(١) مروج الذهب (١/٢٦٧ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٧٢) .

(٣) شرح القاموس (١/١٢٤) ، تفسير الطبرسي ٥/٢٩ وما بعدها) ، تفسير سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

(٤) شرح القاموس (١/١٢٥) .

(٥) شرح القاموس (١/١٢٥) .

وليست لفظة « القلمس » ، اسم علم ، وإنما هي درجة واختصاص ، عرف بها من كان ينسيء الشهور . وقد عُرف بها لأول مرة أبو ثمامة جنادة بن أميّة من بني المطلب بن حدثان بن مالك بن كنانة كما يقول أهل الأخبار ، ثم أطلقت على ولده ثم على حَفَدَته الى ظهور الاسلام ، فعرفوا لذلك بالقلامسة [1] . وقد ذكر علماء اللغة أن من معاني القلمس : السيد العظيم ، والرجل الخيّر المعطاء ، والمفكر البعيد الغور ، والداهية من الرجال ، ونحو ذلك من معان تشير الى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه ، وقد تكون بمعنى العالم العارف ، وقد أطلقت بصورة خاصة على هذه الجماعة ، لسعة علمها بهذا الموضوع وغيره ، ولوقوفها على التوقيت وعلم الفلك في تلك الأيام . وقد تكون اللفظة من جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية قبل الاسلام .

ويرى بعض المستشرقين أن النسيء والناسىء من الألفاظ المعربة عن العبرانية . وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يَثْرِبَ . والناسيء عند اليهود هو الرئيس الديني . وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام ، ويذيع النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة [2] . والناسيء يقابل رئيس قبيلة عند بني اسرائيل [3] .

وقد بحث عدد من المستشرقين في حساب السنين عند الجاهليين وفي النسيء ، فجاؤوا بآراء متباعدة غير متفقة ، لكل واحد منهم رأي ومذهب في طريقة العرب قبل

---

(١) شرح القاموس (٤/٢٢٢) ، اللسان (٨/٦٥) .

(٢) ولفنسون : تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .

(٣) الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٣١ ، العدد ، الاصحاح ٧ الآية ٢٣ تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .

الإسلام في حساب الشهور وفي السنين القمرية والشمسية والكبس والنسيء . وقد ناقشها ولخصها نالينو في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » . وهو ممن يرون أن البحث في هذا الموضوع صعب عسير ، وأن البت فيه غير ممكن في الزمن الحاضر، لقلة الموارد وعدم وجود أخبار وروايات واضحة صريحة يمكن أن يستند اليها في إبداء رأي علمي ناضج في الموضوع [1] .

وما ذهب اليه نالينو ، أذهب أنا أيضاً اليه . فرأيي أن الحكم في سني الجاهليين شمسية هي أو قمرية ، وفي الكبس والنسيء وغير ذلك ، غير ممكن ولا جائز في الزمن الحاضر . فما ذكره وأورده أهل الأخبار ، لا يشمل كل الجاهليين ولا كل جزيرة العرب ، بل هو خاص بأهل الحجاز في الغالب ، ويكاد يكون خاصاً بأهل مكة ويثرب . أما بقية العرب الجاهليين ، فلا نعلم كما ذكرنا من أمرهم شيئاً ، إلا ما ورد في بعض نصوص المسند وبعض الكتابات المدونة بلهجات عربية شمالية مما له علاقة بالتوقيت ، وهو حتى الآن شيء قليل ، ثم هو لا يتعلق بأمور أساسية مهمة في هذا الموضوع .

أما اليهود ، يهود جزيرة العرب ، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة في التوقيت ، ويسلكون منهجهم في تعيين الشهور ، كما يتأيد ذلك أيضاً من الأخبار التي نجدها في كتب الأخباريين .

وأما النصارى العرب ، فقد كانوا يتبعون التقاويم الشرقية ، ويسيرون على الشهور السريانية المعروفة ، وعلى وفق شعائر الكنيسة ، ويحتفلون بأعيادهم على وفق ما ثبت عندهم في كنيستهم . وقد أشير اليها في بعض الشعر الجاهلي وفي كتب الأخباريين .

وقد استعان القدماء بتغير وجه القمر في تقسيم الشهر الى أربعة أقسام ، كل قسم

---

(١) (ص ٩٤ وما بعدها .

منها هو أسبوع ، ويتكون من سبعة أيام . وتعزى فكرة هذا التقسيم الى البابليين . ولكن ضبط الأسابيع وتتابعها على النحو المعروف حتى اليوم هو نظام ظهر بعدهم بأمد [(١)] . وقد ذكر الأسبوع في التوراة ، في سفر التكوين [(٢)] . وعلى أساس الجمع بين السبت اليهودي وقصة الخلق ، نظم الأسبوع بحسب العرف الشائع اليوم [(٣)] .

وذكر أيضاً أن العرب خصوا من الشهر ليالي بأسماء مفردة كآخر ليلة منه ، فانها تسمى السِرار لاستسرار القمر فيها ، وتسمى الفحمة أيضاً لعدم الضوء فيها ، ويقال لها البراء ، وكآخر يوم من الشهر ، فانهم يسمونه النحير ، وكالليلة الثالثة عشر ، فانها تسمى السواء ، والرابعة عشر ليلة البدر [(٤)] .

وقد عدّ التقويم العبراني « لوح » ، مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فبابتداء الغروب التالي له . ويقال للغروب « عريب 'ereb » في العبرانية . وأما وقت طلوع الشمس فيقال له « بوقير boker » . ويكون مبدأ الغروب وابتداء الليل بظهور النجوم الثلاثة . « زيت ها كوكيم » ، « الكواكب الثلاثة » [(٥)] . أما اليونان فقد عدّوا مبدأ اليوم عند شروق الشمس ، وأما منتهاه فابتداء شروق آخر ، وذلك بخلاف الرومان الذين عدوا منتصف الليل هو ابتداء اليوم . ومنتهاه عند منتصف ليل تالٍ له [(٦)] .

---

(١) سارتن (١/١٧٦) ، الأسبوع « شبوعة Shabu'a » في العبرانية ،
Universal Jewish Ency., Vol., 10, P. 482. f.

(٢) التكوين الاصحاح السابع ، الآية ٤ وما بعدها ، والاصحاح الثامن ، الآية ١٠ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١/٧٩) .

(٣) سارتن (١/١٧٦) .

(٤) الآثار الباقية (١/٦٤) .

(٥) The Jewish Encyclopedia, III, P. 501.

(٦) Dictionory of Classical Antiquities, P. 110.

واعتبر الجاهليون مبدأ اليوم من الغروب كذلك ، فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق الى غروبها من الغد ، فصارت الليلة عندهم قبل النهار [١] .

ولهذا السبب غلبت العرب الليالي على الأيام في التأريخ ؛ « لأن ليلة الشهر سبقت يومه ، ولم يلدها ، وولدته ؛ ولأن الأهلة لليالي دون الأيام ، وفيها دخول الشهر » [٢] . والعرب تستعمل الليل في الأشياء التي يشاركه فيها النهار ، فيقولون : أدركني الليل بموضع كذا ، وصمنا عشراً من شهر رمضان ؛ وإنما الصوم للأيام ، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان [٣] .

وقد أوردت كتب اللغة والأخبار أسماء الأيام التي كان يستعملها بعض الجاهليين ، ويتبين منها أن الجاهليين كانوا يسمون الأيام بأسماء مختلفة متباينة بحسب تباين الأماكن والقبائل. وقد ماتت تلك الأسماء الجاهلية ، وحلت محلها أسماء اسلامية، فأسماء الأيام عند بعض الجاهليين ممن أخذ علماء اللغة عنهم ، هي كما زعموا : « شيّار » ويراد به السبت ، وأول ويراد به الأحد ، وأهون وأوهد وأهود ويراد بها يوم الاثنين ، وجُبار ويراد به الثلاثاء ، ودُبار ويراد به الأربعاء ، ومؤنس ويراد به الخميس ، وعَرُوبة أو العَرُوبة أي بالتعريف ويراد به الجمعة [٤] .

وقد ذكر البيروني أن أسماء الأيام المتقدمة هي الأسماء القديمة للأيام ، وقد استعملها العرب قبل استعمالهم الأسماء المستعملة حتى اليوم ، وهي : السبت والأحد . وذكر

---

(١) الآثار الباقية (١/٥ وما بعدها) .

(٢) بلوغ الأرب (٣/٢١٦) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المخصص (٩/٤٢) « أسماء الأيام في الجاهلية » ، نهاية الأرب للنويري (١/١٤٢) ، مروج الذهب (٢/١١٠) ، الآثار الباقية (١/٦٤) ، الأيام والليالي والشهور للفراء (ص ٦) ، شرح القاموس (٢/٥٤٩) (٣/٨٥) .

أيضاً أن العرب لم يسموا أيامهم بأسماء مفردة ، غير أنهم أفردوا لكل ثلاث ليال من كل شهر من شهورهم أسماً على حدة مستخرجاً من حال القمر وضوئه فيها . فاذا ابتدؤوا من أول الشهر فثلاث غُرَر ، ثم ثلاث نفل ، وسموها ثلاثاً شُهْباً ، ثم ثلاث تسع أو ثلاث بهر ، ثم ثلاث عشر ، ثم ثلاث بيض ، ثم ثلاث دُرْع ، ثم ثلاث ظُلَم ، ثم ثلاث حنادس ، ثم ثلاث دآدي ، ثم ثلاث محاق ، لا نمحاق القمر والشهر [١] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن كعب بن لؤي هو أول من سمى الجمعة جمعة. وكانت قريش تجتمع اليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ويرشدهم ، ولهـذا عرف ذلك بالجمعة . وقيل : إنه لم يعرف بهذا الاسم إلاّ في الاسلام [٢] .

ولا نجد من بين هذه الأسماء اسماً يشابه أو يقارب أسماء الأيام المعروفة والمصطلح عليها عند البابليين أو السريان أو العبرانيين ، ما خلا لفظة « عروبة » و « العروبة » التي لها تشابه وصلة باسم يوم الجمعة الذي هو « عريب هاشبات ʿereb ha-shabbat » عند العبرانيين . أما البقيـة ، فلا يوجد لها ما يشابهها بين أسماء الأيام عنـد بقيـة الساميين . فليس لنا من سبيل الى مقابلتها بأسماء أيام الاسبوع عند السـاميين الآخرين . وليس لنا كذلك حق رفض هذه الأسماء باعتبارها من مبتكرات أهل الأخبار ، وباعتبار أنها خبر واحد في الأصل ، أخذه جملة رواة فيما بعد ودّونوه في كتبهم فصار في حكم المشهور المتواتر عندهم . وما علينا هنا الا الانتظار ، فلعلّ البحث في أطرافها ترد فيها هذه الأسماء . يظفرنا بكتابات قد يعثر عليها في الحجاز وفي مكة أو

ويذكر علماء اللغة أن أيام الاسبوع المعروفة والمتداولة عندنا في الزمن الحاضر ، وهي : الأحد والاثنين والثـلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، هي أسماء إنما

---

(١) الآثار الباقية (١/٦٣ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٣/٢٢٥) .

(٢) الأيام والليالي (ص ٦) .

عرفت وظهرت في الإسلام [1] . ولكنهم لم يذكروا ، ويا للأسف ، متى كان ظهورها ولا في أية سنة كان ذلك ، أكان ذلك في مكة أي قبل الهجرة أم بعد الهجرة الى المدينة ؟ وقد أضاعوا علينا بسبب ذلك فوائد كبيرة مهمة ولو كانوا ذكروه لأفادونا كثيراً في تعيين المكان الذي حدث فيه هذا التغيير، والزمان الذي وقع فيه ، ولاستطعنا به أن نقف على المصدر الذي أخذت هذه التسميات منه .

ولا يملك الاخباريون دليلاً مقنعاً يثبت لنا بجلاء أن أيام الأسبوع المعروفة اليوم إنما وضعت في الإسلام . وفي رواياتهم عن يوم الجمعة ما يخالف زعمهم هذا . ثم ان كلمة « السبت » وردت في آية مكية [2] . وورودها في آية مكية دليل على وقوف أهل مكة عليها ومعرفتهم بها . أما لفظة « الجمعة » ، فقد وردت في سورة مدنية ، أي أنها نزلت بعد الهجرة [3] .

وعندي أن أسماء أيام الأسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة في يثرب وفي مكة قبل الإسلام . وقد تعلمها أهل يثرب من اليهود ، من اختلاطهم بهم . فان هذا الترتيب للأسبوع مبني على قصة الخلق الواردة في التوراة . ولا بد لذلك لمستعملي هـذا الترتيب من أن يكونوا قد تعلموه من مصدر يهودي أو من مصدر له صلة باليهود .

أما لفظة « الجمعة » ، فانها في نظري تسمية عربية خالصة ، وقد أحلها الاسلام في مكان « عَرُوبة » الجاهلية و « عريب هاشبات » العبرانية . وأرى أنها تسمية إسلامية ، تخصصت بهذا اليوم الذي عظمه الإسلام ، وميزه على سائر الأيام بـ « صلاة

---

(١) المخصص (٩/ ٤٢) ، « أسماء الأيام في الاسلام » .

(٢) النحل : الآية ١٢٤ .

(٣) الجمعة : الآية ٩ .

الجمعة » التي يراد بها الاجتماع والجماعة ، وهو معنى كامن في هذه التسمية من غير شك .

وإذ لم نقف على أسماء الأيام عند العرب الجنوبيين كما ذكرت فيما سلف ، فاننا لا نستطيع أن نتحدث عن معرفتهم بهذه الأسماء المتقدمة أو عن عدم وقوفهم عليها . أما علاقتها بأسماء الأيام عند اليهود ، فاننا نعرف أن العبرانيين كانوا لايسمون أيام الأسبوع بأسماء خصوصية ، ولكنهم كانوا يعدونها بحسب ترتيبها ، فيقولون اليوم الأول والثاني والثالث كما هو في العربية ، إلاّ يوم الجمعة والسبت ، فقد كانوا يسمون الجمعة « عريب شبات 'Ereb Shabbat » ، ومعناه « مساء السبت » و « عشية السبت » . وأما «السبت » فهو« شبات Shabbat » ومعناه « الراحة Rest » ، وذلك لاعتقادهم ولما ورد في سفر التكوين : أن الله خلق العالم في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع . فسموا هذا اليوم : « يوم الراحة » « yom ha-Shabbat » « يوم ها ـ شبات » . واختصرت بـ « السبت » [١] .

ويقسم النهار والليل الى اثني عشر قسماً ، كل قسم منها ساعة ، فيكون مجموع ساعات اليوم أربعاً وعشرين ساعة . وساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السومرية البابلية ، فقدقسم البابليون الليل والنهار الى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة والنهار ، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم [٢] .

---

(١) The Jewish Encyclopedia, Vol., III. P. 502, Art., Calender .

(٢) سارتن (١/١٧٧) ،

Alfred Jeremias, Handbuch der altorientalischen Geisteskultur, Leipzig, 1929, S. 29.

وقد وقت الجاهليون اوقاتهم بالساعات كذلك، بدليل ورود لفظة ساعة بهذا المعنى الزمني المفهوم في القرآن الكريم [1] . ولا بد أنهم كانوا كغيرهم قد قسموا النهار الى اثنتي عشرة ساعة، والليل الى اثنتي عشرة ساعة، أي أنهم اعتبروا اليوم أربعاً وعشرين ساعة. ولا بد أن يكون العرب الجنوبيون قد ساروا على هذا التقسيم أيضاً، وإن كنا لا نملك نصاً مدوناً بالمسند يشير الى هذا التقسيم، ولا نملك أيضاً نصاً فيه لفظة ساعة. فليس من المعقول عدم وقوفهم عليه وعلى نظام الساعات، وقد كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشأم والعراق وبالحجاز، وبينهم نصارى ويهود، يوقتون بالساعات والأيام والاسابيع والشهور والسنين.

وذكر بعض علماء اللغة أن « الآناء » الساعات. وكان الجاهليون إذا شغلوا انساناً بالساعات، قالوا لذلك « المساوعة » [2] .

ويقول الجاهليون بوجود فجرين، أحدهما قبل الآخر. فالفجر الأول هو الفجر الكاذب، ويسمى « ذَنَب السرحان » لدقته. والفجر الثاني هو الفجر الصادق، ويقال له « المستطير »، ومنه الحديث: « ليس بالمستطيل، يعني الفجر الأول، ولكن المستطير »، يريد المنتشر الضوء. ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود [3] .

---

(١) « لم يلبثوا إلا ساعة من نهار »، الاحقاف الآية ٣٥ . « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »، الروم الآية ٥٥ .

(٢) المخصص (٩/٤٤) .

(٣) الأنواء (ص ١٤٣) .

وهناك شفقان ، أحدهما قبل الآخر : الشفق الأحمر ، والشفق الأبيض . وهو يغرب في نصف الليل [1] .

ولم ترد في كتابات المسند كل أقسام اليوم ، أي الليل والنهار . وقد وردت في قوانين ملوك قتبان التي تنظم التجارة والاتجار اشارة الى التجار الذين يتاجرون ليلاً ، أو يصلون آناء الليل . وقد استعملت لفظة « ليلم » أي « ليل » للتعبير عن الليل ، أي اللفظة ذاتها التي تستعملها عربية القرآن الكريم . ووردت فيها لفظة « صبحم » بمعنى صبح وصباح [2] . ولا بد أن تكون في لهجات العرب الجنوبيين مسمّيات لأقسام الليل والنهار على نحو ما نجده في اللهجات العربية الشمالية ، لم تصل الينا ، ولا يستبعد أن يظفر بها الباحثون بعد قيام العلماء بحفريات علمية منتظمة في العربية الجنوبية .

ولست أعرف نصاً من نصوص المسند ، ورد فيه اسم معين ليوم من أيام الأسبوع ، مثل الجمعة أو السبت أو الأحد وغير ذلك . وكل ما نعرفه من النصوص أن العرب الجنوبيين كانوا يذكرون موقع اليوم من الشهر ، فيكتبون في اليوم السابع من الشهر الفلاني ، أو في اليوم الخامس عشر منه ، أو في اليوم العشرين منه ، وهكذا . وذلك لتعيين مكان اليوم من الشهر . وطريقتهم هذه طريقة معروفة عند الساميين وعند غيرهم ، وهي لا تزال مستعملة حتى في هذه الأيام كتابة وفي الاستعمال الاعتيادي ، وذلك للسهولة والاختصار .

وقد يؤرخ بحكم ملكٍ ما ، بلفظة عامة تؤدي معنى حكم ، من غير تعيينه بسنين ،

---

(١) الأنواء (ص ١٤٣ وما بعدها) .

(٢) Rep. Epi. Semi., Num. 4337, P. 205, Glaser 1616. S. E. 88.

وذلك كما في هذا المثل : « بيوم اليفع يسر ملكم معنم »[1] . أي « بيوم اليفع يسر ملك معين » ، و « بيوم يذمر ملك ووترال »[2] وبعبارة أوضح : وكان ذلك في « حكم اليفع يسر ملك معين » و« كان ذلك في حكم يذمر ملك ووترايل » . فلم يذكر النص السنة التي دوّن فيها النص ، أو أرخ فيها صاحب النص من سني حكم الملك المذكور من ملوك معين . وهي سنون قد تكون قصيرة ، وقد تكون طويلة ، ولكن صاحب النص لم يعين سنة معينة من سني حكم الملك ، وإنما أرّخ بحكم الملك عامة من دون تعيين . ولفظة « يوم » هي بمعنى : حكم . وكان العرب الشماليون يستعملون لفظة « حكم » استعمال أهل العربية الجنوبية لفظة « يوم » ، فيقولون في حكم الملك الفلاني ، حدث الحادث الفلاني ، دون ذكر السنة التي وقع فيها الحادث من حكم ذلك الملك . ونجد في كتب التواريخ والأخبار أمثلة عديدة لهذا النوع من التوريخ .

وقد يؤرخ بحكم موظف من كبار موظفي الدولة من حملة درجة « كبر » « كبير » ، أو غيرها من الدرجات العالية في الدولة أو في المجتمع وذلك كما في هذا المثال : « بكبر هنا فامن »[3] ، ومعناه في : « كبارة هانيء فأمن » . و« هانيء فأمن » موظف من كبار الموظفين من درجة « كبر » . فأرخ النص بأيام حكم ذلك الكبير .

والغالب ذكر اسم الشهر مع حكم الكبير ، كما في هذا المثال : « بورخ ذ طنفت ذ كبر ايتم ذ عرقن »[4] ، ومعناها « بشهر ذو طنفت من كبارة أيتم ذو عرقن » ،

---

(١) Rep. Epi., 2869, 8.

(٢) المصدر نفسه الرقم ٢٧٤٠ ، Beeston, P. 26

(٣) Rep. Epi , 3707, 4-5.

(٤) Rep. Epi., 3608, 3, Beeston, P. 26.

وبعبارة أوضح « بشهر ذو طنفت من حكم الكبير أيتم ذو عرقن » و « ذو طنفت » اسم شهر من الشهور .

وإذا كان المسلمون يؤرخون اليوم بالتقويم الهجري ، والنصارى بالتقويم الميلادي ، واليهود بالتقويم العبراني المبني عندهم على مبدأ الخليقة في زعمهم ، فإن العرب الجنوبيين لم يكونوا يؤرخون بتقويم واحد ذي مبدأ ثابت به يبتدؤون في التوريخ ، بل كانوا يسيرون طرقاً متعددة في التوريخ . فكانوا يؤرخون كما قلت بحكم الملوك ، وحكم الكبراء والحكام وسادات القبائل ورؤساء العشائر والبيوتات كما كانوا يؤرخون بالحوادث الجسام كذلك . وفي المسند أمثلة عديدة كثيرة لهذه الأنواع .

وليس العرب الجنوبيون بدعاً في هذا الباب ، فقد كان غيرهم يؤرخ بهذه الطرق ، وذلك قبل توصلها الى اتخاذ تقويم واحد ثابت له بداية معينة تؤرخ به .

وقد تغير الحال في كتابات المسند من عهود ما بعد الميلاد ، فأرخت بتقويم ثابت اتخذته حكومات اليمن يبدأ حوالي سنة ١١٥ قبل الميلاد ، وهي سنة سقوط حكومة ملوك سبأ وتكوين دولة سبأ وذى ريدان ، فأرخ بهذا الحادث (١) ، ولا سيما في الكتابات الرسمية المتأخرة .

وقد ساعدنا هذا التقويم على تثبيت تواريخ عدد من النصوص أرخت بموجبه ، وعلى معرفة تأريخ هذه الحقبة معرفةً حسنة بعض الشيء . ولكن هذه النصوص قليلة العدد ، على أننا لا نملك نصاً واحداً منها من ابتداء العهد بالتأريخ ، كذلك لا نملك نصوصاً بالمسند من هذا النوع من عهد الميلاد أو القرن الأول منه .

وأقدم نص مؤرخ بهذا التأريخ ، هو النص الموسوم بـ CIS 46 ، وتأريخه سنة

---

(١) Mordtmann Und Eugen Mittwoch, Sabäische inschriften, Hamburg. 1931, S. I.

« ٣٨٥ » من هذا التقويم ، وهو يساوي السنة (٢٧٠) للميلاد . وهو من أيام الملك « ياسر يهنعم » ملك سبأ وذي ريدان وابنه « شمر يهرعش » . والنص الموسوم بـ MM 150 = CIS 448 ، تأريخه سنة «٣٩٦» ، وهو يساوي سنة «٢٨١» للميلاد . وقد كتب في عهد « شمر يهرعش » ، ونص آخر للملك « ياسر يهنعم » ، تأريخه سنة « ٢٧٤ » بعد الميلاد . وهناك نصوص مؤرخة أخرى من أيام الملك « شمر يهرعش » ، ونصوص من بعد أيامه حتى أيام تملك الحبشة لليمن . أما ما بعد أيام الحبشة في اليمن ، أي أيام استيلاء الفرس عليها ثم أيام دخولها في الإسلام ، فلم يصل الينا منها نص ، لا مؤرخ ولا غير مؤرخ [١] .

وآخر هذه النصوص المؤرخة ، هو النص الموسوم بـ Cis 325 ، وتأريخه سنة « ٦٦٩ » من التأريخ الحميري ، وهو يقابل سنة « ٥٥٤ » للميلاد . ويمكن أن نقول إن هذا النص هو آخر نص مؤرخ عثر عليه لا في المسند وحده ، بل في كل اللهجات العربية الأخرى ، وهو أقرب تلك الكتابات عهداً بالإسلام .

وهناك جملة نصوص غير مؤرخة ، ولكن لغتها وأسلوب كتابتها ومضامينها تشبه هذه النصوص المؤرخة المتأخرة ، مما يحملنا على رَجْع تأريخها الى هذا العهد المتأخر القريب جداً من الإسلام [٢] .

ومن النصوص المؤرخة بالتقويم المتقدم ، النص الموسوم بـ Cis 6٠ [٣] . وقد أورخ بـ « بورخ ذ خرف ذ لثلثت وسبعي وخمس مات » [٤] ، أي « بشهر ذو

---

(١) المصدر نفسه Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. I. ff.

(٢) المصدر نفسه (الصفحة ٢ وما بعدها) .

(٣) Cis, IV, I, P. 15, Halevy 3, Glaser, 7, Fresnel, 3, Gruttenden 5.

(٤) السطر الرابع من النص

الخريف لثلاثة وسبعين وخمس مئة » . ويقابل هذا التأريخ سنة « ٤٥٨ » للميلاد تقريباً . والنص الموسوم بـ « Cis 541 » [1] ، وقد أرخ بـ « بورخ ذ معن ثمنيت وخمسي وست ماتم » [2] ، أي « بشهر ذي معان سنة ٦٥٨ » ، ومعناها « بشهر ذي معان لسنة ثمان وخمسين وست مئة » . ويقابل ذلك سنة « ٥٤٣ » للميلاد تقريباً .

وقد أرخ أحد النصوص بهذه الجملة : « ور خهو ذ لثنى وسثي وست ماتم » [3] ، ولفظة « و رخهو » هنا لا يمكن تفسيرها بلفظة « شهره » ، بل يجب تفسيرها بـ « وتأريخه » . ويكون معنى الجملة على هذا النحو : « وتأريخه لاثنى وستين وست مئة » ، وبعبارة أوضح : « وتأريخه لسنة اثنين وستين وست مئة » . وقد أرخ النص الموسوم بـ « Ryckmans 520 » بلفظة « ورخهو » كذلك ، وهي بمعنى « تأريخه » كذلك . وقد وردت في هذه الجملة : « ورخهو ذ داون ذ لخرفن ذل اربعت وسبعي وخمس ماتم » [4] ، أي « وتأريخه ذ دأون لسنة ٥٧٤ » ، أو « وتأريخه شهر ذ دأون من سنة ٥٧٤ » ، المساوية لسنة ٤٥٩ للميلاد تقريباً .

والعادة أن تذكر لفظة سنة قبل عدد السنين ، كما في هذه الجملة : « خرفن ذ لثلثت واربعي وخمس ماتم » [5] ، ومعناها : « السنة الثالثة والأربعين بعد الخمس مئة »

---

(١) Cis 541, Glaser 618.

(٢) السطر ١٣٦ من النص المذكور .

(٣) Ryckmans 506. Beeston, P. 37.

(٤) Beeston, P. 37.

(٥) Ryckmans, 534, Beeston, P. 57.

وقد تذكر بعد عدد السنين ، كما في هذا المثال « ورخهو ذ حجتن ذل اربعى وستماتم خرفتم »[1] ومعناه « وتأريخه أو شهره ذو الحجة لأربع وستمائة سنة » . وتقابل هذه السنة سنة « ٤٨٩ » للميلاد تقريباً .

وبالرغم من وقوفنا على أسماء عدد من الشهور ، وعلى جملة تقاويم استعملها العرب الجنوبيون في توريخ كتاباتهم ، وتيقننا أنهم كانوا يؤرخون الحوادث وأن الحكومات عندهم كانت تورخ أيامها وتضبط أعمالها على وفق التقاويم ، وتجبي حساباتها في أوقات معينة ، فاننا لا نستطيع الجزم بنوع تلك التقاويم أ كانت قمرية خالصة أم شمسية أم كانت تجمع بين التقويمين . إن السير على وفق التقويم القمري لا يتناسب مع الزراعة لأن الشهور القمرية متغيرة ، فيكون الشهر فيها شتاءً ، ثم يكون بعد سنين صيفاً ، ثم يكون في موسم آخر ، وهكذا . ولذلك كان الحساب القمري لا يتناسب مع الزراعة ومع حسابات الحكومات ، ولهذا لا يستبعد كون العرب الجنوبيون استعملوا التقويم الشمسي ، ولا سيما بعد أن رأينا أن أسماء بعض الشهور تشير الى معان لها صلة بالجوّ من حرّ وبرد وربيع وخريف . ولا يستبعد أيضاً استخدامهم تقويماً قمرياً شمسياً كما ذكرت ، وذلك بالكبس وبالتدوير في حساب السنين ليطابق التقويم الشمسي

هذا ولا بد أن يكون العرب الجنوبيون قد اتخذوا تقويماً منتظماً مبنياً على الساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنين بعد الميلاد ، ولا سيما في الأيام المتأخرة فيما قارب الإسلام ، وبعد اتخاذهم تقويماً ثابتاً ذا مبدأ ثابت معلوم ، فليس من المعقول ألا

---

(١) CIS 621, Beeston, P. 37, Glaser, die Abessinier in Arabien und Afrika, 1896, S. 152. ff., Zwei inschriften, S. 86. f.

السطر العاشر من النص .

يكون عندهم تقويم منتظم ولاحسابات يضبطون بها السنين ، وقد وصلوا في التنظيم وفي الحضارة مرتبة عالية تحتم عليهم اتخاذ تقويم منتظم مضبوط . واذا كان أهل الحجاز يكبسون بعض السنين ويلجؤون الى النسيء ، فلا يعقل اذن عـــدم استعمال العرب الجنوبيين طرقاً حسابية فلكية في ضبط تقاويمهم لتتناسب مع الفصول .

هذا ، وان في استطاعتنا التأكيد أن اليمن لم تسر رسمياً على التقويم العبراني أو التقويم النصراني ، حتى في أيام احتلال الحبش الأخير لليمن ، أو في أيام استيلاء الفرس عليها ، وذلك بدليل توريخ أبرهــة عامل الحبش على اليمن ، وهو نصراني ، بالتقويم اليماني المستعمل في اليمن الذي تحدثت فيما سلف عن مبدئه ، مع أنه حاكم اليمن وممثل الحبش فيها وهو نصراني . وبدليل توريخ عدد من كتابات المسند المتأخرة من عهــد لا يبعد كثيراً عن الإسلام بهذا التقويم . وليس بالتقويمين المذكورين ، أو بأي تقويم آخر من التقاويم المستعملة عند الشرقيين .

ولـكن هذا لا يعني بالطبع عدم احتمال توريخ يهود اليمن أو نصاراها أو غيرهم بتقاويم أخرى ، مثل التقويم العبراني أو الميلادي أو السـرياني أو غيرها ، وما قلته آنفاً هو عن التقويم الرسمي المدوّن في المسند . وربما كان من ذكرنا قد اسـتعمل تقاويم أخرى في حياتهم اليومية كالذي تفعله أكثر البلاد الاسلامية اليوم من استعمال تقويمين أو أكثر في توريخ أوامرها ، كالتقويم الميلادي والهجري وبعض التقاويم المحلية القديمة أيضاً من باب التمسك بالماضي والحفاظ على التراث القديم .

ويروي أهل الأخبار أن أهل الحجاز كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي حدثت لهم ، وذكروا مثلاً على ذلك عام الخُنان . وهو عام وقع فيه كما يقولون مرض خطير

عضال فتك بالناس وبالابل ، فأرخوا به ، ورووا في ذلك شعراً للنابغة الجعدي [١] .

كما كانوا يسمّون السنين بالحوادث الخطيرة الجليلة التي تقع فيها . وقد فعل ذلك المسلمون أيضاً في صدر الاسلام ، فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها للنبي . فسموا السنة الأولى بعد الهجرة سنة الاذن ، والثانية سنة الأمر بالقتال ، والثالثة سنة التمحيص ، والرابعة سنة الترفئة ، والخامسة سنة الزلزال ، والسادسة سنة الاستئناس ، والسابعة سنة الاستغلاب ، والثامنة سنة الاستواء ، والتاسعة سنة البراءة ، والعاشرة سنة الوداع ، فكانوا يستغنون بذكرها عن عددها من لدن الهجرة [٢] .

ومن ذلك يوم الفجار الكائن في الشهر الحرام ، وحلف الفضول ، وقد أرخت بهما قريش ، ويوم الفضاء والربيع والرحابة والسرارة وداحس والغبراء ويوم بعاث وحاطب ومَضَرس ومعبس وغير ذلك من أيامها التي تذكر في كتب التواريخ والأخبار [٣] .

وذكروا أنهم أرخوا بعام وفاة هشام بن المغيرة المخزومي ، وهو والد أبي جهل ، وكان من رؤساء بني مخزوم ، وله صيت عظيم بمكة ، كما كان سيد قريش في زمانه [٤] .

وأرخوا بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن يحيي ، وهو الذي يقال إنه بدل دين ابراهيم ، وحمل من مدينة البلقاء صنم هُبَل ، وعمل إسافاً ونائلة ،

---

(١) بلوغ الأرب (٣/٢١٥ وما بعدها) ، « وزمن الخنان كان في عهد المنذر بن ماء السماء وماتت الابل منه . وهو معروف عند العرب وقد ذكروه في أشعارهم . قال النابغة الجعدي :

فمن يحرص على كبرى فاني   من الشبان أيام الخنان

قال الأصمعي : كان الخنان داء يأخذ الابل في مناخرها وتموت منه . فصار ذلك تأريخاً لهم » ، شرح القاموس (٩/١٩٣) .

(٢) الآثار الباقية (١/٣١) .

(٣) الآثار الباقية (١/٣٤) .

(٤) بلوغ الأرب (٣/٢١٥) .

وذلك كما يقال في زمن « سابور ذي الاكتاف » . وأرخوا بعام موت كعب بن لؤيّ الى عام الغدر ، وهو الذي نهب فيه بنو يربوع ما أنفذه بعض ملوك حمير الى الكعبة من الكسوة ، ووثب بعض الناس على بعض في الموسم . ثم أرخوا بعام الغدر الى عام الفيل الذي أرخوا به [1] .

أما العرب الشماليون ، عرب العراق وبادية الشأم وبلاد الشأم ، فلم يرد الينا من نصوصهم المؤرخة إلا عدد محدود ، منها نص النمارة الذي سبق أن تحدثت عنه . وهو مؤرخ بتقويم بصرى ، وبصرى مركز مهم ، كان يقصده عرب الحجاز للاتجار وقد وصل اليه النبي . وكان عرب الشأم يؤرخون به . ويبدأ هذا التقويم بدخول بصرى في حوزة الروم سنة ١٠٥ أو « ١٠٦ » للميلاد [2] .

وقد أرخت كتابة « حرّان » اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ للميلاد ، والأندقطية هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة . أما النص العربي ، فقد أرخ بسنة ٤٦٣ ، بعد مفسد خيبر بعام . ويراد بجملة « بعد مفسد خيبر بعم » ، غزوة قام بها أحد أمراء غسّان أو غيره لخيبر [3] .

ويظهر من بعض الكتابات الصفوية أن الصفويين كانوا مثل غيرهم يؤرخون بالحوادث التي يكون لها شأن عندهم ، مثل حروبهم بعضهم مع بعض ، أو حروبهم مع غيرهم مثل النبط أو الروم . وقد أرخ بعضها بحوادث ذوات صفة خاصة وعائلية ، مثل « سنة قتل خاله » ، أو « سنة وفاة والده » . وهي حوادث لا يمكننا الاستفادة

---

(١) الآثار الباقية (١/ ٣٤) .

(٢) جواد علي : العرب قبل الاسلام (١/ ١٧) .

(٣) جواد علي : تأريخ العرب قبل الاسلام (١/ ١٨) .

منها في استنباط تأريخ منها ، لاننا لا نعرف من أمرها شيئاً . غير أن هنالك نصوصاً مؤرخة أفادتنا بعض الإفادة في الوقوف على التوقيت عند الصفويين . ففي نص لرجل اسمه « انعم بن خش » ، ما يفيد أنه استولى على غنائم « سنة الحرب مع النبط » . ويقصد بسنة الحرب مع النبط ، السنة التي قضى فيها الرومان على مملكة النبط ، وهي سنة « ١٠٥ » أو « ١٠٦ » للميلاد . وقد صارت هذه السنة مبدءاً للتأريخ في « بصرى » ، وعند العرب الصفويين . ويمكننا عدها مبدأ تقويم ، يحل لنا تواريخ عدد من الكتابات الصفوية المؤرخة بهذا التأريخ [1] .

ولدينا نص صفوي آخر ، أرخ بـ « سنت حرب همدى ال روم » ، أي « سنة محاربة الميديين الروم » ، و « سنة حرب الميديين الروم » . ويرى « ليتمان » أنه قد توصل الى ضبط تأريخ هذه الحرب . وهناك نص آخر أرخ بـ « سنت قتل ال حمد » ويظن أنه يشير الى معركة دارت على قبيلة تسمى « آل حمد » . وصاحب النص رجل من قبيلة تسمى « الرحبة » [2] .

وقد كان هؤلاء العرب يؤرخون بالحوادث العظام التي كانت تقع لديهم أيضاً ، مثل حكم ملك أو موته أو وقوع حرب أو عقد صلح أو حدوث مجاعة أو انتشار مرض . وأنا لا استبعد استعمال الحضر منهم للتواريخ الشائعة المستعملة عند من كان في جوارهم وعلى اتصال بهم . فلا أستبعد احتمال توريخ الغساسنة بتقويم الروم ، ولا سيما النصارى منهم ، ولا أستبعد توريخ عرب الحيرة النصارى بتأريخ الكنيسة أو بتواريخ الفرس . وقد رأينا فيما سبق ، وفي أثناء كلامي على الحيرة ، أن ملوك الحيرة كانوا — كما ذكر ابن الكلبي — يؤرخون أيامهم ويدونونها في صحف وكتب وكراريس يدوّنون حكم كل ملك ، ومن كان يعاصره من الملوك الآخرين .

---

(١) العرب في سوريا قبل الاسلام ، (ص ١٠٣ وما بعدها) .

(٢) سورية قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

وقد كان الجاهليون يعيدون في مناسبات مختلفة دينية وغير دينية ، لها علاقة بالقبيلة أو بالمدينة وبما شابه ذلك . ولفظة « العيد » من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . وقد كانوا يعيدون في أوقات معينة وأيام معروفة على نحو ما نفعل في الأعياد . ويرى المستشرقون أن لفظة « العيد » من الألفاظ المعربة ، دخلت الى العربية من السريانية في جملة ألفاظ عديدة لها معان دينية واجتماعية ، دخلت الى العربية من هذه اللغة . وهي « عيدا » 'iddà « و « عيذا » 'édà » و « عيذو » 'ïdo « في السريانية [١] .

ومن أعياد الجاهليين التي أشار اليها أهل الأخبار : يومان كان أهل المدينة يلعبون فيهما ويلهون ، وقد أبطلهما النبي حينما دخل المدينة ، وأحل محلهما يوم الفطر والأضحى . وذكر بعض العلماء أنهما النيروز والمهرجان ، فكأنهم أخذوهما من الفرس [٢] .

ويوم السبع ، عيد كذلك من أعياد قبيلة من قبائل العرب في الجاهلية ، يشتغلون فيه باللهو واللعب ، وكذلك يوم « السباسب » ، وكان عيداً لقوم من العرب في الجاهلية ، وكانوا يحيّون فيه بالريحان . قال النابغة :

رقاق النعال ، طيّبٌ حُجُزاتهم ... يحيّون بالريحان يوم السباسب [٣]

وقد كان الجاهليون يسمون بعض الأيام « الأيام النحسات » ، وهي كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع وعشرين وأربع بقين [٤] .

---

(١) Shorter Êncy., P. 156.

(٢) بلوغ الأرب (١/٣٤٧) ، جامع الأصول (١٠/١٦٦) .

(٣) بلوغ الأرب (١/٣٤٧ وما بعدها) ، « يوم السبع عيد ، كان لهم في الجاهلية . كانوا يشتغلون فيه بلهوهم وعيدهم عن كل شيء » ، شرح القاموس (٥/٢٧٣) .

(٤) مروج الذهب (٢/١١٠) ، « والنحس ضد السعد من النجوم وغيرها ... وأيام نحس . وهي أيام نحيسة ونحسة ونحسات ... والنحسان من الكواكب : زحل والمريخ ، كما أن السعدان الزهرة والمشتري » ، شرح القاموس (٤/٢٥٤) .

كما كانت تتشاءم من بعض الشهور ، مثل شهر شوّال ، ولذلك كرهت التزوج فيه [1] .

وقد استعمل القدماء قياس الأبعاد والوزن والكيل في معاملاتهم كذلك . وهي متقاربة بين الشعوب السامية لاختلاط هذه الشعوب بعضها ببعض ، ولمستوى تلك الشعوب في الأيام الماضية ، ودرجتها في الثقافة بالنسبة الى تلك العهود ، هذا ونجد الأوزان والمكاييل قد تطورت شيئاً فشيئاً : تطورت بالتدريج من أحوال بدائية حسّية يدركها الانسان البدائي ، الى أن اتخذت أشكالاً تستند الى أسس علمية . ويستعمل الوزن لقياس الكميّات . أما المسافات والابعاد ، فتقاس بالطبع بمقاييس تستند الى أساس تقدير الأبعاد .

ويعبر عن الوزن وعن قياس الأبعاد بلفظة «كلت» «كيلة» في المسند . من أصل «ك ا ل» «كال» [2] . ومن هذا الأصل لفظة «كيل» و «مكاييل» في لهجتنا . ولعلّ للفظة «كلت» معنى «كيلة» كذلك ، أي وحدة قياسية من وحدات الوزن والكيل .

وفي معنى «كلت» ترد لفظة «سفرت» «سفرة» . وتستعمل خاصة في قياسات الأبعاد ، مثل البعد بين مكانين ، أي المسافات والأطوال [3] فهي بمعنى مرحلة . أي وحدة قياسية للبعد . ومعدل ما يسافره الانسان أو تقطعه القافلة في اليوم .

وتعد قياسات الأبعاد والموازين والمكاييل البابلية من أهم وأدق المكاييل

---

(١) مروج الذهب (٢/١٠٨ وما بعدها) .

(٢) Rhodokanakis, Stud., II, S. 79.

(٣) المصدر نفسه 83.

والأوزان عند الشعوب الشرقية . فقد استند البابليون في قياساتهم هذه الى أسس علمية . وهم في ذلك أدق من قدماء المصريين ، ومن اليهود [1] .

ولو تعمقنا في دراسة قياس المسافات ، فإننا نجد أن الانسان قد استعان بأجزاء جسمه في بادئ الأمر في القياسات ، فاستعان بالإصبع ، واعتبره وحدة قياسية صغيرة لقياس البعد . استعمل عرضه كما استعمل طوله . واستعمل : « الكف Palm » قياساً للأبعاد كذلك . وهو أربع أصابع عند العبرانيين [2] . واستعمل « الشبر » « Span » للأبعاد التي تزيد على الكف . والشبر هو مسافة ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر ، ويساوي ثلاث كفوف . ويعدل من ثمانية قراريط الى أحد عشر قيراطاً . واستعملت الذراع « Cubit » وجعلوها تعادل شبرين . وتقدر بنحو قدم ونصف قدم الى قدمين . ثم « الخطوة Pace » وتعادل ذراعين أو ثلاث أقدام أو اثنى عشرة كفاً . ثم القامة « Fathom » ، وتعادل خطوتين أو أربع أذرع أو ستة أقدام . ثم القصبة « Reed » . وتعادل قامة ونصف قامة ، أو ستة أذرع . وتعادل تسع أقدام أو ستاً وثلاثين كفاً [3]

ووحدة القياس في اليمن ، هي : « ا م هـ » « امه » و« امت » . تقاس بها الأبعاد . وتذكر القياسات طولاً وعرضاً [4] . ووحدة قياس الأبعاد ، أي الطول والعرض ، عند المعينيين ، هي « شوحط » ، فيقال مثلاً : « سدثى شوحط » ، أي ستون شوحطاً [5] .

---

(١) Hastings, P. 967.

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) .

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) وما بعدها) ، Hastings, P. 967. f.

(٤) راجع الفقرة الرابعة من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199.

(٥) راجع النص الموسوم بـ Halevy 352.

وذكر الذراع في القرآن الكريم في آية : « في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذِراعاً فاسلكوه » [1] . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الذراع من طرف المرفق الى طرف الإصبع الوسطى [2] . وذكر بعض العلماء أن الذراع والساعد واحد . وأما «المذارعة» فالبيع بالذرع [3] .

وقد أشير الى ذراع العامة والى ذراع الملك . والفرق بينهما مقدار قبضة واحدة . فذراع العامة ، هو ست قبضات . أما ذراع الملك ، وينسب الى أحد الأكاسرة ، فانه سبع قبضات [4] .

واستعمل الفلسطينيون الـ « Plethron » ، وهو يعادل عشرة قصبات أو خمس عشرة قامة ، ويقابل تسعين قدماً . ثم الـ « ستاديوم Stadium » ، ويقال له « Furlong » كذلك ، ويعادل ستة « بلثرا Plethra » ومئة قصبة . ثم « الميل » « milion» « Mile » ، ويعادل ثمانية « ستاديونات » وثلثاً . وهناك ميل آخر يعادل سبعة « ستاديونات » ونصفاً . وتختلف الأميال أيضاً بعض الاختلاف ، فالميل الروماني يختلف عن الميل اليهودي أو الميل عند الشعوب الشرقية . وقاس اليهود بوحدة بُعْدٍ دعوها « سفر سبت » ، وتعادل سبع « غلوات ونصف غلوة » ، وبوحدة أخرى دعوها « مسيرة يوم » ، وتعادل عشرين ميلاً تقريباً [5] .

والعادة قياس المساحات « Measures of area » بمقاييس تسمى بأسماء تختلف

---

(١) الحاقة الآية ٣٢ ، تفسير الطبري (٢٩/ ٤٠ وما بعدها) « طبعة بولاق » .

(٢) القاموس (٣/ ٢٢) .

(٣) شرح القاموس (٥/ ٣٣٣ وما بعدها) .

(٤) Ency. Islam., I, P. 959,

(٥) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣١ وما بعدها) ، Hastings, P. 968

عن مقاييس الأبعاد . فالأرضون الزراعيـة مثلاً تقاس في الغـالب بمقاييس لها أسمـاء تختلف عن أسماء مقاييس الأبعاد . وقد وردت في التوراة أسماء بعض مقاييس الأرض الزراعية ، مثل « الفدان Acre » وقد ورد في « أشعياء » « لأن عشرة فدادين كرم تصنع بثاً واحداً ، وحومر بذار يصنع إيفة » [١] وهو مساحة من الأرض .

وقاس القدماء مساحات الأرضين الزراعية أيضاً بمقدار البذور المنثورة وبمقـدار ما يحرثه ثور واحد أو حيوان في نهار . ويراد بذلك متوسـط عمل محراث واحد في الأرض . فورد في التوراة مثلاً تقدير مساحة أرض بمقدار « حومر » من الشعير ينثر فيها . و « الحومر » هو وزن توزن به الحنطة والشعير [٢] . وهكذا قدرت مساحة أرض بمقدار كميات البـذور التي تنثر في الأرض . وتذكر في العـادة مقدار كيلات البذور المنثورة لتقدير مساحة الأرض .

وترد في بعض الكتابات لفظة « ممد » مع العـدد ، كأنها استعملت للتعبير عن قياس ، ولكنها لا تعبر عن وحدة قياسية قائمة بذاتها ، كما تعبر في أيامنا بمثل قدم أو « متر » أو « ياردة » أو « كيلو » أو « لتر » وأمثال ذلك من كلمـات تعني وحدات قياسية معينة ، بل هي تعبر ، كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، عن معنى عام ، هو مسافة أو كيل أو وزن . ويفهم ذلك المعنى من مكانة الكلمة وموضعها في الجملة . وهي من أصل « مدّ » « مدد » ، وفي هذا الأصل معنى التمدد والاتساع [٣] . وأرى أنها : المدّ ، وهو مكيال معروف عند الجاهليين ، وقد ورد ذكره في كتب الحديث [٤] .

وتقاس الأرض بالجريب أيضـاً . والجريب من الأرض والطعـام : مقدار معلوم

---

(١) الاصحاح الخامس ، الآية ١٠ .

(٢) اللاويون : الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ١٦ .

(٣) Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 34.

(٤) شرح القاموس (٢/١٩٢) .

الزرع والمساحة ، وهو عشرة أقفزة ، لكل قفيز منها عشرة أعشراء ، فالعشير جزء من مئة جزء من الجريب . وهو مكيلة معروفة . ويقال : الجريب مكيال قدر أربعة أقفزة ، وقال بعض العلماء : إنه يختلف باختلاف البلدان [١] .

وأما وزن الأشياء ، أي تقدير مقدار ثقلها ، فيختلف في الغالب باختلاف طبيعة الشيء المراد معرفة وزنه وتقدير ثقله . فإذا كان الشيء جافاً قدر بمعايير خاصة ، وإذا كان سائلا قدر بمعايير أخرى . غير أن هذا التفريق ليس يعدّ قاعدة عامة ، وإنما يختلف باختلاف الأماكن والأعراف والعادات . فقد يزن بعض الناس المائعات بمعايير توزن بها الأشياء الجافة عند أناس آخرين، فالسمن مثلا يوزن ويكال، والتمر يوزن ويكال[٢]، وهناك أمثلة عديدة أخرى من هذا القبيل .

ويظهر أن الجاهليين كانوا قد أخذوا الأوزان من البيزنطيين ، وذلك قبل الإسلام بأمد . فنحن إذا ما درسنا أنواع المعايير والأوزان التي يوزن بها نجد أنها وضعت على وفق الترتيب البيزنطي الذي كان معمولاً به في الانبراطورية البيزنطية ، وفي جملة ذلك بلاد الشأم التي كانت جزءاً منها . وقد استعملت هذه الأوزان في وزن الأشياء سواء أكانت معادن أم نقوداً أم غير ذلك . والرطل هو «Libra» عند البيزنطيين . أما الأوقية ، فتقابل « Uncia » عندهم . وأما المثقال ، فهو « Sextula » . وأما الدرهم ، فهو الدراخمة « Drachma » . وأما الدانق ، فيقابل « Obulus » . وأما القيراط ، فهو « Siliqua » . وأما الحبة ، فهي « Granum » ، وهي بمعنى حبة عند البيزنطيين [٣] .

(١) شرح القاموس (١/١٢٩) .

(٢) اللسان (١٤/١٢٥) .

(٣) Ency. Islam, II, P. 1023. f.

ويقاس الذهب بالوزن ، وكذلك الفضة ، فكان التجار يحملون معهم الموازين ليزنوا بها هذين المعدنين . وكان تجار العبرانيين يحملون الموازين والعيارات معهم . وكذلك نجد صور الموازين على جدران الهياكل المصرية . وقد كان « الشاقل » هو وحدة القياس للوزن عند اليهود . ويقال في العربية « شقل الدينار وشوقل الدينار ، بمعنى وزنه وعايره وصححه » . أي بالمعنى المفهوم من اللفظة عند العبرانيين . أما الشاقول ، فإنه مقياس يستعمل في أعمال البناء وفي الزراعة لقياس الأرض [1] .

و « المثقال » من الأوزان القديمة عند العرب ، وقد وردت لفظة « مثقال » في القرآن الكريم بمعنى مقدار وَوَزْن [2] . ويظن بعض المستشرقين أن « المثقال » من أقدم المعايير عند العرب [3] ويستعمله العطارون والصيارفة وباعة اللؤلؤ والحجارة الثمينة . وهو عبارة عن اثنين وسبعين شعيرة . وفي بعض الموارد : المثقال عشرون قيراطاً [4] . وهو يقابل الـ « Solidus » عند الروم على وفق النظام الذي أقره القيصر « قسطنطين Costantine » . وهو نظام اتبع في بلاد الشأم ، وأقره العرب واستعملوه .

و « الحبّة » من العيارات المستعملة في نظم الوزن عند العرب والتي بقيت مستعملة في الاسلام كذلك ، ولا تزال تستعمل . أما وزنها فاختلف فيه باختلاف

---

(١) « ... والدينار وزنه .. » ، القاموس (٣/٤٠١) ، « وقال ابن الأعرابي : شقل الدينار وزنه ... وشوقل الدينار عايره وصححه » ، شرح القاموس (٧/٣٩٢) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٥) ، « شيقل وشقلو » في البابلية : Shrader, S. 340. ، برصوم : الألفاظ السريانية (ص ٩٧) .

(٢) « ومثقال الشيء : ميزانه من مثله .. وقوله تعالى : مثقال ذرة ، أي زنة ذرة ... المثقال ما يوزن به ... وهو الثقل .. » ، شرح القاموس (٧/٣٤٥) .

(٣) Ency. I?lam, III, P. 558

(٤) التاج (٧/٣٤٥) .

الأزمنة والأمكنة ، وقد قدرها بعضهم بعشر الدانق [1] . وقدرها بعض آخر بسدس ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم [2] .

وقد أشير في الحديث الى « نواة من ذهب » ، وقد جعل بعض العلماء النواة زنة ، وقال بعض آخر : النواة من العدد عشرون أو عشرة ، أو هي الأوقية من الذهب أو أربعة دنانير أو ما زنته خمسة دراهم أو ثلاثة دراهم ونصف أو ثلاثة دراهم وثلث [3] .

ومن المكاييل المذكورة في التوراة والمعروفة عند الجاهليين كذلك ، والتي تكال بها الأشياء الجافة : « القبضة » « Handful » ، أي كومة اليد [4] . والكومة كيلة عند الشعوب الأخرى وهي بمعنى صبرة . ولا يزال البدو يستعملونها ، ولكنها ليست من المكاييل الرسمية ، بل هي في الواقع كيلة عرفية . وهي تختلف في المقدار والكمية بحسب اتساع قبضة اليد [5] .

و « الكيلة » مقياس استعمله العبرانيون والجاهليون كذلك ، وهي « Seah » و « Saton » في اليونانية . و « Modius » ، وهي تختلف من حيث الحجم باختلاف اصطلاح الأمم . فالكيلة العبرانية كبيرة بالقياس الى الكيلة الرومانية ، وهي تعادل كيلة وربع كيلة

---

(١) Ency. Islam, II, P. 185 ، شرح القاموس (٥/٣٠٢) .

(٢) القاموس (٣/٣٢٠) ، مادة « مكك » ، شرح القاموس (٧/١٨٠) ، مادة « مك » .

(٣) شرح القاموس (١٠/٢٧٩) ، عمدة القارىء ١١/١٦٤) « كتاب البيوع » .

(٤) « يقال أعطاه قبضة من السويق أو من التمر ... وقوله تعالى : فقبضت قبضة من أثر الرسول . قال ابن جني : أراد من تراب أثر حافر فرس الرسول ... » ، شرح القاموس (٥/٧٤) .

(٥) اللاويون : الاصحاح الثاني ، الآية الثانية « كومة من ذهب وكومة من فضة » ، شرح القاموس (٩/٥٠٢) .

رومانية . وتبلغ ثلث «الايفة»[١]. وتعادل اثنين وعشرين ، Sextarii ،[٢]. وتستعمل في وزن المواد الجامدة مثل الحبوب .

وأما « الايفة Ephah » ، فكلمة مأخوذة من اللغة المصرية ، ترد كثيراً في العهد القديم . وهي تعادل ثلاثة كيلات . « Seah » . وتستعمل لقياس المواد الجافة فقط ، وتعادل كيلة سلطانية وسدس كيلة [٣]. وتقابل « Artabe » و « Metretes » عند اليونان ، وهي مجزأة الى عشرة أجزاء ، يقال للجزء الواحد « العمر ، عومير ، Omer‘ » ، أو « الكومة » . ويقال له « عشر Issaron‘ » أيضاً [٤]. وتقسم الى ستة أقسام كذلك يطلق على كل قسم اسم « سدس » [٥] .

وعرف ثلث « العومير Omer‘ » بـ « القاب Cab » وهو « الثمنية » ويقال له « Kabos, Cabos » في اليونانية . وتعني اللفظة « المجوف » في العبرانية [٦]. وليست له معايير ثابتة بالقياس الى العيارات الأخرى ، فقد وردت آراء متعددة في ذلك . وذكر علماء اللغة أن « القب » مكيال للغلّة [٧] . ولعلّ له صلة بـ « القاب » .

---

(١) التكوين ١٨ الآية ٦ ومتى الاصحاح الثالث عشر . الآية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٢/٢٨١) ، « والاسم : الكيلة والمكيلة والمكيال والكيل والمكيل . ما كيل به حديداً كان أو خشباً ... وكال الدراهم وزنها » ، شرح القاموس (٨/١٠٧) .

(٢) Hastings, P. 969.

(٣) الخروج ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٦ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨١) .

(٤) الخروج ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٦ ، الخروج ، الاصحاح التاسع والعشرون ، الآية ٤٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨١) ، Hastings. P. 969.

(٥) Hastings, P. 969

(٦) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨١) .

(٧) المصدر نفسه ص ٩٦٩ ، شرح القاموس (١/٤٣٠) .

وعرفت الكيلة التي تبلغ خمسة « ايفات » بـ « اللثك ، اللثق Lethek » . وذكر أنه نصف «الحومر» . وقد ذكر «افيفانيوس Epiphanius» أن «اللثك» هو « عومير 'Omer » « Gomor » كبير ، وأنه يعادل خمسة عشر « Modii » [١] .

أما الكيلة التي تعادل عشرة « ايفات » ، فقد عرفت بـ «حومر Homer ».و« imeru» في البابلية . وهي تعادل «Koros» عند اليونان[٢]. ولذلك عرفت بـ « كرّ Cor » كذلك . والظاهر أن للفظة « Cor » صلة بلفظة «Gur» و« Gurru » البابلية[٣]. وتعادل مئة « عومير » أو « لثكان » أو ثلاثين « Seah » أو عشرة « Metretai » أتيكي « Attic » [٤] .

أما المكاييل التي استعملها العبرانيون لوزن المائعات ، فنها : « اللّج Log » « الطست » . وقد ورد في « التلمود » أن « اللج » يساوي جزءاً من اثني عشر جزءاً من « الهين Hin » [٥] .

واستعمل « القاب Cab » الذي سبق أن تحدثت عنه في قياس المائعات كذلك ، وهو ثلاثة لجوج ، ويعادل ثلث « الهين » [٦] .

أما « الهين Hin » ، فيقال له « hein » في اليونانية . وقد أخذ من أصل مصري ، هو « هن Hen ».وقد وردت لفظة « الهين » في العهد القديم . ويستعمل لوزن المائعات .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٨١) ، Hastings, P. 969

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٨١) ، Shrader, S. 340. Hastings, P. 969,

(٣) Shrader, S. 340, 651. Hastings' P. 969

(٤) المصدر نفسه .

(٥) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٨١) ، Hastings, 969 ، « الطست » ، شرح القاموس (١/ ٥٦٣) .

(٦) المصدر نفسه .

وهو يعادل نصف « Seah » ، ويقسم الهين الى أنصاف ، فكل نصفين منها « هين » واحد ويقسم كذلك الى أثلاث ، وكل ثلث هو « قاب Cab » . ويقسم كذلك الى أرباع « Quarters » والى اسداس « Sixths » والى اثنى عشر جزءاً « Twelfths » ، وهو ال « اللج Log » [1] .

وهناك مكيال آخر يسمى « البث Bath » ، وهو عشر « الحومر » أو « الكرّ » أو ست « أهيان » [2] . ومكيال آخر يسمى « الكرّ » أو « الحومر » وهو عشر ابثات أو ايفات [3] . و « المطر Metrétes » وهو مكيال يوناني لوزن المائعات [4] . وذكر علماء اللغة ، أن الكر ، مكيال لأهل العراق ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . وذكر أنه ستة أوقار حمار ، وهو عند أهل العراق ستون قفيزاً . والقفيز ثمان مكاكيك . والمكوك صاع ونصف . وهو ثلاث كيلجات . وذكر الأزهري أنه اثنى عشر وسقاً ، كل وسق ستون صاعاً أو أربعون اردباً بحساب أهل مصر [5] .

واستعمل الجاهليون « الزق » ، وحدة عامة لوزن المائعات . فورد : « زق خمر »

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الملوك الأول الاصحاح السابع الآية ٢٦ ، وأخبار الأيام الثاني ، الاصحاح الثاني الآيه ١٠ ، وأشعياء الاصحاح الخامس ، الآية ١٠ ، وحزقيال الاصحاح الخامس والأربعين الآية ١٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨٢) ، Hastings, P 969 .

(٣) حزقيال ، الاصحاح الخامس والأربعين ، الآية ١٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨٢) .

(٤) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨٢) ، Hastings, P 669 .

(٥) شرح القاموس (٣/٥١٩) .

مثلاً . ويستعمل خاصة في الخمور [١] .

وأما الأوزان ، أي معرفة الخفة أو الثقل للأشياء التي يراد وزنها لمعرفة مقدارها، فقد كانت توزن بوضعها في احدى كفتي ميزان ووضع الأوزان في الكفة الثانية . وقد كانت للأوزان البابلية شهرة ، وعليها كان اعتماد العبرانيين .

وكان أصل الأوزان عند العبرانيين هو « الشاقل Shekel » ، وهو من أصل بابلي هو « Shiklu » و « Shekel » . وكانوا يقسمونه الى نصف وثلث وربع . ويقابله : « Siglos ، Siklos » . وهو « Shegel » في العبرانية ، من « شاقل Shàgal » بمعنى وزن « To Weigh » . ويتكون « الشاقل » الواحد من عشرين « جيرة Gerah » . و « الجيرة » هي « جيرو Giru » « Gur » في البابلية [٢] .

والميزان الآلة التي يوزن بها . وهي من « وزن » . ويقال وزنت الشيء وزناً وزنة، اتزنته ووزنته [٣] . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أجزاء الميزان ، والميزان الذي كان يستعمله الجاهليون لا يختلف عن الميزان المستعمل عند الشعوب الأخرى . ويقوم الوزن على أساس المعادلة بين الكفتين . والقسطاس : الميزان وهو رومي معرب . ويذكر العلماء أن القسطاس أقوم الموازين [٤] .

وأما « المن » ، منه ، Mina، Mnh « Maneh » و « Mna » . و « منا Mana » و « منو Manu » في البابلية ، فانه خمسة عشر شاقلا ، وعشرون شاقلا

---

(١) شرح القاموس (٦/٢٧١) ، مار اغناطيوس افرام الأول برصوم ، الالفاظ السريانية في المعاجم العربية (ص ٧٧) .

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٥) ، Hastings, P 970

(٣) المخصص (١٢/٢٦٣) .

(٤) المخصص (١٢/٢٦٣ وما بعدها) .

وخمسة وعشرون شاقلاً ، أي أنه ورد في ثلاثة أوزان . فعرف كل وزن من هذه الأوزان الثلاثة باسم « من » [١] . وهو من الأكيال المعروفة عند العرب . وقد قالوا له « المن » و « المنا » . والجمع امنان . وقد ذكر علماء اللغة ، أنه كيل أو ميزان وهو رطلان [٢] .

وأما الرطل ، فانه في مقابل « Libra » عند الروم . والرطلُ قدر نصف من. وهو من الأوزان المعروفـــة عند الجاهليين . وذكر أن الرطل الجاهلي هو ضعف الرطل الاسلامي ، وقد اختلف وزنه عند المسلمين باختلاف الأماكن والمواضع والناس [٣] .

والفالج والفلج مكيال ضخم ، وقيل هو القفيز . وذكر علماء اللغة أن أصله « فالغا » بالسريانية . وأما « الطسق » ، فانه مكيل . والمدّ ربع الصاع ، والمحفد هو شيء يعلف فيه ، وقيل مكيال يكال به . والخَـطْـر مكيال لأهل الشام . والفرق مكيال ضخم لأهل المدينة ، وهو أربعة أرباع . وأما « المكاكيك » فمكاييل لأهل العراق ، واحدها مكوك .

والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة، والجريب من الأرض قدر ما يزرع فيه ذلك [٤] .

وهنالك « الوزنة Talent » ، وتساوي ثلاثة آلاف شاقل عند العبرانيين كما ورد ذلك في التوراة [٥] .

ويقال لنصف « الشاقل » « بقه Beka » [٦] .

والقنطار وزن أربعين أوقيـة من ذهب ، وقيل ألف ومئتا دينار ، وقيـل ألف

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٧٥) .
Hastings, P. 970 Shrader, Keil. und das alte Testment, S. 338

(٢) شرح القاموس (٩/ ٢٥٠) . (٧/ ١٨٠) ، برصوم (ص ١٧١) .

(٣) Ency. Islam, III, P. 1129.

(٤) المخصص (١٢/ ٢٦٤ وما بعدها) ، برصوم (ص ١٣٦) .

(٥) صموئيل الثاني ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٤٧٥) ،
Hastings, P. 970. f.

(٦) Hastings, P. 971.

ومئتا أُوقية ، وقيل سبعون ألف دينار ، وقيل ثمانون ألف درهم ، وقيل مئة رطل من ذهب أو فضة . وزعم بعض علماء اللغة أنه سرياني ، وزعم آخرون أنه عربي . والنواة من العدد عشرون ، وقيل هي الأوقيـــة من الذهب ، وقيل أربعة دنانير . والبهار ست مئة رطل ، وقيل أربع مئة رطل [1] .

والقنطار من الأوزان المعروفة عند الرومان، وهو « Centenarius » في اللاتينية، ويقابل « Zentner » في الألمانيـة و « Hundredweight » في الانكليزية [2] .

وقد ذكر في الآية : « ومن أهل الـكتاب مَنْ أن تأمنه بقنطار يؤده لك ، ومنهم مَنْ إن تأمَنْهُ بدينـــار لايؤدِّهِ اليك الا ما دمت عليه قائماً » [3] وفي الآيــة : « وآتيتم إحـــداهن قنطاراً » [4] وورد : « والقنـــاطير المقنطرة من الذهب والفضة » [5] . وفي الإشارة الى القنطار في القرآن الـكريم دلالة على استعماله في الحجاز وربما في أماكن أخرى من جزيرة العرب كذلك .

والقناطير جمع قنطار. ومعنى القناطير المقنطرة : المال الـكثير من الذهب والفضة ، والمال الـكثير بعضه على بعض . ويظهر من اختلاف المفسرين وسائر العلماء في مقدار القنطـار أن العرب لاتحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن ، ولـكنها تقول هو قـدر ووزن ، لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندها لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف [6] .

---

(١) المخصص (١٢/٢٦٦) .

(٢) Ency. of Islam, II, P. 1022

(٣) آل عمران : الآية ٧٥ .

(٤) النساء : الآية ١٩ .

(٥) آل عمران : الآية ١٤ .

(٦) تفسير الطبري (٣/١٣٥) ، « طبعة بولاق » .

وقد ذكر بعض علماء اللغة اسم مكيال من مكاييل أهل اليمن دعوه « الذهب »، ويجمع على أذهاب (١).

وقد جاءت في كتب الحديث والفقه وكتب اللغة أسماء بعض العيارات والموازين التي كان يستعملها العرب عند ظهور الإسلام. ويظهر من هذه الكتب أن هذه العيارات والموازين كانت تختلف باختلاف المواضع، وإن اتفقت في الأسماء. فبين مكة والمدينة مثلاً اختلاف في تقدير العيارات في بعض الأحيان. كذلك اختلف العرب في وزن الأشياء في بعض الأحيان، فقد ذكر أن أهل المدينة كانوا يكيلون التمر، وهو يوزن في كثير من الأمصار. ثم إن بعض المواد تكال وتوزن، فالسمن يكال في بعض الأماكن، ويوزن في أماكن أخرى، ويكال ويوزن في آن واحد في أماكن غيرها (٢). وقد ورد في الحديث: الوزن وزن أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة (٣).

والصاع من المكاييل التي كان يستعملها أهل الحجاز عند ظهور الاسلام. وقد عرف خاصة عند أهل المدينة. ويأخذ أربعة أمداد. وهو يأخذ من الحبّ قدر ثلثي الصاع في بعض الأماكن، وعند أهل الكوفة عيار الصاع أربعة امناء والمدّ ربعه (٤). والصوع الإناء الذي يشرب به (٥). وكان لأهل المدينة صيعان مختلفة. وقد ورد

(١) المخصص (١٢/٢٦١).

(٢) التاج (٨/١٠٧).

(٣) جامع الأصول (١/٣٧١).

(٤) اللسان (١٠/٨٢)، « صاع المدينة اصغر الصيعان »، « وصاع النبي »، « صاع عمر ابن الخطاب »، عمدة القاري، (١١/٢٤٧ وما بعدها). « كان الصاع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مداً وثلثاً بمدكم اليوم. وقد زيد فيه في زمن عمر بن عبد العزيز »، جامع الأصول (١/٣٧٢).

(٥) المخصص (١٢/٢٦٤).

في كتب الحديث والفقه : صاع النبي وصاع عمر [1] . والقسط : مكيال يسع نصف صاع . والفرق ستة أقساط . وقال المبرد : القسط أربعمائة وأحد وثمانون درهماً . وقد ذكر القسط في كتب الحديث [2] .

والمُدّ [3] مكيال ، وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملء كفي الانسان المعتدل ، إذا ملأهما ومدّ يده بهما ، وبه سُمّي مداً [4] .

والأوقية من الأوزان التي كانت مستعملة في الجاهلية كذلك . وقد اختلف العلماء في ضبط وزنها وتعيين مقداره . فقال بعضهم : هي سبعة مثاقيل ، وأنها أربعون درهماً . وقال بعض آخر : هي أربعون درهماً ، والنش عشرون . وقد ورد في الحديث: ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة [5] .

والوسق من المكاييل التي كان يستعملها العرب قبل الاسلام كذلك . قيل : هو ستون صاعاً بصاع النبي ، وهو خمسة أرطال وثلث . وقيل : هو حمل بعير . وقيل :

---

(١) عمدة القاري (١١/٢٤٧ وما بعدها) ، « الصاع والصواع (بالكسر وبالضم والصوع بالفتح ويضم) كلهن لغات في الصاع الذي يكال به ، وتدور عليه أحكام المسلمين . وقرىء بهن .. وهو أربعة أمداد كما في الصحاح . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ، ويتوضأ بالمد ... معياره الذي لا يختلف فيه أربع حفنات بكفي الرجل الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما ، إذ ليس كل مكان يوجد فيه صاع النبي ، صلى الله عليه وسلم .. والذي في اللسان : أن صاع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الذي بالمدينة أربعة امداد بمدهم المعروف عندهم » ، شرح القاموس (٥/٤٣٣) .

(٢) شرح القاموس (٥/٣٠٥) .

(٣) بالضم .

(٤) القاموس (١/٣٣٧) ، شرح القاموس (٢/٤٩٨) .

(٥) شرح القاموس (١٠/٣٩٦) .

الوسق مئة وستون منـاً . وقال الزجاج : خمسة أوسق هي خمسة عشر قفيزاً . وكل وسق بالملجم هو ثلاثة أقفزة . وقيل : إن الوسق ستون صاعاً . وهو ثلاث مئة رطل وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز . وأربع مئة رطل وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد . والأصل في الوسق الحمل . وقد روي أنه ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة . وقيل : الوسق العِدْلُ ، وقيل : العدلان ، وقيل هو الحمل عامة [1] .

واستعملوا الحمل كيلا كذلك . وقد رأينا أن بعضهم عرف الوسق بأنه عدل ، أو عدلان . وهو مقدار ما يحمله الحيوان . وبهذا المعنى وردت لفظة « الوقر » وتطلق على حمل البغل أو الحمار أو البعير [2] ، فهو شيء تقديري غير مضبوط تماماً .

والقفيز من المقاييس العربية القديمة المستعملة لتقدير كميات الأشياء الجامدة . ويتسع لنحو عشرة « غالونات » . وقد كان الجاهليون يستعملون المكاييل في الغالب لقياس الجوامد والمائعات على حد سواء . وذلك كما يتبين من دراسة أسماء المعايير بالقياس الى المعايير المستعملة عند الرومان واليونان . وكما يتبين من مراجعة معجمات اللغة ، حيث تذكر المقياس في قياس الجوامد أحياناً وفي قياس المائعات أحياناً أخرى . وكما يتبين من عدم تفريق بعض اللغويين بين الوزن والكيل . وقد ذكر علماء اللغة أن كل ما لزمه اسم المختوم والقفيز والمكوك والمدّ والصاع ، فهو كيل . وكل ما لزمه اسم الأرطال والأواقي والأمناء فهو وزن [3] .

---

(١) اللسان (١٢/٢٥٨) مادة « وسق » ، المخصص (١٢/٢٦٠ وما بعدها) .

(٢) اللسان (١٢/٢٥٨) ، المخصص (٢ / ٢٦٠) .

(٣) اللسان (١٤/١٢٥ وما بعدها)

وقد أهمل استعمال القفيز في أكثر البلاد العربية فيما عدا تونس . ويلاحظ أن أهل صقلية يستعملون القفيز حتى اليوم في وزن الزيوت . ويطلقون عليه (Cafiso) و (Cafisone) . أما أهل اسبانية ، فيكيلون به القمح ويسمونه (Cahiz) واذا أرادوا جمعه قالوا (Cahices) [1] .

ويلاحظ أن نص « أبرهة » الموضوع على سد مأرب ، لم يدون اسم أي عيار أو كيلة ، وإنما اكتفى بذكر العدد واسم المادة ، فبعد أن كتب الكاتب جملة : « وبلغ ما صرفوه وأنفقوه على الأعمال من اليوم الذي بدأوا به لغزوهم وتقديس البيعة وبناء السد والجدار » انتقل الى ذكر مقدار ما صرف وأنفق ، فقال : وبلغ ما صرف « ٥٠٨٠٦ دقيق و ٢٦٠٠٠ تمر تقدمة من « يدع ايل » و ٣٠٠٠ طبيخة وذبائح من بقر وماشية صغيرة ٢٠٠٠٠٧ و ٣٠٠ جمل من شراب الغربيب والزبيب وأحد عشر ألف ... من ستي التمر » [2] . فلم يشر الى لفظة وسق ، أو كيس ، أو كيلة ، أو زق ، أو ما شابه ذلك مما يستعمل في الكيل أو الوزن . ولكن هذا الإهمال لا يدل بالطبع على عدم وجود المقاييس عندهم ، وإنما قد يكون أسلوباً من أساليب التعبير كان مفهوماً عند الناس في ذلك الزمان .

واشارة النص الى ما صرف بذكره عدداً ، دليل على أن المراد بذلك كيل معين ووزن خاص معروف عند الناس في ذلك العهد ، وإلا لم يتعب كاتب النص نفسه بذكر مقدار ما صرف بالأرقام وبوجه مضبوط معين . وكيف يورد صاحب النص

---

(١) Ency. Islam, II, P. 622. ، برصوم (ص ٢٦٥) .

(٢) راجع الأسطر من ١١٨ فما بعد .

مقدار ما صرف من دقيق أو تمر أو شراب ، أو زبيب مضبوطاً ومعيناً بالعدد ، إذا لم يكن المعدود شيئاً معروفاً ثابتاً عند الناس .

وقد عثر على عدد من قطع الأوزان المصنوعة من الحديد وبعضها من برونز ، وقد استعملت في وزن الأشياء . وقد تأثر بعضها بالعوارض ولعبت الأيدي ببعض آخر . فقد كان الناس مثل اليوم يستعملون الموازين والعيارات في وزن الأشياء . ونأسف على عدم وقوفنا وقوفاً تاماً على أسماء الأوزان ومقدار ثقلها ، لعدم وصول عدد كاف منها الينا عليه كتابة تشير الى اسمه ومقدار وزنه ، ولعل الأيام تجود علينا منها بما يحقق لنا هذه المعرفة .

وقد تحدثت عن المقاييس الصغيرة التي استعملت في قياس الأبعاد مثل الاصبع والكف والشبر والذراع . والذراع هي المقياس الاساس الذي استعمل في قياس الأبعاد وفي قياس المساحات ، مثل مساحات أرض . ومزرعة وما شابه ذلك . وهي معروفة عند كل الأمم . وقد استخدمت في تقدير أبعاد الأعماق ، كما استخدمت القامة في قياس الاعماق بصورة خاصة .

وقد استخدم العرب مصطلحات خاصة في تقدير المسافات والأبعاد ، ولا سيما في الأسفار . فاستعملوا مصطلح « مسيرة ساعة » ومسيرة ليلة ومسيرة نهار ومسيرة قافلة وأمثال ذلك . وقصدوا بذلك معدل ما يقطعه الانسان والقافلة في المدد المذكورة .

واستعمل العرب الفرسخ في قياس الأبعاد كذلك . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الفرسخ ساعة من النهار . وقال بعض آخر إنه المسافة المعلومة . وهو ثلاثة أميال هاشمية أو ستة أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع . واللفظة من الكلمات المعربة ، وهى « Frasang » في الفهلوية . وقد أشير الى هذا المقياس الفارسي في بعض مؤلفات الكتبة اليونان مثل « هيرودوتس » و « كسينوفون Xenophon » . وهو

« Farsang » في الفارسية الحديثة . و « Prasakhä » في لغة بني ارم [١] .

وأما الميل ، فهو كذلك من مقاييس الأبعاد المعروفة عندالعرب . وقد اختلف أيضاً في مقداره ، فقيل إنه ثلث الفرسخ ، وقيل إنه ثلاثة آلاف ذراع أوأربعة آلاف ، وقيل أربعة آلاف خطوة ، كل خطوة ثلاثة أقدام . وقيل انه سدس الفرسخ [٢] . وهو من الألفاظ المعربة كذلك ، من أصل « Miloin » [٣] . وذكر علماء اللغة أن الميل هو منار يبني للمسافر في انشاز الأرض ، وأنه أيضاً الأعلام المبنية على الطرق لهداية الناس [٤] . واستعملت « القصبة » قياساً للأبعاد كذلك ، وهي ست أذرع عند العبرانيين . وتسمى قصبة تامة [٥] . وهي من أصل « Kas. Pu » في البابلية ، ومعناها ساعتان ، أي مسيرة تقطع في ساعتين . وورد « Kas. Pu Kakkari » في النصوص البابلية . ويراد بالجملة : ما يقابل « قصبة أرض » أو « ميل أرض » [٦] .

وفي البابلية لفظة « Kanü » ، ومعناها قصبة . و « قنى » في العربية ، وهي مقياس يقابل ست أذرع . وقد عرف أيضاً عند العبرانيين [٧] .

---

(١) شرح القاموس (٢/٢٢٣) ، معجم البلدان (١/٣٥) ، « الباب الثالث » ،
Ency. Islam, II, P. 70, Horn, Grundr. der Iran. Philolo., I, 127.

(٢) شرح القاموس (٨/١٢٣) ، معجم البلدان (١/٣٦) .

(٣) Hastings, P. 968.

(٤) شرح القاموس (٨/١٢٣) .

(٥) قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٢) .

(٦) Shrader, S. 339.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٢٩ .

الفهرست

الصفحة

الصفحة

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الصحفة

الصحفة

الصحفة

الصحفة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الصفحة

الصفحة